عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الطفولة في التاريخ العالمي

تأليف: بيتر ن. ستيرنز
ترجمة: وفيق فائق كريشات



عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

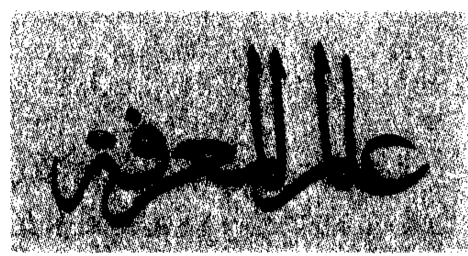
صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

الطفولة في التاريخ العالمي

تأليف: بيتر ن. ستيرنز
ترجمة: وفيق فائق كريشات



سبتمبر 2015
428



ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص . ب : 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22431704 (965)
فاكس : 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 462 - 1

رقم الإيداع (2015/619)

العنوان الأصلي للكتاب

Childhood In World History

By

Peter N. Stearns

Routledge, U.K. 2011

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ذو القعدة 1436 هـ - سبتمبر 2015

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

تصدير

يسرني أن أضع تصديرا لهذه الطبعة الجديدة معدلا، أستبقي فيه بعض التعليقات التي رافقت الكتاب في أول أمره. وإني لمغتبط، بالطبع، لما ناله الكتاب من قبول حسن يبرر هذا الجهد الجديد.

يشهد تاريخ الأطفال والطفولة اتساعا سريعا، بيد أن ربطه بسياق من التاريخ العالمي ربطا مباشرا لايزال أمرا غير معهود على نحو ما. وعلى ما أراه، تُقدم العلاقة بين الاثنين عونا على فهم التاريخ العالمي والطفولة معا، ويسعدني أن تنامي جهود التدريس والبحث يعكس صورة هذه الصلة إلى حد ما. والمرجو من هذه الطبعة أن تسهم في مزيد من هذا الاتساع من جهتي النطاق والاستقصاء.

منذ بضع سنين ناقشت إمكان أن أسهم بعمل في الطفولة ضمن سلسلة مواضيع في التاريخ العالمي، لكن ذلك التحدي تبدى في أول الأمر كبيرا على نحو مبالغ فيه. فالموضوع

«يشهد تاريخ الأطفال والطفولة اتساعا سريعا، بيد أن ربطه بسياق من التاريخ العالمي ربطا مباشرا لايزال أمرا غير معهود على نحو ما»

ضخـم، والمعرفة التاريخية المتاحة لاتزال فيها ثغـرات عظيمة. ومع أن الموقف قد تحســن قليلا في السنوات الأربع الأخيرة، لاسيما بما صدر من أعمال عن الصين وعن عمالـة الأطفـال بوصفها موضوعا عالمـي النطاق، فإنه لايزال هنـاك قدر كبير من التحـدي. بيد أن أهمية الطفولة بوصفها جزءا من التجربة الإنسـانية، وهي لذلك جـزء من التاريخ العالمي، جعـل التخلي عن الهدف أمرا محـالا. لكثير من العلماء ديون في عنقي عظيمة، وأكثرهم لست أعرفه شخصيا، وذلك لعملهم الريادي الذي كانــت له غاية الأهمية في جعل هذا الكتــاب ممكنا. أما الذين أعرفهم فهم بروس مازليــش وريموند غرو وبين كارتن وبولا فاس وبراين بلات، فالعمل الذي حثوا على القيام به في موضوع الطفولة والعولمة كان ذا إسهام مباشر جدا، كما أتقدم بالشكر إلى بضعــة مؤرخين وأنثروبولوجيين شــاركوا في مؤتمر ذي صلــة بالموضوع عُقد هنا في جامعة جورج ميســن. وهناك ثلاثة من القــراء قدموا اقتراحات كانت عونا على إصــدار الطبعة الجديدة، وأولئك هم: بولا فاس وهايدي موريســن وكولن هيوود. اســتولَدَ كل من جون فراغاشي وكليو ســتيرنز وإيرني بورتا قدرا واســعا من المعونة البحثية، وكانت لجهودهم ســمتان هما الجد وسعة الخيال. وكما هو دأب لورا بِل، فقد تجاوزت الحد في تلبيتها لنداء الواجب عند إعداد المخطوط للطبعة الثانية. كما أنني أقدم شــكري الجزيل لفيكي بيترز من روتليدج، لعظيم ما بذلته في سبيل هذا الكتاب وفي سبيل سلسلة روتليدج.

كانت لي رغبة عميقة في أن يكون لي أطفال من صلبي، وذلك مذ كنت في الثانوية على أقرب تقدير (وإن لم أباشر العمل على هذه الرغبة من فوري حينذاك). لم أجد التجربة مخيبة قط، ولذلك فإني أشكر أطفالي الأربعة لما كان لهم من إسهام في حيــاتي، وفي هذا الكتاب من نواحٍ شــتى؛ والأحفاد الثلاثــة (وقد ولد منهم اثنان بعــد الطبعة الأولى) لتذكيري مرة أخرى كيف يمكن لمراحل الطفولة أن تكون مثيرة للاهتمام.

1

المقدمة:
الطفولة في التاريخ العالمي

«إن الطفولة هي مفتاح فريد للتجربة البشرية الأوسع نطاقا، من الماضي التاريخي حتى الحاضر العالمي».

إن ممارسة قَمْط المواليد - أعني لف أجسادهم وأطرافهم لفا شديدا بالنُطُق أو بالقماش - قد بُدئ بها، على ما يظهر، في وسط آسيا منذ نحو 4000 سنة. من الراجح جدا أن هذه الممارسة كانت منطقية للأقوام الذين كانوا في نقلة إلى اقتصاد الارتحال القائم على رعاية القطعان فاحتاجوا إلى التمكن من نقل الأطفال بسهولة. انتشرت هذه الممارسة بالتدريج - لما للأقوام الرحّل في وسط آسيا من اتصالات تجارية مباشرة كثيرة بالمجتمعات الأخرى في أوراسيا - كما أنها ابتُكرت في قارتي أميركا ابتكارا مستقلا. اعتقد كثير من الوالدين أن في هذه الممارسة منفعة للأطفال - كأن تقوّي الوقفة السوية - وأنها ذات مزية عظيمة إذ تحفظ على المواليد سلامتهم بينما الوالدون يعملون بالقرب منهم. من ناحية أخرى، لم يمكن لبعض المجتمعات – لا سيما

ما يقوم منها في المناخات المدارية - اللجوء إلى القمط خوفا على الطفل من شدة الحـرارة. في كثير من أرجاء أفريقيا، كانت الأمهات (ولايزلن) يحملن الأطفال في قماش(*) غير مشـدود يربطنه بأجسـادهن، وهن يقمن بأعمالهن؛ يعتقد كثير من الناس أن هذه الطريقة تأتي للطفل الصغير بالراحة على نحو خاص. في غربي أوروبـا، ابتدأت الهجمات على القمط من القرن السـابع عشر وظلت تتعاظم بعد ذلك، ودارت حوله الحجج القائلة إن القمط يقيد الطفل تقييدا لا مبرر له ويعوق التطور الفردي الإبداعي. (سنرى أيضا أن النسخة الأوروبية الغربية من القمط كانت قد أصبحت قاسية على نحو خاص، إذا ما قيست بما عند كثير من المجتمعات التي تمارسه). تُركت هذه الممارسة على نحو متزايد، وأخذ الغربيون في الهجوم على ممارسات القمط في المجتمعات الأخرى وفي الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم لما رأوا فيه من ابتعاد عن الرعاية الحديثة.

في يومنـا هذا، لايزال القمط يمارَس ممارسـة واسـعة في أماكن مثل الصين وتركيا وغيرهما من أرجاء الشرق الأوسط وروسيا، وفي كثير من الأحيان يستعمل ما يزيد على 90 في المائة من الوالدين جميعا هذا الأسـلوب لبضعة أشـهر على أقـل تقدير. ولايزال القمـط يهاجَم. يعتقد بعض الأطبـاء أن القمط يزيد من الوفيات بالأمراض التنفسية لما فيه من حدٍّ للحركة. كما حاجج بعض النقاد بأن القمط يحدث شـخصيات اتكالية بيد أنهـا عاطفية جدا أيضا، ويطلقون أحيانا تعميمات تَصِم جماعات بشرية بأكملها بأوجه من النقص تأسيسا على ما ذكرنا. ومـع ذلك فإن للقمط أيضا منافحين عنه حديثين. فقد حظيت هذه الممارسـة بالقبول في أماكن مثل هولندا، إذ رجع بعض الوالدين إليها محاججين بأنها تريح الأطفال وتقلل من بكائهم (وتقلل، بسـبب ذلك، ما يبديه الراشدون من ردود فعل عدوانية على البكاء).

إن القمـط هو إحدى المقدمـات الممكنة الكثيرة التي يقدَّم بهـا لأهمية التاريخ العالمي في دراسـة الطفولة. ففيه بيان لما في المقارنـات التاريخية العالمية النطاق من

(*) يُطلق عليه في بعض أنحاء سـورية «الشـقبان»، وهو قطعة من القماش تبسطها الأم على ظهرها لحمل طفلها داخلها، فتعقد جانبا منها حول خصْرها وتعقد الجانب الآخر على صدرها، وقد رفعت أحد طرفيه فوق كتف ودسّت الطرف الآخر تحت الإبط المقابل؛ وهذا اللفظ قريب من لفظ "شـوقبان" الذي جاء فيه في لسـان العرب: الشوقبان هما خشبتا القتب اللتان تعلق بهما الحبال. [المترجم].

مغزى، وتعقيدٍ أيضا - لقد سلكت المجتمعات المختلفة مسالك في الماضي مختلفة جدا، فقبِـل بعضها القمط ورفضه بعضها فعليا، فكان في التفاوتات تعريف لتجارب طفولة مختلفة جدا. من الجلي أن القمط يصل بين الحاضر والماضي - هاهنا ممارسـة فعلية مـرت عليهـا قرون كثيرة. إنه يبـيّن أهمية الروابط بين مختلـف الأقاليم - كان للقوم الرحّل يدٌ في نشر القمط في الأنحاء الأخرى من آسيا وأوروبا، بيد أن الارتباطات الأكثر حداثـة قد أعلت أيضا من شـأن الانتقادات التي تكيلها لممارسـات أحد المجتمعات مجتمعاتٌ أخرى تزعم أنها أرقى معرفة بما للأطفال من حاجة. إن القمط، وهو طريقة أساسـية جدا من طرق رعايـة الأطفال الصغار التي يتبعها الراشـدون المضطرون إلى العمل، يضع الطفولة وضعا مباشرا في سيرورات التغيير والتنوع والصلات البينية عالمية النطاق. إن تنشـئة الأطفال وعيش حال الطفولة هما تجربتان من التجارب الشخصية العميقة، بيد أن لفعلهما سياقا جغرافيا وتاريخيا أوسع نطاقا مما ندركه أحيانا.

كل المجتمعات التي شـهدها التاريخ البشري، وكذلـك أكثر الأسر، قد تعاملت مع الطفولة والأطفال على نحو واسـع. هاهنا سمات معيارية كثيرة، لا شأن للزمان والمكان بها. فمن الواجب، دائما وفي كل مكان، أن يعطى الأطفال شيئا من التمرين يعدّهم للرشـد. من الواجب أن يتعلموا التعامل مع مشاعر معلومة، مثل الغضب والخوف، على نحـو مقبول اجتماعيا. دائما وفي كل مكان، وبالنظر إلى طول المرحلة التـي تمر على المولود من النوع البشري وهو بلا حـول، يحتاج الأطفال الصغار إلى ترتيبات بشـأن التغذية والرعاية البدنية. إن أمراض الطفولة، أو السعي إلى منعها، وكذلـك منع الحـوادث الممكنة، تمثل انشـغالات الوالدين منذ قديـم الزمان وإلى الزمان الحاضر. وعلى ما يظهر، فإن عملية التعامل مع الطفولة قد اشتملت في جزء منها على نوع من التنشئة الاجتماعية لدور كلٍّ من الجنسين، حتى في أشد الأوساط المعاصرة نزوعا إلى المساواة. وقائمة السمات الأساسية المشتركة طويلة.

يلحـظ البيولوجيون عند النوع البشري حاجات خاصة لتنشـئة الأطفال. بمجرد أن تُفطم صغار الشيمبانزي وسواها من القردة العليا عن حليب الأم في نحو السنة الثالثة حتى تنشأ لها أسنان البلوغ. إنها بالغة، من جهتي التقاط الغذاء ومعالجته. بـإزاء ذلـك، لا يحظى أطفال البشر بأسـنان البلوغ إلا في السـابعة أو بعدها، بعد طول عهد من الفطام. فهم يتطلبون سـنين أخرى من رعاية الراشدين لهم من جهة

الحصول على الغذاء. هاهنا سمة مهمة من سمات الطفولة في المجتمعات البشرية، في كل زمان وكل مكان.

وفـق ما يوحي به مثال القمط، يمكن للطفولات أن تتفاوت تفاوتا مذهلا وفق المجتمع والزمان. تسـلّم بعض المجتمعات بأن من السوي لأكثر الأطفال الصغار أن يعملوا، عملا فيه مشقة في كثير من الأحيان. مجتمعات أخرى تصعق لهذا النوع من الانتهاك لبراءة الطفولة وضعفهـا. بعض المجتمعات تذهب إلى أنه يجدر بالأطفال أن يكونـوا سـعداء. وغيرها قد يرى في هذه الفكرة العامة أمـرا غريبا جدا، وإن لم يذهب إلى القول بالطفولات غير السـعيدة. بعض المجتمعات تسلّم بأن مآل نسبة كبـيرة من الأطفال الصغار هو إلى الموت، وتنظم جـزءا كبيرا من مقاربتها للطفولة حول هذه الحقيقة، ومن ذلك الطريقة التي بها يناقش الأطفالَ في أمر الموت. غيرها يعمـل بجد ليمنع الموت عن الأطفـال. بعض المجتمعات تـرى في الرضّع جاذبية؛ وغيرها يؤكد الشبه بينهم وبين الحيوان. بعض المجتمعات تستعمل التأديب البدني للأطفال اسـتعمالا روتينيا؛ غيرها تصعقه هذه الطـرق: لقد هال الهنودَ الأمريكيين في القرن السـابع عـشر صفعُ المهاجريـن الأوروبيين لأطفالهم. بعـض المجتمعات تسـلّم بأن الطفولة تـأتي إلى خاتمتها بالحُلُم أو نحوه، وما أكـثر الأمثلة على ابتداء الملوك والفاتحين العظماء، مثل الإسـكندر الأكبر، أعمالهم في وسط مرحلة المراهقة (العشارية)(*). بيد أن مجتمعات غيرها تحدد سن الرشد بعد أمد طويل مما ذكرنا، وتخـترع تصنيفات، مثـل المراهقة، وكل مرادها هو الإصرار عـلى أن الذين جاوزوا الحُلُـم لما يزالوا أطفالا بوجه من الوجـوه. وقائمة التفاوتات والتغيرات الكبرى التي توجد في السمات الأساسية للطفولة قائمة طويلة.

يمثّل الحُلُم Puberty طريقة مخصوصة يركّز فيها النظر على التوترات بين أوجه الاتفـاق والاختلاف في الطفولـة في أرجاء العالم. كل الأطفال الذين يسـلمون حتى يبلغوا المراهقة (المرحلة العشارية) يمرون بمرحلة الحُلُم، فينالون القدرة على التكاثر. يتعين على المجتمعات والأسر جميعا، بالأمارة نفسـها، أن تميز الحُلُم فتضع إرشـادا (أو تنظيما) لأنواع السلوك بعد الحُلُم. ولما كان هذا الإرشاد يعدّ له قبل الحُلُم، فإنه

(*) العُشاريات أو المرحلة العُشارية: هو مصطلح يُستخدم للدلالة على السنوات الممتدة بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة من العمر، ويطلق عليه بالإنجليزية the teen years. [المترجم].

يجعل من الطفولة بعد الحُلم غير ما هي قبله. يكاد يكون لجميع المجتمعات سبيل مـا لتعليم حـدود المرحلة من العمر التي يُعهد فيها للأطفـال أن يبلغوا الحُلم. (في الولايات المتحدة، المكانة المنفصلة التي تُعطاها المدرسـة المتوسطة هي سبيل لفرز الحُلـم عما يتقدمـه من الطفولة وعن المراهقة التامة؛ صممت المدارس المتوسـطة للاعـتراف بأمور مختلفـة منها أن الأطفال الذيـن يجوزون الحُلم يمـرون في أثنائه بتجـارب وقضايا مميزة). وعليه، فإن في الحُلم وتجربته الشـائعة كثيرا مما يُشـترك فيه. ولكن لنفكر في الاختلافات أيضا: أولا، يتفاوت متوسـط سـن الحُلم تفاوتا كبيرا وفـق المجتمعات (فهو أكثر انخفاضا في المناخات الحارة وكذلك حيث الغذاء وافر). ولكـن، بالأمارة نفسـها، قد يتغير مع الزمان؛ يأتي الحُلم اليـوم، في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، قبل أوانه الذي كان منذ 200 سـنة بأربع سنين (أو تزيد، على نحو وسـطي). بعض المجتمعات يعدّ الناس راشـدين، فعليا، متى أكملوا الحُلم. وفي كثير من المجتمعات يشيع التزويج في سن الحُلم، لاسيما للبنات. ومجتمعات أخرى، مثل مجتمعاتنا في الغرب المعاصر، لاتزال تعيّن للطفولة مرحلة مديدة. بعض المجتمعات يتخـذ شـعائر خاصة للحلـم؛ وغيرها، مثل مجتمعاتنـا (وإذا نحينـا جانبا علامات تثبيت العماد الدينية)، يميل إلى الحط من شأن الجوانب الشعائرية، ولعل مرد هذا مـن بعض وجوهه إلى القلق مـن عواقب الحُلم عند من لما يزالـوا يعدّون أطفالا. التفاوتات، وكذلك التغيرات الممكنة مع الزمان، مثيرة للانتباه.

الطفولة في الدراسة التاريخية

على هذا النحو، تشـتمل أهم سـمات الطفولة، ومنها الحُلم، على تفاعل معقد بين الجوانب البيولوجية الأساسية للتجربة البشرية - مثل النضج الجنسي - وحقيقة أن المجتمعـات المختلفة تعالج هذه الجوانب معالجـة متفاوتة جدا. هاهنا يأخذ التاريخ مكانه: إن معرفة السـبب في تطويـر المجتمعات المختلفة لمقاربات مميزة، واقـتران ذلك بوضع خريطة تبـين كيف تتطور المجتمعات مـع الزمان، هو عنصر حيوي من عناصر معرفة الطفولة وما تعنيه.

يفتـح تاريخ الطفولـة نوافذ مهمة في التجربـة الماضية: لكل مـن الأطفال، والراشـدين الذين يتعاملون مع الأطفال، والهيئات الاجتماعية العريضة. إنه يأتي

ببصيرة نفاذة إلى الطفولة في يومنا هذا، إذ يبيّن كيف انتقلت من الصيغ الباكرة إلى الأنساق الراهنة - وهذا أمر مهم على نحو مخصوص مع معدل التسارع الكبير في تفسير الطفولة، كما حدث في القرنين المنصرمين. وأخيرا، فإن وضع الموضوع في إطار عالمي النطاق يفسح في المجال لتحليلٍ مقارنٍ لكل من الماضي والحاضر، ولاستقصاءٍ حيوي للصلات بين الحاضر والماضي. تُصارع المجتمعات المعاصرة صورا شائعة للتغيير - ومثال ذلك ما يحدث في أثناء تعديل أحوالها وفقا للمطالب الجديدة للتعليم المدرسي - بيد أنها تفعل ذلك في غمرة تقاليد وفرص متنوعة.

في الحين نفسه، تواجه التواريخ الجادة للطفولة بضعة قيود مهمة. الذي يتركه الأطفال من سجلات مباشرة قليل نسبيا. الناس يتذكرون طفولاتهم، والراشدون يكتبون عن الأطفال، وهناك أيضا الصُنعيات المادية - ومنها المهود والدمى وما شاكلها، علما بأن هذه الأشياء أيضا من المعهود أن يدبرها وسطاء راشدون. بالأمارة نفسها ، فإن التعامل مع الطفولة من الوجه التاريخي أسهل من التعامل مع الأطفال، والسبب في ذلك هو أن الطفولة يحددها من بعض وجوهها الراشدون ومؤسساتهم. ولكن يصعب الإمساك بأطفال الزمان الماضي. من العسير أن نعرف كيف يجد الأطفال اليوم تجربة العمل والتعليم المدرسي، فما بالك بالسنوات الماضية. ما وجه الاختلاف بين الأطفال الذين اعتادوا أن يشهدوا وفاة بضعة إخوة أو أخوات، والأطفال الذين لا يتعدى احتكاكُهم بالموت فقدانَ جد أو جدة؟ السؤال واضح وذو مغزى من الوجهة التاريخية، بيد أن الجواب ليس جليّا البتة. بل إن أفكار الراشدين بشأن الطفولة لا يسهل الحصول عليها دائما، فتدبير أمر الطفولة قد يكون في واقع الحال أمرا شخصيا جدا. من المعهود أن نعرف ما تفكر فيه المجتمعات فيما يخص الطفولة رسميا - تعكس القوانين صورة هذا الاعتقاد مع غيره من الأشياء - بيد أنه أشد عسرا أن نعرف الاعتقاد الفعلي الذي يحمله الوالدون إذا ما أُخذوا كجماعات فعلية أو أن نعرف كيف يكون فعلهم وفق اعتقاداتهم. هاهنا مثال على الأمر الأخير: في ستينيات القرن العشرين رأت 80 بالمائة أو تزيد من الأمهات الألمانيات اللاتي استُطلعت آراؤهن أنه لا يجدر بالنساء أن يعملن مادام أطفالهن دون الخامسة، لكن في واقع الأمر كان أكثرهن يعملن - فماذا عن اعتقادهن الفعلي بشأن مسؤولية الأم عن الطفولة؟

لقد فتن تاريخ الأطفال والطفولة كثيرا من المؤرخين المعاصرين، ويكتسب الميدان اليوم نجاحا من جديد. يقر مؤرخو الطفولة أن لتجربة الأطفال جوانب يعوزنا دليل مباشر عليها، لكنهم يدلون بالحجة فيقولون إننا نستطيع الحصول على معلومات مهمة بشأن أوضاع الأطفال في الماضي وبشأن التغيرات في طبيعة الطفولة. إن أدوار الأطفال ووظائفهم، والتأديب، والتمايز بين الجنسين، والصحة، وثقافة الأم، والنسَب إلى بنية الأسرة، بل وبعض جوانب الحياة العاطفية، هي جميعا أمور قابلة للنظر. ومع بقاء الثغرات المحبطة للآمال، فإن المؤرخين يحرزون تقدما مطردا في استكشافهم مختلف أوجه الطفولات المنصرمة ولمغزاها عند المجتمعات المعنية.

تحديات تحليلية

يشتمل تاريخ الطفولة على الجمع بين توترين قائمين في صميم هذا الميدان، وعلى الاعتراف بهما. يقر مؤرخو الطفولة أن العثور على دليل حسن بشأن أطفال الماضي أشد عسرا منه بشأن راشديه - هاهنا مواضيع لا نستطيع أن نعلم عنها بالقدر الذي نحب. لكن في الحين نفسه، من المستطاع مقاربة أكثر الموضوعات أهمية على الأقل، وإجمالا، هناك قدر واسع من المادة متاح للعمل التاريخي. إن ما للمعرفة بالطفولة في التاريخ من مغزى، لفهم الماضي على وجه أكمل وللإتيان باستقصاء تاريخي بشأن الحاضر، ليسبغ الأهمية على العمل على هذا الموضوع على الرغم مما في مصادره من مشكلات غير معهودة. والمؤرخون يحرزون تقدما مطردا في استحفار الأدلة على الأطفال استحفارا مباشرا، باستعمال الذكريات، أو الأدلة الباقية على الدمى والألعاب، وغيرها من التعابير المباشرة.

للتوتر الآخر أهمية لا تقل عن أهمية الخلل في ميزان الأدلة: للأطفال والطفولة جوانب حاسمة لا يمسها تفاوت ولا تغير ذو شأن وفق المكان أو الزمان، ومن ذلك الجوانب البيولوجية، وكذلك الواقعة الجلية وبأن للمجتمعات بأسرها سبيلا للدلالة على اختلاف الطفولة عن الرشد، اختلافا جزئيا على أقل تقدير. (اعتاد المؤرخون الحَجاج في هذا الأمر شيئا قليلا، وسنرى ذلك، لكنْ

ها هنا الآن اتفاق معقول على أن بعض الدلالات هي من الثوابت التاريخية). لكن، في الحين نفسـه، هناك تفاوتات وتغيرات حقيقية، بل إنها أساسية أحيانا، وعندهـا يأخذ العمل التأريخي الجاد مكانه. والحق، إن تاريخ الطفولة ليفرض مجابهة بين ما هو «طبيعي» في تجربة الأطفال وما هو مشـّيد بقوى تاريخية معينة، وهذه المجابهة محفزة وممدة بالمعلومات في آن واحد.

إن إيراد أمثلة قليلة على هذين الصنفين من التوتر، وكيف يمكن اسـتخراج نتيجتهما على نحو مبدع، سـوف يكون بمنزلة وسـيلة إيضـاح لهاتين النقطتين العموميتـين. من جهة المعلومات: نعلم أن الأطفال كانـوا يؤدبون تأديبا بدنيا في بعـض مجتمعات الماضي أكثر مما هي حالهم في الغرب المعاصر. ليس عليكم لتتبينوا ذلك إلا أن تتذكروا القصص عن المعلمين أو الوعاظ الذين كانوا يجوسون خلال صفوف المدارس أو الكنائس وقد تهيأوا ليضربوا براجم الأطفال المشاغبين أو النائمين بشـدة. بيد أنه أشـد عسرا أن نعلم كيف كان الأطفال يجدون هذا التأديب البدني، بل ماذا كان مراد الراشدين به. سوف يشعر الأطفال الأمريكيون المعاصرون بأنهم تعرضوا لإسـاءة بالغة، وسيهرعون مع والديهم إلى رفع دعوى بالتعرض لسـوء المعاملـة. بيد أن ردود الأفعال قد تختلف عن ذلك في وسـط مختلف، حيث العقوبات هي أمر مقبول، وحيث ليس من تسليم بأن الطفولة ينبغـي أن تخلو من الألم. لقد كان الراشـدون قادرين عـلى حب الأطفال حبا عميقـا وإن كانوا يعاقبونهم عقابا قاسـيا (وفق معاييرنا). نسـتطيع أن نُعمل الظن في هذين المعنيين المختلفين، ونسـتطيع أن نسـتنبط دليلا ما، من السـير الذاتية على سـبيل المثال، بيد أننا لن نتمكن من اسـتدعاء الماضي بدقة، وعلينا الاعتراف بذلك.

يزداد الخط ميلا نحو الجهل حين تدخل في نطاقه الأشياء التي يفعلها الأطفال ويكتمونها متعمدين. مزاح الأطفال مدون على نحو غير متناسق، حتى في الأزمنة الحديثة نسـبيا. الألعاب أمر أهون قليلا، لأن بعضهـا يدوم زمانا طويلا على نحو مدهش؛ لدارسي الفولكلور إسـهامات مهمة هاهنا. أما الموضوعات الأخرى فأكثر إشكالا. مثال ذلك هو أن الكلام عن مواقف الراشدين من استمناء الأطفال هو أمر سـهل، ولقد عثر المؤرخون على قدر عظيم من التغير في هذه المواقف مع الزمان.

بيد أنه ليس من سبيل - بالمعنى الحرفي - لمعرفة كم مرة يستمني الأطفال، حتى في يومنا هذا، علما بأن الصراحة بشأن الجنس أكثر شيوعا مما كانت في الماضي، وأنها كانت أقل من هذا بكثير قبل 200 سنة حينما كان الراشدون يقولون إن الممارسة شريرة أو سقيمة. مما يبعث على السعادة أن الجوانب الأخرى من تاريخ جنسانية الأطفال، وكذلك مواقف الراشدين وممارساتهم التي تخص جنسانية الأطفال، تقدم دليلا أشد وضوحا - ومثال ذلك المعاشرة الجنسية قبل الزواج. بيد أن هناك بعض القيود التي لا تتزعزع.

إن معالجة التوتر بين جوانب الطفولة التي لا تتبدل ونواحي التفريق والتغير، ليست أهون دائما من معالجة مسألة الوجود المحض للمعلومات. لنأخذ مثالا على ذلك قضية ترتيب المواليد. يعتقد الباحثون المعاصرون (وأكثر عملهم هو على الدليل الغربي) أنهم يعرفون الكثير عن آثار ترتيب المولود في شخصيته. يحظى المولودون أولا بالقسط الأوفر من العناية الوالدية، ونتيجة لذلك يحتمل لهم (هكذا يمضي الحَجاج) إما أن يبرعوا على نحو خاص في إدخال السرور على الناس، وإما أن يصبحوا عدوانيين ومكيِّفين لنيل مطلوبهم على نحو غير معهود. للمولودين ثانيا وآخرا صيغ نموذجية يختصون بها. ولكن هل هذه التعميمات تصدق على الماضي صدقَها على الحاضر (علما أن الحاضر هو أمر يُتناظر فيه)؟ هل يعتد بها في مجتمع حيث ولادة سبعة أطفال أو ثمانية لأسرة واحدة هي المعدل الاعتيادي لنسل الأسرة مثلما يعتد بها في يومنا هذا حيث ولادة طفل واحد إلى ثلاثة هي الأقرب إلى المعدل الاعتيادي؟ أو عندما كان كثير من الأطفال (ومنهم المولودون أولا) يموتون؟ أو عندما كانت ثقافات الجنوسة (*) تفرض اختلافا في معاملة الصبيان والبنات أكثر حدة مما يصدق على بعض مجتمعات يومنا هذا، على أقل تقدير؟ الأسئلة مهمة، بيد أن الجواب عنها عسير على نحو جليّ. يناطح مؤرخو الطفولة على نحو متكرر السؤال عن مقدار التفاوت الناشئ عن مختلف التسليمات الثقافية والوقائع المادية، وذلك بإزاء ما لتجربة الطفولة من سمات طبيعية لا تتبدل.

هاهنا نقطة جلية لها نسبة إلى ما ذكرنا: يظهر من بعض جوانب الطفولة الغربية الحديثة (بل الطفولة الحديثة في كل مجتمع من المجتمعات الصناعية

(*) الجنوسة gender: مصطلح يُستعمل للدلالة على الفرق بين التذكير والتأنيث. [المترجم].

الحديثة) أنهــا اعتيادية وذات مغزى على نحو يجعل من التقمص العاطفي(*) مع أهم ســمات الماضي أمرا عســيرا. من ســيرضى بالرجوع إلى حال كان يموت فيها من الأطفال جميعا ثلثهم أو يزيد قبل أن يبلغوا الثانية، حتى إن بعض الوالدين كانوا لا يتكلفون تســمية الأطفال قبل تلك السن لأن موت الصغار كان محتملا جدا؟ كيف لنا أن نفهم التقليد الأقدم عهدا عندما كان بعض الوالدين يستعمل مرة أخرى اسم طفل لهم مات، كأنهم يرون أن الطفل لم يوجد قط ويقللون، في الحين نفســه ، من الصبغــة الفردية للآتي الجديد؟ ماذا عن المعلمين الذين كانوا يصرخون في تلامذتهم ويعلنــون جهلهم بصــوت جهير أمام الآخرين، فيتجاهلون مــا لذواتهم من احترام، بــل أيضــا يكادون يتعمدون أن يحطّــوا منها؟ وعليه، فإن مدّ نطــاق قضية ما هو طبيعيّ في الطفولة يشتمل على تحديات ذات صعوبة حقيقية تبرز في وجه التقمص العاطفي التاريخي، وذلك متى أدركنا أن بعض ما نســلّم به من جوانب الطفولة لا يصدق على الماضي على نحو واضح جدا (بل لا يَصدق على بعض المجتمعات الأخرى حتى يومنا هذا).

مــع ذلك، فإن التقمــص التاريخي والثقافي ضروريان، ليــس لفهم الماضي بدقة فقط، بل لاجتناب أن نهنئ أنفســنا على حاضرنا بخفة. كان للأطفال في الماضي مزايا فُقــدت اليوم أو نشــأت في وجهها تحديات. إن المكاســب حقيقيــة، بيد أن بعض المشكلات المميزة هي كذلك أيضا. من الصعب ألا يُشعرنا ما أنجزناه بالعجرفة - إلى أن نتذكر كم من الأشياء يقلقنا من شؤون الأطفال والطفولة في يومنا هذا.

إجمالا، هناك بضعة تحديات لا مفر منها عند معالجة أي تاريخ للطفولة واسع النطــاق. الموضوع صعب بيد أنه ليس مســتحيلا؛ ســوف تخرج خلاصات ليســت قطعيــة على التمام، ولكن بقدر من المعرفة لا يســتهان بــه. في الموضوع مزجٌ بين بعض الســمات البشرية المعياريــة والتنوع والتغير الحقيقيــين. ومع أنه يظهر من بعــض التغيرات أنها خــيّرة على نحو واضح (وإن كان مرجعنــا في الحكم عليها هو المعايــير المعاصرة، وكنــا معذورين في ذلك)، فإنه ليس من المثمر ولا من الدقيق أن نبادر فننعى على الماضي، ومن المهم على نحو حقيقي أن نعترف بأن بعض السمات

(*) Empathy هــو فعلٌ يتبنى فيه المرء مشــاعر الآخرين وأفعالهم واتجاهاتهم، ويمارســها كأنها كانت مشــاعره وأفعاله واتجاهاته هو. [المترجم].

الحديثة للطفولة لم تكن عاقبتها خيرا. ما ندعو إليه هو الرشاقة التحليلية، فإن يكن في التمرين تحدٍّ فإن فيه تنويرا، بل متعة أيضا.

ختاما، للموضوع إغراء مميز: لقد كنا جميعا أطفالا ذات يوم، ولهذا فإن لنا جميعا معرفة بالموضوعات التي تشتمل عليها الطفولة، إلى حد ما على أقل تقدير؛ والفرصة التي يتيحها الاستقصاء التاريخي لتحسين فهمنا للطفولة هي، على نحو متطابق، فرصة أكبر غنى بالمعنى من بعض المواد التي تُتخذ موضوعا للتاريخ وتُعد أكثر معيارية. إننا نتناول بعض السمات الأصولية للتجربة البشرية.

المقاربة العالمية

ما ينشده هذا الكتاب ليس مناقشة تاريخ الطفولة فقط، بل التاريخ العالمي للطفولة، وفي هذا رشٌّ لشيء من التوابل. من الجلي أن النظر إلى الطفولة في سياق من التاريخ العالمي يأتي بتعقيدات أخرى: أحد التعقيدات هو السعة العظيمة للموضوع، وكل نظر وجيز سوف يتركّز على نقاط بارزة دون غيرها. تنوّعُ العمل التاريخي الموجود هو تعقيد آخر. مع أن تاريخ الطفولة يحظى بمزيد من التقدم، ومثال ذلك أنه أصبح جزءا من تاريخ أمريكا اللاتينية، فإن بعض المجتمعات الكبرى تبز غيرها فيما تقدمه من مؤلفات غنية، ومع أن هذه الفوارق قد تسوى مع الزمان، فإنها تؤثر في كل تحليل راهن قطعا.

حقيقة الأمر هي إن عِلمنا بتاريخ الطفولة في الغرب وفي الصين أكثر من علمنا بالتطورات في أفريقيا أو الهند، ويبقى الاختلال في الميزان محبطا. إن مؤرخي الطفولة البارزين يزدادون اهتماما بالسياق العالمي - في ميدان لطالما تركّز عمله على الغرب - بيد أن هاهنا أشياء كثيرة ينبغي تعلّمها، حتى في المستويات الأساسية.

لكن السياق التاريخي العالمي للطفولة يقدّم فرصا وتحديات أيضا، وهذا الكتاب يؤكد أهمية نقاط الرؤية الممتازة هذه. من الشائع أن يُقارب التاريخ العالمي من خلال قدْرٍ من الجمْع بين بضع طرائق. من المعهود أن تُعيَّن المجتمعات أو الثقافات الكبرى وأن تعقد بينها المقارنات، ومع أن المعالجة العلمية غير المتجانسة تعقّد هذه المقاربة للطفولة، فإنها نقطة دخول جلية ومهمة. هاهنا أسلوب آخر يؤكد أهمية الاتصالات المباشرة بين المجتمعات المختلفة - ومثال ذلك شروع التجار والطلبة

الصينيين بالتفاعل مع الهند على نحو أكثر انتظاما في أواخر الحقبة الكلاسيكية، وما أعانوا عليه، من جملة أشياء، من استيراد البوذية إلى الصين في هذه السيرورة. من الوجهة المنهجية، فإن علمنا بتأثير الاتصالات المباشرة في الطفولة أقل من علمنا بالمقارنة بين الثقافات، بيد أن هناك بعض النتائج، والأدلة تزداد عمقا بقدر لا بأس به فيما يخص الحقبة الحديثة التي تتسارع فيها الاتصالات المباشرة. إن ما بين كثير من المجتمعات من الأنساق المشتركة في ردود الأفعال على المرض، أو الهجرة، أو التجارة الحديثة، يقدم أيضا نظرات نافذة إلى الطفولة، لاسيما - مرة أخرى - في الحقبة الحديثة وصولا إلى شبكة التفاعلات التي كثيرا ما تدعى العولمة.

كذلك يولد التاريخ العالمي تقسيما معياريا للزمان إلى مراحله، فيمكن أن تعيّن به المواضيع المشتركة بين مجتمعات عدة. مثال ذلك أن الحقبة التي تبدأ من نحو سنة 1000 ق. م إلى نحو سنة 500م قد شهدت تكوين بضع حضارات عظيمة، عمادها استعمال الحديد في صنع الأدوات والسلاح. كانت النُطُق الثقافية العظيمة، التي نشأت حول ما انتشر من منظومات من مثل الكونفوشية أو الهندوسية، والإمبراطوريات الضخمة هي أهم نتائج ذلك. أكدت الحقبة ما بعد الكلاسيكية، من سنة 500 إلى نحو سنة 1450، انتشارَ الأديان الكبرى، وكان منها ظهور الإسلام، وكذلك اتساعَ مدى أنساق التجارة بين الأقاليم. ليس من الواضح دائما أن يطابق تاريخ الطفولة مراحل التاريخ العالمي الكبرى بأسرها مطابقة تامة، بيد أن هناك علاقة وثيقة بينهما في أكثر الأحوال، وسوف يعمل هذا الكتاب بفاعلية على بيان الصلة بين التغيرات والاستمراريات في الطفولة وبين هذه التجمعات الزمنية الكبرى.

يبرز الجانب المقارن للتاريخ العالمي واضحا، ابتداء من الحقبة الكلاسيكية على أقرب تقدير. نضرب مثالا لذلك فنسأل: ما الذي أحدثته الأديان الكبرى من تغيرات في تجربة الطفولة وصوغ تصوراتها الذهنية، إن كانت أحدثت شيئا؟ كيف يمكن تتبع آثار الفروق الحديثة وتفسيرها ونحن نعرف على سبيل المثال أن ما يركز عليه اليابانيون والأمريكيون من أمر المدرسة يختلف في يومنا هذا اختلافا كبيرا – يولي اليابانيون اهتماما أكبر لحسن علاقة الأطفال مع نظرائهم حينما يدخلون المدرسة، أما الأمريكان فيولون المزيد من العناية للعمل على توطيد سلطة المعلمين. متى

بـرز هذا النـوع من الاختلاف ولماذا؟ إن المقارنة لا تُقيـم الروابط بين الحضارات بطرق تجعل التاريخ العالمي أسـهل تناولا وأكثر إثارة للاهتمام فحسـب، بل إنها أيضا تركّز الضوء على أبرز الأنساق المميزة داخل المجتمع الواحد. الاتصال المباشر بين المجتمعات المختلفة يقوم في ركن ظليل بعيد عن المقارنة.

كثيرا ما تبعـث نتائج الاتصال المباشر على مزيد من التحدي، وإن لم تكن غير ذات علاقة بالمقارنة. فالطفولة، بعد كل هذا، تجربةٌ شـخصية نسبيا على نحو ما، وكثير من المجتمعات والأسر سـوف تعمل عـلى وقايتها من التأثير الخارجي حتى في الأحيـان التي يكون فيها الاتصال المباشر مقبولا مـن النواحي الأخرى، نواحي الراشدين. مثال ذلك أننا لا نعلم الكثير، حتى الآن على أقل تقدير، عما للاتصالات المبـاشرة الصينية - الهنديـة في الحقبة المتأخرة من نتائج بشـأن الطفولة، حتى وإن كنا نسـتطيع تتبع نتائج التأثير في الثقافة والتجارة الرسمية للراشدين. بل إن الأمثلـة الأحدث عهدا قد تروغ منا. ما الذي حـدث للطفولة في الهند أو أفريقيا نتيجة للاتصالات المباشرة الحديثة مـع الأوروبيين عن طريق الإمبريالية (إن يكن حـدث شيء)؟ ما الذي تفعله «الأمركـة» بالطفولة في أرجاء العالم الأخرى؟ كمثال بسـيط، بيد أنه مثير للاهتمام، على السـؤال الأخير: تـكاد اللغات الكبرى جميعا تحتـوي الآن على صيغة مـن «عيد ميلاد سـعيد» (happy birthday to you)، تغنـى في احتفالات الأطفـال في ثقافات مختلفة جدا. مـا المغزى من ذلك، وهل أصبح لأعياد الميلاد (وهي اختراع حديث في الولايات المتحدة نفسها) المعنى نفسه في أرجاء العالم نتيجة للمثال الأمريكي؟

كذلـك يركّز التاريـخ العالمي الانتباه على التغيرات الكـبرى في أفكار الطفولة وتجاربها. يسـتعمل بعض المؤرخين العالميين مصطلح «التاريخ الكبير» في تعريف موضوعهـم، لأنه من الجليّ أن التغيرات العامـة وذات المغزى على وجه حقيقي هي التي تسـتدعي التحليل عند العمل وفق المقيـاس العالمي، وذلك بالنظر إلى اتسـاع نطاق الميدان. يشـتمل أجلى تحوّل في التاريـخ العالمي للطفولة على أخذ المجتمعـات الصناعية مـكان المجتمعات الزراعية (ومحاكاة الأنسـاق الصناعية، ومنها التعليم المدرسي على نطاق واسـع، حتـى في المجتمعات التي لاتزال تكافح لاسـتكمال سـيرورة التصنيع). بالطبع، لم يمس التغيير كل شيء - نقول مرة أخرى

إن بعض جوانب الطفولة هي جوانب طبيعية، فهي تدوم مع الزمان - بيد أن المقصد الأساسي للطفولة قد عُرّف تعريفا جديدا، واستتبع ذلك عددا من العواقب المثيرة للاهتمام. إن المجتمعات الصناعية المتقدمة نفسها لاتزال تعمل على استنباط مضامين هذه التبدلات.

بيد أنه ليس هذا هو التغير الكبير الوحيد الذي يتعين تركيز النظر عليه: لقد كان أيضا للانتقال من الصيد والالتقاط إلى الزراعة مضامين عظيمة من جهة الطفولة، وإن يكن عِلمنا بذلك قليلا (لبعده زمانا). وهناك واسمات أخرى قليلة في التاريخ العالمي، مثل انتشار الأديان العالمية، وهي تحث على عمل تقويم من جهة التغيرات الكبرى أيضا. وفي طرف الزمان القريب منا، فإن لظاهرة العولمة تأثيرات في الطفولة، إذ تُدخل المزيد من التغيرات إلى الأنساق الكبرى للتجربة الحديثة، بتسريعها التفاعلات بين المجتمعات الكبرى. وأجلى ما في ذلك هو ما يأتي به انتشار النزعة الاستهلاكية بين الأطفال من تحديات مثيرة للاهتمام للأفكار الراسخة عن الطفولة، وما يستثيره من مقاومة أيضا (ومما يقرب من الأمر المؤكد أن المقاومة هي من قبل الراشدين من دون الأطفال أنفسهم). يحثنا التاريخ العالمي، مرة أخرى، على تناول الصورة الكبرى، حيث يتعلق الأمر بالأطفال.

بين التحليلات المقارنات وبين التغيرات الكبرى تحابكٌ. إن تكن التغيرات الكبرى، ومنها النزوع إلى تعميم التعليم المدرسي للأطفال، وإن تكن تَعْبُر في تطبيقها الكثير من الحدود السياسية والثقافية، فإنها تتفاعل مع مختلف العقائد والممارسات التقليدية، ومعنى هذا أن الانتقال العام - إلى التعليم المدرسي - يستوجب، في حقيقة الأمر، التعامل معه على نحو مقارن، على نحو ما في مثال اليابان والولايات المتحدة. بل إن النزعة الاستهلاكية عند الأطفال لا تتخذ نفس الصورة. يتعرض الأطفال في كل من الولايات المتحدة ومصر أحيانا لنفس العروض التلفزيونية، ومن ذلك «شارع سمسم»؛ بيد أن الأطفال المصريين يتفرجون على «شارع سمسم» وهم في مرحلة المراهقة (العشارية)، مما يوحي بأن المعنى الذي يستمدونه منه مختلف عما يستمده الأطفال الأمريكان الذين من المعهود لهم أن يشاهدوا هذا العرض قبل ذلك وهم يتدرجون في المدرسة الابتدائية.

الأطر النظرية

يشتمل وضع مخطط للتاريخ العالمي للطفولة على مواجهة المشكلات المعيارية في هـذا الميدان، ومن ذلك أوجه القصور في الأدلـة المأخوذة من الأطفال الفعليين، والتوتر بين السـمات الطبيعية والمحدّدات الثقافية. إنه يشـتمل على تطبيق فئات التاريـخ العالمي، ومن ذلك تقسـيم الزمان إلى مراحله. بيد أنه يشـتمل أيضا على الحاجة إلى التعرف على مشـكلتين تحليليتين متداخلتين ومصارعتهما، مشكلتين من الواجب تحديدهما سلفا. للمشكلتين كلتيهما ارتباط بكل من السمات الأكثر اتساعا لهذا الميدان التاريخي وبالسـياق التاريخي العالمي النطاق. بيد أن لهما أيضا أبعادا أكثر خصوصية. تشـتمل المشـكلتان على عدسـتين تُمكن رؤية الطفولة بهما، وعلى مقدار ما للحديث والغربي من نصيب في تشكيل هاتين العدستين أو تشويههما.

التباين بين التقليدي والحديث

تتركّز المشكلة رقم واحد، وهي في حقيقة أمرها نسخة من التضاد بين الطبيعة أو البيولوجيا وبين التغيير الثقافي، تتركّز على العلاقات بين الطفولات الحديثة والطفولات في المـاضي. وقـع بعض أوائل المؤرخـين الذين أخذوا على عاتقهـم البحث الجاد في الطفولة في خطأ كبير، بيد أنه مفهوم. فبسـبب عمل كثير منهم على أوروبا الغربية وعلى أمريكا تحت الاسـتعمار إلى حد ما، بالغـوا في التأثر بالاختلافات العظيمة بين الطفولـة التي رأوها حولهم وبين ما كانوا يسـتجلونه من أمـر الماضي. كان الأطفال كثيرا ما يؤدبون في العمل تأديبا شـديدا، وكان موتهم صغارا أمرا متواترا، وكان يُدفع بهم أحيانا إلى العمل تحت أيدي الغرباء القسـاة - هل يمكن لشيء أن يكون أبعد مـن هذا عن المُثل المعاصرة؟ من أجل هذا كتـب بعض المؤرخين كيف أن الوالدين التقليديين، بإزاء الحديثين، لم يكونوا يحبون أطفالهم - وبحسـب عبارة أحد مؤرخي إنجلـترا: لا يتوقعنّ المرء أن يجد في أسرة ما قبل حديثة من الحب أكثر مما يجده في عش بعض الطيور. حاجج غيره قائلا إن معاملة الأطفال على الوجه الصحيح إنما شُرع فيها أول مرة في التاريخ البشري في القرن العشرين (في العالم الغربي، على أقل تقدير).

تَركّـزت المناظرات على نحـو خاص على آراء فيليب أرييـه، وهو مؤرخ فرنسي من الـرواد، وتجاوزت نطاق الدعـاوى الأكثر عمومية بشـأن التباين بين التقليدي

والحديث. في العام 1962 أصدر أرييه كتابه، «قرون من الطفولة»، وجعله في تاريخ الطفولة في أوروبا في العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث، وجعل عماده البيانات الديموغرافية والثقافية. فتح الكتاب أبواب الطفولة أمام النظر التاريخي الجاد على نحو جوهري لأول مرة.

اقتنع أرييه من تناوله للماضي بأن العلاقة بين الطفولة الحديثة وقبل الحديثة قد أسيء فهمها جدا. لقد حاجج، وهو يستعمل الأدلة التي لويت بعض الشيء نحو النخب، ومن ذلك الصور العائلية، فقال إنه لم يكن للأوروبيين التقليديين تصوّر للطفولة واضح المعالم بوصفها مرحلة من الحياة منفصلة، وإنهم كانوا يميلون إلى إقصاء الأطفال إلى هوامش النشاط الأسري. ومثال ذلك أن الرسوم الزيتية قد أظهرت الأطفال إما يحومون على أطراف الزمرة الكبرى للأسرة، أو قد أُلبسوا ثياب الكبار، أو الأمرين معا. لم يكن المعنى الذي أراده أرييه هو القول بأنه لم يكن عند الوالدين مودة للأطفال - لقد كان مستعدا للتسليم بأن هذا مظهر طبيعي - بل بأنهم لم يولوا الأطفال كثيرا من الوقت والعناية الخاصة. وعلى ما رأى، شرع هذا الموقف يتغير في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانت البداية في الطبقات العليا. غدت الطفولة مركزية أكثر من قبل، فازداد الاعتراف بحاجات التغذية والإرشاد الخاصة؛ وازداد تركيز الاهتمام على التعليم المدرسي؛ وشرعت معدلات الولادات تهبط بغية توفير مزيد من العناية بالأطفال كأفراد؛ وكان من علامات هذا التحول أيضا التفريقُ بين الطفولة وما فيها من مراحل كبرى وبين الرشد تفريقا ذا صبغة رسمية أكثر من قبل.

اعتقد أرييه نفسه أن للمقاربة قبل الحديثة للأطفال مزايا كثيرة تبز بها نظيرتها الحديثة. ولايزال حجاجه مستحقا للانتباه: لقد ادعى أن قلة تركيز النظر على الطفولة في الماضي، وإن بدت أمرا سلبيا، فإنها بالفعل قد منحت الأطفال قدرا أكبر من حرية الاختيار مما يتاح لهم في المجتمعات الحديثة حيث الرصد الدقيق. كانت هذه وجهة نظر محافظة فيها قدر من الالتواء. لكن معظم المؤرخين الذين تبنوا دعوى أرييه بسّطوها لتُفهم بأن الوالدين قبل الحديثين قد مالوا إلى تجاهل الطفولة والأطفال، فأساءوا معاملتهم بذلك، وبأن الظهور الحديث لشعور الطفل كان سندا لإحراز كثير من المكاسب. هذا الحجاج هو الذي ما لبث بدوره أن استثار النقد اللاذع من قِبل أهل المراجعة.

لم تتوانَ الهجمات على ما يحق لنا أن ندعوه مدرسة التقليديين الكئيبين. شرع المؤرخون ينظرون في أنواع مختلفة من الأدلة، وهم ينحّون جانبا بعض بيانات أرييه فيسِمونها بالمحدودية. مثال ذلك أن عددا من العلماء الذين يدرسون إنجلترا في الحقبة الوسيطة الباكرة قد اكتشفوا مجموعات قانونية تضْمَن ضمانا واضحا الحاجة إلى حماية الأطفال، فتعترف بالطفولة بوصفها طورا من الحياة واضح المعالم ومهما. إن عددا من دارسي العصور الوسطى، ممن لهم إيمان راسخ بالخصائص البشرية لمواضيع دراستهم في المرحلة الزمانية التي يحبونها، كان لهم أيضا رد فعل نابع من صميمهم على الفكرة العامة وبأن هؤلاء كانوا بذيئين وقساة على الأطفال.

خص أهل المراجعة، المعترضون على التأويل التقليدي الكئيب وما جاء فيه من مبايَنة قطعية بين الحاضر والماضي، نقطتين بالتأكيد القوي. الأولى، منازعتهم، استنادا إلى ما توحي به الدراسات القانونية، للفكرة التي تذهب إلى أن الأوروبيين التقليديين لم يتصوّروا الطفولة كمرحلة من الحياة، لها حاجات خاصة. الأخرى، رفضهم الشديد للفكرة العامة القائلة بأن أكثر الوالدين لم يودوا أطفالهم. لقد حاججوا ذلك فقالوا إنه بتفحص الأدلة الشخصية، من مثل الرسائل والمفكرات، يصبح من الجلي أن حب الوالدين كان عاديا ومتوقعا وطبيعيا. كثيرا ما كان الآباء في إنجلترا قبل الحديثة يُسرون بميلاد أطفالهم حتى إنهم كانوا يبعثون برسائل التهنئة.

كانت ثمرة هذه المناظرة التي حمي وطيسها في كثير من الأحيان أن أرييه وبعض الرواد الآخرين في تاريخ الطفولة قد وقعوا في الخطأ. لقد بالغوا في المبايَنة بين الماضي والحاضر. هناك مواقف لا يحب فيها الوالدون أولادهم، وقد يكبحون مودتهم أيا كان المجتمع الذي هم فيه. لكن حب الأطفال ليس اختراعا حديثا؛ إنه موجود في أكثر الأزمنة والأمكنة، وهو طبيعي إلى حد ما على أقل تقدير. والحق، إن الإرضاع يفرز عند الأمهات المرضعات هرمونا يقوي الارتباط العاطفي. ينبغي لنا ألا نبالغ في شأن التغيرات من «قبل الحديث» إلى «الحديث»، فبعض جوانب الطفولة يكاد يصدق على كل مكان. كذلك لم تصمد حجة أرييه في عدم وجود اعتراف تقليدي بالطفولة كمرحلة منفصلة: لقد كان لأهل المراجعة الأقرب عهدا دور كبير في إطفاء نائرة هذا النزاع. وما عاد أحد من المؤرخين الراهنين يزعم أن القرن العشرين هو الذي اخترع على نحو سحري أول معاملة مقبولة للأطفال - لم يكن

الماضي سيئا تماما، وليست الحقبة المعاصرة جيدة تماما، بحيث تصدق دعوى كهذه.

والحـق أنه لمما يغري أن ننحي جانبا الآن هذه المناظرة التي ثارت حول أرييه، فقد انتهت وفُرغ منها، ولا تستحق الذكر بعد. إن حقيقة تركُّز المناظرة تركزا عنيدا داخـل مجازفات السـياق الغربي تجعلهـا أبعد عن أن تكون ملائمـة لكتاب وجيز يتناول أبعادا عالمية النطاق لا غربية فقط. لكن هاهنا عاملَين لا يقتصران على بيان كيـف أن خلافا كبيرا قد رافق أولى الخطوات نحو التعامل مع الطفولة تاريخيا، بل يضفيان الشرعية على إجـراء مراجعة للنقاش ويجعلانه أمرا مطلوبا، بعد أن تُنحى جانبـا بعض المبالغات الابتدائيـة. أول العاملَين هو أن أهل المراجعة أنفسـهم قد تجاوزوا الحد أحيانا؛ والآخر، وبصورة مدهشـة، هـو أن بعض البحث الذي يكرس الآن للمجتمعـات الأخرى - ومثالها اليابان - يستنسـخ بعض مـا تقدَّم من مزاعم أرييـه عن عدم وجود دلالة خاصة جدا للطفولة بعد مرحلة المولود. بعبارة أخرى، قد تخلص المناظرة إلى اتخاذ أبعاد عالمية النطاق.

أولا، أهـل المراجعة يفرطون. مثلما بالغت الزمـرة الأولى من مؤرخي الطفولة في التبسـيط، إذ ثـارت ابتهاجا لما بـدا لها أنها قد وجدت كم كانـت الطفولة قبل الحديثـة مختلفة، كذلك فَعَـل نقادهم إذ صغّروا أحيانا شـأن التباينات الحقيقية بسبب تحمسهم لما وجدوا أن الوالدين قبل الحديثين كانوا على نفس قدر نظرائهم المعاصريـن مـن الحب والمسـؤولية. لعل الوالديـن المحبين في مرحلتـين زمانيتين مختلفتين يتفاوتون كثيرا في طرق معاملتهم للأطفال، بل في طرق التعبير عن حبهم. كثيرا ما تختلف الممارسة الحديثة للأبوة عن الأنساق قبل الحديثة - لم تكن بالضرورة أحسـن منها، ولم تكن أكثر مودة بالضرورة قطعا، بـل كانت مختلفة فقط. تناقش الفصول الآتية مـن هذا الكتاب بعض ما في الطفولة الحديثة الآخذة في التفتح من تغيرات ضخمة يُخشى عليها من التجاهل أو الإفراط في التبسيط إذا صورنا الوالدين الأولين تصويرا مبسـطا كنُسـخ بديلة من الحديثين فقط. لايـزال من الجوهري أن نتذكر المناظرة: ينبغي ألا يفضي بيان إلى أن أساليب التأديب أو وظائف الأطفال قد تغيرت، وهي قد تغيرت فعليا، إلى اسـتنتاجات متسرعة بشأن التبدلات في المحتوى العاطفي لحياة الأطفال. بيد أن لدينا اليوم طفولة حديثة مميزة من بضعة جوانب حاسمة، رغما عن بعض احتجاجات أهل المراجعة.

إن الجانب العالمي النطاق من المناظرة هو أكثر إدهاشا. فحتى مع احتدام الجدل، ظل انحصار معظم العمل التاريخي داخل النطاق الغربي يمنع أي توسع في نطاق الموضوع. اعتقد كثير من الخبراء أن القضية برمتها هي مسألة الثقافة الغربية وحدها، هذا إن تكن القضايا المقارنة قد خطرت في بالهم أصلا. بيد أن كثيرا من سمات الطفولة قبل الحديثة في أوروبا قد كانت مشتركة بينها وبين المجتمعات الزراعية الأخرى، ومن ذلك التأديب الصارم والافتقار إلى بعض صور المودة الأكثر حداثة. والأهم من ذلك هو أن المؤرخين أنفسهم الذين يعملون على بعض المجتمعات الأخرى يجدون أنه فيما قبل القرنين المنصرمين أو نحوهما كان يُفتقر إلى مفهوم للطفولة متطور على نحو تام - كما حاجج أرييه بشأن أوروبا القرون الوسطى في خطوطه العريضة. على هذا النحو، أشار عدد من المؤرخين اليابانيين إلى مفهوم للطفولة ضعيف نسبيا قبل القرنين التاسع عشر والعشرين. فعلى الرغم من وجود بعض المدارس - والتي اتسع نطاقها بسرعة بعد العام 1800 - فإنها كانت مؤسسات خاصة؛ لم تعترف الدولة (وكانت هذه حالها في أكثر المجتمعات قبل الحديثة الأخرى) بأي مسؤولية تعليمية عن الأطفال. كان المجرمون الأطفال يعاملون معاملة الراشدين، من دون حساسيات خاصة. من الوجهة الجوهرية، لم تُولِ صناعة النشر اليابانية عناية بسوق الأطفال (علما بأن هذه الصناعات في أوروبا كانت قد شرعت في أواخر القرن الثامن عشر في إنتاج بعض الكتب الموجهة إلى الأطفال على نحو خاص). في القرى الريفية، حيث يسكن أكثر الناس، كان الترويح الذي يراد به الأطفال دون غيرهم قليلا أو معدوما - لعل الحال كانت من هذه الجهة دون الحال في القرى الأوروبية التقليدية. بحسب هذا الخط من الحجاج - وفيه شيء من الجدل - فقد ظهر المعنى التام للطفولة في اليابان مع جوانب الحداثة الأخرى، أعني ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر. لقد عرف أن المجتمع الياباني التقليدي بالتأكيد أن الأطفال مختلفون من بعض الجوانب - والحق أن الأطفال اليابانيين كانوا كثيرا ما يعاملون بتدليل بالغ إلى نحو السابعة، بيد أنهم كانوا كثيرا ما يقعون بعد تلك السن، وعلى نحو مباغت نسبيا، تحت وطأة نظام من العمل المضني. النقطة هي، كما في أوروبا، أن المقاربة التقليدية كانت مختلفة عما ستكون عليه في اليابان الحديثة.

لا أحـد متلهف إلى الوقوع في الأخطاء التي وقع فيهـا أرييه وأتباعه المفرطون في الحماسـة، فيبالغ في الادعاء بشـأن عدم وجود طفولة واضحة المعالم قبل الأزمنة الحديثة. لكن المؤرخـين الذين لا يقصرون عملهم على اليابان، بل يمدونه إلى الهند وأفريقيا وروسـيا وسـواها، يخلصون مع ذلك إلى القول بأن الاختلاف الكبير لم يكن فقـط بين الـشروط التقليدية والحديثة، بل وبين كثير من المفاهيم بشـأن الأطفال تقليديا وحديثا. بالطبع، قد يتبين أن بعض الحجاج قد ينحو إلى المبالغة، على مثال مـا وقع لرواد البحث في موضوع الغرب. وإذ أصبحنـا نعلم أهمية ترك المبالغة في عمـل المقارنات، وأهميـة فهم أن بعض جوانب الطفولـة والتعامل معها هما معا أمران طبيعيان ودائبان، فإنه ليس من اليسـير دائمـا العثور على الألفاظ التي تعبر عما في الأزمنة الحديثة من اختلافات دقيقة أحيانا. بيد أن التوتر بين التقدير اللائق للصفات الإيجابية للطفولة قبـل الحديثة وبين إدراك أن الشروط الحديثة قد أتت بشيء من التغيير المهم أو أنها تأتي به، إن هذا التوتر قد صار قضية عالمية، لا قضية غربيـة فقط. بعبارة أخـرى، لقد أبعد الجدل حول أرييه عن موضعه؛ بيد أنه ليس ممكنـا، مـن الوجهة الفعلية، اجتناب أن تنشـب مناظرة أكثر تباينـا حول التغيير الحديث. إن التوسـع العالمي لتاريخ الطفولة، وهو لمايزل تجريبيا، ليجعل من هذا أمرا لا مفر منه.

الغرب والعالم

تشتمل القضية الأخرى من بين القضايا الأهم، وهي ذات صلة بتحليل الحداثة والتقليد، على وضع الأنساق الغربية في منظورها الصحيح. يقوم التاريخ العالمي، من بين ما يقوم عليه، على أهمية تفصيل التطور والنفوذ الغربيين كليهما بعناية، وذلك من أجل بيان أن بضعة تقاليد غير التقاليد الغربية هي تقاليد ذات ثبات ومغزى في الماضي العالمي، وأنه حتى في الأزمنة الحديثة تلقى النماذج الغربية منافسـة ويطرأ عليها تعديل في أثناء تفاعلها مع الأقاليم الأخرى.

قد يظهر عـلى تاريخ الطفولة أنه يتحدى هذه المقاربـة ذات الصبغة العالمية النطاق أكثر من غيرها، وذلك لسـببين. الأول، إن تاريخ الطفولة - كما قد لحظنا - قـد نال من التطور التام فيما يخص أوروبـا والولايات المتحدة أكثر منه فيما يخص

أكثر المجتمعات الأخرى. معنى هذا أن التفاصيل الغربية قد تنال السيادة بالتزكية. في الواقع، لنا معرفة بما قبل القرون الحديثة معرفة كافية لبيان أن الأنساق الغربية لم تكن دائما مباينة للمعهود جدا وقطعا لم تكن ذات مغزى فوق ما تستحقه. من الممكن وضع الطفولة الأوروبية في السياق الصحيح، وإن لم تكن المعرفة ببعض الأقاليم الأخرى وافرة كما قد يرتجى.

لكن، من جهة الأزمنة الحديثة، تزيد من طامّة الفجوات في الكشوف التاريخية المتاحة الحقائقُ القائلة بأن الغرب هو السبّاق زمانيا في إدخال الكثير من أهم الصور الحديثة للطفولة، وأن النفوذ الغربي هو الذي أعان على الإتيان بالتغيير في كثير من أرجاء العالم الأخرى (ومن ذلك، على سبيل المثال، اليابان). حتى إنه في القرن الحادي والعشرين، حين صار للأصوات الآتية من مختلف الأقاليم رنين أعظم مما كان لها في عصر الإمبريالية الغربية، فإن المعايير الغربية تبرز في الإعلانات الدولية عن حقوق الأطفال بروزا لا يتناسب مع قدرها - حُسنا أو سوءا. كما أنه لما تزل للنقد الغربي للمجتمعات الأخرى لسعةٌ خاصة.

يثير هذا كله تحديات حقيقية في وجه المقاربة التاريخية العالمية النطاق للطفولة، تحديات تكفل ألا تصبح هذه المقاربة، في طورها الحديث، مجرد تاريخ طائش يروي ماذا فعل الغرب وكيف كان رد بقية العالم على ذلك - وهذا بعينه هو التبسيط الذي ينشد اجتنابه التاريخ العالمي. هاهنا ثلاثة تصويبات أساسية:

● حاول أن تميز النفوذ الغربي عن القوى الكبرى التي دفعت كلا من الغرب وسواه من المجتمعات نحو أنواع من التغيير بعينها. مثال ذلك أن الغرب كان أول مجتمع وضع موضع التنفيذ المستويات الحديثة من خفض معدل الولادات، لكن مجتمعات أخرى كثيرة اقتفت آثاره بعد ذلك، وليس ذلك - في حقيقة الأمر - بسبب الضغط الغربي أو مثاله، وإنما لأنه اتجاه ذو معنى بالنظر إلى الظروف الحديثة. بعبارة أخرى، كثيرا ما كان التغيير مشتركا بين الغرب والأماكن الأخرى لأن عوامله كانت مشتركة بينهما أيضا.

● اعترف بأنه حتى في حال اقتران النفوذ الغربي بالتغيرات الحديثة، فإن كثيرا من المجتمعات قد أنتجت ردود أفعالها الخاصة على أساس التقاليد الإقليمية وسواها من العناصر. في العالم الحديث تجري على نحو واسع أنماط من التغير

بعينهـــا، وللنماذج الغربية نفوذ لا يُنكــر، بيد أنه لايزال للاختلافات الإقليمية صدى في الأنماط المتباينة مـــن الطفولة الحديثة. القمط هو حالة وثيقة الصلة بالموضوع: ليس من رد فعل عالمي متجانس على تقاليد هذه الممارســة التي مرت عليها عصور ولا على الانتقادات التي تُكال لها. يصدق الأمر نفســه على الأشــكال المميزة للنزعة الاستهلاكية الحديثة.

● أخيرا، تتبع مقدار ما للنشاطات الغربية، لاسيما الاستغلال الاقتصادي، من أثر في منع المجتمعات، في كثير من الأحيان، من تسوية أحوال الطفولة على النحو التام الــذي يحث عليه المنافحون الغربيون، ومثال ذلك ما يحدث في مجال خفض عمالة الأطفال. بعبارة أخرى، ليس التأثير الغربي قوة تغيير إيجابية ببســاطة. إنه أيضا قد يزيد من اللامساواة والتباين الإقليميين.

الطفولة الحديثة ظاهرة معقدة، ولا يجوز اختزالها في الأنساق الغربية دون غيرها، ولا في مقاربة مقارنة (وهذا أســوأ الأمرين) ترى في الإنجــازات الغربية نموذجا يجب أن يتخذ أساســا لانتقاد الأقاليم الأخرى بسبب إخفاقاتها في بلوغ المستوى الغربي. لقد حازت المعايير الغربية نفوذا، وهذا واحد من التطورات التي يجب تفســيرها بوصفها جزءا من التاريخ الحديث العالمي للطفولة، لكن الأمر يشتمل على الكثير سوى ذلك.

تُصــارع كثــير من الفصــول الآتية المشــكلتين التــوأم، أعني تقويــم التغيرات والاســتمراريات بين الســياقين الحديث وقبــل الحديث في كثير مــن أقاليم العالم، وكذلــك التعرف على الأدوار الغربية وردود الأفعال المتنوعة في هذه الســيرورة. إن أكــثر المجتمعات الصناعية تقدما، ماتزال تعدّل أحوالها وفقا لما حدث للطفولة من تبدلات حتمها تراجُع الزراعة وبزوغ الصور الصناعية المدينية. إن مضامين التحولات الحديثة في وظائف الأطفال، من العمل إلى التعليم المدرسي، وكذلك مضامين معدلي الولادات والوفيات لاتزال تُســتنبط ابتداء مــن الولايات المتحدة وانتهاء إلى أفريقيا جنوب الصحراء أو الهند، وإن تكن طرق الاستنباط مختلفة.

بيــد أننا نشرع في تأســيس المجتمع الزراعي. إن اســتبدال الزراعة باقتصادات الصيــد والالتقــاط قد جــاء بتحول أصولي خاص طرأ على سُــبل تعريــف الطفولة وتحققهــا، وإن تكن معرفتنا بهــذا التبدل هي أقل من معرفتنــا بنظيره الحديث، بســبب البعد في الزمان. بعد ذلك أنتجت الأقاليــم المختلفة تنوعات مميزة طرأت

على النماذج الزراعية، استجابة لما أعقب ذلك من تطورات من مثل مجيء الحضارة كصـورة من صور التنظيم البشري، ومن بعدها أثر الأديان الكبرى. كما أن التبدلات التي طرأت على أنسـاق التجارة والاتصال المباشر قـد صنعت جسرا بين الطفولات الزراعية وبين بعض القوى التي سوف لن تلبث أن تلتئم في صور أكثر حداثة.

لم يكن مجيء التصنيع نفسه نقلة خاتمة. لقد أتت الإضافات المتأخرة، مثل بروز النزعة الاستهلاكية العالمية النطاق، بالمزيد من التغيرات في معايير الطفولة الحديثة، فأثمرت تحديات جديدة ثارت في وجه الأفكار التي يعتنقها الكثيرون بشأن ما ينبغي أن تشتمل عليه الطفولة، كما استفزت أنواعا مختلفة من المقاومة.

إن الطفولة في التاريخ العالمي موضوع ذو قوة خاصة على الكشـف، والسـبب في ذلك على وجه الدقة هو أنه يدمج المكونات الشـائعة في طبيعة الحيوان البشري ببعض التغيرات الكبيرة المشـتركة على نحو واسـع، وأولها الزراعـة وثانيها التصنيع، دمجًا واسطته شبكة من الاختلافات المقارنة. فالطفولات هي مرايا للمجتمعات التي تحيط بها، وهي أيضا أعوان على إنتاج هذه المجتمعات نفسـها بواسـطة الراشدين الذين ينشأون عن التنشئة الاجتماعية للأطفال. إن الطفولة، بهذا المعنى، هي مفتاح فريد للتجربة البشرية الأوسع نطاقا، من الماضي التاريخي حتى الحاضر العالمي.

للتوسع في القراءة

- A.R. Colon, **A History of Children: A Socio-Cultural Survey Across Millennia** (Westport، CT: Greenwood Press، 2001).

- Paula Fass ed., **Eneyclopaedia of the History of Childhood,** 3 vols (New York: Macmillan، 2004).

- **The Journal of the Society for the History of Childhood.**

- Philippe Ariés, **Centuries of Childhood: A Social History of Family Life** (New York: McGraw-Hill، 1962).

- Willem Koops and Michael Zuckerman, **Beyond the Century of the Child: Cultural History and Developmental Psyehology** (Philadelphia: University of Pennsylvania press, 2003).

2

الطفولة في المجتمعات الزراعية

«كان أوضح تغيير أتت به الزراعة هو إعادة النظر في جدوى الأطفال في العمل»

أول التغيرات الكبيرة

اشتمل الاقتصاد الطبيعي للكائنات البشرية على الصيـد والالتقاط. لقد لُخص معظم تاريخ هـذا النوع في اقتصاد الصيد والالتقاط، ومعنى هـذا أن الأفـكار والممارسـات الابتدائية التي كانـت الطفولـة مقصدها قـد صيغت في هذا السـياق أيضـا. إن معرفتنا بمجتمعـات الصيد والالتقاط في الماضي معرفة محدودة، لا تتجاوز حقيقة أن جماعات الصيـد والالتقاط، غالبا ما تضمنت 60 - 80 نفسـا من أسرتين ممتدتين أو ثلاث، كانت تتسـم بتخصـص الرجال في الصيد وجَمْع النسـاء للبذور والثمار الجوزية واللبية. للطفولة موضـع موافق لهذا السـياق، بيد أن التفاصيـل التي بـين أيدينا قليلـة؛ تأتي معظم الأدلة من البقايـا المادية وتضاف إليها ملاحظة

بعض مجتمعات الصيد والالتقاط التي بقيت إلى زماننا الحديث. ومع ذلك، فإن تقويم الطفولة في هذه المجتمعات مهم، والسبب هو استمرار بقايا عادات الصيد والالتقاط إلى يومنا هذا حتى في اقتصادات مختلفة جدا، وهو أيضا بعض جوانب الطفولة الطبيعية أو الفطرية التي تظهر بوضوح من خلال هذه البقايا. مثال ذلك أن الناس في مجتمعات الصيد والالتقاط كانوا هم المسؤولين عن التكيفات الأساسية لما في الطفولة من حاجة مديدة إلى الإعالة، وهي التي ميزت البشر عن أسلافهم وأبناء عمومتهم من أنواع الرئيسات الأخرى.

يعالج هذا الفصل أيضا أولى الثورات الكبرى في الظروف البشرية، أعني استبدال كثير من شعوب العالم الزراعة بالصيد والالتقاط في آلاف السنين التي تلت سنة 9000 ق. م. اشتمل هذا الانتقال على تعديلات عظيمة طرأت على معاملة الأطفال، وإن أعوزتنا المعلومات المفصلة بشأن هذا الانتقال، ومن ذلك مدى وعي الراشدين لمقدار ما يحدثونه من إعادة تعريف الطفولة. اشتمل أكثر التاريخ البشري، ابتداء من مجيء الزراعة وانتهاء إلى مئات قليلة من السنين خلت، على مجتمعات زراعية، ولذلك من المهم جدا العلم بالسبل التي اتبعها هذا الاقتصاد الجديد فحتّم في الطفولة صفات جديدة لكنها ثابتة مع الزمان. تُستنبط السمات الأساسية لشروط الطفولة في الزراعة من أقاليم كثيرة، لاسيما في أفريقيا وآسيا وأوروبا، منذ استهلال الزراعة في نحو سنة 8000 ق. م.

الأدلة المباشرة على الطفولة في مجتمعات الصيد والالتقاط مبعثرة جدا. وتتضمن النقطة الأكثر وضوحا القيود العظيمة التي فرضت على الطفولة بسبب محدودية الموارد على نحو متكرر، وبسبب الحاجة إلى السفر بانتظام بحثا عن الغذاء. كانت الصعوبات شتى، ومنها الصعوبة الشديدة في حمل الأسرة الواحدة لأكثر من طفل صغير واحد أثناء حركة الجماعة الصغيرة إلى موضع جديد طلبا للطرائد، مع ما في هذا من حدود صارمة على معدل الولادات المسموح به.

في حقيقة الأمر، كان قليلا عدد الأسر التي أنجبت أكثر من أربعة أطفال طوال مدة التكاثر كلها، والسبب هو الأعباء المديدة التي يلقيها كل طفل على مدد الغذاء المتاح. مما لا ريب فيه أنه كان في استطاعة الأطفال أن يعينوا النساء على التقاط البذور والثمار الجوزية واللبية، ولقد فعلوا ذلك، بيد أن حاجاتهم كانت دائما أكبر

من مساهمتهم؛ ولم يكن للأولاد قبل أوائل سنوات المراهقة (العشاريات) نفع حقيقي في الصيد البتة. طورت أكثر مجتمعات الصيد شعائر ذات مغزى تدخل بها الأولاد إلى الصيد، وتُصوّر بعض رسوم الكهوف رجالا راشدين وهم يُخرجون أولادا كبارا إلى الصيد، وهم أبناؤهم بلا ريب، لتدريبهم. حتى في يومنا هذا، يبقى لمظاهر البراعة في الصيد موضع القلب في شعائر بلوغ السن القانونية في بعض مجتمعات الصيد والالتقاط، ومما لا ريب فيه أنها كانت ذائعة في الأزمان الغابرة. لقد كانت أهميتها تفوق رمزيتها: إن أوان بلوغ الأولاد للسن التي يصبحون فيها أكفياء لكسب قوتهم ومساعدة أسرهم كان أوانا حاسما في الظروف القاسية التي تعمل تحت وطأتها جماعات الصيد.

على النحو نفسه، يوحي الدليل من مجتمعات الصيد والالتقاط المعاصرة أنه كثيرا ما كان دور الأطفال في الحياة الاقتصادية ضئيلا إلى حين بلوغهم المراهقة (العشاريات). كانت إنتاجية الفرق التي يرافق أطفالها نسوتَها في مشاوير البحث عن المؤن أقل بالفعل من إنتاجيتها حين يعمل الراشدون بمفردهم؛ والأمر ببساطة هو أن الأطفال يعرقلون العمل. لم تحاول الجماعات الأخرى أن تجعل الأطفال نافعين على نحو دائم إلى حين بلوغهم الرابعة عشرة أو نحوها. إن محدودية جدوى الأطفال قد شكلت هيئة هذه المجتمعات بطرق مميزة؛ ولعل هذا يُعين أيضا على تفسير القلة النسبية لتصوير الأطفال في الفن البدائي. كان لأطفال مجتمعات الصيد والالتقاط فرص كبيرة للعب، ونضرب هذا مثالا، وفي ذلك مزجٌ لفئات عمرية مختلفة. لكن أوضح تأثير للمحدودية في الوظائف العملية للأطفال كانت في عدد المولودين.

حصل تقييد معدلات الولادات بسبل شتى، لكن رأس تلك السبل كان هو الإرضاع المديد - ويبلغ أربع سنين أو تزيد - وفيه تضع كيمياء بدن الأم حدا لطاقتها على الحمل. لم تكن الطريقة غير قابلة للاختراق، بيد أنها كانت ذات آثار واسعة. نشأت حدود أخرى عن قتل المواليد عمدا - ولهذا أدلة أثرية في الأمريكتين وفي أستراليا والهند. كما عملت مجتمعات قليلة، مثل بعض جماعات الهنود الأمريكيين، تجارب على النباتات التي تحدث الإجهاض. من المؤكد أن كثيرا من الأسر قد وجدت نفسها ممزقة بين الرغبة الجنسية والحاجة إلى اجتناب كثرة الأطفال. كان للمرض وسوء التغذية نصيب في خفض عدد مرات الحمل بحدهما من خصوبة المرأة، كما كان لهما

أثر في معدلات بُقيا الأطفال الذين يولدون. لم يحفز طول الإرضاع وفرة الغذاء، كما أن الأسـباب المؤدية إلى الوفاة في مرحلة الفطام زادت من معدل الوفيات. لقد هاجمت الأمـراض الأخـرى الأطفال، وكان لبعضهـا، ومنها الملاريا، أن يحـد أيضا من خصوبة الراشدين. كان كثير من الأمهات يمتن في العقد الثالث من العمر - وكان العمر المتوقع قصيرا على وجه العموم - فكان في ذلك مزيد من الحد لمعدل الولادات لكل فرد.

مما يكشـف عـن أمور مهمة أنه في عشـية دخول الزراعـة إلى أوروبا كانت أكثر جماعـات الصيد والالتقاط لا تتكلف عناء دفن الأطفال الذين يموتون قبل الخامسـة. لا يجـوز أن نؤول هذا الأمر فنقـول إن الوالدين لم يكترثوا لوفاة أطفالهم؛ بل كان لهم وعـي صريح لحقيقة أن بقيـا أطفال كثيرين جدا هو بمنزلة الخطر الذي يحيق بالأسرة والجماعـة، وأن الموت أمر متوقـع. لذلك، وبالنظر إلى مختلـف التدابير التي اتخذت لتقليل عدد الأطفال، فإن عدد سكان مجتمعات الصيد والالتقاط قد ازداد ببطء شديد.

إن أهميـة القيود وحقيقة أن الأطفال كانوا بلا ريب عبئا بقدرٍ ما، ولاسـيما إزاء ما سـوف يـأتي مع الزراعة، إن هذين الأمرين لا يجـدر بهما أن يعمّيا على الفرص التي سنحت للأطفال في مجتمعات الصيد والالتقاط. أولا، إن يكن العمل أمـرا حيويا فإنه لم يكن متوافرا حتى للراشـدين. يأخذ العمل من كثير من أهل الصيد والالتقاط سـاعات قليلة فقط كل يوم، في المتوسط. يفسح هذا الأمر وقتا طويلا لأشـياء منها اللعب مع الأطفال ولعب الأطفال بعضهم مع بعض. في كثير من جماعات الصيد المعاصرة، كثيرا ما يلعب الأطفال والراشـدون معا، وإن يكن هذا الأمر يقلل من الفسـحة التي يخلو فيها الأطفال بأنفسهم فإنه يأتي بفرصة عظيمة لتفاعلات أوسع نطاقا. ثانيا، شرعت كثير من مجتمعات الصيد والالتقاط في وقـت باكر جدا تأتي بمتع إضافية للأطفال في أسر الزعماء، فكان ذلك هو أول الأمثلـة على اسـتعمال الأطفال للتعبير عن الفروق الاجتماعية، وهذه ممارسـة مستمرة بجلاء إلى اليوم الحاضر، لكن بصور مختلفة جدا. إن قبور بعض الأطفال الكبار في السن في المواقع المتقدمة على الزراعة تحتوي على مجوهرات مزخرفة، وأسـلحة من العظـام المحفورة، وحلي ملونة. عُثِر عـلى هيكل عظمي لطفل في أوروبا وُضِعت عند خصره سـكين من صوان، وقد أُضجع على جناح إوزة بيضاء. إن أجـلى ما أوحى به هذا النوع مـن المعاملة التفضيلية هو المكانة الاجتماعية

للأسرة، إذ تُستعمل الطفولة حتى عند الوفاة لبيان الثروة والأهمية، بيد أنه ربما عكسَ أيضا مودة حقيقية للأطفال المعنيين. أخيرا، إن لم يكن من ريب في أن الطفولة هي زمان اللعب والمعونة العرضية في العمل، فإن الرشد كان يأتي باكرا على نحو نمطي: متى تنقضِ شعائر الصيد يصبح الولد رجلا، كما أن كثيرا من الفتيات كنّ يدخلن إلى مرحلة الزواج والرشد في أوائل سنوات المراهقة (العشاريات). إن الفكرة العامةَ عن مرحلة الانتظار المديدة بين الطفولة والرشد، وهي شائعة في مجتمعات الزراعة والصناعة التي أتت بعد مجتمعات الصيد والالتقاط، لم تكن معهودة في هذه النسخة الأصلية من التنظيم البشري.

كانت الفروق بين الجنسين عند الأطفال في مجتمعات الصيد والالتقاط معقدة. كان يُعهد بالفتيان والفتيات إلى رعاية النساء فكانوا يجتمعون في ألعاب متشابهة. في المرحلة المتأخرة من الطفولة، كان الصبيان ينفردون عن البنات، لعلمهم بأن مصيرهم هو إلى الصيد، فكانوا يشكلون ألعابا وفرقا منفصلة. بيد أن الفرص للانقسام كان يقلل منها حقيقة أن جماعات الصيد كانت صغيرة، وأن عدد الأطفال في كل فرقة من الفرق قليل نسبيا. أضف إلى ذلك أن عمل النساء، وإن يكن مختلفا عن عمل الرجال، فقد كانت له الأهمية نفسها، من الوجهة الاقتصادية على أقل تقدير، مما قلل الفرص لبروز فروق عظيمة في المكانة بين الصبيان والبنات وهم ينشأون.

إن دراسات مجتمعات الصيد والالتقاط المعاصرة تميط اللثام أيضا عن تفاوت هائل بين وسط وآخر، من جهة أنواع الشخصيات التي يُشجَّع الأطفال على اتخاذها. وإذ كانت الجماعات صغيرة ومعزولة نسبيا فإن التنوع في المقاربات كان أمرا محتوما. لنأخذ الغضب مثالا على ذلك. تشجع بعض فرق الصيد والالتقاط الأطفال على شيء من الغضب، فيضرب الوالدون مثالا لذلك بالمقاربة التي يتبعونها في التأديب. أما فرق غيرها، مثل أوتْكو الإنْويت(*) في كندا، فتأبى أن تقر للأطفال بالغضب بعد سن الثانية، بل تَعدِم لفظا يعبر عنه، وفي ذلك تسليم منها بأن على الأطفال أن يجتنبوا التعبير المباشر عنه اجتنابا كليا مفضلين عليه البكاء أو إيذاء الحيوانات المدللة. إن أنساقا مختلفة ومحددة من تنشئة الأطفال هي الفاعلة، كما يبدو، في أحوال الصيد والالتقاط، تحت الأطر الأساسية التي تفرضها الموارد.

(*) هم الإسكيمو. [المترجم].

أخـذت الزراعـة مكان الصيـد والالتقاط قبـل نحو 10 آلاف سـنة، فأتت بمنظومـة اقتصاديـة جديدة على نحو مثـير كانت لها مضامـين كبيرة من جهة الطفولـة. انتـشرت الزراعة في أرجـاء العالم ببطء، ولم تعـمّ كل الأقاليم. بقيت جيـوب من الصيد والالتقـاط حتى اليوم الحاضر، كما نشـأت صيغة اقتصادية بديلة، هي عيشـة الارتحال التي عمادها اقتناء قطعان الحيوان. بيد أن الزراعة سـادت، بالانتشـار والإبداع المنفصل (في أقل تقدير، ظهـرت ثلاثةُ «اختراعات» للزراعة واضحة المعالم، في إقليم الشرق الأوسـط/ البحر الأسود، وفي البقاع التي يُزرع فيها الأرز في جنوبي الصين وجنوبي شرقي آسـيا، وفي أميركا الوسطى). وعلى نحو متزايد، غدت الزراعة أكثر الأطر شيوعا للتجربة البشرية، وبالتالي للطفولة.

كان أوضـح تغيـير أتت به الزراعـة هو إعادة النظر في جـدوى الأطفال في العمـل. بخلاف الحال في مجتمعات الصيد والالتقاط، أصبح من الواضح جدا أن العمـل النافع هو لب تعريف الطفولة في أكثر الطبقـات الزراعية - ومن ذلك الطبقات التي كرسـت نفسـها للإنتاج الحرفي والتصنيع المنـزلي. بالطبع، كانت التكاليـف لاتزال ملازمة للأطفال الصغار، لاسـيما قبل البدء بشيء من العمل في الخامسة أو نحوها. لم يكن الأطفال ليكسبوا نفقات معيشتهم على نحو تام حتى أوائل سنوات المراهقة (العشاريات)، بيد أنهم كانوا يقدرون منذ أواسط سنوات المراهقة على الإسهام الفعال في الاقتصاد الأسري بعملهم في الحقول وفي المنزل.

ليسـت لدينـا فكرة دقيقة عن سرعـة إدراك الأسر الزراعية لما في الأطفال مـن قوة عمل جوهرية كهذه. إننا نعلـم أن معدل الولادات شرع في الارتفاع سريعا نسـبيا، فكان ذلك تعبيرا عن اتساع المدد الغذائي الذي أتاحته الزراعة، وكان أيضا تعبـيرا عن الإدراك الجديد لإمكانيات الأطفال وما يجدر بهم فعله من نفعٍ يتجاوز المعونة العرضية في التقاط الغذاء. مما لا ريب فيه أن السبيل الأعظم الذي اتبعته الأسر لزيادة معدل الولادات كان التقليل من طول مرحلة الإرضـاع، فصارت 18 شـهرا أو نحوها في أكثر الأحوال، وهـذا الأمر (بافتراض وجود نشاط جنسي مستمر) قد زاد تلقائيا من عدد الأطفال المولودين للأسرة الواحدة إلى 6 أو 7، فأصبح هذا العدد هو المتوسـط المشـترك للناس العاديين طوال قرون الزراعة.

مما تجدر الإشــارة إليه، كإضاءة جانبية حيوية، أن معدل الولادات الجديد هذا لم يكن هــو الحد الأقصى الذي يمكن تحقيقه. نعلم، مــن مثال جماعة الهوتريتيين الدينية في كندا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، أنه متى أرادت الأسرة حقــا أن تنجب بكمال مــا يمكنها، ابتداء من خصوبة المرأة وانتهاء إلى ســن اليأس، فإنها تنجب من الأطفال ما بين 12 و14 في المتوسط؛ الأسر الزراعية التي فعلت هذا قليلةٌ، والتي رغبت فيه هي أقل من ذلك، أما السبب فهو ما يشكله من عبء ثقيل على موارد الأسرة. استمرت أكثر الأسر، إذن، تستعمل الإرضاع للحد من حجم الأسرة؛ كما أنهــا كثيرا ما ثبطت الاتصــال الجنسي بعد الحُلُم مبــاشرة (حتى للمتزوجين)، وعملــت على نحو نمطي على إبطاء النشــاط الجنسي للوالديــن في العقدين الرابع والخامــس من العمر، والســبب في ذلك من بعض الوجــوه هو حفظ عدد الأطفال داخل حدوده. كذلك شــهدت أكثر المجتمعات الزراعية إنجاب الطبقات الأكثر غنى أولادا أكثر من عامة الســكان، وذلك لأنها وحدها التي تملك وسائل الإعالة. ومع ما كان للمجتمعات الزراعية من حاجة مستمرة إلى حفظ التوازن بين معدل الولادات والمــوارد، فإنها قد أتت بتغييــر عظيم. لقد غدت الطفولة جــزءا من المجتمع أكثر أهمية، من الوجهتين الاقتصادية والكمية معا.

امتلأت القــرى الزراعية، نتيجة لذلك، بالأطفال. إن معــدلات الولادات العالية نســبيا والمتوســط المنخفض نســبيا للعمر المتوقع قد جعلا من الأطفال والذين في مرحلة الشــباب نصفَ العدد الإجمالي للسكان. إن التباين بين المجتمعات الزراعية وبين مجتمعات الصيد والالتقاط والأوســاط الصناعية الحديثة هو تباين مثير: لعل المجتمعات الزراعية لم تعامل الأطفال معاملة حسنة دائما، بيد أنها قد كانت متركزة حول الأطفال على نحو قد يعسر علينا أن نتخيله. هناك شيء من الواقعية في الفكرة العامة التي فحواها أن القرية بأكملها كانت تنشئ الأطفال، لم تكن المسؤوليات هي مســؤوليات الوالدين وحدهم؛ وهذا كان مردّه جزئيا إلى الكثرة البالغة من الصغار الموجودين. لقد اســترعى الأطفال الانتباه في المجتمعات الأوســع نطاقا أيضا: نصّت الأحكام القانونية، مثل أحكام ما بين النهرين، على الواجبات المستحقة للأطفال. في مصر وما بين النهرين كليهما، كان يُنظر إلى الأزواج الذين بلا أولاد بعين الريبة (إن لم يمكن للمرء أن ينجب أطفالا بنفسه، فلتتبنَّ الأسرة أطفالا، وهذه سبيل أخرى لنشر

العمالة والملكية كليهما). لقد أُدين ناسخ مصري لا ولد له فقيل فيه: «لستَ بالرجل المحترم لأنك لم تُحبل زوجاتك... أما الرجل الذي بلا ولد فليأخذ يتيما وينشّئه».

كذلك ازداد التطابق بين الطفولة والأطفال أنفسهم. كَثُر الإخوة وكثر من يُتفاعل معهم، وامتلأت القرى الزراعية بالرفاق المحتملين أيضا، لاشتمالها على بضع مئات من الناس، وذلك بخلاف جماعات الصيد التي تشتمل على ما بين 60 و80 شخصا.

ظل الموت رفيقا ملازما للطفولة. ومع أنه من الراجح أن تغذية بعض الأطفال قد تحسنت بعد التحول عن الصيد والالتقاط، فإن المجاعات أصبحت متواترة. غدت الأمراض المعدية من مثل الحصبة والجدري مشكلة للمجتمعات الزراعية أكثر مما كانت حال الصيادين، ولقد كان أثر ذلك في الأطفال والمسنين كبيرا لا يتناسب مع عددهم. لقد كان المرض والحوادث والموت كالسيوف المصلتة على الطفولات الزراعية. كان قليلا عدد الأطفال الذين لن يشهدوا موت ما لا يقل عن أخوين قبل سن الرشد، ولقد كان 30 - 50 في المائة من العدد الإجمالي للأطفال يهلكون قبل سن الثانية في المجتمع الزراعي العادي. كان هذا مصدرا جليا للحزن، ومع ذلك فقد تعيّن على المجتمعات الزراعية جميعا أن تعدّل أحوالها وفقا لمحتوم وفيات الأطفال، ولقد اقترن بالحزن في كثير من الأحيان اعتقاد عميق بالجبرية. إن كثيرا من الأسر لم تكن تتكلف تقديم المعونة الطبية للأطفال حتى لو كانت في متناولها أحيانا، فالموت كان يبدو أمرا محتوما جدا؛ وفي المجتمعات الزراعية بأسرها كان معدل ما قد يعده الناس الحديثون حوادث يمكن تفاديها - ومثالها سقوط الطفل في بئر - عاليا جدا.

طورت أكثر المجتمعات الزراعية مخاوف تثير الاهتمام بشأن الأطفال وأشياء أخرى يحق لنا أن ندعوها خرافات، ولعل ذلك كان ذا صلة بالموت. آمنت كثير من الجماعات الأفريقية بأن التوائم تحمل أرواحا شريرة، ولطالما دفعتها إلى الهلاك. كان الأطفال في الحضارة الهارابية الباكرة، التي قامت على نهر السند، تُثقب آذانهم لطرد الأرواح الشريرة. كان المسيحيون الأوروبيون يخشون الأطفال الذين يولدون ومعهم برقع الجنين (وهو غشاء يبقى بعد الولادة يغطي رأس المولود)، لاعتقادهم أنه ربما كان آية على تعاطي السحر. تنوعت التفاصيل، ولكن المخاوف حول الانحرافات كانت شائعة.

أثّـر حضور المـوت في الأطفال تأثيرا مباشرا على نحو جليّ، لاسـيما حين كانوا يشـهدون مباشرة وهم صغار موتَ أحـد الوالدين، ولم يكن ذلك نادرا. وصف أحد الكتاب الصينيين من عهد مينغ تأثير ما شـهده من موت أمه، وكان في السابعة: «لا يبارحني القلق على الذين لايزالون أحياء بأنه ربما لن تسنح لي معرفتهم على النحو الأتم - والسبب هو ذلك الحادث المفجع، الذي لايزال يؤلمني ألما عميقا».

إن المكانة المركزية للعمل تسـتحق تأكيدا خاصا. لقد شهد كثير من المجتمعات الزراعيـة قطيعـة حادة بين الأعـوام الأولى للمولـود وباكر الطفولـة، حين الدلال وإطلاق العنان، وبين الإدخال المباغت لضوابط أكثر صرامة في السادسـة أو السابعة أو نحوهـما، حين يصبح البدء بالعمل الجاد ممكنا. مثال ذلك أن الفولكلور الياباني قبـل الحديث كان يعـدّ الأطفال الصغـار في منزلة قريبة من الآلهـة، ولا يعدّهم جـزءا حقيقيا من هـذا العالم، فكانوا يعفون من القواعـد والقيود المتعارف عليها؛ لكن شـعائر الشـنتو التي تقام في نحو السـابعة كانت تُدخلهم إلى هذا العالم وإلى الحاجة إلى التزام قيود وتوقعـات مفصلة. على وجه العموم، كان للأطفال الصغار، في بيت زراعي أو حرفي، أن يعاونوا الأمهات في المنزل؛ الأطفال الأكبر سنا بقليل كان بإمكانهم رعاية الحيوانات الداجنة والمساعدة في الحقول في الأعمال البسيطة، ومنها الحصاد. كان للصبيان المراهقين أن يذهبوا إلى الصيد، كمكملين للعملية الأساسـية، لكـن الأمـر الأهم كان هو نشـاط العمل المنتظم كجزء من فريـق العمل الأسري. سـوف يُستورد المفهوم نفسـه إلى أكثر أعمال التصنيع، إذ يقوم الأطفال بالتنظيف، وتهيئة المواد وإنجاز المهام البسيطة في عملية الإنتاج، بينما يشرعون في تعلم المهنة بالتدريب الرسمي وغير الرسمي.

يأتي العمل بتفسـير لمدى الطفولة وأهميتها الجديدين، بيد أنه قد أدخل أيضا عـلى الطفولة الزراعية توترا أكـثر وضوحا مما كان في الصيـد والالتقاط. كان على الأسر، التـي تبتغي الحصول عـلى القيمة التامة من عمالة الأطفال، أن تسـتمر في الانتفـاع بخدماتهم حتى وسـط المراهقة (العشـاريات) وإلى آخرها. فلولا ذلك لم يكن الاسـتثمار في الأطفال الأصغر سـنا ليأتي بالمردود، ولربما وجدت الأسر أنفسـها قـد أعوزتها العمالة حين يدخل الوالـدون في الكبر. في كثير من المجتمعات الزراعية ينجـب الوالدان متعمديـن طفلا في أوائـل العقد الخامس مـن العمر - ويدعى

«الطفل المشـتهى» أو «فونْشـكيند» في ألمانيا الحديثة - حتى يعمل لهما متى بلغا الكـبر. كان تأخـير الأطفال عن بلوغ الرشـد التام أمرا جوهريا لكثـير منهم، حتى يسـتمروا في الفاعلية في الاقتصاد الأسري. قد يُسـمح لهم بالزواج، مع التسليم بأن يسـتمروا في وظيفتهم كجزء من الأسرة المتصلة؛ بيد أنهم لن يوهَبوا الاستقلال التام طواعية. ليس من المدهش أن شـعائر الاجتياز قد تغـيرت في المجتمعات الزراعية. فلقـد نزعـت إلى الانتقال من المظاهر التي تُبرز كفاية الطفـل في ميدان الاقتصاد، ومنها ما يكون في الصيد، إلى المراسـم الدينية التي تكون بمنزلة الإشـارة إلى النضج الروحي - أعني مراسم التثبيت مثل بار ميتسْفاه لدى اليهود. كانت هذه الشعائر مهيبة ومهمة على نحو حقيقي، بيد أنها لم تكن شـارات للاسـتقلال الاقتصادي من النوع الذي أرسته البراعة في الصيد.

وضعت أكثر المجتمعات الزراعية دلالة لمرحلة «الشباب» التي تمتد بين الطفولة الحقيقية والرشد الصريح، فجعلتها علامة على السنين التي يكون فيها العمل للأسرة لايـزال أمرا مسـلما به على نحو معهـود، أما مهارات العمـل ومقدراته فتكون قد بلغـت حينئذ نقطة متقدمة مـن الإنتاجية على نحو حقيقـي. لم يكن الجمع بين هذين الأمرين سـهلا بالضرورة. وسـترى أن المجتمعات الزراعية بأسرها قد طورت، عـلى هذا النحو أو ذاك، تأكيدا قويا للحاجة إلى غرس الطاعة في نفس الطفل، وكان أحد الأسباب في هذا هو الأمل في أن تدوم هذه الخاصية في مرحلة الشباب فتكون منشـأ لمنطق يؤيد العمالـة بالتبعية للاقتصاد الأسري. بالطبع، أرسـت المجتمعات الزراعية بأسرها مفاهيم واضحة للملكية، وذلك بخلاف مجتمعات الصيد والالتقاط أو مجتمعـات الرحل؛ وصارت الملكية تنتقل إلى الأجيال الأصغر سـنا بالإرث، وهذا دافعٌ آخر إلى مرحلة من العمالة المخلصة في سـبيل الأسرة تكون فيها للأطفال رغبة في الحرص على أن يبقى لدى الوالدين مقدار جيد مما ادخروه.

لكـن كثيرا مـن المجتمعات الزراعيـة قد اعترفـت أيضا بتوترات الشـباب فتسـامحت مع التعبيرات المتكـررة عن الروح المنطلقة، التـي تخرج عمدا على الأنسـاق المعهودة للحياة. إن الأعياد الزراعية، وتكون عند الزرع أو الحصاد، وفي كثير من الأحيان عند رواية الذكريات الدينية أو التاريخية، مثلت فرصا للأحداث (لاسـيما الذكور منهم) لنيل أدوار خاصة في الألعاب والمنافسات الرياضية، فكانوا

يرتكبــون أحيانا بعض الصغائر من التخريب المتعمــد أو الهزء بكبارهم وزعماء مجتمعهم. كثيرا ما كان جمهرة من الأحداث ينتظرون عند منزل المتزوجين حديثا ليضمنوا الدليل على أن الزواج قد وقع على الوجه التام (وأن العروس كانت عذراء، وهــذا من الوجهة المثالية). كان من المتفق عليه أن جُمهرة الشــبان المشــاغبين المنتظرين يُخدعون بإظهار ملحفة مصبوغة بالدم. كانت تلك الممارسات الصاخبة جزءا من حياة القرية في كل من أوروبا والشرق الأوســط في عصر الزراعة، بيد أن الســياق الذي كانت فيه كان ســياقا دينيا مختلفا جدا. في أوروبا، كانت مباريات المصارعــة التــي تعقد في أيام الأعياد تشــهد أحيانا نزالات بــين العزاب والرجال المتزوجــين حديثــا، فكانت دعوة صريحة للذين لم يؤهلوا بعــدُ للمكانة الأسرية لكي يعبروا عن إحباطهم بالانتصار في المنافسات. إن الشغب والتحلل من القانون بين حين وآخر كان وسيلة حيوية ليقبل الأحداث انحطاط مكانتهم الاقتصادية في معظم أيام السنة.

بالتســاوق مع تنامــي التأكيد على العمل وعلى فئة الشــباب الجديدة، المبهمة، أدخلت المجتمعات الزراعية بضعة تغييرات أخرى على تصوّر الطفولة وتجربتها، وقع هــذا حيثما ثبّتت أقدامها هذه الصيغة من التنظيم البشري. فإذ ولّدت الزراعة قدرا أكــبر من الفائض الاقتصادي، فإنها عززت من إمكان التعبير عن الاختلافات في المكانة بالطفولة وفي أثنائها. إن الفروق كانت قد ظهرت في أوساط الصيد والالتقاط، بيد أنها الآن غدت أكثر تفصيلا. مثال ذلك أنه في أواخر عهد حضارة مايا في أميركا الوســطى، كان الأطفــال في أُسَر النخبــة توضع حول جباههم عصائب منــذ الولادة، حين تكون جماجمهم لاتزال لينة، وذلك لإســباغ الطول على رؤوسهم فيُحدث ذلك شهادة بدنية مرئيــة تدل على وضعهــم الاجتماعي طوال العمر. وما حــدث في حقبة متأخرة من تقييد أقدام النساء في الصين، وبُدء به في الطبقات العليا، يأتي بمثال آخر على استعمال الأطفــال للتعبير عن المكانة. في هذه الحال، كانت أقدام الفتيات توثق وثاقا شــديدا حتى إن صغار عظامهن كانت تُكسر، فكان ذلك يجعل الفتيات والنساء يمشين وهن يجررن أقدامهن طوال العمر. كان يُنظر إلى ثمرة ذلك كعلامة على الرشاقة والجاذبية، عــلى الرغم من حقيقة أنها قد خفضت مقدرة النســاء عــلى العمل - وكان هذا هو السبب في عدم تمدد هذه الممارسة إلى الطبقات الدنيا والريفية من السكان.

عدا الممارسات الخاصة من هذا النوع، والتي لم تكن بالطبع متشابهة من مجتمع إلى آخر، فإن المجتمعات الزراعية كثيرا ما أتت بفروق أخرى أثرت في الطفولة. اشتمل أول هذه الفروق ببساطة على ما أتيح للأطفال في الطبقة العليا من مزايا تغذوية، إذ بزّوا معظم الأطفال في الوصول إلى الغذاء الملائم، لا سيما البروتينات (من اللحوم، على نحو جلي). نشـأت اختلافات في الحجم ذات شأن بين أطفال الطبقات العليا العاديين (والذين سيغدون راشـدين) وأطفال عامة السكان، ولقد نزعت هذه الاختلافات إلى حفظ الفروق في المكانة. اشـتمل التخالف الثـاني على التدريب والتخصص. لما كانت الاقتصـادات الزراعية تبزّ مجتمعات الصيد والالتقـاط في إنتاجها لفائض من الغذاء، في المتوسـط، فإنها كانت أيضا تتيح فرصا لأقلية من الأطفال حتى ينالوا تدريبا خاصا ليصبحـوا حرفيين مهرة (وفي هذه الحـال، كان من المعتاد أن يُقرن التدريب بالعمل، بواسـطة ترتيبات التمرين) أو ليقوموا ببعض أدوار الراشـدين، كالمحاربين أو الكهان أو الموظفـين الحكوميـين. في بعض الأحـوال، كان هذا التدريب يشـتمل على تعليم مدرسي رسمي. لم تكن الطفولة عند النخب المتعلمة يحدّدها العمل، بالمعنى المألوف لأكـثر الأطفال في هذه المجتمعات. لقد أُحدِث في أكثر المجتمعات الزراعية مسـلكان مختلفان جدا، علما أن أحدهما لم يُفتح سوى لأقلية صغيرة.

كذلـك ولّدت المجتمعات الزراعية فرصا جديدة للاتصالات المباشرة بين الأطفال والأجداد. لم يكن ذلك غير معروف في اقتصادات الصيد والالتقاط، حين كان الأجداد، ضمن أمور أخرى، مصادر للقصص والحكمة التي خلقت حسـا بالهوية للأطفال في المجتمعات التي تتكل على رواية المعرفة مشـافهة؛ بيد أن قِصر متوسط طول عمر الراشـدين قـد وضع حدا لتواتر ذلـك. لقد ظل كثير من الراشـدين في المجتمعات الزراعية يموتون في سن صغيرة، بيد أنه كان لعدد لا يستهان به منهم أن يبقى حتى يبلغ العقد السـابع من العمر. كانوا يقدمون المعونـة في رعاية الأطفال حال عمل أولادهم الراشـدين، ويؤمنون الصيغ الأخرى من الاتصال المباشر. تحمس أخيرا أحد البيولوجيين التطوريين لأهمية الأجداد في رقي النوع البشري بما يقدمونه من رعاية ومعرفة، إذا ما قيس بالأنواع الأخرى، حيث تُعدم هذه الرابطة؛ أيا كانت مزايا هذا الزعـم المثير للاهتمام، فإن الصلات قد ازدادت مع الزراعة ازديادا لا لبس فيه. لقد كان هذا بمنزلة تغيّر آخر عظيم الأهمية رافق الفروق الاجتماعية الجديدة.

أخيرا، شجعت الزراعة على أنواع جديدة من التخالف بين الجنسين عند الأطفال. إن المجتمعات الزراعية بأسرها قد تحولت إلى الأبوية في علاقات الجنوسة، وفي العلاقات بين الوالدين والأطفال، فحصل عدم تناسب في السلطة التي قُلدت للذكور والآباء بوصفهم مرجعيات للسلطة في الأسرة. في أكثر المجتمعات الزراعية، يُولى الرجال أكثر المهام إنتاجية في الاقتصاد الأسري - وهذه المهام، في الزراعة نفسها، هي المسؤولية عن زرع الحبوب؛ أما النساء فنزعن إلى أن يصبحن عاملات ملحقات، لهن شأن حيوي في أعمال الأسرة، بيد أنهن لم يكن ذوات أهمية على نحو مستقل كما كن في أوساط الصيد والالتقاط. بالطبع، فإن نشاطهن كأمهات قد ازداد بارتفاع معدل الولادات. لقد تُرجمت هذه التغيرات في صورة مساع محددة لبيان الاختلاف بين الصبيان والبنات، ليس من جهة المهام والوظائف القصوى في الحياة فقط، بل من جهة الأهمية أيضا. لقد عُمل على أن تشعر البنات بأنهن أدنى من الصبيان، وإن كانت هناك استثناءاتٌ فردية، حيث نال بعضهن تدليلا خاصا من الوالدين. إن تأكيد سلطان الآباء قد ظهر على أكبر نحو بصورة السيطرة على الملكية، فقد مُنح الآباء أداة للتعامل مع الأولاد حُرمت منها الأمهات، إذ حُرمن التكافؤ في ذلك على أقل تقدير؛ بيد أنه كان للأمهات أن يعوضن ذلك بما يستثمرنه في الأطفال عاطفيا وبقوة الشخصية، ولذلك فلا يجدر بنا المبالغة في الفرق بين الوالدين، وإن كان الفرق كبيرا في القانون والاقتصاد في المعهود من الأحوال.

لم تكن قضايا الجنوسة صريحة دائما. مثال ذلك أن الصبيان في الحضارة الصينية كانوا يقدّرون بأكبر قدر، لا شك في ذلك، وأن وأد البنات كان حقيقة لا شك فيها. بيد أن الفتيات الصغيرات حظين بالدلال وبلطف المعاملة أكثر من الصبيان - لاسيما الولد البكر - والسبب تحديدا هو أن مسؤوليات الرجولة كانت خطيرة جدا. في المقابل، لم يُتوقع الكثير من البنات، مما منحهن قدرا أكبر من الحرية.

إن تكن الفروق بين الجنسين حاضرة دائما، فقد كانت عرضة للتفاوت أيضا، وهذا أمر جليّ في الحضارات الزراعية الباكرة. لم تميز مصر القديمة بين الصبيان والبنات عند الميلاد، وكان ذلك مما أذهل الزوار الإغريق الذين اعتادوا على رؤية كثير من البنات يتركن للموت، وعلى ما لحظهُ أحد الإغريق: «إنهم يُطعمون كل الأطفال الذين يولدون لهم». لكن في ما بين النهرين، ومع أن الصبيان والبنات كان

يُعهد بهم إلى رعاية الأمهات حتى الفطام (في نحو الثالثة)؛ فإن الآباء كانوا يتولون حينئذ تدريب الصبيان ويتم تعزيز الاختلافات بصرامة. وعلى ما دوّنه أب سومري: «لست برجل إن لم أراقب ابني». كان الانتباه سلاحا ذا حدين: من جهة، كان الصبيان هم معقد الأمل للأسرة وكان الكبير يتولى أمرها إذا مات الأب؛ ومن جهة أخرى، كان للعقوبات على العصيان أن تكون شديدة، ومنها الحبس في المنزل، أو التقييد بقيود من نحاس، أو الوسم (على الجبهة). كانت الفرص المتاحة للبنات أقل من فرص الصبيان، ولكن كذلك كانت دواعي استنزال غضب الوالدين.

وعلى مثال مجتمعات الصيد والالتقاط، اشتركت المجتمعات الزراعية في عدة سمات عبر الأزمنة والأمكنة، بيد أنه كان بينها تفاوت عظيم أيضا، على ما كان جليّا في ممارسات الجنوسة. لقد أكّدت أكثر المجتمعات الزراعية أمر الأسر الممتدة، بما فيها من روابط متينة بين الأجداد المعمرين، والأولاد الراشدين وأزواجهم (وكان من المعهود أن تنتقل الزوجات إلى الأسر الممتدة للأزواج)، والأطفال؛ بيد أنه كان ممكنا أيضا نشوء أسر نووية(*) أشد عزلة من الأولى. أكد كثير من المجتمعات الزراعية على الرعاية الوالدية للأطفال، ما عدا الطبقات العليا التي كانت استثناء من ذلك؛ لكن في بولنيزيا كثيرا ما تبادلت الأسر الأطفال، بطرق من التبني غير رسمية. لقد طورت كثير من المجتمعات الزراعية توجها دينيا قويا، لكن القيم العلمانية كانت تطل برأسها في بعض الأحوال. أنكرت بعض المجتمعات الزراعية، انعكاسا للأبوية، أنكرت على البنات أن يتملكن؛ بينما منحت مجتمعات زراعية أخرى، على الرغم من أبويتها، حقوقا دقيقة في الملكية. منحت بعض المجتمعات الزراعية الابن البكر عناية خاصة، فنقلت الملكية الموروثة والمناصب بمنظومة من حق البكر في الإرث تركت الأبناء الآخرين، والبنات غير المتزوجات، بلا إعالة مضمونة؛ لكن مجتمعات أخرى قد وزعت الميراث على نحو أكثر اتساعا، بين الصبيان على أقل تقدير. مع أنه من الحَسَن استكشاف الموضوع بمزيد من التوسع، فإن العلاقات بين الإخوة قد تحددت بتفاوت كبير ظهر داخل العدد الكبير نسبيا لأطفال الأسرة الواحدة. ميّز المجتمع الأفريقي التقليدي الأطفال بحسب العمر والجنوسة، بيد أنه رعى المنافسة المفتوحة في المكانة، أما المجتمع الصيني فقد أكد تأكيدا عظيما حِفظ التراتب بين

(*) الأسرة النووية هي الأسرة التي تتألف من الأب والأم وأولادهما فقط. [المترجم].

الأطفــال بقواعد دقيقة للآداب. وفي الفصول الثلاثة الآتية ســوف أستكشــف أهم التفاوتــات التي نشــأت عن بعض التطورات الكــبرى في التاريخ العالمي بعد ظهور الزراعة نفســها: إن تأثير حضارات بعينهــا ونتائج التغير الديني تأتي على رأس قائمة العوامل التي قد يكون لها نفوذ ذو شــأن في الطفولة داخل السياق الزراعي، فتولّد بين المجتمعات الزراعية تخالفات منهجية على نحو خاص.

لايــزال مــن المهم تذكّر أن الزراعــة ذاتها قد أدخلت عــلى الطفولة بعض أكبر التغيرات التي خبرها النوع البشري في تاريخه. عملت أنســاق بعينها من حضارات وأديان مســتقلة تعمل داخل هــذا الإطار، مولدة تفاوتــات وتغيرات داخل بعض الأنساق المشتركة على نحو عريض. كانت الأسر فرادى والمجتمعات بأكملها تنظر إلى الطفولة، بعد مجيء الزراعة، على نحو مختلف عن السبل التي عُرفت بها الطفولة لــدى جماعات الصيد والالتقاط - وكان للاتــكال الجديد على عمالة الأطفال محل القلب في هذا التباين.

ليس من العجيــب أننا لانزال نتعامل مع موروثــات الطفولات الزراعية، حتى في المجتمعات التي طورت نســقا آخر كان بمنزلة الجسر حين تركت الزراعة مكانها للصناعــة. (ولاتزال الزراعة تحدد على نحو مباشر الحياة لنحو نصف ســكان العالم، وتفعــل ذلك في كثــير من الأحيان بصور تقليدية جدا، حتــى بالتوازي مع الظروف سريعة التغير التي تشهدها المدن في أماكن مثل الهند وأفريقيا). بل إن المجتمعات الصناعية لاتزال تنظم السنة الدراسية، في بعض وجوهها، حول التسليم بأنه ينبغي للأطفــال أن يُتركــوا في الصيف مطلقــين - للعمل في الحقول، هكــذا كان الأمر في ابتدائه؛ والآن، صاروا يطلقون لأمور أكثر إبهاما وتنوعا. لانزال نصارع بعض الفروق بــين الصبيان والبنات التي صيغت بعد مجيء الزراعــة، وإن غدا كثير منها الآن ذا مغزى موضوعي أقل من قبل. يستمر كثير من الناس الحديثين في الاعتقاد بأن جرعة من الزراعة، أو الســكنى في الريف على أقل تقدير، فيها منفعة لصغار المدن - لعل هذا الاعتقاد صحيح، بيد أنه يعكس أيضا الحنين إلى أنماط من الطفولة ظلت سائدة قرونــا كثيرة في ظل عصــور من الزراعة. قبل أن ننصرف فنترك الزراعة، وما فيها من مزيج من المزايا وضدها، نحتاج إلى استكشــاف بعض نُسَخ الطفولات الزراعية التي صحبت بعضا من واسمات التاريخ العالمي المألوفة جدا.

للتوسع في القراءة

- Patricia Phillips, **The Prehistory of Europe** (Bloomington: Indiana University Press, 1980).

- J.S. Wiener, **Man's Natural History** (London: Weidenfeld & Nicolson, 1971).

- Robert Braidwood, **Prehistoric Men** (8th edn, Glenview, IL: Scott, Foresman, 1975).

- Robert Wenke, **Patterns in Prehistory: Humankind's First Three Million Years** (4th edn, Oxford: Oxford University Press, 1999).

- David Christian, **Maps of Time: An Introduction to Big History** (Berkeley: University of California Press, 2004).

- Joanna Sofaer Derevsnki, ed., **Children and Material Culture** (London: Routledge, 2000).

- André Burguière, Christiane Klapish - Zuber, Martine Segalen and Françoise Zonabend, eds, **A History of the Family, I: Distant Worlds, Ancient Worlds** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

- A.R. Colón, with P.A. Colón, **A History of Children: A Socio-cultural Survey Across Millennia** (Westport, CT: Greenwood, 2001).

- Traci Ardren and Scott R. Hutsom, the Social Experience of Childhood in Ancient Mesoamerica (Boulder, CO: University Press of Colorado, 2006).

- Jane Eva Baxter, **The Archaeology of Childhood: Children,** Gender and Material Culture (Lanham, MD: AltaMira Press, 2005).

- Colin Renfrew, **Prehistory: The Making of the Human Mind** (London: Weidenfeld & Nicolson, 2007).

- Mario Aguilhar, ed., **The Politics of Age and Gerontocracy in Africa: Ethnographies of the Past & Memories of the Present** (Trenton, NJ: African World Press, 1998).

- Susan B. Hanley, **Everyday Things in Premodern Japan: The Hidden Legacy of Material Culture** (Berkeley, CA: University of California Press, 1999).



3

الطفولة
في الحضارات الكلاسيكية

يستكشف هذا الفصل والذي بعده العلاقة بين فكرتين مألوفتين جدا في التاريخ العالمي تندرجان في موضوع الطفولة: الأولى هي تأثير الحضارة، وتشتمل على مقارنات بين حضارات مختلفة؛ والأخرى هي نتائج مزيد من التغيرات التي حدثت داخل الحضارات الكبرى، ولا سيما التغيرات التي لازمت انتشار المعتنقات الدينية العميقة.

في كل مسح للتاريخ العالمي يُلحظ بروز الحضارة كصورة مخصوصة من صور التنظيم البشري ابتداء من نحو العام 3500 ق. م، حفزتها التغيرات التقانية من مثل استعمال المعدن، ولكنها ظلت مندسّة في الاقتصادات الزراعية: اشتملت الحضارات، باعتبارها مجتمعات أكثر تعقيدا، على زيادة في أهمية المدن بالنسبة إلى ما حولها من أكثرية ريفية، وعلى إدخال الكتابة، وعلى تعابير

«لا شك أن الأطفال في الحضارات الكلاسيكية قد أوجدوا لأنفسهم فسحا، بيد أن الطفولة في تلك الحقبة كانت أمرا جديا»

عـن الثقافة الرفيعة أكثر تفصيلا. كذلك أتـت الدول المنظمة لأول مرة بأجهزة قضائية ذات صبغة أكثر رسمية. السؤال هو: كيف أثر بروز الحضارة في الطفولة، بعد أن كانت الزراعة نفسـها قد حولت من صورتها تحويلا كبيرا. لا نعلم إلا القليل جدا عما إذا كان للحضـارات الباكـرة التي قامت في وديـان الأنهار من أثر أحدثتـه في الطفولة بخلاف المعلومات الأساسـية، لكن الصورة تتغير في وسط ازدهار الحضارات الكلاسيكية الكبرى في الصين والهند والبحر المتوسط/ الشرق الأوسط، ابتداء من سنة 1000 ق. م أو نحوها حتى انهيار الإمبراطوريات الكلاسيكية بحلول القرنين الخامس أو السادس الميلاديين. لم تحتضن الحضارات الكلاسـيكية أرجاء العالم جميعا - مثال ذلك أنها لم تصل إلى روسيا ولا اسـكندنافيا ولا أفريقيا جنوب الصحراء - بيد أنها قد ربطت أقاليم واسعة بعضها ببعض ربطا متزايدا، ولا سيما في الصين (حيث كان لذلك نفوذ في جيرانها من الآسيويين الشرقيين)، وفي شبه القارة الهندية، وفي البحر المتوسط. ولّدت كل واحدة من الحضارات الكلاسيكية خصائص لذاتها: منظوماتٍ اعتقادية وأساليبَ فنية، وأنساقا سياسية، وبنًى تجاريـة واجتماعية اشـتملت - حتـما - على الطفولة. أضف إلى ذلـك أن الحضارات الكلاسـيكية الثلاث قد بثّت جميعا، وهي نفسـها تأتي إلى خاتمتها، موروثات دامت مع الزمـان إلى قرون قريبة، بل لمّا تزل بعض أصدائها إلى يومنا هذا. مثال ذلك أن بعضهم يحاجج فيقول إن الأطفال في الهند يشجعون على الإتيان بتخيلات مفعمة بالحياة على نحو مخصوص بسـبب تقاليد القص التي تنبض بالحياة، وبسبب قدْر من الاعتقاد بأن الواقـع يتفـاوت بتفاوت الوضع الاجتماعي - ومثال ذلـك أن الواقع يختلف من جهة المحارب عنه من جهة التاجر - وبسـبب التحصيل الديني. لا ريب أن هذا الأمر ظني، بيـد أنـه يوحي بصلات مع التقاليد الهندية التي وُلدت منذ ألفي سـنة أو أكثر، حيث حُددت الأنساق الكلاسيكية التي صارت بمنزلة الخصائص.

يستدعي هذا أمورا جلية منها عملُ مقارنة بين المجتمعات الكلاسيكية المختلفة وخلْقِها لطفولات مختلفة اختلافا ما، وذلك داخل القيود المشـتركة للزراعة. يوحي المثال الهندي على نحو مباشر باسـتمرار بعض الفـروق في الطفولة، فروق ابتدأت في الحقبة الكلاسـيكية ولاتزال حتى يومنا هذا. لكن تلوح مسألة أكثر أصولية وأكثر صعوبة مما تَقَدم: هل الاتفاق أو التباين هو خير سـبيل لمقاربة أنساق الطفولة في كل واحدة من الحضارات الكلاسيكية الكبرى؟

إن الحضارة نفسها، وقبل الحقبة الكلاسيكية لما نشأت أول مرة في وديان الأنهار الكبرى، قد أتت إلى الطفولة ببضعة تغيرات لعل أولها هو، ببساطة، تقنين خصائص المجتمعات الزراعية الباكرة: لقد رُبط الأطفال إلى الزمرة الاجتماعية التي ولدوا فيها ربطا قانونيا. حددت القوانين الباكرة في ما بين النهرين، ومنها شريعة حمورابي، على نحو واضح، أن الأطفال الذين يولدون لأرقّاء يرثون الرق ما لم يُعتَقوا صراحة. كذلك وُرثت المكانات الاجتماعية الأخرى، ومنها رتبة الأشراف. لقد غدت هذه الصفات من خصائص الحضارات الزراعية. إن القانون الروماني سوف يُعنى على نحو مفصل بهذا النوع نفسه من القضايا، ومثال ذلك أنه سوف يعيّن أن المولود لأب مملوك وأم حرة يكون في الواقع حرا.

اشتمل التغير الآخر على القوانين الرسمية نفسها، التي جاءت نتيجة لنشوء الدول المنظمة. صار القانون عونا على تعريف الطفولة وواجبات الأطفال. استعملت كثير من الحضارات الباكرة القوانين لتأكيد أهمية الطاعة. لم يكن القانون في ما بين النهرين فقط هو الذي عين حق الأب في عقاب الابن العاق، بل كذلك فعلت الشريعة اليهودية؛ كان للعقاب أن يشتمل، في الشريعة اليهودية، على الإعدام.

على هذا النحو جاء في الكتاب المقدس في سفر التثنية: «إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه... يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته... ويقولان لشيوخ مدينته: ابننا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير. فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت».

كذلك سجلت حضارات أودية الأنهار الكثير من حلو اللحظات مع الأطفال، وهم يلهون أو يكبرون؛ لكن الإطار القانوني كان له مغزى أيضا. كذلك كان في الحضارات الباكرة، من مثل فينيقيا، أمثلة قليلة على قرابين الأطفال المتخذة منسكا دينيا.

كذلك اعتنت النظم القانونية للحضارات الباكرة بقضية الإرث عناية بالغة. كان من الضروري جدا تقليل الخلاف، وفي الحين نفسه ضمان نقل الملكية من جيل إلى جيل. لكن أحكام الإرث قد رسمت أيضا أنواعا مختلفة من المعاملة لأنماط مختلفة من الأطفال - الصبيان الكبار مقابل الصبيان الصغار أحيانا، والصبيان مقابل البنات دائما تقريبا - وختاما، إن الإصرار على الإرث قد قنن أداة عظيمة الأهمية لتأديب الأطفال أنفسهم، أداة ذات أثر كبير في ضمان بقائهم بالقرب من الأسرة وتقديمهم

خدمةَ العمالة حتى السنوات المتأخرة من المراهقة إن لم يكن في ما بعدها. إن إمكان حجب الإرث عن الطفل الذي لا يخدم أسرته كما يجب، وإن لم يكن فعالا دائما في الحيلولة دون هروب الطفل أو عصيانه، كان سمةً مركزية من سمات السياق الذي ضربته الحضارات الزراعية حول الطفولة.

ختاما، لقد كانت الكتابة في حقبة الحضارات الباكرة، فاقتضى ذلك أن كان لأقلية صغيرة من الأطفال تعليم مدرسي. بقيت إلى زماننا ألواح طينية من بلاد ما بين النهرين دُونت فيها دروس التلاميذ، وكذلك ترهيب من الوالدين للأطفال حتى يجتهدوا في دراستهم. كما أنها سجلت كثيرا من العقوبات للتلاميذ المتكاسلين، وأكثرها الضرب بالعصا. كانت القسوة مُحيقة بالتجربة التي يمر بها الطفل في الحضارات الباكرة. فإزاء كل قصة لطفل «سرّ» أباه بدروسه كانت هناك قصة أخرى لصبي جاء إلى الصف متأخرا، «خائفا وقلبه يخفق»، ولم يكن ما يلقاه هو الضرب بالعصا فقط، بل كان معلمه يرشوه ليحمل والديه على دعوته إلى العشاء. إن مجيء التعليم المدرسي والكتابة يعني أيضا أنه قد صار لنا أن نعلم بتجربة أطفال الطبقة العليا - وهم دون سواهم كان من المعتاد أن يتاح لهم تعلُّم القراءة والكتابة - على نحو يفوق علمنا بحال أكثر الأطفال، وأن يكون لنا أيضا علمٌ بحال الصبيان يفوق علمنا بحال البنات.

على وجه العموم، لم تترك حضارات أودية الأنهار سجلات مفصلة تفصيلا يمكن من عمل مقارنات ذات مغزى كبير، ما خلا بعض الممارسات الغريبة حقا مثل القرابين الفينيقية، أو غياب وأد البنات في مصر. لكنّ هناك استثناء واحدا، نشأ على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط نحو أواخر حقبة الحضارة الباكرة (ابتداء من 1100 ق. م). يتيح الدين اليهودي، لوفرة التوثيق الديني واستمرار وجود الدين نفسه، نظرات خاطفة إلى الطفولة في ثقافة باكرة محددة، نظرات تتجاوز نطاق الشريعة الرسمية. أحاط العرف اليهودي الطفولة بشعائر مفصلة، من ختان الصبيان في أول العمر (وجُعل ذلك، من بعض وجوهه، لتمييز أطفال اليهود عن سواهم) إلى التثبيت الديني، وهو أيضا للصبيان، في الثالثة عشرة ويكون ببار متْسفاه الذي يدل على بلوغ سن التكليف الديني. قبِل العرف الديني الباكر بقتل المواليد، فكان يُترك للموت المولودون الجدد الذين لا يُرغب فيهم، لكن الدين أحاط موت الأطفال

الآخرين بقدر من الأسف يفوق ما كان شائعا على ما يظهر في المجتمعات الباكرة الأخرى، ومن ذلك وجوب التعاطف مع الوالدين اللذين فقدا طفلا. كان من بين المسؤوليات التي جُعلت على عاتق الأسرة من جهة التنشئة الدينية قدر لا بأس به من التعليم، ومن ذلك القدرة على القراءة، وكذلك التبحر في التلمود لكثير من الصبيان. إجمالا، استوعب التقليد اليهودي الباكر بعض سمات الطفولة الشائعة في المجتمعات الباكرة، بيد أنه اتخذ مسالك مميزة، ومن ذلك تقدير المعرفة بالقراءة والكتابة، وسوف يبقى هذا ظاهرا على نحو مميز قرونا طويلة.

مع هذا الاستثناء المهم، كانت الحضارات الكلاسيكية، وقد نشأت في المرحلة الانتقالية بين الحضارات الباكرة في «ما بين النهرين» وبين الحقبة الكلاسيكية الآخذة في البروز، كانت هي نفسها التي أتت بأغنى توثيق لطبيعة الطفولة، وبعدد من التقاليد المحددة التي سوف تُشكل - كما فعلت اليهودية - صورا محددة للطفولة تبقى أمدا طويلا بعد الحقبة الكلاسيكية.

كان بين الحضارات الكلاسيكية الكبرى الثلاث، وهي تتطور ابتداء من نحو سنة 1000 ق. م، اختلاف في وجوه كثيرة. والتباينات بينها وافرة: العلم الصيني أكثر براغماتية من المقاربات النظرية التي كان يحبذها الفلاسفة الإغريق؛ النزعة الدينية الهندية مقابل ثقافتي الصين والمتوسط النخبويتين الأكثر علمانية؛ المركزية السياسية الصينية مقابل اللامركزية الهندية ولا سيما المتوسطية المعهودة؛ النظام الطبقي في الهند مقابل المتوسطي أو التحديدات الاجتماعية في الصين التي عمادها الكونفوشية. بالطبع، كانت هناك أيضا سماتٌ كثيرة مشتركة: الحضارات الكلاسيكية جميعا كانت توسعية؛ ولقد عملت جميعا على الإتيان بآليات جديدة لإحداث الاندماج في الثقافات والأساليب الفنية، وعلى الإتيان بهيئات سياسية ومنظومات تجارية؛ وكلها كانت أبوية؛ وكلها قامت على اقتصاد زراعي. لكن، من الوجهة النمطية، كان التباين يفوق أوجه الشبه في أكثر مظاهر المجتمعات الكلاسيكية من وجهة نظر التاريخ العالمي.

الأسباب التي تدعونا إلى توقّع أن يصدق هذا الأمر على الطفولات هي أسباب كثيرة أيضا، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار حساسية الطفولة لصيغ ثقافية معينة. بيد أن المقارنات الصريحة كانت نادرة، ولذلك علينا أن نبدأ من طرح سؤال بدلا

من وضع طائفة من الافتراضات. هل كان في العقائد والقوانين اختلافات أساسية تكفي لتبرير تجاهل بعض المتطلبات الشائعة للطفولة في الاقتصادات الزراعية، ولإحداث اختلافات ذات مغزى على نحو حقيقي؟ تُقدم الصين خطا ابتدائيا يُتخذ منطلقا للمقارنة، يمكن بعده التصدي للتحدي التحليلي الحقيقي، بمواد تؤخذ من منطقة المتوسط، ومن الهند (حيث لا تتيح المادة العلمية الموجودة إلا تحليلا موجزا).

كانت الصين أول حضارة كلاسيكية تتخذ هيئة واضحة على نحو معقول، ابتداء من سنة 1000 ق. م أو قبلها بقليل، وقد عملت ثقافتها ومؤسساتها على تشكيل عدد من السمات المميزة للطفولة. إن الكونفوشية والمؤسسات السياسية الصينية، ولا سيما ما توطد منها في أثناء حكم سلالتي تشين (221-202 ق. م) وهان (202 ق. م - 220 م)، قد تركت علامة مخصوصة، إذ ربطت الطفولة بسمات المجتمع العريضة ربطا واضحا. بيد أن عوامل أخرى سواها تدخلت في ذلك أيضا، ومن ذلك نسق الزواج المعقد والتعريف المتطرف للأمومة، وكان بعض ذلك متمما للمقاربة الرسمية، لكن بعضه كان يتعايش معها على نحو مضطرب.

كانت الكونفوشية فلسفة علمانية شددت على التراتب والنظام، فوضعت آدابا ومراسم رسمية لكبح النزوة الفردية ولإعلاء الانسجام. لقد سعت متعمدة إلى عقد الصلة بين الطفولة والأسرة والقيم السياسية الكبرى. بالنظر إلى انقسام المجتمع طبقتين عليا ودنيا، انتسخت من ضغط التراتبية صورةٌ شديدة الشبه بها ظهرت في الطفولة بالفصل بين الطفولة النخبوية وما فيها من تعليم وبين الطفولة العادية وما فيها من تفرغ للعمل. كذلك أنتجت الكونفوشية - وكان ذلك هو أيضا حال الحضارات الكلاسيكية جميعا إلى حد كبير - موقفا حيث المعلومات عن الطفولة عند الطبقة العليا أكثر بكثير من المعلومات عنها عند عامة الناس. كذلك ظهر التراتب في ممارسة كثير من أسر الطبقة العليا للاسترضاع، حيث تُجلب إلى أهل البيت امرأة من الطبقة الدنيا، قريبة العهد بالوضع، لإرضاع طفل رضيع جديد فيه. ربما تعلقت أسر كثيرة بالمرضِعة تعلقا شديدا، بيد أنه كان من الواضح أيضا أن هذه الممارسة قد كانت تعبيرا عن الامتياز، إذ تتحرر الأمهات الثريات من واجب قد لا يسرهن فعله.

لقـد حددت الكونفوشـية، على نحو مبـاشر، خصائص عدة للطفولة نفسـها. فعينـت قواعـد مفصلة كيف يُحِدّ الأطفال على موت واحـد من الوالدين - أوصى كونفوشيوس نفسـه بثلاث سنين للأب والأم كليهما، وهذا هو مقدار زمان الرضاعة للطفل. كذلك عينت القواعد ما يفعله الوالدان في ذكرى ولد لهما قد مات، فأكّدت عـلى عدم إظهار الكثير من العاطفة. لم يولَ الأطفال الذين يموتون صغارا أي عناية علنية تذكر. أصر كثير من الوالدين على التمسـك بالشـكليات في معاملة أطفالهم، فـكان يفترض عـلى أولئك تحية كبارهم كل صباح على نحـو دقيق، في الصيف، أن يسـألوا عما إذا كانوا مستبردين، وفي الشتاء، عما إذا كانوا دفآنين كما يجب. جاءت في إحدى الكراسـات الكونفوشية المتأخرة توسعةٌ لأمر المراسم التي ينبغي التمسك بهـا: في الأسرة الممتـدة الكبيرة، يأخذ كل فـرد منها موضعا مرسـوما له في القاعة الكبرى في يوم عطلة يأتي في الشـهر مرتين. «يأخذ أكبر الأبناء ناحية يسار الباب، أما كبرى البنات فيمينه؛ ويكون وجه كل منهما شـطر الجنوب، وينحني لهما إخوتهما وأخواتهما جميعا واحدا واحدا... ثم يتقدم الأزواج جميعا فيصعدون الدرج الغربي، أمـا الزوجات فيصعدن الدرج الشرقـي، وهناك ينحني لهـم الأولاد جميعا... بعد الفـراغ من هـذه التحية... يتقـدم الأولاد إلى الجانبين الشرقـي والغربي من الباب وينحني لهم إخوتهم وأخواتهم الذين يصغرونهم».

إن الثقافة الكونفوشـية، بما فيها من عظيم الانشغال بأمر حفظ الأسرة والذرية، قد ساعدت أيضا على وضع قدر غير معهود من الشروح على صحة المواليد والأطفال. كذلـك كان الدعم الحكومي والطبيعة العملية للعلـم الصيني عونين على نشر عدد كبير من الكراسات التي لها علاقة بطب الأطفال، وتعالج قضايا من مثل حفظ المواليد دفآنين، ومعالجة المشـاكل الهضمية، والإرضاع. كان لهذا النسـق أن يستمر إلى زمان متأخر من التاريخ الصيني، وأن يشـتمل على مزيد من تبسـيط المعلومات لتكون في متناول الجمهور. ليس من السـهل أن نعرف هل كان لذلك أثر فعلي في حُسن عافية المواليد. لعل كِبر عدد السكان يوحي بشيء من النجاح، لكن الصينيين لم يحدثوا خرقا حقيقيا في المستوى العالي للوفيات الشائع في الحضارات الزراعية، ولم يتركوا عادة قتل المواليـد. ومع ذلك فقـد كان إنتاج المواد مثيرا للإعجاب، ولربما كان له إسـهام في ما أظهره الصينيون منذ عهد قريب من حماسة للمكتسبات الصحية للأطفال.

لم يُقدم الفن والأدب الصينيــان إلا القليل مما يُظهر الإعجاب بصفات الأطفال كأفراد. لكن الأطفال قد استعملوا كرموز ونماذج في الدروس الأخلاقية، على مثال ما جــاء في قصة الطفل الذي أصر على احترام جديه الهرمين حين أظهر والداه لا مبالاةً بهما. كان الأطفال في النحت أو الرســم يعاملون معاملة مثالية من غير إسباغ صفة مميزة عليهم. كان تاريخ ميلاد الطفل يُلحظ بدقة، وبمنتهى الضبط، بســبب ما له لاحقا من شــأن جوهري في حســابات التنجيم، كالتي تُعمل لتعيين الوقت المناسب للزواج؛ بيد أنه لم يكن يُحتفل بأعياد الميلاد. بل إن إتيان السنة الجديدة كان يُغتنم لإحداث زيادة في عمر الناس جميعا (حتى الذي لم يمر على مولده منهم ســوى يوم واحد)، وهذه مقاربة جماعية يراد منها، على نحو جليّ، التقليل من التجربة الفردية إلى أدنى حد.

كذلك عقّدت الكونفوشــية من تعريف الطفولة نفسها. لقد حددت الطفولة الباكرة تحديــدا واضحا، وكانت في معظمها خالية مــن مظاهر التأديب القاسي. عينت المراســم بلوغ الطفولة خاتمتها بصورة واحدة: في الخامســة عشرة، يُسمح للبنات باســتعمال دبوس الشــعر؛ في العشرين، يُمنح الصبيــان قبعات. لكن قوة الأسر المتصلة وعلو التقدير للولاء للوالدين كان لهما أن يؤخرا من بلوغ تمام سن الرشد بمرحلة متوسطة.

أكّدت الثقافة والقانون كلاهما حقوق الوالدين وواجب الطاعة تأكيدا عظيما. لقــد كان مجرد الكلام عــلى نحو فيه نقدٌ لأحد الوالدين مدعاةً للعقاب، من جهة المبــدأ. الابن الذي يــضرب أحد والديه يجوز قتله بقطع الرأس ولو لم يحدث لهما أذى. بــإزاء ذلك، للآباء حق ضرب الأطفال متى شــاءوا، من غير أن ينالهم عقاب حتى لو قتلوهم. للوالدين أن يعاقبوا الأطفال على الكســل أو القمار أو الســكر، ومــن ذلك الطــرد من الأسرة. كانت المحاكــم القانونية تؤيــد الوالدين على نحو روتيني: «متى ينكّل الأب أو الأم بابن لهما تقبل الســلطات بذلك من غير مساءلة ولا محاكمــة». جــاء في أحد الأمثال التي تُذكَر كثيرا: «ليــس في العالم والدان على خطأ». وعليه، فقد كان من المتعارف عليه أن يدبر الوالدون لأطفالهم أمر الزواج، وكثيرا ما كانوا يبدأون التفاوض في ذلك بُعيد مولدهم، ويوقّعون الوثائق الرسمية في الخامســة أو نحوها، حيث كانت الغاية من ذلك بلوغ الحد الأقصى في ترتيب

أمر الملكية للأسر المتصلة - ومثال ذلك أن تُجمع قطع من الأرض بعضها إلى بعض، من جهتي الصبي والبنت.

كانــت القوانين التي تحمي الأطفــال على نحو مباشر قليلــة التفاصيل. كانت الرغبة في حفظ التناغم بين الأسرة يمتد نطاقها حتى تشتمل على المساعي التي يراد بها تسوية الشجار الذي يثور بين الإخوة، علما بأن العقوبات هاهنا كانت أقل شدة بكثــير. عملت الدولة عــلى حماية المرأة الحامل - كان أمرا مهــما أن يولد الطفل. أجازت ســلالة تشين قتل الأطفال المشوهين، لما في تنشــئتهم من تكلفة باهظة. في ما ســوى ذلك كان قتل الأطفال محظورا من حيث المبدأ، وإن يكن إنفاذ ذلك غير دائــم والعقوبات خفيفة في أكثر الأحيان، ومن الواضــح أن الولائد الإناث كنّ كثيرا ما يُدفعن إلى الموت، في أوقات الشــدة الاقتصادية. كذلك كانت الأسر الفقيرة تبيع أحيانا الأطفال رقيقا في أوقات الشــدة، بوصف ذلك وســيلة لعون الأسرة اقتصاديا والتخفيف من مطالب الإعالة.

كذلك شجعت الكونفوشية على التعليم، وإن خصّت الطبقة العليا بمعظم ذلك. ربما حاولت أسر الطبقة الدنيا، على نحو عرضي، توفير شيء من التمرين على الغناء أو الرقص للبنات، وكانت ترجو من ذلك أن تبيعهن جواريَ لرجل غني. وإذا مُيز - عــلى نحو عرضي - أن في أحد الصبيان الموهوبين مقدرة على التعلّم، كان يتولى راعٍ من الطبقة العليا أمر إعالته حتى يدرس في المدارس العليا. كذلك كانت بعض الأسر الثرية تتبنى الأطفال، وكانت تتخذ ذلك وســيلة للحصول على ورثة متى حُرمت من الأطفال، أو إذا لم يولد لها ابن.

ابتــداء من الحقبة الكلاســيكية، ظهرت كثرة من المؤلفــات التي تورد توصيات بشــأن التعليم، وإن لم يكــن الوصول إليه متاحا لغير أطفــال الطبقات العليا - إلا نادرا. كان للمادة أن تكون مفصلة جدا، وفي ذلك إشارة إلى كلّ من أهمية الموضوع وشــكلانية المقاربة الكونفوشــية؛ كان مــن الواضح أيضا أن الإرشــاد أمر جوهري، الأخلاقــي منــه والأكاديمي. لقد حفِظ ســيما غوانْغ، في ما كتبــه العام 1062م بعد الحقبة الكلاسيكية، الروح الكونفوشية في قوله: «في السادسة، ينبغي تعليم الأطفال أســماء الأعداد. ... في الثامنة، متى يدخلــوا الأبواب والبوابات ومتى يخرجوا منها... يجب عليهم أن يسيروا خلف كبارهم. هذا هو مفتتح تعليمات الاحترام. في التاسعة،

يعلّمون عدّ الأيام. في العاشرة، يخرجون إلى معلّم خارج المنزل، فيقيمون عنده وينامون خارج المنزل. يدرسون الخط والحساب». مضى سيما غوانْغ يقول، بمزيد من الوضوح: «الذين لا يدرسون لا يعرفون الشعائر ولا الفضيلة، والذين لا يعرفون الشعائر ولا الفضيلة لا يمكنهم تمييز الخير من الشر ولا الحق من الباطل... فعلى كل إنسان، إذن، أن يدرس».

وكما في كل المجتمعات التي تؤكد على التعليم، اكتسب الوالدون في الطبقة العليا واجبا أيضا، واجب العمل على أن يفلح أطفالهم في دراستهم. كانت تقع على الآباء مسؤولية الإشراف على أداء الأبناء بلا شك، بيد أنه ربما كان للأمهات في ذلك دور أكبر. حثت المؤلفات على أهمية الأمهات في أولى مراحل التعليم، حتى والجنين في الرحم. هناك قصة مشهورة عن أم الفيلسوف مِنْشيوس تبيّن اهتمامها. رجع منشيوس ذات يوم من المدرسة بعمل مدرسي دون المستوى. كان ردُّ فِعل أمه على ذلك أن أتلفت، متعمدةً، ثمرة يوم واحد من عملها بالحياكة - وهذه من المسؤوليات المنزلية للمرأة - لتبيّن له أن الزمان الذي يضيع لا يُرتجع أبدا.

كانت الكونفوشية أبوية على نحو صارم، بيد أنها أوحت بإشارات مبهمة إلى التذكير والتأنيث، إشارات شكلت بنفسها تصوّرات الطفولة الصينية الكلاسيكية. من جهة، كانت أدوار النساء مختلفة عن أدوار الرجال، وكانت البنات أدنى مكانة من الصبيان. اتفق المسؤولون، بسبب ذلك، على الدعوة إلى أن تنال البنات نوعا مميزا من التعليم، تؤكد فيه المهارات المنزلية والخضوع. لكن بعضهم حاجج قائلا إنهن مستحقات للتعليم، ومن ذلك تعليم القراءة والكتابة - وذلك، مرة أخرى، في أسر النخبة. ذهبت بان جاو، وهي مؤرخة مشهورة وصاحبة إحدى الكراسات الصينية الكبرى حول النساء، إلى أن تعليم البنات واجب من أجل أن يعرفن مكانتهن الدنيا، بالإضافة إلى تعلم المهارات الضرورية ليُدرن أمر أهل البيت، وفي هذا تحوير ذكي للتراتب الكونفوشي. كان الشغل الشاغل للمراجع الكونفوشية هو إبراز اللامساواة. وعلى هذا النحو فإن المبدأ الكونفوشي القائل بأن على الأطفال أن يحزنوا على وفاة أمهاتهم وآبائهم بالمدة نفسها قد حُرف بعد ذلك وجُعل مكانه الإصرار على أولية الآباء: «ليس في السماء شمسان، ولا في الأرض ملكان... ولا في الأسرة اثنان مستويان في حق التكريم».

لم تكن الكونفوشـية، وقد آزرها القانون، هي كل الحكاية. فلقد كان لخصائص أسرية أخرى نصيب في تشكيل صورة الطفولة في الصين، ولاسيما في الطبقة العليا، مرة أخرى، وكذلك لبعض الشـقاقات العاطفية غير المتوقعة بين الوالدين. لقد عكست العوامل الأخرى اختلافات في الشخصيات الفردية، وتغيرات طرأت مع الزمان.

كثـيرا ما كان رجـال الطبقة العليا يتخذون أكثر من زوجـة واحدة، والأكثر من ذلك أنهم كانوا يعولون جارية أو أكثر. كان لهذا الأمر أن يحدث اضطرابا في الأسرة، ومن ذلك التنافس الشـديد بين الإخوة غير الأشـقاء، فينعكس ذلك في التوترات بين أمهاتهم. «لما كانت للأمهات من مشاعر قوية، فإن الأبناء تحزبوا أحزابا». بالطبع، لم يكن هذا الأمر موافقا للاهتمامات الكونفوشية، فكان بمنزلة سبب آخر للمبالغة في تأكيد الطاعة والشـعائر؛ ومع ذلك فقد نشبت النزاعات. إذا لم يكن للزوجة الأولى صبيان - وهذا من أسـباب اتخاذ زوجها جاريةً - فإنها كانت كثيرا ما تتولى تنشـئة ابن الجارية، لتوطيد موقعها من السـلطة داخل الأسرة، ولو كان ذلك على حسـاب الاختلاط في ولاءات الولد.

إن السـير الذاتيـة التي وضعها الراشـدون من الطبقة العليـا، ابتداء من عهد هان، لا تُـبرز ذكر الآباء إلا نادرا. يظهر الآباء كرمـوز بعيدة للمرجعية، ويُحمدون أحيانا بسبب التشجيع على التعليم. لكن على ما يظهر فإن الروابط العاطفية كانت ضعيفة على نحو مميز. بـإزاء ذلك، كانت العلاقة مع الأمهات مفعمة بالحياة على نحو غير معهود، وهذا يعكس تجربة طفولية لم تفتأ تشـكل صورة الرشـد. أكّدت الثقافة الصينية أهمية الأمهات وكذلك صعوبة المسؤوليات الملقاة على عاتقهن. من الجليّ أن الإصرار الكونفوشي على واجب الولاء للوالدين كان له أن يعزز الإحسـاس بالدَّيـن - بحسـب ما جاء في أحَـد الأقوال: «الابـن ولدٌ ما دام أبـواه في الحياة». لكن مقدار اتجاه هذا الارتباط نحو الأمهات على نحو غير متكافئ لم يكن منشـؤه المنطقي هو العقيدة، بل واقع نفسي مميز لعله قد تشكّلَ كرد فعل على الخصائص الكونفوشية التي أكّدت كثيرا منزلة الأب في رأس التراتب. يبين أحد الرسوم من عهد هان الصورة المثالية التي نتجت عما ذُكر: تهُمُّ إحدى العجائز بضرب ابنها الراشـد، ولشدة محبته فإن الأمر الأوحد الذي يشغله هو الخوف على أمه النحيلة أن تؤذي نفسها وهي تضربهُ. ذهب كثير من العلماء إلى أن شدة هذه الآصرة بين الابن وأمه

قد أحدثت ضغوطا نفسـية في الأطفال والشـباب من الصينيـين، تختلف عن تلك الموجودة في المجتمعات الأخرى.

في الآونـة الأخيرة اقترح أحد المؤرخين خطا متمما مـن التحليل، ملاحظا أنه في بعض الأسر كان الآباء والأمهات يتشـاورون ويتعاونون في قضايا تنشئة الأطفال على نحو فعال. بالنظر إلى ما في الثقافة الصينية من أبوية قوية ظاهرة، فإنه في كثير من الأحيان كانت الأم دون سواها من النساء هي التي كان للرجل أن يعرفها جيدا أو أن يحبها من غير تحفظ؛ وكذلك كان شـأن الأمهات مع صبيانها، فهم دون سواهم من الذكور الذين كان لها أن تعرفهم جيدا وأن تحبهم بشدة. نشأ عن هذا الأمر شديد التأكيـد للولاء للأم، فأتى بقصص تمس شـغاف القلب بما ترويه عـن الرجال الذين يخدمون أمهاتهم إذا مرضن أو ترملن تعبيرا منهم عن حبهم الكبير.

من الجليّ أن الطفولات الصينية لم تكن متجانسـة ولا سـاكنة، مع ما كان فيها من بعض السـمات العامة. لعل الأسر، إذا أخذت على نحو مسـتقل، كانت أقل صرامة مما يمليـه المعيـار الكونفوشي، فكانت تعبّر عن مودتها على نحـو أكثر علانية. كثيرا ما كانت البنـات يُقدَّرن بقدر يفوق ما توحي به العقيدة الرسـمية؛ كان كثير من الآباء يفضلون، عـلى مـا يظهر، البنات في مجال التفاعل اليومي، مثـل الرجل الذي كتب يذكر كيف أنه «في المسـاء عند رجوعي إلى المنزل كانت ترحب بي بابتسامة كبيرة». لكن الحقبة ما بعد الكلاسـيكية أيضا هي التي شـهدت شروع أسر الطبقة العليا بالإتيان بالممارسـة المؤلمة والموهنـة، أعنـي حزم أقدام البنات. كان موت الأطفال يسـتثير حزنا شـديدا، ولو كانوا صغارا؛ لقد أصر أحد الأباطرة على إعلان الحداد عاما كاملا على بنت له ماتت قبل أن تتم سـنتها الأولى، فَعَل ذلك رغما على مستشاريه الذين تمسكوا بالقول إن ذلك ليس بلائق. على ما يظهر، كانت التعليقات على الحزن أكثر شـيوعا في ما بعد الحقبة الكلاسيكية، في عهد سلالة تانغ. لقد عبَّر أحد الشعراء عن نزعة الحزن التي ألمّت به عندما زار قبر ابنته أحسـن تعبير: «وأنا أبكي فوقك أسـتطيع رؤية عينيك ووجهك. كيف لي أن أنسى كلماتك وتعابيرك؟». من التغيرات الأخرى التي طرأت في الصين بعد الحقبة الكلاسيكية ما جاء به بعض أهل المراجعة من مقاربات للتعليم قللت الحث على التأديب، وأفسحت في المجال لمزيد من العفوية، وشـجعت على اللعب. كان للطفولة الصينية إطار محدد ومميز، وقد صمد كثير من جوانبهاعبر الزمان؛ بيد أنها كانت أيضا عرضة للتحديات وللتعديل.

لم تترك لنا مجتمعات المتوسط الكلاسيكية رزمة ثقافية مثلما فعلت الكونفوشية، رزمة يعمل من خلالها المعاصرون على تشكيل إطار للطفولة، أو يتخذ منها المؤرخون الحديثـون نقطة يدخلون منها إلى هذا الموضوع الذي يتسـم بالخصوصية في كثير من الأحيان. لكن مما يبعث على السعادة أن لدينا قدرا كبيرا من المعرفة التاريخية حول بلاد الإغريق، وروما خاصة، معرفة تمدنا ببيانات آسرة تسمح بإجراء مقارنة.

إذا مـا اتخذنـا الصين نقطة انطلاق، فـإن الطفولة في منطقة البحر المتوسـط الكلاسيكية تبرز لها سمات ثلاث (تبرز هذه السمات فوق قدرٍ مهم من الاختلافات في طبيعة المصادر المتاحة والتنوعات الإقليمية المحلية المهمة - كما كانت الطفولات في إسـبارطة، على سبيل المثال، حيث لم يمارس قتل المواليد على ما يظهر، مقارنة بما في طفولات أثينا).

● أولا، ما تسـجله حضارة المتوسط الكلاسيكية من الأدلة على شدة ارتباط الأطفـال مع والديهم، لا سـيما الأمهات، هو أقل بكثـير مما يظهر في الصين في الحقبة نفسـها. لا ريب في أن الشرّاح الرومان قـد لحظوا أن الأمهات كن أكثر علانيـة في حبهـن للأطفال من الآباء، بيـد أنه لم يبرز للعلن مـا في الصين من آصرة مفعمة بالحياة. لا يعني هذا أن الروابط لم تنشـأ البتة، بصفتها جزءا من التجارب الفردية؛ الأمر ببساطة هو أنها لم تبرز عما هو متعارف عليه. كان أحد أسـباب ذلك هو حجم جماعة الراشدين الذين يحيطون بالأطفال. في كثير من البيوت، لا سـيما في مسـتوى النخبة، كان عدد الراشدين الذين يتفاعل معهم الأطفال، وكثيرا ما كان يشـتمل على المرضعات، يشتت تركيز الأطفال العاطفي، ومـن الراجح أن أثر ذلك كان أكبر من أثـره في الصين. على رغم أن الآباء كانوا رمـوز تأديب، فإنهم كانوا أكـثر احتمالا لأن يكون لهم دور في الطفولة الباكرة، وفي ذلك مزيد من التشـتيت عن تركيز الأم. كما كانت الأسر المتوسـطية أقل مـن نظائرها الصينية اسـتقرارا على نحو ما، وأكثر عرضة للطـلاق والنزاع، في العصور الرومانية على أقل تقدير. في الحين نفسه كان التنافس الداخلي، كالذي ينشـب بين الزوجة والجارية، أقل مما كان يحـدث في الصين، حيث كان ذلك يدفع بالأمهات إلى التركيز الشـديد على نسلهن. لقد كانت المعايير والتفاعلات العاطفية مختلفة إلى حد ما.

● إن الأساليب الفنية التي نشأت في اليونان وروما، بالتزامها تصوير السمات الفردية تصويرا مفصلا، قد امتد نطاقها إلى المظاهر التصويرية للطفولة (ينبغي علينا الاعتراف بأن هذا الأمر قد يعكس اهتماما أكثر عمقا بفردانية الطفولة؛ والسؤال هنا هو أيهما جاء أولا الأسلوب أم مقاربة الطفولة؟). يظهر الأطفال على نحو متكرر على الأفاريز وسواها من الأعمال الفنية، ويبدو أسلوب تصويرهم أقل ثباتا مما هو في الفن الصيني.

● اشتمل النقاش في الطفولة عند اليونان، وعند الرومان على وجه الخصوص، على قدر من الانشغال العلني بأمر الشباب أكبر مما كان في الصين، حيث قدمت الكونفوشية مُثُلا للتراتب والطاعة صارمة على نحو قيد النقاش العلني. اشتملت ثقافة المتوسط على قدر من الإعجاب بالشباب، ومن ذلك الجسد الفتي. لكن الشباب كان يُنظر إليه أيضا بوصفه زمانا للاضطراب المثير للمتاعب، وحالا غير محبوبة، بل خطيرة، يجدر بها أن تفضي إلى نضج الرشد حالما يمكن ذلك. مما لا ريب فيه أن الفيلسوف الأثيني سقراط قد سعى إلى الرقي بصفات الشباب وتحويلها إلى روح أكثر نقدية، بيد أنه عُوقب على مسعاه تحديدا بسبب قلق مجتمعه من أن ضلال الشباب قد يفسد التناغم السياسي. كذلك عملت النخبة اليونانية (وفعل ذلك بعض الرومان بالممارسة، علما بأن العادات اليونانية قد تعرضت هنا للتوبيخ الرسمي) على إنشاء صلات متواترة بين الراشدين والشبان - وهذا اعتراف آخر بما في الشباب من صفات إيجابية، وهي هنا جمالية وجنسية، بيد أن هذا الاعتراف هو أيضا إصرار على الحاجة إلى توجيه الراشدين وهدايتهم. وأخيرا، كان في ثقافة المتوسط الكلاسيكية حزن على موت الولد المراهق أكثر علانية منه في الصين، فكان يُجمع بين العويل الشخصي والمظاهر المفصلة للجنازة، وفي ذلك حداد على الخسارة الشخصية وعلى الضربة التي أصابت الأسرة، إذ رحل عن هذه الأرض قبل الأوان مَن كانت تتطلع إليه ليَعولها في الآتي من الزمان. من جديد، النقطة الإجمالية هي تعقيد الشباب بوصفه فئة في ثقافة المتوسط، بدوافعه المتنوعة وتقييماته ذات العلاقة، وذلك إذا ما قورن بما في الصين، هل لهذا الأمر أيضا ارتباط بما في الفن المتوسطي من اعتراف بفردانية الطفولة، ارتباط ينشأ عنه فرق أساسي في المقاربة على نحو أكبر؟

إزاء هــذه الفروق الآسرة، المشــتقة من التفاوت في الثقافــة وبنية الأسرة، تبرز أوجه شَــبَه عدة صارخــة جدا، بالنظر إلى أنه لم يكن بــين هذين المجتمعين اتصال مباشر بأي شــكل. بعض أوجه الشــبه هــي مما يمكن التنبؤ به عــلى نحو ما، لكن بعضها يوحي بصفات شــائعة في الطفولة شيوعا أعمق مما يتوقعه المرء في ثقافتين ومنظومتين سياسيتين مختلفتين على هذا النحو.

إن بضعة من أوجه الشــبه الجلية قد نشــأت نتيجة للحاجة إلى تحديد النسل وإلى المعدلات العالية لوفيات المواليد، وهي من خصائص المجتمعات الزراعية. كان قتــل الولائد الإنــاث ذائعا: تذكر بعض التقديرات معــدلا يبلغ 20 في المائة من كل البنات اللائي وُلِدنَ في أثينا. لعل روما كانت أقل انغماســا في هذه الممارســات، بيد أنهــا كانت تتخلــص من بعض الصبيان؛ ومع أن الإمبراطورية قد ســنت (على غرار ما فعلت نظيرتها الصينية) القوانين التي تحرم هذه الممارســة، فإن وسائل تطبيقها كانت قليلة. كذلك عمل الرومان تجارب على بعض موانع الحمل والإجهاض. وعلى نحــو ما كان في الصين، لم يُول موت الأطفال الصغــار كثيرا من الاهتمام. كتب أحد المؤلفين، ويدعى إبيكتيتوس، يعلق على ذلك: «حين تقبّل طفلك تقول لنفسك: لعله يمــوت في الصبــاح»، كتب الكاتب الروماني بلوتارخ ملاحظــا أنه حين يموت المواليد «لا يجتمع الناس حول جنائزهم ولا يقومون عند قبورهم». تقام المراســم لتحديد ولادة الطفــل بعــد نحو ثمانية أيام مــن الولادة. فيوضع عليه عقــد، «بولّا»، عوذة من الأرواح الشريرة. وكما في الصين، كانت الأسر المتوســطية الكلاســيكية تقيم أيضا المراســم علامة على بلوغ الصبيان، في نحو الخامســة عشرة؛ كانت المراسم في روما تشــمل ارتداء لباس الراشــدين - «توغا» - ونزع العقد - «البــولّا». لم يُخص صغار الأطفال إلا بالقليل من العناية في المؤلفات الأدبية، ولم يظهر بشــأنهم اهتمام كبير في المؤلفات الطبية.

أكّدت الثقافة المتوســطية الكلاســيكية الفــروق بين الصبيــان والبنات تأكيدا شــديدا، وإن لم تكن الفروق مطلقة في واقع الأمر كما هي في الصين. كان الصبيان أكثر احتمالا أن ينالوا تعليما مدرسيا، بيد أنه قد كان لبنات الطبقات العليا مدرسون أحيانا، كما وجد القليل من مدارس الإناث. في المجتمعين الكلاسيكيين كليهما، ومن جديــد ليس هذا بالأمر المدهــش، كان نيل التعليم المدرسي أمرا يميز الطبقة العليا

من الدنيا، وإن امتد إلى ما دون النخب شيء من الاهتمام بالتعليم المدرسي بوصفه وسيلة لتعزيز مستقبل الحياة المهنية للأطفال. كان مضمون التعليم المدرسي في الصين والمتوسط مختلفا - كانت العناية بالبلاغة والخطابة أمرا ملحوظا في اليونان وروما - لكن المجتمعين كليهما تميزا بكبير الاهتمام في التاريخ السياسي والكلاسيكيات الأدبية، وبتركيز قوي على الحفظ. ومع أن الآداب التي فرضت على أطفال النخبة في المتوسط ربما كانت أقل تفصيلا منها في الصين الكونفوشية، فإن التعليمات بشأن «كيف تمشي.. كيف تأكل» كانت جزءا مهما من التربية المسؤولة.

كان للانضباط والطاعة أهمية كبيرة، وإن لم تكونا متوقعتين بالقدر ذاته، فقد كانتا سمتين واضحتين للحضارتين الكلاسيكيتين. كانت الأعمال الأدبية التي تُعنى بالنصح وكذلك القانون يؤكدان كلاهما سلطة الوالدين، لا سيما سلطة الأب، ولنأخذ هذا القول: «كيف يستطيع تربية الأبناء من ليس له عليهم سلطان السيد؟»، أو هذا القول: «السيد والأب نظيران، وأحدهما مثل الآخر». كانت إيحاءات الكونفوشية في الصين يضاهيها في المتوسط ذِكر الرق؛ لقد اختلفت اللغتان، لكن النتيجة كانت واحدة. إن الوالدين، حتى الذين هم من أهل النخبة، كانوا، إذ يرسلون أبناءهم إلى المعلم ومن بعده إلى المدرسة، يسلّمون بأن التأديب القاسي شيء ضروري لاستقامة الصبيان. وبعبارة أخرى، الجو الذي كان يفرض على الأطفال الذين يستخدمون في العمل قد امتد نطاقه حتى إلى الأقلية من نسل النخبة التي حظيت بالتعليم، ولم يفترض أنه من المحتمل أن تستمتع فئة الأطفال بالتعليم.

كذلك تصارع المجتمعان كلاهما مع الأطفال الذين لا يقبلون بالخضوع، الذين يتركون النظام القمعي للأسرة ويهربون منه إلى الجيش أو غير ذلك. إن تأكيد الطاعة، التي تكملها الأواصر العاطفية ووعود الإرث، كان مجديا في كثير من الأحيان، بيد أنه كانت له آثار معكوسة أيضا، ولقد خَبَر هذه المشكلة المجتمعان الكلاسيكيان كلاهما - على غرار المجتمعات الزراعية عامة.

لم تُظهر ثقافة المتوسط دليلا على تقدير مخصوص للصفات الطفولية أكثر مما فعلت ثقافة الصين. لم ير الراشدون في براءة الأطفال ولهوهم قيمة كبرى - وإن كثيرا ما أمدوهم بالدمى، كما كانت للأطفال وظائف خاصة في الأعياد الدينية. بيد أن كثيرا من كبار المفكرين، ومنهم أفلاطون وأرسطو، قد ألحوا على تنظيم اللعب في وقت

باكر، وإجمالا كان أكبر التقدير هو من نصيب الأطفال الذين يُظهرون جِدَّ الراشدين. كان السبب الأكبر في اقتران القلق بالأطفال وميلادهم يشتمل على اعتقاد أن صغار القلق تساعد أبويها. كثيرا ما أثنى الرومان على «الطفل المسن» (puer senex)؛ لقد خَص الكاتب بليني(*) إحدى الفتيات بالإشارة إلى ما لها من «حس التمييز الذي يكون للكبيرات، وحشمة كالتي للمتزوجات». لقد وُجِد الأطفال ليعملوا (أو ليدرسوا) وليتهيأوا لحمل نسب الأسرة، ولا ليعبّروا عن فردية أو مطامح شخصية. لقد كان المقصد الأكبر من القوانين، إذا ما نحينا جانبا الإعلاء من السلطة الأبوية والإعلاء من شأن أهداف التناغم الأسري في ظل التوجيه الوالدي، وضع أساس لضمان وصول الأطفال إلى الملكية على نحو ملائم، وقد كانت لذلك أهمية فاصلة في مقدرتهم على حفظ الأسرة. وعلى هذا النحو فإن قدرا كبيرا من التشريعات الرومانية كان هدفها تحديد حقوق الملكية للأطفال غير الشرعيين أو الأطفال بالتبني، أو تحديد المكانة الاجتماعية للأطفال الذين يولدون لأبوين مختلطين، أحدهما مملوك والآخر حر. عكس الانشغال الشائع بالشباب اهتماما أصوليا بالإعلاء من شأن قبول سلطة الأسرة، وكذلك تسريع عملية النضج قدر الإمكان.

والحق، إن الصين والمتوسط كليهما قد استحثا بلوغ الرشد باكرا، مع البقاء على التبعية. مثال ذلك أن الزواج المبكر كان ممكنا في المجتمعين كليهما (وكانت سن الزواج للبنات في روما هي الثانية عشرة). لكن الكتاب الرومان لم يحددوا مرحلة للشباب فقط، بل حددوا أيضا مرحلة للرشد الصغير، وهي في وسط الثلاثينيات من العمر، ويكون الناس فيها لما يزالوا غير قادرين على التفكير على نحو يعوّل عليه - وهذا أساس حسنٌ للاستمرار في تثبيت السيطرة التي تكون للراشدين الناضجين، والتي فيها شبهٌ من الأنساق التي كان يوصى بها في الصين وتعكس الأمل في بقاء الأحداث نافعين لوالديهم المسنين في السياق الأوسع للمجتمع الزراعي.

أخيرا، يستتبع هذا الإطارُ العامُ أن مرحلة الطفولة لم يحسبها الذين اجتازوها كحال مرغوب فيها، إلا نادرا - وهذا وجه آسرٌ آخر من أوجه الشبه بين المجتمعين الكلاسيكيين. كان نادرا ذكر الطفولة في الذكريات المكتوبة المتوسطية، وهذه صفة

(*) غايوس بلينيوس سكوندوس(23 - 79 م)، كتب كثيرا من الأعمال الفنية والتاريخية، عرفت منها مجلدات «التاريخ الطبيعي». اشتهر باسم بليني الأكبر. [المحررة].

مشتركة بينها وبين التعليقات الصينية التي كانت متفرقة على نحو مميز إلا ما خصّ الإشارة العرضية إلى الأمهات.

بعد أخذ كل الأمور بعين الاعتبار نجد أن الطفولتين في الصين والمتوسط الكلاسيكيتين قد أظهرتا سمات مشتركة بين الحضارتين تفوق أوجه التباين عددا، وإن لم يخلُ الأمر من بعض التلوينات الآسرة قطعا - مثل الحب الصيني للأم أو الانشغال المتوسطي العظيم بالشباب. من المدهش أن الثقافتين المختلفتين قد أنتجتا فروقا قليلة في الطفولة، بإزاء مشترك الرغبة في جعل الأطفال نافعين بقدر الإمكان، وبالتالي في التقليل من الإزعاجات التي يأتون بها، مع الاعتراف أيضا بالمعدل العالي للوفيات.

إن الأسر إذا ما أخذت فرادى قد كان لها، حتى في الصين والمتوسط، أن تُدخل تعديلات على الإطار بقدر غير معهود من المودة أو بالاستمتاع بمشاركة الأطفال في لعبهم. في المجتمعين كليهما، ظهر مع الزمان قدر من الدلال في معاملة الأطفال، في الحقبة الإمبراطورية من تاريخ روما أو في سلالة تانغ التي جاءت في الحقبة ما بعد الكلاسيكية من تاريخ الصين، ولعل ذلك يعكس خيارات جديدة نشأت عن الرخاء الوطيد والاستقرار السياسي. مثال ذلك أن قلّة من الكتاب الرومان المتأخرين قد تحدثوا عن الوالدين وكيف «أفسدوا الأطفال منذ المهد». لكن هذه النزعة المترددة إنما عززت حس التشابه المفاجئ القائم بين هذين المجتمعين الكلاسيكيين الكبيرين، ولم يعدّل من هذا الحس سوى القليل من الفروق الكاشفة التي نتجت عن الثقافات والبنى الأسرية المختلفة. بعد التسليم بالرغبة في تحليل مقارن أكثر شمولا، فمن الراجح، على ما يظهر، أن ما في الحضارات الزراعية من أمور ضرورية أساسية - من حاجة إلى الاتكال على عمالة الأطفال الأكبر سنا وبالتالي طاعتهم، ومن استعمال للأحكام القانونية للتعبير عن دونية الأطفال ولفرضها إلى حد ما، ومن فرقٍ جليّ أساسي بين طفولتي أهل النخبة وعامة الناس، فيما يخص وجود قدر من التعليم ذي شأن أو عدمه؛ ومن تأكيد للجنوسة، بالطبع - إن ذلك كله قد أبطل تأثير المنظومات العقائدية المختلفة، والسياسات المختلفة، بل بعض جوانب البنية الأسرية.

كانت الطفولة في الهند الكلاسيكية قضية أخرى، من جهة الانطباعات الأولى على أقل تقدير، وهي تقدم تباينات صارخة بالنسبة إلى الصين والمتوسط كليهما، تباينات أساسها الأخص هو أهمية الدين الذي تطور فصار هو الهندوسية في

أثناء تلك الحقبة. مرة أخرى، هناك قدر بسيط من مشكلة البيضة والدجاجة: لقد عَكَسَت المواقف من الأطفال الصغار مقاربة أمومية مميزة، غايتها الواضحة ربط الأطفال بعلاقة من الولاء تدوم العمر كله؛ صار لهذا الأمر شيء من العلاقة بالفكرة العامة عن الترحيب بالطفل المولود حديثا بصفته فردا قادما إلى الجماعة الدينية. بيد أن ابتداء العلاقة بين الثقافة الأسرية والثقافة الدينية ليس واضحا بتمامه.

بإزاء المجتمعين الكلاسيكيين الأكثر علمانية، أتى الدين الهندي، على نحو متوقع، بنطاق أكثر اتساعا من الشعائر التي تشتمل على الأطفال، وجُعلت علامة على مراحل رقيهم الروحي وعوذة من الأمراض والأرواح الشريرة أيضا. كانت العملية تبدأ من الميلاد، فينفث الأب على المولود ثلاث مرات وهو يتوسل بكتب فيدا المقدسة ويرتل صيغا تدفع الأمراض؛ كذلك كان يدعى المولود في هذا الطور باسم ديني سري. في اليوم العاشر، كان يصرّح له باسم علني. كانت تقام للصبيان من طبقة البراهمة الكهنة مراسم أخرى في الثالثة، ومن ذلك شعيرة تقصير الشعر. كان إدخال الصبيان من الطبقة العليا إلى الإرشاد الشعائري يقام في الثامنة (للبراهمة) أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة (للطبقتين اللتين دونها). كما حددت مراحل التعليم طائفة واسعة من المراسم. مثال ذلك أنه بعد إكمال الفتى من طبقة التجار دراسته، ويكون ذلك في السادسة عشرة في المعهود من الأحوال، كانت تحلق وجنتاه لأول مرة، ومن ثم يغتسل غسلا شعائريا ويتعبد للشمس وقد لبس وتزين زينة معقدة. كما كان يقدّم بقرة إلى مرشده، أي معلمه الديني. ثم كان الفتى يتدهن ويتقبل العمامة من مرشده، علامة على تحصيله الروحي؛ كان القصد من منحه عصا هو الاحتراز من اللصوص وشرور البشر. أخيرا، كان المتخرج يضع على النار المقدسة خشبة اختيرت على نحو مخصوص، ويقيم بقية يومه في عزلة يتأمل. بعد وجبة مراسمية يتناولها مع مرشده، كان يرجع إلى منزله (ويحرص على أن يخطو أول خطوة بقدمه اليمنى)، حيث يتلقاه والداه وأهل قريته مرحبين مكرّمين؛ ثم كان يتزوج من فوره. كانت للطبقات والمناسبات الأخرى مراسم مفصلة أيضا، ولكن على نحو آخر، كعلامات دينية على الطفولة والانتقال إلى النضج.

كذلك شجعت الهندوسـية، إلى جانب إقامة الشعائر، على مقاربة للأطفال الصغار فيها قدر غير معهود من الدلال. كانت الأمهات ينلنَ، حتى قبل الوضع، عنايـة مفصلة لشحذ عزيمتهن وللعمل على الإتيان بذريـة وافرة الصحة. كان الطفل نفسـه يعامل معاملة الضيف المكرم: كانت الشعائر التي تقام قريبا من المولد تعطي الطفل شرفا كفرد ذي شرعية دينية وذي فردانية فطرية، وكشريك في الطريقـة الإلهية، وإن كان من الواضـح أنه لم يبلغ النضج بعدُ. كان الإرضاع وفق الطلب جزءا من مسـؤولية الأم الصالحة، وكان له أن يسـتمر، بصفته أمرا ممتعـا، حتى إن تحـوّل الطفل إلى الطعام الجامد. كان التأديب الذي يمارسـه الوالدان المولعان وسـواهما من الراشـدين في أهل البيت قليـلا. كان التمرين عـلى أفعال المرحاض يؤخّر إلى حين يتطوع الطفل عفويا، مع وجود بعض أهل البيت، لرفع الأوساخ. كانت الأسرة تقدّم اللعب من مثل البلبل والكرة الحجرية. كان هذا الزمان هو زمان تشـجيع المخيلـة الطفولية وعزْل الطفل عن الاتصال المباشر بواقع الراشـدين. كانت الأمهـات يخصصن مرحلة الطفولة هذه بعناية عظيمـة، وكان من المعتاد أن يكافأن على ذلك بروابط شـديدة من قبل الطفل حتى إن بلغ الرشد.

لكن الجوانب الأخرى من الطفولـة الهندية تتوافق مع المعيار الذي أصبح الآن مألوفا. مع أن قتل المواليد لم يؤكد، فقد كان يمارس، لا سيما قتل الرضيعات اللاتي لا يُرغب فيهن. كان العمل هو المقدّر لأكثر الأطفال ومن صغر سنهم، أما المعاملة بكمال الدلال فلم تكن متاحة حتى في الطفولة الباكرة إلا للأسر الثرية، في هـذا المجتمع الذي من علاماته الراسـخة التفرقة الاجتماعية. كانت للفروق بين الجنسـين أهمية كبيرة. كان للبنات أن ينلن تمرينا دينيا على يد آبائهن، بيد أنـه لم يكن مجالٌ البتة لأن يعدّ التعليم المدرسي أمرا جوهريا حتى في الطبقات العليا، بل ربما كان يعدّ أمرا ذا قيمة أن يقرن الجهل بالمرأة. كان الأمر المتعارف عليـه هو تزويج البنات باكرا، قبل أن تثير الحركة الجنسـية مشـاكل من جهة الطهـارة؛ كان الوالـدون يَفْصلون في الزواج. اقترحت قوانـين مانو(*) أن يكون

(*) قوانين مانو، أو مانو سـمرتي، هي نصوص هندوسـية مقدسـة، كتبت بصيغة الأبيات الشعرية بالسنسكريتية ليسترشد بها الهندوسي في حياته. [المحررة].

الزواج في الثامنة، بيد أنها تركت قدرا من حرية الاختيار؛ أما سواه من الكتب المراجع فقد ألحت على التزويج منذ الرابعة، على ألا يؤخر إلى ما بعد العاشرة. لم تكن البنات المزوجات يلتحقن بأزواجهن بالضرورة بل كن يتركن حتى يكبرن، لكن أهمية السيطرة الجنسية كانت جلية.

لقي الصبيان من الطبقة العليا نسقا مختلفا عن ذلك، نسقا فيه مزيد تعقيد من بعض الوجوه. بعد حرية الاختيار التي كانوا ينالونها في السنين الأولى، كانوا ينتزعون ويؤخذ بهم إلى التعليم والتأديب على يد الآباء، الذين كثيرا ما كان يُنظر إليهم، كما في الصين، باعتبارهم رموزا بعيدة (علما بأن هذا الأمر من جهة البنات كان أقل من ذلك بكثير، فكان يتاح للآباء قدر كبير من الحرية في محبتهن). كان كثير من الصبيان يرسلون إلى المرشدين من أجل التمرين الديني، الذي كان يشتمل أيضا على مهارات الرياضيات والقراءة والكتابة. كانت الظروف شحيحة، من أجل أن تسمو الأهداف الروحية على الحاجات البدنية. كانت هذه العيشة عيشة انضباط. والحق، أن المرشدين كانوا يحبذون أن يسيطروا على تلامذتهم بالإقناع والمثال، فلا يلجأون إلى العقاب البدني إلا أخيرا؛ إلى هذا الحد كانت المرحلة المتأخرة من الطفولة في الطبقات العليا ربما تختلف عن نظيرتيها في الصين والمتوسط. بيد أن صفعات من الأب والمعلم كانت واردة، كما ظهرت على نحو جليّ الحاجةُ إلى الاعتراف بسلطة الراشدين. لقد جُمع بين واجبات العمل وبين الدراسة، فكان يُرتقب من الفتيان إعداد الطعام وجمع الحطب للجماعة. وإن كان موضوع الدروس مختلفا هاهنا عنه في الحضارتين الكلاسيكيتين الأخريين بمضمونهما الأكثر علمانية، فقد كان فيه التأكيد نفسه على الحفظ. إن الحاجة إلى السيطرة على الشباب، إما بالتعليم الصارم وإما بالعمل وإما بالزواج الباكر، كانت تنطبق على الهند بوضوح؛ إن أبرز السمات المميزة لهذه الطفولة قد اشتملت على ما لا بد أنه كان نقلة استثنائية بين باكر سنوات الدلال إلى مطالب ما يليها من المراحل المتقدمة على الرشد.

لا تأتي الحضارات الكلاسيكية بجواب قاطع على ميزان التخالف والاتفاق. لقد تفاوتت الثقافات والبنى الأسرية أيضا، وقد أحدث ذلك فروقا مهمة في الأفكار والممارسة من جهة الطفولة. إن بعض الأنساق، مثل الإصرار الصيني

على غرس الآداب الدقيقة في النفوس، أو المتعة الهندية بتشجيع خيال الأطفال، كان لها أن تبقى أمدا طويلا بعد الحقبة الكلاسيكية، فتؤثر في المقاربات المميزة للطفولة حتى يومنا هذا. لقد ظهر أن للثقافة دورا لا سـيما متى اتخذت صورة دين قوي، وفق ما يُوحي به المثال الهندي.

إن التفاوتـات الفرديـة داخل المجتمعات الكبرى تعقّـد التحليل أيضا. من الواضـح أن كثيرا من الوالدين كانوا يُظهـرون قدرا من المحبة واللوعة أكثر مما قد توحي به التوصيات الرسـمية. قد يعمل النصح على تقييد قسـوة الآباء، أو على حث الإصلاحات المدرسـية لتنحوَ منحى أقل تأديبا وأكثر عناية بأسـاليب التعلّم الفردية.

مـع ذلك، فإن قوة النموذج الزراعي الأسـاسي للطفولة تـبرز ظاهرة أيضا. يجمع بين المجتمعات الكلاسـيكية، لا سيما في مثالي الصين والمتوسط، الحاجاتُ المتماثلة إلى تقبّل تواتر وفيات الأطفال الصغار، بل إلى الحدّ من معدلات الولادات الفعالة أيضا. لكن مما يثير مزيدا من الاهتمام، بالنظر إلى قلة الوضوح الظاهر، أن مشـترك التأكيد على التأديب والطاعـة، حتى من جهة أطفال النخبة، حيث تعطـى لهم الدروس بدلا من العمل المبـاشر، يُظهر الباعث على جعل الأطفال نافعين وإلى غرس العادات التي سـوف تظل تربطهم بالأسرة وإن بلغوا الرشـد بدنيـا. حتى في الهنـد، كان الإخضاع لشروط التقشـف والتأديب بعد الطفولة الباكرة يوحـي بالحاجة العامة إلى ثني الأطفال نحو حس الواجب. بيد أنه من الواضح أن الوالدين، إذا أخذوا أفرادا، وإن كانوا يسعدون بالأطفال ولعبهم على نحو جليّ، وإن كانت الثقافة الهندية قد شكلت مقاربة خاصة للسنوات الباكرة، فإنه لم يكن ثمة إحسـاسٌ بـأن الطفولة يُرتقب لها على نحـو إجمالي أن تكون مرحلة سـعيدة بشـكل خاص، ولقد سرى هذا الأمر في ذكريات الراشدين التي حفظوها من تجربتهم الباكرة. كان للحضارات، كلّ بحسبها، أن تُدخل تغييرات قليلة في النموذج الأساسي، وكان لها أن تنفذها بسبل مختلفة قطعا، لكن نطاق ذلك كان أضيق مما قد يُتنبأ به اسـتنادا إلى ما بين المجتمعات من اختلافات في الجوانـب الأخرى. وعليه، فقد كان للصيغ السياسـية المختلفة آثار محدودة في الطفولة، والسبب في ذلك من أحد الوجوه هو البُعد النسبي للدولة عن الحياة

العاديــة للأسرة، ومن وجه آخر هو نزوعُ الأحــكام القانونية - مع ما بينها من اختلاف - إلى تأكيد متماثل على الطاعة والتراتب الاجتماعي. لقد كان للثقافات دور أكبر من ذلك بشيء يســير، كما هي الحال لدى الكونفوشــية، والهندوسية عــلى نحو خاص، بيد أنها كانت، أيضا، تؤيد بقوة تعريف الطفولة تعريفا نفعيا على نحو واضح تماما. لا شك في أن الأطفال في الحضارات الكلاسيكية قد أوجدوا لأنفسهم فُسَحا، بيد أن الطفولة في تلك الحقبة كانت أمرا جديا.

للتوسع في القراءة

- John Cooper, **The Child in Jewish History** (Northvale, NJ: Jason Aronson, 1996).

- David Kraemer, "Images of Childhood and Adolescence in Talmudic Literature" in **The Jewish Family: Metaphor and Memory** (New York: Oxford University Press, 1989).

- Ivan Marcus, **Rituals of Childhood: Jewish Acculturation in Medieval Europe** (New Haven, CT: Yale University press, 1996).

- O. Larry Yarborough, "Parents and Children in the Jewish Family of Antiquity," in **The Jewish Family of Antiquity** (Atlanta, GA: Scholars Press, 1993).

- Patricia Ebrey, **Confucianism and Family Rituals in Imperial China: A Social History of Writing about Rites** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1991) and Women and the Family in Chinese History (New York: Routledge, 2003).

- Alan Chan and Sor-Hoon Tan, eds, **Filial Piety in Chinese Thought and History** (New York: RoutledgeCurzon, 2004).- Michael Loewe, Everyday Life in Early Imperial China during the Han Period 202 BC–AD 220 (New York: G.P. Putnam's Sons, 1968).

- Hugh D.R. Baker, Chinese Family and Kinship (New York: Columbia University Press, 1970).

- Lisa Raphals, **Sharing the Light: Representations of Women and Virtue in Early China** (Albany: State University of New York Press, 1998).

- Anne Behnke Kinney, **Chinese Views of Childhood** (Honolulu: University of Hawaii Press, 1995) is exceptionally useful; see also her **Representations of Childhood and Youth in Early China** (Stanford,

CA: Stanford University Press, 2004).

- Ping-chen Hsiung, **A Tender Voyage: Children and Childhood in Late Imperial China** (Stanford, CA: Stanford University Press, 2005).

- Sudhir Kakar, **The Inner World: A Psycho-analytic Study of Childhood and Society in India** (Delhi: Oxford University Press, 1978).

- S. Vats and Shakuntala Mugdal, eds, **Women and Society in Ancient India** (Faridabad, India: Om Publications, 1999).

- Harmut Scharfe, **Education in Ancient India** (Boston, MA: Brill Academic Publishers, 2002).

- Ada Cohen and Jeremy Rutter, **Constructions of Childhood in Ancient Greece and Italy** (Princeton, NJ: The American School of Classical Studies at Athens, 2007).

- Beryl Rawson, **Children and Childhood in Roman Italy** (Oxford, UK: Oxford University Press, 2006).

- Suzanne Dixon, **The Roman Family** (Baltimore, MD: Johns Hopkins University

Press, 1992) and ed., **Childhood, Class and Kin in the Roman World** (New York: Routledge, 2001).

- Cynthia Patterson, **The Family in Greek History** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998).

- Sarah Pomeroy, **Families in Classical and Hellenistic Greece: Representations and Realities** (Oxford: Clarendon Press, 1997).

- Beryl Rawson, **Marriage, Divorce, and Children in Ancient Rome** (Oxford: Oxford University Press, 1991) and **Children and Childhood in Roman Italy** (Oxford: Oxford University Press, 2003).

- Emil Eyben, **Restless Youth in Ancient Rome** (London: Routledge, 1993).

- Geoffrey Nathan, **The Family in Late Antiquity: The Rise of Christianity and the Endurance of Tradition** (New York: Routledge, 2000).

- Lisa Raphals, Sharing the Light: **Representations of Women and Virtue in Early China** (Albany: State University of New York Press, 1998).

- Anne Behnke Kinney, **Chinese Views of Childhood** (Honolulu: University of Hawaii Press, 1995) is exceptionally useful; see also her **Representations of Childhood and Youth in Early China** (Stanford, CA: Stanford University Press, 2004).

- A recent book, focusing on a later

- Ping-chen Hsiung, **A Tender Voyage: Children and Childhood in Late Imperial China** (Stanford, CA: Stanford University Press, 2005).

- Sudhir Kakar, **The Inner World: A Psycho-analytic Study of Childhood and Society in India** (Delhi: Oxford University Press, 1978).

- S. Vats and Shakuntala Mugdal, eds, **Women and Society in Ancient India** (Faridabad, India: Om Publications, 1999).

- Harmut Scharfe, **Education in Ancient India** (Boston, MA: Brill Academic Publishers, 2002).

- Ada Cohen and Jeremy Rutter, **Constructions of Childhood in Ancient Greece and Italy** (Princeton, NJ: The American School of Classical Studies at Athens, 2007).

- Beryl Rawson, **Children and Childhood in Roman Italy** (Oxford, UK: Oxford University Press, 2006).

- Suzanne Dixon, **The Roman Family** (Baltimore, MD: Johns Hopkins University

Press, 1992) and ed., **Childhood, Class and Kin in the Roman World** (New York: Routledge, 2001).

- Cynthia Patterson, **The Family in Greek History** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998).

- Sarah Pomeroy, **Families in Classical and Hellenistic Greece: Representations and Realities** (Oxford: Clarendon Press, 1997).

- Beryl Rawson, **Marriage, Divorce, and Children in Ancient Rome** (Oxford: Oxford University Press, 1991) and **Children and Childhood in Roman Italy** (Oxford: Oxford University Press, 2003).

- Emil Eyben, **Restless Youth in Ancient Rome** (London: Routledge, 1993).

- Geoffrey Nathan, **The Family in Late Antiquity: The Rise of Christianity and the Endurance of Tradition** (New York: Routledge, 2000).

4

الطفولة في التاريخ العالمي ما بعد الكلاسيكي: أثر التغيير الديني

«إن الالتزام بالتعليم الذي حفز عليه الدين هو واحد من عظيم إسهامات الإسلام في الأنساق المتغيرة للطفولة، فكان بمنزلة الجسر بين ما كان في الحقبة الكلاسيكية من مساعٍ محدودة تركزت في طبقة النخبة وبين التعليم المدرسي الشامل الذي هو من خصائص المجتمعات الحديثة»

يلحظ المؤرخون العالميون حدوث بضعة تغيرات مهمة في القرون ما بين العامين 500 و1450، أي ما بعد سقوط الإمبراطوريات الكلاسيكية. لا ندري كيف كان أثر بعض أهم التطورات في الأطفال والطفولة، إن تكن قد أثّرت. إن أفول الإمبراطوريات الكلاسيكية نفسها قد اشتمل على ازدياد في اللاستقرار، وغزوات شنتها الأقوام الرحّل، وازدياد ملحوظ في الأمراض الوبائية. يمكننا التسليم بأن الأطفال قد لقوا العناء في كثير من الأحيان - لقد كانوا، والمسنين، هم الفئة التي يُسرع إليها الموت والمرض. ومع ذلك فالتفاصيل تعوزنا. في أواخر الحقبة ما بعد الكلاسيكية فتح الغزاة المغول بقاعا كثيرة، من الصين إلى روسيا وبعض أنحاء

الشرق الأوسط، لكن ليس من الواضح وجود تأثير مغولي مميز في الطفولة - ما خلا سفك الدماء الذي لازم حرب المغول.

من المواضيع ذات الصلة التي شـكلت هيئة هذه القرون ثلاث قضايا أثرت في الطفولة تأثيرا لا شك فيه. كان الأثر الأوضح هو أثر انتشار الأديان التبشيرية - أعني الأديان التي حملت اعتقادا بوجوب أن تهدي الناس إليها مما وراء الحدود السياسية والثقافيـة. يركّز هذا الفصـل النظر على التغيرات التي أتت بها الأديان المتوسـعة لأول مرة، لاسـيما البوذية والإسـلام، بالإضافة إلى المسيحية. كانت هذه هي الأديان الثلاثة التي أعان توسعها على تشكيل هيئة الحقبة ما بعد الكلاسيكية بأكملها، علما بأن الإسـلام كان ظهوره في هذه الحقبة. لقد شـابهت الأديانُ المنظوماتِ العقائدية كالهندوسـية واليهودية في أوجه كثيرة، لكنها أتت أيضا بابتكارات مهمة (على نحو إجمالي، وكذلك من خلال السمات المنفصلة).

يتناول الفصل الآتي الموضوعين الآخرين من المواضيع التي سادت في العالم ما بعد الكلاسيكي، مع اسـتمراره في مناقشة التغيير الديني. أولا، لقد اتسع نطاق البقاع التي نُظمت في صورة مجتمعات أو حضارات معقدة، فكان معنى ذلك أن اكتسبت الأقاليم الجديدة دولا رسـمية، ومجموعات قانونيـة، ومدنا متعاظمة، وكان لهذا كله أن يؤثر في كيفيـة تعريف الطفولة وإدارتها. كذلك شرعـت بضع بقاع جديدة تحاكي متعمدة المراكز الوطيدة، ومثال ذلك المساعي اليابانية لاستيراد الصيغ الصينية؛ هذا، أيضا، كان له أن يؤثر في الطفولة تأثيرا ملموسـا. أخيرا، لقد تسـارعت التجارة، ومنها التجارة بين الأقاليـم. عمل هذا الأمر على تصعيد مزيـد من النمو المديني في المراكز الجديدة وفي الأقاليـم الوطيدة، مثـل الصين، فاقتضى دخول أقلية متعاظمـة من الأطفال في نطاق التصنيع والعمل تحت التمرين، وإن ظلت الأنشـطة الزراعية هي الأمر السـائد عند الأكثرية. لقد انطلق التجار المسلمون في تجارتهم من قواعد في الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، فتعاملوا مع أوروبا وآسيا الوسطى وحوض المحيط الهندي بأسره وبعض أرجاء أفريقيـا ما تحت الصحـراء. كذلك سرعت فتوح المغول الاتصـالات التجارية المباشرة، ولقد شـهدت خاتمة الحقبة رحلات بحرية تجارية صينية عظيمة دامت بضع عشرات من السنين. إن انتشار الحضارة، والمحاكاة، وتعاظم التجارة قد أسهمت جميعا في إطار الطفولة المتغير في بقاع عدة، لاسيما ما بين القرنين العاشر والخامس عشر.

بيد أن الاطراد السريع للأديان التبشيرية هو الذي أدخل على هذه الحقبة أوضح طائفة من التغيرات وأبكرها، فولّد بضعة تحولات ذات مغزى في الطفولة بعيدة عن الأنساق الكلاسـيكية. تتطلب الأديان طائفة جديدة من المقارنات المتبادلة، بسبب أنه قد كان لكل واحدة من المنظومات الاعتقادية الثلاث المتوسـعة تصوّر بشأن ما هي الطفولة وكيف ينبغي تحديد المسـؤوليات الدينيـة للأطفال. لقد رأينا آنفا أن بعض مضامين الهندوسـية قد شـكلت هيئة الطفولة من بعض وجوهها في الحقبة الكلاسـيكية تشكيلا فيه قدر من الاختلاف عن أنسـاق المجتمعات التي تفتقر إلى هـذا الجسر من التأكيد الديني. إن انتشـار الأديان الكـبرى في المجتمعات الأخرى قد التقط بعض الاهتمامات نفسـها التي طورتها الهندوسـية في التعامل مع الطفل بوصفه كائنا روحيا.

لكن الأديان الكـبرى لم تكن متماثلة، وهذا يوحي بأن تصحب الواجب المقارن الجديد عنايةٌ بالقوى العامـة للتغيير. ينبغي الإقرار بأن المقارنة الدينية أمر دقيق، نظـرا إلى أن لـكل واحـد من الأديـان الكبرى تأكيـدات خاصة قد يجدهـا القراء المعـاصرون خيرا من غيرها أو شرا، على نحو صارخ، مع ما في ذلك من تركيز للضوء على الدين عموما، وعلى ما يُلحَق بالدين من أمور معاصرة. ننظر في هذا الفصل في مضامين الالتزامات الدينية الأكثر اتساعا ذات الصلة بالطفولة، وفي مقاربتي البوذية والإسلام. سوف نتوسع في المقارنات مع المسيحية في الفصل الخامس، بوصفه عنصرا مركزيا من مزيج العوامل التي تشكل الطفولة في أوروبا الغربية.

إن طبيعـة الأديـان العالمية المتوسـعة، وما لها من قابليـة جليّة للتطبيق على الطفولة، قد حوّرا جزئيا من الأنسـاق التي سادت في الحقبة الكلاسيكية قبلها. على ما رأينا، كان بين الطفولتين في حضارتي الصين والمتوسط الكلاسيكيتين من الشبَه أكثر مـما بينهما مـن الاختلاف. لقد كان النصيب الأكبر في تشـكيل الطفولة في الحالتين هـو لحاجات المجتمع الزراعـي، ومنها الإصرارُ على الطاعة وعـلى النقلة المتمكنة إلى جدية الرشـد، ولما منحته الترتيبات القانونية والسياسية من مساندة مؤسساتية للقـول بتدني مكانـة الأطفال، وللفرق الأسـاسي بين طفولة النخبـة (ذات التعليم المـدرسي) وطفولة العامة (ذات العمل)، ولم يكن ذلك النصيب لمخصوص المكونات الثقافية أو السياسية. نتيجة لذلك، قلّ التفاوت في الطفولات في الحقبة الكلاسيكية،

بـين مجتمع وآخر، بخلاف الحال في جماعات الصيد والالتقاط، حيث أوجد الاتكال المحدود على عمالة الأطفال مزيدا من الخيارات.

إن الالتزام الجديد للأديان التبشـيرية قـد أدخل تبديلا في هذه المعادلة، فأنتج مزيدا من الفروق في ما ميّز القرون الكلاسيكية من أفكار ومقاربات بشأن الطفولة. في نفـس الحـين، أخذت الأديان عن الحقبة الكلاسـيكية بعضا من أنسـاق التغيير والاستمرار المشتركة، فكان ذلك تطورا آخر مهما.

اشـتركت الأديان المتوسـعة في بعض الأفكار بشـأن الطفولـة لها قدر من المغـزى، فكان ذلك بمنزلة علامة ميزتها، جماعيا، عن المقاربات التي سـادت في الحقبة الكلاسـيكية قبلها، لا سـيما في الصين والمتوسـط. أكّدت المؤلفات التي وضعت في أكثر الأديان الكبرى أهمية الأطفال. إن المسيحية، بما فيها من قصص وتصويرات فنية كثيرة تمثّل المسـيح الطفل، قد أعطت قدرا من العناية الرمزية بالطفل الصغير لم يضاهها فيه قطّ أي من المنظومات الثقافية التي سـبقتها. إن الأديان الثلاثة جميعا التي انبثقت من الشرق الأوسـط - المسـيحية والإسـلام، وكذلـك اليهودية التي تقدمتهما ومهدت لهـما - قد أبرزت أيضا فخر الوالدية (لاسـيما الأبوة) ومسـؤوليتها (وإن تفرّدت المسيحية أيضا بما فيها من صورة أم يسـوع المحبة). كذلك شددت هذه الأديان على أهمية طاعة الوالدين - «أكرم أبـاك وأمك» - التي كان لها أن تعضد أدوات تأديبية عدة. مُدّ نطاق هذا الأمر على يد المسيحية، بما فيها من ذِكر لله الآب في الثالوث، الذي قد يؤخذ بوصفه النموذج الأكمل للأب في الأسرة. (والحق، إن بعض المؤلفين المسيحيين قد لحظوا أن حب الأطفال للوالدين ينبغي أن يكون أمرا ثانويا بالنسـبة إلى الإخلاص لله، وهذا الأمر قد يبدو نشـازا لو أخذ بحرفيته؛ ومع ذلك فقد كان من الشـائع أن السلطان الأعظم هو لموضوع الطاعة). قدمت الأديان هنا، بالطبع، كلاما جديدا بشـأن التأكيد الراسـخ للطفولات في سـياق الاقتصاد الزراعي. بل إن المسيحية الباكرة تجهمت في وجه الحزن العاطفي الذي كان بعض الرومان يظهرونه عند وفاة الأبناء المراهقين، فحثت على «الحداد الداخلي» والإقرار بمشـيئة الله وأن الإفراط في الحزن قد يفتئت على الإخلاص الذي يسـتحقه القدير. ومع أن هذا الأمـر قد جاء، مرة أخـرى، بلغة أخرى، فإنه قد مثل عـودة إلى مقابلة وفيات

الأطفال بردود أفعال أكثر كبتا، على الأقل في الخطاب الرسـمي، وهذه خصيصة من خصائص المجتمعات الزراعية على وجه العموم.

يضـاف إلى ما أتـت به الأديان العالمية مـن ثناء على الأطفـال والوالدية ما قـد أتت بـه إلى الطفولة من عنصريـن آخرين، لهما قوة عـلى توليد تغيير ذي مغزى. لقد شـددت جميعها، بطريقة أو بأخـرى، على وجود عنصر إلهي في كل واحـد من بني الإنسـان - أعني النفـسّ، أو شراكة ما مـع الجوهر الإلهي. هذا الاعتقـاد - مـع تنوعاته الخاصة الكثيرة - قد عزز، من جهة، حسـا بالمسـؤولية عن حماية الأطفال بوصفهم مخلوقات لله أو مشـاركين في الرابطة الإلهية. وعلى وجه الخصوص، عارضت الأديان الكبرى بشـدة قتل المواليد الذي كان يُمارس على نحـو ذائع في كثير من البقاع التي كانت تسـودها العقائـد العلمانية أو القائلة بتعـدد الآلهة. كذلك تحولت اليهودية تحولا حاسـما في هذه الجهة، وجاء ذلك جزئيا بمصاحبتها للمسـيحية أو الإسلام. من الأمثلة التي تُضرب على أولى النتائج التي كانت للمسيحية وهي تمد نطاقها في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية أنها ولّدت أوامر عليا جديدة تحرِّم قتل المواليد. وعليه فإن أحد الأباطرة المسـيحيين قد أصدر في سـنة 374م مرسـوما جـاء فيه أنه «من يقـترف خطيئة قتل مولود يعاقَب على تلـك الجناية بالقتل، رجلا كان الفاعـل أو امرأة». انتشرت القوانين التي تحمي الأطفال، واشـتملت على المسـاعي لحظر بيع الأطفال. بل إن أوائل المسيحيين قد حاولوا التثبيط من فعل الاسترضاع، من أجل حماية الأطفال وزيادة الأواصر بين الأم والطفل. على نحو مماثل، طوّر الإسـلام بسرعة توصيات وقائية. فتـبرأ الرسـول محمد على نحو مخصوص من تقليـد وأد المواليد العربي، وبُذلت أيضـا محاولات لمنع بيع الأطفـال. ومع أن الالتزام بمختلـف التدابير الوقائية لم يكن تاما، وهذا أمر مؤكد، وكانت هناك الكثير من السـبل التي يعرّض بواسطتها الأطفال للخطر بخلاف القتل، فمن المؤكد أن معدل قتل المواليد، بوصفه وسـيلة لتحديد النسـل، قد تراجع في عهود الأديان العالمية؛ اسـتمرت الممارسة على نحو أكثر وضوحا في بقاع مثل الصين، حيث لم توطد الأديان أقدامها كما في غيرها. كان الأطفـال جزءا من الجماعة الدينية منذ مولدهـم، وكان لهذا مضامين مهمة من جهة السلوكيات الفعلية.

اعتنت الأديان العالمية جميعـا بالحاجة إلى تمرين الأطفال دينيا (كما فعلت الهندوسـية واليهودية قبل ذلك بزمان بعيد)، فجعلت شـعائر خاصة لذلك منذ الميـلاد، بغية عقد الصلة بين الأطفال والدين، ومن ثم إتاحة الفرص لتعليم ديني ذي صبغة أكثر رسمية، لبعض الأطفال على أقل تقدير. كان هذا هو التأثير العام الثـاني للمد الديني الجديـد. كانت نتيجة ذلك ذات شـعبتين: الأولى هي إعادة تحديـد محور التعليـم - كان ذلك واحدا من أول أهداف المعلمين المسـيحيين، الذين هاجموا المقررات التدريسية الكلاسيكية في منطقة المتوسط مفضلين عليها السـمو الروحي؛ والأخرى هي، على وجه الإجمال، الاندفاع إلى نشر التعليم على نحو أوسـع مما كان في القرون الكلاسـيكية. أحيانـا، في أسر الفلاحين أو العمال كثيري الأشـغال، حيث ظلت عمالـة الأطفال أمرا جوهريـا، لم يتضمن التمرين الديني سـوى ما هـو أكثر بقليل من قطـع محفوظة تؤدى بهـا الصلاة وتؤهل للدخول في مرحلة النضج الديني دخولا أكثر رسـمية، فليس من مسوغ للمبالغة في تقديـر أمر التغيير. لكن، من جهـة الأقلية، أتت الأديان الكبرى جميعا بعقائد غنية وبأحكام أخلاقية وقانونية تتيح حفز التبحر العلمي الجاد والتعليم المدرسي الذي يتطلبه، هذا العمل العلمي. كان للكثير من الوالدين، لا سيما في أسر النخبة، اهتمام في تمييز الأطفال الذين يظهر عليهم اسـتعداد لهذا النوع من التعليم. إن اثنـين من الأديان العالمية الكـبرى (ومعهما اليهودية مرة أخـرى) قد كانا دينين كتابيين على نحو مخصوص، وكان لهذا الأمر أن يستثير مزيدا من التعرّض للمعرفة بالقراءة والكتابة من أجل تناول الإنجيل أو القرآن، حتى من غير الالتزام العميق بالروافـد الرفيعة للعمل العلمي الديني. بعبارة أخرى، شـجعت الأديان العالمية التعليـم المدرسي ومنحته ميلا خاصا، مما تـرك أثرا في كثير من الأطفال على نحو ما، كما أنها أتاحت، للقليل منهم، وصولا إلى المهن الروحية والعلمية. بحلول سنة 1000م، وخارج شرقي آسـيا، حيث حفزت الكونفوشـية القدر الأكبر من التعليم المتـاح، وقع التعليم المـدرسي كله تقريبا تحت التوجيـه الديني ولمقاصد دينية أساسـا، من الوجهة الرسمية على الأقل. استمر الحزم والتأديب البدني في كثير من الأحيـان - فلم يكن هذا دائما تعديلا شـاملا للتقاليد التعليمية الباكرة - بيد أنه قد كان تغييرا حقيقيا.

عدا هذين التأثيرين الأساسيين، فإن الأديان العالمية الكبرى قد أدخلت على قضية الجنوسـة في الطفولة توترات جديدة. مـن جهة أولى، أكّدت الأديان جميعا - وكان هذا جزءا من فكرة النفوس أو الاشـتراك في الجوهر الإلهي- أن البنات كما الصبيان شركاء في الحياة والفرص الروحية. لقد خفضت ما كان للامسـاواة بين الجنسين من تقريرات حاضرة في اليهودية الباكرة أو الهندوسية (وفيها ناقش بعض علماء الدين، في الحقبة الكلاسيكية، ما إذا كان على المرأة أن تتجسد في صورة رجل قبل أن يرتقب لهـا أي مزيد من التقدم الروحـي). لقد أتت المسـيحية والبوذية كلاهما بمتنفس دينـي صريح للنسـاء، في دور الراهبات، فكان يتاح لبعض الفتيات أن يرسـلن إلى هناك للتمرين وللانتسـاب إلى مهن طويلة الأجل. كذلك كان يتاح للفتيات، فرادى، أن ينلن تعليما دينيا - ولم يكن هذا بغير الشائع في الإسلام، وكان يفعل ذلك أحيانا الآبـاء المحبون الذين أدركوا مواهب بناتهم. بيـد أن الأديان كانت أيضا أبوية، وفي هـذا حكم واضح بأن التمرين الديني المتقدم هو أكثر أهمية للصبيان منه للبنات. ومع أن بعض الشـعائر، ومنها العماد المسيحي، كانت مشتركة للجنسين، فإن غيرها كان يـراد منه على وجه الخصوص ربط الصبيان بالتجربـة الدينية. كان كل تعليم ديني رسمي متاح يشتمل على عدد من الصبيان يفوق عدد البنات.

إن انتشـار الدين في القرون ما بعد الكلاسيكية قد اشتمل على سمة مشتركة أخـرى ذات صلة وثيقة بالطفولة: التنوع الواسـع في تأثـير العقائد الدينية التي تتناول الأطفال. وعلى الرغم من دخول الناس الواسـع في الإسـلام أو المسيحية أو البوذيـة، فإنهم تفاوتوا في مقدار ما علموه من العقائد التي تمس بعض القضايا، مثـل الطفولة، كما تفـاوت اهتمامهم بذلـك. كذلك كان للظـروف الاقتصادية المختلفة أثر في الاسـتجابات. مثال ذلك أنـه ربما كان للحض على حماية الأطفال وقـع حسـن عند الفقراء المدقعـين، لكن ظروفهم ظلت تفـرض عليهم، على ما يظهر، هجران طفل لهم، أو تركه على عتبة مؤسسـة من المؤسسات الدينية (بيد أن هذا الملاذ الجديد ربما أفضى في كثير من الأحيان إلى هلاك الطفل بسبب غياب الرعايـة قبل فصله أو بعده). وبانتقالنا إلى تناول بعض النكهات الخاصة للأديان العالمية فرادى، من المهم أن نتذكر هذا الأمر الجليّ: لعل الممارسات الفعلية بشأن الأطفـال، ومن مجتمع إلى آخر، كانت أقل اختلافا مـما تمليه العقائد. أضف إلى

ذلك أن السلطات الدينية نفسها قد اختلفت في بعض أهم القضايا، وهذا الأمر ربما زاد في التعقيد تعقيدا.

كان للبوذية، وهي أقدم الأديان العالمية، بيد أنها انتشرت في مختلف أرجاء شرق آسيا وجنوبها الشرقي في الحقبة ما بعد الكلاسيكية، كان لها مضامين مسهبة على نحو ما بشأن الطفولة، مضامين تُمكن مقارنتها قطعا بالإسلام، بل والمسيحية. كان السبب في هذا، جزئيا، هو مرونة الدين على نحو غير معهود، فكثيرا ما كان يمتزج بالأنساق المحلية (ومنها الكونفوشية في الصين) من دون أن يمس الطفولة تقريبا. أكّدت البوذية أيضا على الأهداف الروحية على نحو يفوق تأكيدها على التشريعات القانونية المفصلة التي تمس الحياة اليومية، فحددت قواعد الممارسة الأسرية تحديدا غير دقيق، لاسيما بالمقارنة مع الإسلام. ومع أن المؤلفات البوذية كانت كثيرة، فإنه لم يكن فيها كتاب مفرد يجب الرجوع إليه، كما هي حال الإسلام والمسيحية - فكان ذلك سببا آخر في مزيد من حرية الاختيار في الأمور التي تعنى بالطفولة.

بسبب انصرافها الشديد عن ماديات هذا العالم، كان للبوذية، أن تولّد قدرا من الانشغال بالروابط مع الأطفال. ولقد قيل إن بوذا نفسه روى حكاية عن رجل مقدس ترك زوجته وطفله، ثم زهد في زيارتهما. «لا يحس باللذة عند مجيئها، ولا بالأسف عند ذهابها؛ أدعوه وليا حقيقيا تخلص من العاطفة». أضف إلى هذا الإيمان القوي بأن التَبَتُّل هو أقرب الأحوال الممكنة إلى القداسة، وأن ولادة طفل هو فعل ملوِّث، وأن البوذية تستطيع أن تصبح دينا منشغلا بالأطفال قليلا بشرط ألّا يستحوذوا على كثير من العناية. لقد ظهرت في المسيحية بغتة تيارات مثل التي ذكرنا، ومن ذلك جماعات المتبتلين، وهم بالتعريف الذين ليس لهم أطفال معترف بهم.

لكن البوذية، بوصفها دينا كبيرا وليست فرقة محدودة، استوعبت من الأتباع عددا عظيما ممن كان لهم أطفال، فقدّمت شيئا من التوجيه والحماية. والأكثر وضوحا أنها أعانت على تنظيم طائفة من الشعائر للأطفال، لدفع الأذى عنهم ولتهيئتهم للحياة الدينية – ولقد شابهت بهذا الهندوسية والأديان الكبرى جميعا. كان بين أطفال البوذيين الكثير ممن يداومون في المدارس الدينية، وكان منهم عدد أكبر من ذلك يسمعون قصصا تشحذ هممهم لفعل الخير بما ترويه من سير أهل القداسة.

كذلــك كان للبوذيــين رد فعل على بعض الممارســات القديمــة التي تطبق على الأطفال، والتي نشأت في الهند وسواها من الأماكن. لقد عارضوا زواج البنات في سن الطفولة، لاعتقادهم بأن الزواج تعاقد يتطلب رضا عن نضج.

في حالات بعينها، كان للإخلاص البوذي أيضا أن يزوّد الأطفال، في ســن المراهقة، بوظيفــة دينية رغما عن الوالدين، فيكون ذلك بديلا روحيا عن الترتيبات الاعتيادية مــن أجل النقلة من الطفولة إلى الرشــد. كان هذا الأمر توترا مهما جابه البوذية في الصين، حيث هاجم الكونفوشــيون هذا الدين كثيرا بسبب تقويضه أسس الولاءات الأسرية. تروي قصة بوذية صينية حكاية مياو - شــان، الابنة الصغرى لأحد الملوك، التي خالفــت أباها ودخلت ديرا للراهبات، فحاول أبوها أن يحرقه (لأنه كان يريد أن يجــبر الفتــاة على قبول زواج دبّره لهــا). بيد أن القصة تنعطــف انعطافة فيها ودّ لــلأسرة فتروي، في أواخرها، كيف بترت مياو - شــان ذراعهــا وعملت منها دواء سحريا ردَّ لأبيها الأعمى بصره. تروى قصص أخلاقية أخرى عن أطفال بوذيين تنجّي صلواتهم والديهم من الجحيم. تتداخل بعض الروايات مع الكونفوشية تداخلا كليا، مثل ما جاء من أن شــابا أثنى على أمه لأنها دفعته إلى الدراسة في المدارس البوذية: «إن أكــن اليــوم ملتزما فالفضل في ذلك لأمــي وتمرينها لي كل يــوم». إن مفاهيم بوذية بعينها تتعلق بالأطفال قد تُرجمت بمصطلحات كونفوشية لتجعل هذا الدين يحظــى بمزيد من القبول في الصــين: وهكذا فإن لفظا بوذيا (سنســكريتيا) بمعنى الفضيلة قد صار معناه «الخضوع للوالدين وطاعتهما».

مــن الجليّ أنه قد كان للبوذية أثــر في الطفولة، وكان ذلك على وجه الخصوص بواســطة طائفة جديدة مــن الدروس والشــعائر الدينية؛ لكــن انصرافها عن عالم الماديــات وتوجهها إلى ناحية مخالفة، ووصولها إلى تســويات مع العقائد الموجودة فيما يخص الأطفال، قد وضع قيداً على أن يكون لها تأثير كاسح.

لقد ثبت أن الطفولة الإســلامية كانت أكمــل تحديدا من نظيرتها البوذية بما لا يقاس، ولقد قدمت فروقا مهمة ميزتها أيضا عن المسيحية. إن الإسلام، وهو دين من أديــان الحقبة ما بعد الكلاســيكية وأسرعها نموا، قد أظهر بوضوح بضعة اهتمامات خاصة بشأن الطفولة، امتزج بعضها بالجوانب الأخرى لحضارة الشرق الأوسط. لقد أدخل النبي محمد نفسه متعمدا بعض التغييرات على الطريقة التي اتخذها العرب

لتعريف الطفولة وتوجيهها، وشجعت مقاربته المبادرات الواسعة. لم يكن من نقاش في أنـه قد كان لقدوم هذا الدين الجديد مضامين ذات مغزى بشـأن الطفولة. قال محمـد ملاحظـا: «إذا أنجب الرجـل أولادا فقد أكمل نصف دينـه، فليتق الله في النصف الآخر»(*).

شـدد كثير من المؤلفين المسـلمين، من أهل الطب والدين، على ضرورة إيلاء الأطفال الرضّع قدرا كبيرا من العناية. شـدد الإسلام نفسـه على براءة المولودين حديثا - وكان هذا تباينا مع المسـيحية، على المسـتوى العقائدي على أقل تقدير. لم يمـر على هؤلاء المواليد وقت لاقتراف الخطيئـة، وهم مؤمنون محتملون؛ عدا هـذا، فإن الله نفسـه رحيم. وعليه، فليس من خلاف في مـآل المواليد إذا ماتوا: سـوف يصعدون إلى الجنة. ناقش العلماء مصير الأطفال الذين يولدون لأسر من الكفار – غير المسـلمين- لكـن معظمهم قبِل بأنهم أيضا بـرآء؛ دارت بين علماء اللاهوت المسيحيين مناظرات مماثلة لما ذُكر، وانتهوا على وجه الإجمال إلى نتائج مختلفة بشـأن الرضّع، الملوثين بالخطيئة، المولودين لأسر غير مسيحية. إن النبي محمد، الذي كثيرا ما تورد الشواهد عن رفقه بالأطفال، ولا سيما في إدانته لما كان يمارس في التقليد العربي من وأد المواليد، قدّم إشارة أخرى إلى ما تتطلبه الطفولة الباكـرة من عناية وعطف حقيقيين في هذا الدين الجديد. كذلك أكّد القرآن على رعاية الأطفال إذا فسـخ الزواج، وألح على حقـوق الأيتام في الملكية: {ولا تقربوا مال اليتيم}. الراشد الذي يتبنى طفلا يحمل على عاتقه تقديم التدريب المناسب، حتى ينـال الطفل ما يقيه الغوائل في المسـتقبل؛ لقد أتت الشريعة الإسـلامية، في هـذا المعنى، بعدد من «الحقوق» للأطفال الذيـن يكونون عرضة للأذى. (إن مفهـوم الحقوق هو مفهوم حديث من بعض جوانبه، بيد أنه قد طبق سـلفا في النصوص الحريصة على الأطفال وفق الأحكام الشرعية الإسـلامية) لقد برز عظيم الانشـغال الديني بالصغار جدا في التراث الطبي الموجود في المنطقة، والذي ازداد قـوة في الحقبة الهيلينية حـين أخذ العلماء في بعض الأماكـن مثل مصر الإنجاز الطبـي اليوناني وذهبوا في اتجاه تطبيقي أكثر عمليـة. كان هناك كمٌّ عظيم من

(*) لم أجـد هذا الحديـث بهذا اللفظ والذي وجدته هو «من تزوج فقد كمل نصـف دينه، فليتق الله في النصف الثاني» أو قريبا من هذا اللفظ. [المترجم].

النصائــح الطبية التي تخص الحاجات الصحية للأطفال، فكان ذلك مكملا للتأكيد الدينــي. تناول كتــاب عظيم الأثر وضعه ابن القيّم في تنشــئة الأطفال، في القرن الرابع عشر، بكاء المولود (الذي يحدثه محرض بدني ومعه «وكزة» من الشيطان)، والرضاع، والتســنين، وكذلك أهمية ما للأطفال من اهتمامات واستعدادات فردية ينبغي للراشدين أن يأخذوها في حسبانهم.

لقد عكس كثير من جوانب الطفولة الشرق أوسطية ممارسات أسرية أقدم عهدا ليس لها شــأن بالدين إلا قليلا، وإن لم تناقضه. كانت هوية الأبناء تعيّن بوضوح من جهة أنســابهم، وتُختار لهم الأســماء مقدما، في معظم الأحوال، للدلالة على الأسرة التي ينتسبون إليها. كان المواليد يُقمطون - يلفون بالقماش- لوقايتهم من الحوادث وللاعتقاد بأن ذلك أحســن لنمو أطرافهم. وعلى ما رأينا آنفا، لايزال هذا التقليد في المنطقــة إلى يومنا هــذا. كان الأطفال الصغار يرتبطون بأمهــم ارتباطا وثيقا؛ وكان الفطام يقع متأخرا نسبيا بالنسبة إلى مجتمع زراعي، بين الثانية والرابعة، وكان أكثر الأطفــال يلزمون أمهم حتى الســابعة. أحدث هذا الأمــر أواصر عاطفية قوية كان لها أن تبقى بعد الطفولة الباكرة وتســتمر في زمان الرشــد، وجاء ذلك مباينا لمنزلة الأب الأكــثر بعدا. لكن في الســابعة، كان الآباء يتولون تنشــئة الصبيان. لقد أُكّدت الســلطة الأبوية من حيث المبدأ تأكيدا شــديدا، وفُرض على الأطفال احترام الأب أو الأخ الأكبر، الــذي وقع على عاتقه في المقابل أمر إعالة الأسرة. كانت الحياة الأسرية للأطفــال يحكمها أيضا الدور الفعال لأعضاء الأسرة الآخرين، مثل العمات والأعمام. كان التمرين على العادات الحميدة، ومنها الكرم والضيافة، يلقى عناية كبيرة.

في نفــس الحين، كان الدين حاضرا على الدوام في المنــزل العادي. كان يؤذّن في إحــدى أذني المولود حديثــا ويقام في الأخرى بصوت خافت حتــى يُطمأن إلى ثباته على الإســلام، وتؤخــذ تمرات فتُعلك ثم تُفــرك بأعلى فمه لأجل البركــة. ومتى بلغ الصبي البكر ســبعة أيام، كان يحلق شــعره ويضحى عنه بشــاة، تعبيرا عن اعتراف الأب بالطفل رسميا. إذا ميز الأب في الطفل مواهب خاصة، وكان عند الأسرة موارد ماليــة كافية، كان يُدخل الصبــي، في الرابعة أو الخامســة، في برنامج تعليم ديني، فيكــون ذلــك افتتاحا لالتزامه التعليــم: الدين، في هذه الحــال، يقطع إشراف الأم المتعــارف عليه على الصبيان الصغار. لقد شُــدد على مســؤولية الآباء عن التمرين

الديني للأطفال تشديدا واسعا - «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» - أعني أنه يدوم العمر كله.

والحق، أن الالتزام بالتعليم الذي حفز عليه الدين هو واحد من عظيم إسهامات الإسلام في الأنساق المتغيرة للطفولة، فكان بمنزلة الجسر بين ما كان في الحقبة الكلاسيكية من مساع محدودة تركزت في طبقة النخبة وبين التعليم المدرسي الشامل الذي هو من خصائص المجتمعات الحديثة. بل إن الأسر الفقيرة كانت تعمل على منح الصبيان تمرينا دينيا، في المسجد أو في مدرسة للقرآن (كتّاب). كان للفتيات أن يداومن في مدرسة قرآنية أيضا، ولكن لمدة قصيرة في المعتاد. في أسر النخبة، كان المعلمون يدرسون الفتيات في المنازل. ووفق ما جاء في نص من القرن الثالث عشر: «طلب العلم فريضة علينا جميعا»، أي على المسلمين الأتقياء. إن معدلات إنشاء المدارس في المدن الكبرى في الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا أخذت في الارتفاع ابتداء من القرن التاسع، وفي بعض الأحوال ارتفع عدد المدارس الكبرى بأكثر من 1000 في المائة في السنوات الأربعمائة التي جاءت بعد ذلك. ترجع إلى القرن العاشر حركة جديدة لإنشاء المدارس، وتدعى «المكتب» مخصصة للأطفال الصغار. كانت الفكرة هي أن الأطفال إذا عُلموا ضمن جماعة كانوا أكثر قدرة على اكتساب العلم مما لو درسوا فرادى، والسبب الأكبر في ذلك هو المنافسة، وكذلك النقاشات التي تنشأ داخل الجماعة. إن تعليم المكتب، الذي حدده على نحو واسع الفيلسوف الفارسي ابن سينا، يرجع جزئيا إلى التراثين اليوناني والفارسي المتقدمين، بيد أنه اشتمل على توسيعات أكثر شمولا. كان للتعليم أن يبدأ في السادسة ويمتد إلى الرابعة عشرة، وعندها كان يرتقب من أطفال النخبة أن يختاروا مهنة (ومنها الدراسة والشريعة الإسلاميتين) ويصطفوا تبعا لذلك أيا من صنوف التعليم المتقدم. لم تكن مدارس المكتب تعلم الدين والأخلاق فقط، بل القراءة والكتابة، والأدب، والفلسفة الأعم من ذلك أيضا. لقد انبثق من هذا الاهتمام العام واحد من أوائل الكتب الموضوعة للقائمين على التعليم الابتدائي، وضعه ابن سحنون في سنة 870 ويناقش فيه الأمور الأساسية من القراءة والخط والتمرين على الحساب، ومعها العبادات والآداب الحسنة، وبعض الرياضات والألعاب. كانت الفتيات أقل وصولا إلى المدارس الرسمية، على الرغم من وجود الكثير من المعلمات وقدر كبير من الثناء

على التقاليد الخاصة بتعليم الإناث؛ كتب أحد علماء السنة، هو ابن عساكر، يذكر اللواتي أخذ العلم عنهن فذكر منهن أكثر من 80، وكان الكثير منهن غزيرات العلم. حتى لو نحينا جانبا قضية التذكير والتأنيث، فمن غير اليسير تحديد نطاق التعليم الإسلامي. كان القصد من بعض التمرين، ولا سيما في الأرياف، حفظ آيات من القرآن وليس القراءة الفعلية، ولقد صار للتعليم الإسلامي نزوع إلى تضييق مجاله حتى يتركّز على الديني المحض، وذلك نحو أواخر الحقبة ما بعد الكلاسيكية. ومع ذلك فقد قدّر أن نحو 30 في المائة من الراشدين من السكان كانوا يقرأون ويكتبون، ومما لا ريب فيه أن هذه النسبة هي أعلى نسبة في العالم حتى ذلك الحين. بعد سنة 1500، كتب القائمون على التعليم الإسلامي يرغّبون في الكتب بوصفها «أدوات للتعلّم لا انفكاك له عنها»، ويحاججون بأن «إنفاق الوقت في دراسة الكتب أهم من نسخها». وعلى وجه العموم، كان اتساع نطاق التعليم جزءا حيويا من تأثير الإسلام في الطفولة، إضافة إلى أثره في النواحي الأخرى- وإن لم يصبح التعليم المدرسي، بدلا من العمل، هو الواجب الصميم للطفولة حتى ذلك الحين.

كذلك قدّم الإسلام سمات أقل رسمية، للأطفال وللراشدين الذين يتعاملون معهم. كان الأطفال الصغار يعاملون بدلال عظيم، ولعل ذلك قد عكس الاعتقاد الديني ببراءتهم كما عبّر عن لذة أبوية قطعا. قُدّمت للأطفال أطعمة وتسالٍ خاصة، وفق ما تتيحه ظروف الأسرة المادية. وهناك إشارات إلى أن الأطفال في سن المراهقة (العشاريات) كانوا يقدرون على نحو أقل من ذلك، فلا احتفاء بطاقتهم الخاصة؛ والحق، إن الحُلُم كان يعدّ خاتمة للطفولة نفسها. كثيرا ما كان العمل تحت التمرين وجيزا، وكان الانتقال بسرعة من الطفولة إلى الرشد يلقى تشجيعا كبيرا. كان الأطفال يدبرون أمر لعبهم بأنفسهم، وفي هذا كانت مسؤولية الوالدين محدودة، فتركّزت على الأمر الجدي ألا وهو التهيئة للرشد اقتصاديا ودينيا معا. كانت تتخذ تدابير دقيقة لصون عذرية الفتيات قبل الزواج، ومن ذلك قدرٌ كبير من العزلة. بيد أنه لم يكن في الإسلام اعتناق خاص للتبتل مدى الحياة، بخلاف النزعتين القويتين في المسيحية والبوذية؛ لعل لهذا الأمر ارتباطا بالاعتقاد في البراءة الطفولية. كان الأطفال يكلفون بأعمال روتينية في سن باكرة، فأسبغ ذلك، مع التعليم الديني، طابع الجدية على الطفولة، في مدارك الراشدين على أقل تقدير.

دارت بين المرجعيات الدينية مناظرات واسعة حول دور التأديب البدني، مناظرات غير معهودة في هذه الحقبة من التاريخ العالمي، ولعلها تعكس التقويم الديني للأطفال. كان من المسلم به على نحو واسع أن على الوالدين، ولا سيما الآباء، أن يعاقبوا الأطفال الذين يسيئون السلوك، وكانت هذه الممارسة شائعة في المدارس أيضا. بيد أن كتّابا عدة حضوا في هذا المقام على كبح الجماح. كتب ابن خلدون المؤرخ العظيم من شمالي أفريقيا ملاحظا أن التلميذ إذا أُفرِط في عقوبته «سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها». كذلك نظمت الشريعة الإسلامية ضرب الأطفال - كم ضربة لكل جُرْم وفي أي موضع من البدن (لا ينبغي الضرب على الرأس واليدين البتة)؛ كانت الغاية هي اجتناب الإفراط وضمان إنفاذ التأديب بترٍو وبلا غضب.

في أواخر الحقبة ما بعد الكلاسيكية، أنتج الكتاب المسلمون أيضا قدرا غير اعتيادي من الكتب في موضوع العزاء، كان المراد منها التخفيف من حزن الوالدين على فقدان الأطفال. لقد ظهر أكثر من 20 كتابا في فقْد الأقارب في مصر وسورية بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر، وفي هذا تباين واضح مع الحال في أوروبا الغربية في الحقبة نفسها، حيث كان هذا الجنس من المؤلفات يكاد يكون غير معروف. يظهر المراد من الكتب في عناوين بعضها: ومثال ذلك كتاب «الجزع لموت الأولاد»(*) أو «تسلية أهل المصائب في موت الأولاد والأقارب»(**). لا شك في أن سلسلة الكتب هذه قد عكست النتائج لتزايد المرض - ضرب الطاعون الدبلي الشرق الأوسط في وسط القرن الرابع عشر، قبل بلوغه أوروبا. هل عكس هذا أيضا درجة عظيمة من التعلق العاطفي بالأطفال؟ هاهنا لغز ما، وإن اتفقت غزارة التأليف مع نوع العناية التي شجع الإسلام عليها على وجه العموم بشأن الأطفال الصغار.

لقد تغلغلت مضامين الدين في أعماق الطفولة، وفي الأفكار التي تتعلق بالأطفال، أكثر مما فعلت الثقافة الكلاسيكية، ولا سيما في الصين والمتوسط. هذا هو السبب في أن انتشار الأديان العالمية كان راعيا لتغيير ذي مغزى، ولا سيما في إعادة التفكير

(*) لم أجده؛ أقرب ما وجدته هو: «سلوة الفؤاد في موت الأولاد» للسيوطي المتوفى في عام 911 هـ الموافق لعام 1504 م. [المترجم].

(**) لمحمد بن محمد الصالحي المنبجي المتوفى في عام 785 هـ الموافق لعام 1383 م. [المترجم].

في قتـــل المواليـــد، وفي مقاربات التعليـــم الجديدة أيضا. هذا هو الســـبب في ظهور اختلافـــات جديدة في النقاشـــات حول الطفولة، وفق الديـــن الذي دار فيه النقاش. في نفـــس الحين، فإن اصطباغ هذه الحقبة من التاريخ العالمي بالصبغة الدينية أكثر من قبل لم يمكنه الإطاحة بالســـمات الأساسية للطفولة في الاقتصادات الزراعية. لقد أتى الدين بأســـباب جديدة للحض على الطاعة، كي تكتسب الاستمرارية، وهذا الأمر أعظم أهمية. ربما كان يفسح المجال لنقاش جديد في التأديب البدني، كما هي حال الإســـلام، بيد أنه قد يفرض أيضا ضغوطا نفســـية جديدة - أعني ترجمة مســـؤولية عصيـــان الوالدين عصيانا لمشـــيئة الله - وهذا أمر قد عزز بقـــوّة الموضوعات التي كانـــت قد طورتها الحضارات الزراعية. حتـــى المواقف من وفيات الأطفال المتكررة، وإن فتحـــت النقاش مرة أخرى حول مـــا ينتظرهم في الآخرة فإنها لم تحدث انقلابا، وذلك لأن الأديان لم تولّد تغييرا حقيقيا في هذا الجانب من الطفولة التقليدية. لقد كان للدين شـــأن مهم بالطفولة، بيد أن قدرتـــه على التغيير، بل رغبته في التغيير، لم تكن مطلقة.

للتوسع في القراءة

- Don S. Browning, Martha Christian Green and John Witte, eds, **Sex, Marriage and Family in World Religions** (New York: Columbia University Press, 2006).

- Cyril Glasse, **The New Encyclopedia of Islam** (Lanham, MD: AltaMira Press, 2008).

- Elizabeth Warnock Fernea, ed., **Children in the Muslim Middle East** (Austin: University of Texas Press, 1995).

- Avner Gil'adi, **Children of Islam: Concepts of Childhood in Medieval Muslim Society** (New York: St Martin's, 1992)

- Abdesslam Abadi, "Youth in the Islamic World and the Challenges of Globalisation," **Islam Today,** No. 26, 2009.

- Jonathan P. Berkey, **The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).

- Medhi K. Nakosteen, **History of Islamic Origins of Western Education,** A.D. 800–1350 (Bethesda, MD: IBEX Publishers, 1984).

- Timothy Reagan, **Non-western Educational Traditions** (New York: Routledge, 2000).

- Munir Ahmed, "Islamic Education Prior to the Establishment of Madrassa," **Journal of Islamic Studies,** 26:4 (1987), 321–49.

- Husain Haqqani, "Islam's Medieval Outposts," **Foreign Policy Magazine,** 1 November 2002.

- T. W. Rhys Davids, **Buddhism: Its History and Literature,** 2nd edn (New York and London: G.P. Putnam's Sons, 2009).

- Arthur Wright, **Buddhism in Chinese History** (Stanford, CA: Stanford University Press, 1971).

- Jacques Gernet, **Buddhism in Chinese Society: An Economic**

History from the Fifth to the Tenth Century (New York: Columbia University Press, 1995).

- Uma Chakravarti, **Social Dimensions of Early Buddhism** (New York: Oxford University Press, 1987).

- José Ignacio Cabezón, ed., **Buddhism, Sexuality, and Gender** (Albany: State University of New York Press, 1992).

5

اتصالات مباشرة وتباينات في العالم ما بعد الكلاسيكي

حدثت في الطفولة تطورات ذات مغزى في بعض أرجاء العالم ما بعد الكلاسيكي الأحدث عهدا بالحضارة. تأتي التغيرات بأمثلة إيضاحية إضافية على ما للأديان العالمية المتوسعة من تأثير في العديد من الحالات، بل أيضا على النتائج الأوسع نطاقا التي نشأت عن الاتصالات المباشرة، وعمليات المحاكاة الجديدة، والتسارع الإضافي للتجارة بين الأقاليم. يعالج هذا الفصل الأنساق في أفريقيا جنوب الصحراء واليابان وروسيا وأوروبا الغربية، حيث كان الاتصال المباشر الجديد والنفوذ كثيرا ما يجتمع مع التغير الاقتصادي. ملاحظة وجيزة على الأمريكتين تأتي بإقليم آخر إضافي. إجمالا، تذكرنا هذه المجتمعات ببعض السمات الأكثر تصلبا للطفولة في المجتمعات الزراعية ، وإن

«لم تكن الطفولة قبل الحديثة على قدر من السوء، بحيث يكون معنى التغيير بالضرورة هو التقدم»

يكن النظر في بعض النقاط تحول دونه، على نحو جدي، قيود منشـؤها الافتقار إلى الدليـل المتاح أو العمل التاريخي المركّز. تبقى المقارنـة على أهميتها، إذ تُعقد بين عوامل إقليمية شتى أضحت الآن تشتمل على الثقافة الدينية.

الأمريكتان

إن الطفولة في الحضارات التي قامت في الأمريكتين، في القرون التي سـبقت وصول الأوروبيين، قد اتخذت شـكلها، على نحو أسـاسي، بمطالـب العمل التي ألحقـت بها في بعض الأحيان القيم العسـكرية الصارمة. لقد نشـأت هنا حال فريدة؛ إذ إن تطورا داخليا وتوسـعا لهما مغزى قـد حدثا في نطاق المجتمعات المعقدة، ولا سـيما في أميركا الوسـطى وجبال الأنديـز، ولكن ذلك حدث بمعزل حقيقي عن أجزاء العالم الأخرى. إن مجتمع المايا، وقد ازدهر منذ ما قبل سـنة 500م وإلى القرن الحادي عشر، قد أسـبغ قيمة عظيمة على مساهمات الأطفال للأسرة. لم يكن متوقعا من الفتيات، منذ الخامسـة أو السادسـة، تقديم العون فقـط، بل ممارسـة قدر ملموس من المسـؤولية في الميدان المنـزلي، وكان الأمر نفسـه يصدق عـلى الصبيان وعملهم بالزراعة. وكما هـو معهود في المجتمعات الزراعيـة، فقد تولت الأمهات الإشراف على تنشـئة الأطفـال على وجه العموم، بيـد أنه قـد كان للآباء يد في تعليـم الصبيان أمور العمل والسـلوك الأخلاقي. فُرض احترام الكبار بشـدة. كانت العظات اللفظية أكـثر من العقوبات البدنية بروزا بين أساليب التأديب، ولقي ذلك تعزيزات إيجابية في التعليم. كان لحضارة الأزتيـك التـي قامت بعد المايا بقليـل، وبزّتها في الرقعة التـي قامت عليها من أمريكا الوسـطى، طابع أكثر خشونة. كانت العقوبات البدنية شائعة، ومن ذلك غرْز شـوك الصبار في الجلد. كان التدريب العسـكري للصبيـان يكمل واجبات العمـل، وإن وجدت بعض المدارس (وتدعى كالْميـكاك) مفتوحة لأقلية منهم، مدارس تركز على الموضوعات الدينية والأكاديمية. كان ميلاد الطفل نفسـه يصوَّر بمصطلحات عسـكرية، فيُنظر إلى الأطفال على أنهم إما محاربون محتملون وإما خالقون للمحاربين. كذلك برز في حضارة الإنكا التي قامت في جبال الأنديز إطار عسكري. بدأت المعاملة القاسية باكرا: يُغطس المولودون حديثا في الماء البارد ثم

يلفون في لحاف، وبعد إتمام السـنة الأولى كان يطبق عليهم تأديب أكثر انتظاما. نال الصبيان رتبة الرجولة بمراسـم مفصلة عند بلوغهـم الرابعة عشرة، وحينئذ كانوا يمنحون سـلاحا. كان من المعهـود للفتيات، المدربات على المهارات المنزلية تدريبا غير رسـمي، أن يزوجن قبل السادسة عشرة. ومقابل صورة القسوة التي ربما بولغ فيها في ملاحظات الإسبان الذين جاءوا لاحقا، وكانوا تواقين إلى تحسين مظهر النظام الاسـتعماري، فقد أوليـت عناية كبيرة أيضا لإنتاج الدمى للأطفال. مثال ذلك أن مجتمعات أميركا الوسـطى قد صنعت دمى ذات عجلات، لم تكن تستعمل لنقل الراشـدين. ليس من المدهش أن ثقافات ما قبل كولومبس، مثل المجتمعات الزراعية عموما، قد وازنت بين بضع مقاربات في معاملتها للأطفال.

أفريقيا

كذلك شُـكلت الطفولة في أفريقيا، وعلى نحو قـوي، بمطالب العمل، وبتمرين بعـض الصبيان على الحرب والصيد في بعض الحالات. لكـن الوفرة في الأدلة تخلق هاهنا صورة أكمل وأوضح من سواها؛ فبخلاف الأمريكتين، تأثرت الطفولة الأفريقية أيضا بالاتصالات المباشرة بأجزاء العالم الأخرى.

مع انتشـار الزراعة واستعمال الحديد، في معظم أرجاء القارة، اكتسبت مطالب العمـل تأكيـدا جديدا، وجاء مع ذلك قدر متزايد من المكافآت التشـجيعية مقابل الطاعـة. كان بين المكانة والعمـر ارتباط وثيق؛ مما جعل الأطفـال في مكانة دنيا، وطُبقت التقسـيمات بين الجنسين تطبيقا شـديدا أيضا. في الحين نفسه، ومما يثير الاهتمام أن الحكايات الشـعبية قد رسمت أحيانا صورا خيالية لنقمة الأطفال على كبارهـم، ومـما لا ريب فيه أن هذا يعكـس التوترات القائمة داخـل التراتب وفق العمـر؛ في إحدى حكايات قوم تشـيوا لا يتورع الأطفال عـن ارتكاب مذبحة بحق الراشـدين. إن المسؤوليات عن تقديم العون على رعاية الإخوة الصغار (ويقع ذلك على عاتق الفتيات على وجه الخصوص) هي، مرة أخرى، مرآة للأنسـاق الشائعة في المجتمع الزراعي.

صحـب هذا الأمر قدر كبير مـن العناية بحماية صحة الأطفال، في الأقاليم التي شـهدت معدلات عالية من المرض ووفيات الأطفال. طبقـت على المواليد، إلى نحو

الثالثة من العمر، شعائر ومراسم مفصلة، وكانت تقام في المتعارف عليه من الأحوال عنـــد الفطـــام. كما وجدت تقاليد أسريـــة أفريقية مميزة لحمايـــة الأطفال بطريقة أخرى: إذا مات الأب شُجع أحد إخوته على الزواج من أرملته ليكفل إعالتها وإعالة الأطفال إن وجدوا. كان يُنظر إلى لعب الأطفال بتساهل كبير أيضا وعلى نحو واسع، فكان الصبيان ينخرطون في كثير من اللعب الذي فيه تشبُّه بالمحاربين، أما الفتيات فكن أكثر انكبابا على الألعاب التي ركزت على الأمور المنزلية.

كذلـــك قدمت أفريقيا قبل الحديثة للجماعة البشرية ســـمة أخرى مهمة، ألا وهي علاقات الطفولة، وهي شـــائعة في المجتمعـــات الزراعية، بيد أنها في الحالة الأفريقيـــة أكثر تحديدا على نحو غير معهود. لقد طورت القرى (كذلك الوحدات الأخرى، ومنها البلاطات الملكية) طبقة من الشـــعراء، يُدعون في كثير من الأحيان باســـم «غريو»، مهمتهم هي تعليم الأغاني الشعبية، واســـتعمال الغناء والسجع لإعـــلام الجماعة بأخبار الأحـــداث الكبرى، وكذلك للعمل على أن تبقى شـــبكات القرابـــة في الذاكرة. لعل تقليد «غريو» في غربي أفريقيا قد اتخذ شـــكله في القرن الرابـــع عـــشر، وكان ابتداؤه في ما جـــاور إمبراطورية مالي القويـــة؛ بيد أنه توزع في الأريـــاف على نحو واســـع. لم يكن القَصّ موجها إلى الأطفـــال وحدهم، بل إن الأطفال قد شاركوا فيه على نحو واضح، فكوّن هذا النشاط صورة كبرى من صور التعلّـــم في هذا المجتمع القائم على التواصل مشـــافهة. أكّدت القصص الأفريقية أيضا مختلف أنواع الحكايات الرمزية، وكثيرا ما اســـتعملت الحيوانات أبطالا لها، والمراد منها تعلم الدروس الأخلاقية، ولســـوف يحمل بعض هذه الحكايات لاحقا إلى الأمريكتين الأفارقةُ الذين أُخذوا رقيقا.

تأثـــرت الطفولة الأفريقية أيضا بالنفوذ المتزايد للدعاة المســـلمين ولدخول أبناء الطبقـــات الحاكمة في الإســـلام، وإن ظل أكثر الأفارقة إلى ذلـــك الحين على عبادتهم لآلهة كثيرة. لحظ الرحالة المسلمون، في القرن الرابع عشر، ما كان للإسلام من أبعاد عميقة في تشكيله لهيئة الطفولة الأفريقية في بعض أجزاء غربي أفريقيا ـ ولكن ليس في جوانبهـــا جميعا - وعلى هـــذا، فإن ابن بطوطة، الرحالـــة المغربي الذي لا يعرف الكلـــل، قد كتب أن واحدا من بضعة «أفعال حســـنة» لأهـــل إمبراطورية مالي هو إصرار الوالديـــن على حفظ الصبيان القرآن، أو أجزاء كبيرة منه، على أضعف تقدير،

«وهـم يجعلون لأولادهم القيـود إذا ظهر في حقهم التقصـير في حفظه، فلا تُفك عنهم حتى يحفظوه». بيد أن التزام الأطفال بما لابن بطوطة من فكرة عن الإسـلام لم يكـن تاما، ولذلك نجده أيضا يطعن على الوالدين بسـبب «مسـاوئ أفعالهم»، تركهـم لبناتهم يجرين عرايا، وكذلك السـماح لهن بالدخـول على الملك بلا تكلف. بعبارة أخرى، كان الإسـلام عونا على تحديد واجبـات جديدة لبعض الأطفال، ومن ذلك تعليمٌ ذو صبغة رسمية أكثر من قبل، بيد أنه قد مُزج مع الممارسات الأفريقية الأخرى، فشكّل هيئة الأنساق الكبرى للطفولة.

شاركت بضع مناطق مهمة من أفريقيا جنوب الصحراء مشاركة قوية في رفع مسـتويات التجارة بين الأقاليم، عبورا للصحراء الكبرى واتّباعا لسـاحل المحيط الهندي معا. كثيرا ما كان للتجارة ارتباط بالصلات الدينية الجديدة مع الإسـلام؛ كما كان لها نصيب في الصور السياسـية والفنيـة المتغيرة. هل أثرت في الطفولة أيضـا؟ يعوزنا الدليل المطلـوب للجزم، ولكن البعض يرى أنـه في أواخر الحقبة ما بعد الكلاسـيكية كثرت واجبات العمـل الملقاة على عاتق الأطفال لدى بعض الجماعـات وفي بعض المناطق، من أجل أن يبقى الإنتاج الزراعي والمعدني مواكبا لفرص البيع.

اليابان

عـلى غرار ما فعلت أفريقيـا؛ إذ بنت على اتصالات مبـاشرة جديدة مع العالم الإسـلامي، كذلك فعلت اليابان، ولكن بصورة أكـثر منهجية، بعنايتها بالعلاقات مع الصين طوال معظم الحقبة ما بعد الكلاسيكية. مع مرور الزمن، سوف يكون النفوذ الصيني عونا على ترويج تعليم أكثر شـمولا، في كل من المدارس البوذية والعلمانية الكونفوشـية. والحق، إن النسـخة اليابانية من الكونفوشية سوف تفضي، في خاتمة المطاف، إلى تعليم أكثر شـمولا، من حيث النسبة المئوية للأطفال، مما كان للنسخة الصينية الأصلية. لكن هذا الأثر قد امتد نطاقه لبضعة قرون، وظهرت أوضح نتائجه بعد مدة طويلة من الحقبة ما بعد الكلاسيكية نفسها. لقد أكّدت المقاربات اليابانية للطفولة أيضا الولاءات الجماعية تأكيدا شديدا، فشُجع الأطفال على اللعب والتعلّم معـا، وعلى عقد أواصر وثيقـة مع أترابهم. وعلى هذا النحو فقد كان في أكثر القرى

جماعات شبه منظمة للأطفال. مما لا ريب فيه أن التقليد الياباني كان في صميم هذه الخصيصة المستمرة إلى يومنا هذا، وإن اتخذت صورا أكثر حداثة؛ لكن ربما كان للقيم الكونفوشية المستوردة نصيب في ذلك أيضا.

روسيا

عكست التغيرات في الطفولة الروسية، في أثناء الحقبة ما بعد الكلاسيكية، التأثير الذي أحدثه، أكثر من غيره، دخول الروس الكبير في المسيحية الأرثوذكسية ابتداء من القرن العاشر ـ الدخول الذي نشأ عن الاتصالات المباشرة الواسعة مع الإمبراطورية البيزنطية الراسخة في الجنوب. دفعت القيم المسيحية بالروس إلى معاملة الأطفال بمزيد من التعاطف، ومن ذلك تحديد ما يعرف الإساءة إلى الأطفال تحديدا أكثر صرامة. صار قتل الطفل الآن جريمة قتل من غير لبس، وإن لم يعاقب عليها إلا نادرا، وإن تكرر قتل الأطفال غير الشرعيين بانتظام وصولا إلى القرن التاسع عشر. أرسل كثير من أسر الطبقة العليا أطفالهم إلى الأديرة أو دور الراهبات حتى ينشّأوا هناك، أو يعلّموا على أقل تقدير. إلى جانب أن كثيرا من الوالدين قد أبدوا اهتماما متزايدا بالأطفال من أجل تشكيل شخصيتهم الأخلاقية. لم يكن للطفولة تصوّر إجمالي بوصفها مرحلة منفصلة أو موضوعا لنظر خاص ـ تُردّد الأنساق الروسية هاهنا صدى مما تُوصل إليه في اليابان قبل الحديثة والتقييم القابل للجدل لأوروبا الغربية. لم يبدأ تأليف الكتب حول الأطفال ولأجلهم في روسيا إلا في القرن الثامن عشر. كانت أسر روسية كثيرة، من مختلف الطبقات الاجتماعية، تأخذ إليها أطفالا من الأسر الأخرى، فيكون ذلك عونا على تقديم الرعاية والمؤونة للأطفال، وعلى الانتفاع بعمالتهم أيضا. كما أنه مع الدخول في الأزمنة الحديثة، عمل كثير من الوالدين - في الطبقة العليا - على إيلاء الجزء الأكبر من تنشئة الأطفال إلى الخدم والمرضعات، مما قلل من الاتصال المباشر الذي ينشئونه بأنفسهم إلى أواخر مرحلة الطفولة على أقل تقدير. بالطبع، وفوق كل شيء، كان الأطفال في أكثر الأسر، لا سيما الأغلبية الواسعة التي هي من الفلاحين، مصدرا للعمالة له أهمية حيوية في الصراع من أجل البقاء الذي كان صعبا في كثير من الأحوال.

أوروبا الغربية

تثير ظروف الأطفال في أوروبا الغربية ما بعد الكلاسيكية قضايا عدة، كان لبعضها موضع القلب في المناظرة التي عقدت بين أنصار الدراسة الرائدة لفليب أرييه ونقادها (انظر الفصل الأول). كان من نتائج ذلك أننا نعلم عن الأنساق في هذا الإقليم أكثر مما نعلمه عن معظم الأقاليم الأخرى. لقد تحابكت بضعة عوامل فشكلت هيئة الطفولة الأوروبية الغربية في هذه المرحلة. كان لانتشار المسيحية عواقب مهمة؛ فقد شجعت اهتماما جديدا بالتعليم المدرسي الديني؛ وإن كانت المكاسب هنا تدريجية وغير تامة، ولا سيما قبل سنة 1500، وذلك بخلاف الحال في الإسلام، لأن الاقتصاد كان أقل تقدما. أتت المسيحية أيضا بقدر من تأكيد الاعتقاد بالخطيئة الأصلية، وكان لهذا الأمر أن يبرر بدوره مقاربة عقابية للأطفال، واستعمالا كبيرا للخوف كأداة تأديبية، مع التهديد باللعن إذا لم يلتزم الأطفال الأوامر. لكن المسيحية أعلت أيضا من شأن المساعي الجديدة للتقليل من قتل الأولاد ولتوفير مؤسسات لرعاية الأيتام والأطفال المهجورين. بعبارة أخرى، كان للعامل الديني مضامين مختلفة. بالتساوق مع هذا، عكست أوروبا بعض السمات المعيارية للمجتمعات الزراعية، ومن ذلك الاختلافات الطبقية الاجتماعية الحادة والاتكال الواسع على عمالة الأطفال. ومع تطور الاقتصاد الأوروبي في الحقبة ما بعد الكلاسيكية، ومع التأكيد المتزايد على التجارة، ومع قدر من النمو المديني، ربما نشأت ضغوط جديدة على عمالة الأطفال - مثلما ذهب إليه الظن بشأن أفريقيا وسواها من الأقاليم في أثناء الحقبة ما بعد الكلاسيكية. وأخيرا برز نمط غير معهود من الأسر الأوروبية، ابتداء من أواخر الحقبة ما بعد الكلاسيكية، كانت له مضامين مهمة بشأن الأطفال، وإن كان مرتبطا بالجهود الاقتصادية.

لم يكن لأوروبا الغربية أهمية خاصة في التاريخ العالمي في أثناء هذه الحقبة، فقد تخلفت عن ركب المجتمعات الآسيوية في مستويي النشاط المديني والقوة السياسية. لكن المقاربات الغربية للطفولة قد جمعت بين بعض الصفات غير المعهودة وبين العناصر الشائعة؛ التحليل المقارن أمر معقد، مع بعض الإشارات إلى التطورات المتأخرة أيضا.

كما في الأقاليم الأخرى، كانت مستويات الوفيات عند الأطفال عالية في أوروبا قبل الحديثة، ومن الجليّ أنه كان على الأسر أن تجد السبل لتعديل أحوالها وفقا لتواتر الموت. كانت أمارات التأديب الخشـــن نسبيا أكثر ظهورا. وعليه، فإن إريك إريكســـون، المؤرخ والمحلل النفسي، قد أكّد ما تعرض له مارتن لوثر ـ الذي أصبح المحرض للإصلاح البروتســـتانتي في القرن السادس عشر ـ من ضرب متواتر على يد أبيه العامل في مناجم الفحم. كذلك كان إريكســـون هو الذي علق على الصدمة التي عبر عنها هنود أمريكا الشـــمالية بسبب كثرة عقاب المستعمرين الأوروبيين لأطفالهـــم عقابا بدنيا. لقد نظر ديفيد هنت في التربية التي نالها مَن أصبح ملكا لفرنســـا في القرن الســـابع عشر، فلحظ كيف أن الشـــاب كان يلقى التجاهل من والديه على نحو متكرر، ويُضرب عمدا لســـوء سلوكه، بل يُجلب عنوة الفينة بعد الفينة لتســـلية الضيوف، وحينها كان أبوه يداعبـــه بصورة غير لائقة في الحفلات ضاحكا. كان قمط الأطفال شـــائعا ـ ولم يكن هذا الأمر غير معهود، على ما رأينا، لكن الممارســـة الأوروبية الغربية قد ذهبت به بعيدا، فكان المولود يحزم بالنُطُق كيلا يؤذي نفســـه وهو يحبو أو يتلوى، وكان يعلـــق بكلّاب على جدار، على نحو متكـــرر، حتى يمكن للوالدين كليهـــما أن يذهبا إلى العمـــل في الحقل مطمئنين، وكان الوالـــدان يداومان على هذه الممارســـة الســـنة الأولى كلها، ولا يرجعان عن ذلك حتى يُظهر الطفل القدرة على البدء في المشي. لقد صحبت هذه الممارســـة ـ وكان الغرض منها تقليل العناية الوالدية المطلوبة ـ اعتقادات شائعة بأن للأطفال الصغار طبيعة شـــبيهة بطبيعة الحيوان (على عكـــس الصور الجذابة التي تحفل بهـــا المقاربات الأكـــثر حداثة، والتي ربما هي الأخرى ليســـت صحيحة، ولكن من وجـــه مقابـــل). كان كثير من الناس لا يحبون رؤيـــة الأطفال وهم يَحبون، لأن في ذلـــك تذكيرا لهم بالطور الحيـــواني، فكانوا يحبذون ألا يطلقوهم إطلاقا كليا حتى يتمكنـــوا من المشي. كان لشراهة الأطفال في تنـــاول ثدي الأم نصيب من التعليق أيضـــا، فقد كان ذلك أمارة أخرى من أمارات الخصال الشـــبيهة بخصال الحيوان، مما جعل من الطفولة الباكرة شـــيئا مقززا، ربما إلى حين يبلغ الأطفال من النضج ما يمكنهم من الشروع في العمل ومد يد العون. كان لهذه التأكيدات بعض الصلة بالأفكار المســـيحية عن الخطيئة الأصلية منذ الميلاد ـ إذ يحمل الأطفال علامة من

الدنس الناشئ عن تمرد آدم وحواء على مشيئة الله ـ هذه الأفكار التي شجعت، على نحو مماثل، على الاعتقاد بالحاجة إلى تأديب صارم تهذيبي.

بالطبع، ليست الشدة هي القصة كلها. لعل كثيرا من الوالدين قد وطّنوا أنفسهم على الصبر على الوفيات المتواترة للمواليد، لكن هاهنا أيضا علامات وافرة على الحزن العميق، مثلما أظهره مارتن لوثر من رد فعل عاطفي على موت طفل.

بيد أن الممارسات الأخرى قد أثارت، على أقل تقدير، بعضا من أنواع القضايا نفسها التي أثارتها ممارسات القمط الخاصة. والاسترضاع حالة وثيقة الصلة بالموضوع. لقد كانت أسر كثيرة ترسل مواليدها إلى أم أخرى وضعت طفلا حديثا، وكثيرا ما كانت تلك الأم من أهل الأرياف، وذلك لكي تنوب عن الأم الوالدة في الإرضاع. لقد رأينا هذه الممارسة أيضا في الطبقة الروسية العليا. بالطبع، كان هذا الأمر ضروريا أحيانا، حين لا تستطيع الأم الإرضاع لسبب بدني. لكن الظاهر من أمر الممارسة الأوروبية الغربية أنها كانت ذائعة ذيوعا مدهشا، فاشتملت على كثير من نسوة أهل المدن من أهل الدرجات الدنيا في السلم الاجتماعي، مثلهن في ذلك مثل نسوة الطبقة الأرستقراطية. لكن أيضا ليس من شك في أن الاسترضاع لم يكن مفيدا دائما لعافية الطفل، بسبب أن كثيرا من المرضعات لم يكن لديهن من الحليب ما يفي بحاجة وليدين على نحو ملائم، أضف إلى ذلك أن الشروط الصحية ربما كانت رديئة. لا ريب في أن عدد الأطفال الذين كانوا يموتون عند المرضعات كان أكبر من المتوسط. لماذا، إذن، كان الاسترضاع؟ لقد أشار إليه بعض المؤرخين بوصفه علامة على قلة اهتمام من الوالدين، أو على رغبة دفينة في موت بعض الأطفال كوسيلة لاحقة لتحديد النسل. بالضد من ذلك، يلحظ مؤرخون آخرون أن الوالدين كثيرا ما كانوا يزورون الأطفال الذين يرسلونهم إلى المُرضِعة، مما يوحي بالمودة والانشغال بأمرهم. كما يحاجّون بأنه إذا كانت لبعض النسوة الأرستقراطيات رغبة صريحة في اجتناب فوضى الإرضاع، فإن أكثر نسوة أهل المدن اللاتي لجأن إلى هذه الممارسة قد فعلن ذلك بسبب مطالب العمل، مثل تولي أمر الجانب التجاري من الدكان الحرفي للأسرة (وبالطبع، كانت قلة منهن تضطر إلى استعمال المرضعات، أو حليب الحيوان ـ وكان المفضل منه هو حليب الأتان ـ لأنهن ببساطة لم يمكنهن إنتاج المؤونة المناسبة بأنفسهن). يلحظ هؤلاء المؤرخون الأكثر تعاطفا أن الاسترضاع قد استمر

في الغرب إلى أواخر القرن التاسع عشر، والسبب في ذلك - مرة أخرى - هو مطالب العمل وسواها من القضايا، وإن تعرض الاسترضاع لهجوم جديد، وهذا مما ينبغي الإقرار به. وعليه، فإنهم يحاجّون بأن الاسترضاع لم يكن علامة على عدوانية تقليدية، ولم يُترك على نحو قاطع مع الحداثة.

في النقطة الأخرى: كثيرا ما كانت الأسر الفقيرة في الغرب تهجر الأطفال ـ كان وضعهم عند باب الكنيسة حيلة مفضلة - رأى بعض النقاد المؤرخين في هذا الفعل افتقارا للحب، والحق أن كثيرا من الأطفال المتروكين كانوا يموتون، لكن سواهم رأوا في تلك الممارسة انعكاسا للفقر المحض، وأملا حقيقيا في أن يتولى رعاية الأطفال أحد ما أقدر من الوالدين على ذلك (وبالطبع، أصبحت ممارسة قتل المواليد - من دون تحفّظ - نادرة في الغرب، كما هي الحال في الإسلام).

تناول جدل آخر التأديب البدني. لقد ظهرت أمثلة مروعة من سوء المعاملة للأطفال في الغرب التقليدي في الحقبة ما بعد الكلاسيكية وحتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر، على نحو ما فعل أستاذ مدرسة ألماني؛ إذ ضرب تلميذا حتى أدماه لأنه لم يدرس. كان التأديب البدني مقبولا على نحو واسع بالطبع، بل موصى به في الأوساط الأسرية والمدارس معا. لقد تعرض بنجامين فرانكلين، في أثناء عمله تحت التمرين عامل طباعة عند أخيه الأكبر، للضرب كثيرا، حتى إنه ما لبث أن هرب من بوسطن إلى فيلادلفيا. بيد أن الإفراط في العقاب البدني لم يكن مقبولا، ولعل سيطرة الجماعة على سلوك الوالدين كانت أحسن منها اليوم، حيث الأوساط المدينية التي لا يعرف أحد فيها أحدا. ومثال ذلك أن أستاذ المدرسة الألماني قد أُغرم على تجاوزه الحد.

كانت أسر غربية كثيرة ترسل الأطفال الذين في سن المراهقة إلى العمل في بيوت أخرى لبضع سنين، وهي تدرك في كثير من الأحيان أن الأسر الغريبة لا يتوقع منها أن تعامل الطفل معاملة دافئة. هل كانت هذه علامة على قساوة القلب أم على رغبة في أن تؤدب الأسرة الأخرى الأطفال في مرحلة صعبة من العمر؟ (اقترح مؤرخ رأيا ملتويا في هذا الصدد: لقد كان الوالدون يحبون صغارهم بالفعل، ولكنهم أدركوا حاجتهم إلى التقويم الحازم بالضرب ما بعد الحُلُم، ولذلك كانوا يحبذون أن يتركوا هذا الواجب المؤلم لغيرهم)، أم أن هذه الممارسة كانت، ببساطة، انعكاسا

للرغبة في التيقن من نيل الأطفال تمرينا على وظيفة، وهذه هي أهم صيغ التعليم، أضف إلى ذلك حاجة الأسر التي يفوق عدد صغارها مقدرتها على تشغيلهم عندها إلى توزيعهم على الأسر التي بلا أطفال، كوسيلة لأفضل تقسيم ممكن للموارد؟ أم لعل لكل ما ذكرنا نصيبا في الأمر؟ (إحدى مشكلات المناظرة بين المؤرخين النقديين وأهل المراجعة الأكثر تعاطفا هي التجاهل المتكرر للتنوع الفردي: من المؤكد أن بعض الوالدين كانوا قساة، ولعلهم كانوا قادرين على استعمال الممارسات قبل الحديثة للتعبير عن هذه القسوة، بينما كان آخرون ودودين على نحو حقيقي، وقد استعملوا الممارسات لأسباب أخرى و/ أو عدّلوها بالأواصر العاطفية التي كانت بينهم وبين ذريتهم).

ختاما، أشار كثير من المؤرخين إلى جوانب الطفولة قبل الحديثة التي ربما قدمت سمات إيجابية جدا، كانت أحيانا مباينة للقيود الحديثة المميزة، فقد لاحظوا كيف كانت القرى بأكملها تقدم العون في الإشراف على الأطفال، باتصالات مباشرة وإجراءات وقائية متعددة، وتظهر اهتماما واضحا بالأطفال، وإن لم يكن حديثا على نحو تام. إنهم يركزون على الفرص التي تتيح الصحبة بين الأطفال أنفسهم، كما يحدث في أعياد القرية، وما تتيحه هذه الأعياد من فرص للتنفيس في جو متسامح نسبيا. كما لاحظوا كثرة في فرص اللعب من دون مراقبة لصيقة من الراشدين. كثيرا ما كان الأطفال يلعبون معا من دون اعتبار للتفاوت في السن، ومن دون إدراك لوجوب أن يكون اللعب ذا صبغة إرشادية على نحو خاص. كان لديهم كثير من الألعاب التقليدية، وكان لهم أن يبدعوا في العثور على أشياء للعبهم. ليس قليلا عدد العلماء الذين حاججوا بأن صفات الأطفال المرتبطة باللعب سوف تراجع بالفعل مع قدوم الحداثة، والسبب في ذلك، من بين أشياء أخرى، هو زيادة التعليم المدرسي وإشراف الراشدين - وهذا الأمر، إذن، هو إضافة ضمنية إلى القرون التقليدية.

ليس غريبا أن تعكس مناظرات المؤرخين عن صفة الطفولة في الغرب قبل الحديث المناظرات المألوفة. تولد هذه المناظرات أحيانا من الحرارة أكثر مما تولده من الضوء. وكثيرا ما تدفع المتناظرين إلى تصريحات متطرفة بمواقفهم، بدلا من أن تشجعهم على تحقيق تسويات. في الحين نفسه، تستطيع المناظرات أن تسهم في تقدّم المعرفة، مع ما لهذا من وقْع طنان، والمناظرة حول الطفولة الغربية التقليدية

هي حالة وثيقة الصلة بالموضوع. لقد خفت الجدل الآن، بيد أنه لم يسّو كل شيء. من الممكن عرض تخطيط لصورة الموقف الآن، ولو جازفنا بشيء من التبسيط.

كان بين الطفولتين الغربيتين الحديثة وقبل الحديثة اختلافات من أنحاء كثيرة. لقد عكس كثير من هذه الاختلافات معدلي الولادات والوفيات، وأدوار العمل للأطفال في المجتمعات الزراعية عامة. ولكن هناك بعض السمات الخاصة، مثل الاسترضاع المتكرر، هي تحتاج إلى تأويل منفصل. ومع ذلك فإن أهل المراجعة جميعا، ما خلا أكثرهم تطرفا، يعترفون بأن عددا من التغيرات في الأفكار والممارسات والسياقات قد حدث في ما بين العصرين الحديث وقبل الحديث. علما بأنهم يلحظون أيضا، وهم مصيبون في ذلك تماما، أن بعض التغيرات جاء حدوثها متأخرا عما كان يُتخيل أحيانا، وأن تبنّي بعضها قد وقع على نحو أقل تماثلا مما قد يقتضيه ضمنا السرد العام لخصائص «الحديث».

بعد أن قلنا ما قلناه، يوجد الآن قدر كبير من الاتفاق أيضا على أن الأوروبيين قبل الحديثين لم يكونوا مختلفين عن الحديثين على نحو ما أوحت به بعض التأويلات النقدية. من المهم أيضا - وهذه نقطة نتركها إلى فصل مقبل - إجراءُ مراجعة لكل فكرة عامة تنص على أن الطفولة الحديثة ليست فقط مختلفة اختلافا تاما، بل هي أحسن على نحو واضح، لأن هذه دعوى أخرى من الواجب أن توضع موضع الفحص. لقد تغير الخطاب في أمر الأطفال. بدأ التحلل من فكرة أن الصغار هم حيوانات صغيرة في القرن الثامن عشر. لكن المواقف الفعلية للراشدين ربما كانت أقل تبدلا. وأخيرا، لعل بعض التغيرات التي حدثت قد زادت من سوء تجربة الطفولة، أو لم تحسنها بوضوح على أقل تقدير. بعبارة أخرى، لم تكن الطفولة قبل الحديثة على قدر من السوء بحيث يكون معنى التغيير بالضرورة هو التقدم.

انطبقت المناظرات في الطفولة الغربية على أمريكا تحت الاستعمار أيضا، وهي كانت في هذه المرحلة تدخل، بالطبع، في حقبة القرون ما بعد الكلاسيكية. وهنا دليل على قسوة مدهشة، ومثال ذلك أن الوعّاظ البروتستانت كانوا يرعدون في كلامهم عن الخطيئة الأصلية للأطفال ويستعملون صور الموت في محاولة ضبطهم. لقد طُبق التأديب البدني على الأطفال ليس فقط وهم في المدرسة، بل حين كان

يغالبهم النوم في أثناء قداس الكنيسة الطويل. بيد أن علامات المودة والحزن كانت واضحة أيضا، والظاهر من أمر المجتمعات أنها كانت تتحرز من سوء المعاملة. لكن التجربة الأميركية نفسها كانت مختلفة عن التجربة الأوروبية قبل الحديثة من جوانب قليلة، قد تؤثر أيضا في المناظرة التي دارت حول صفاتها. إن الوفرة في الأرض قد زادت من الحاجة إلى عمالة الأطفال ورفعت معدل الولادات في القرنين السابع عشر والثامن عشر. كانت معدلات الوفيات أدنى، والسبب في ذلك جزئيا هو مرة أخرى أن موارد الغذاء كانت أحسن، وإن يكن من الراجح أن المعدلات قد ارتفعت في البقاع الأكثر ازدحاما في أواخر القرن الثامن عشر. لعل الأسر الأميركية كانت أكثر حرصا على الأطفال من نظائرها الأوروبية، وأكثر توقا إلى جعلهم سعداء على نحو إيجابي لئلا يرحلوا عنها، والسبب في ذلك هو الحاجة إلى العمالة، وانخفاض معدل وفيات المواليد، وانفتاح تخوم الأرض. (إن القصص التي تروى عن فرار الأطفال أو خطفهم قد غدت جزءا حزينا من الثقافة الشعبية الأمريكية) بالتوافق مع هذا، شرعت الأسر الأميركية تنفتح، على ما يظهر، على نحو غير معهود على ما يصدر عن الأطفال في أواخر القرن الثامن عشر على أقل تقدير - مع قبول للإصغاء إلى الأطفال ولأخذ آرائهم في الحسبان. هذا، على الأقل، كان رأي الكثير من المراقبين الأوروبيين، فلقد أحب بعضهم «ديموقراطية» الأسر الأمريكية، ووجد بعضهم أن الأطفال لا يطاقون. ما يبدو مؤكدا تقريبا، وبحسب المعايير الحديثة، كان أطفال الأمريكيين الحديثين الأوائل يعاملون بشيء من الشدة لضبطهم، فكان يفرض عليهم الانقياد والطاعة؛ بيد أنه ربما تطورت قبل ذلك صيغ من النزعة التقليدية الأوروبية، وإن تداخلت معها بقدر كبير.

تنبثق من التحليل المقارن طريقة مهمة لتقويم المقاربات التقليدية الغربية للطفولة: هل كان في الطفولة الغربية قبل الحديثة شيء غير معهود على نحو خاص يقارن مع الأنساق في الحضارات الزراعية الأخرى؟ لقد أكثر المؤرخون جدا من التركيز على بعض الفروق المعيارية بين الأطفال في المجتمعات الزراعية والأطفال في الأوساط الأكثر حداثة، وليست لهذا أهمية ذاتية مقارنة فيما بين المجتمعات في النقطة نفسها من الزمان. بيد أن الأمر ربما اشتمل أيضا على شيء «غربي» حقيقي، فكان عونا لنا على النظر إلى الطفولة قبل الحديثة من زاوية إضافية أخيرة.

يستحق تياران غربيان عناية خاصة. أحدهما، بالطبع، هو المسيحية. وبحسب ما يوحي به الفن الذي يصور ميلاد المسيح، فإن هذا الدين يشجع بسبل مختلفة على العناية بالأطفال على نحو متعاطف. يقدم الإنجيل قصصا كثيرة تؤكد الأهمية الدينية للطفولة، على نحو ما جاء في أمر المسيح: «دعوا الأطفال يأتون إليّ». كذلك ليس من خلاف في إمكان جذب الأطفال إلى المسيحية جذبا عميقا. ففي مثال متطرف يدعو إلى الأسف، سنة 1212، دعا ستيفان الفندومي في باريس ونيكولاس الكولوني في ألمانيا إلى حملة صليبية عمادها الأطفال، وفيها فُرض على عصائب من الأطفال الاستيلاء من جديد على الأرض المقدسة التي كانت قد سقطت مرة أخرى بيد الحكام المسلمين. وصلت زمرة ستيفان إلى ميناء مرسيليا، وهناك بيع أفرادها عبيدا، أما جماعة نيكولاس فردّت على أعقابها. لعل هذه الواقعة هي الأصل في حكاية الزمار الأرقط(*).

مع كل سحر المسيحية والطفولة وجاذبيتهما، كان هناك الاعتقادٌ غير المعهود في الخطيئة الأصلية، وهو أمر مفهوم من الوجهة اللاهوتية في ضوء تأكيد الحاجة إلى الإيمان والخلاص، من دون أن يؤخذ بالضرورة أخذا جديا في الطرق التي عومل بها كثير من الأطفال، ولكنه مع ذلك متاح، على نحو لا بد منه أحيانا، بوصفه أساسا لمقاربة صفات الطفولة مقاربة نقدية. مادام الأطفال ملوثين بالخطيئة الأصلية منذ الميلاد، فإنهم سوف يداومون على فعل الخطيئة بوصفها جزءا من الطبيعة البشرية. قد يتسبب هذا الاعتقاد في نقاشات قلقة بشأن مصير نفوس الأطفال الذين ماتوا صغارا، ولقد نشأ شيء من المرونة في هذه النقطة؛ من المؤكد أنه وراء أهمية العماد بوصفه خطوة أولى نحو إصلاح الطبيعة الشريرة للأطفال؛ لكنه قد يولّد أيضا اعتقادات، عدوانية أو حسنة النية أو هما معا، اعتقادات في الحاجة إلى فرض تأديب صارم على الأطفال لكيلا تذهب بهم نزواتهم بعيدا نحو الضلال. (وكان هذا على رأس خرافات أخرى عن الأطفال الذين ربما يولدون سحرة، بسبب أن أمهاتهم قد خوفن في أثناء حملهن أو بسبب أن الأطفال أنفسهم قد حملوا وحمة شؤم منذ الميلاد).

(*) Pied Piper، أو زمار هاملين، وتروي قصة بلدة في ألمانيا استأجر أهلها زمارا ليخلص البلدة من الجرذان التي أهلكتهم، ولما تخلف أهل البلدة عن دفع الأجر للزمار بادر فأخذ أطفالهم بسحر مزماره كما فعل بالجرذان. [المترجم].

من المؤكد تقريبا أن المسيحية قد شجعت على استعمال الخوف من الموت واللعن أداة لضبط كثير من الأطفال، فأثار ذلك أمرا يعدّه بعض المؤرخين مخاوف عميقة مميزة. مثال ذلك أنه حتى سنين من القرن التاسع عشر كان كثير من عامة القرّاء للأطفال في الولايات المتحدة يشددون على هشاشة الحياة وعلى الحاجة إلى الاستعداد للموت في كل لحظة. بعبارة أخرى، لعل المسيحية قد ضخمت من تأثير إحدى سمات الطفولة قبل الحديثة التي لا مفر منها والتي هي شائعة في كل مكان. لعل هذا التوتر الناشئ حول الخطيئة والموت قد اشتد في القرون التي تلت الحقبة ما بعد الكلاسيكية، ولا سيما مع ظهور البروتستانتية في القرن السادس عشر. فلقد أتت البروتستانتية بتأكيد متزايد على القضاء والقدر والطبيعة الخطاءة للبشر، فأحدثت مزيدا من الضغوط على كثير من الأطفال، لأنه كان يتوقع من الآباء أن يتولوا دور الحكام والأوصياء الأخلاقيين. ونقول، من غير أن نسقط من جديد في إدانات التأديب قبل الحديث، الإدانات غير التاريخية، إنه من المحتمل أن الطفولة الغربية ربما كان لها، بالمقارنة مع الطفولات في مجتمعات أخرى، سمات تأديبية بل نفسية مميزة، ولعل بعضها قد تكثف في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كانت السمة الثانية من سمات التجربة الغربية التي أثرت في الطفولة، في تطورها ابتداء من أواخر القرون ما بعد الكلاسيكية، هي الطبيعة الخاصة لطراز الأسرة الأوروبي. لقد أكّد نمط الأسرة غير المعهود هذا سنا متأخرة نسبيا للزواج لمن هم دون أهل النخبة. أي للأغلبية الواسعة، فكانت السن الشائعة هي 26 للنساء و27 للرجال. أضف إلى ذلك أن أقلية ضخمة، وأكثر أفرادها هم من الأفقر حالا من الناحية الاقتصادية، لم يتزوجوا البتة. من الراجح أن الغاية كانت وضع حد لمعدل الولادات من أجل حماية أسهم الملكية من مطالب الأطفال الكثيرين جدا. كان لهذه المنظومة بضع عواقب على الأطفال، بجانب الأرقام المجردة. لقد رُكّزت العناية على الأسر النووية من دون الممتدة؛ كثيرا ما كان التفاعل مع الأجداد محدودا، لأن الراشدين الأصغر سنا حين يتزوجون يكون والدوهم، في أكثر الأحوال، قد ماتوا. تركز العمل الأسري على الزوجة والزوج، ومعهما الأطفال القادرون وربما عامل من خارج الأسرة؛ من الراجح أن هذا الأمر قد زاد من مسؤوليات العمل الواقعة على النساء، وفي هذا عون على تعليل بعض الممارسات، مثل القمط واستعمال المرضعات. هل

ضغط العمل هذا هو، بدوره، السـبب في نزوع التقليد الغربي إلى الحد من الاتصال البـدني المباشر بين الأم والأطفال، بالمقارنة مـع المجتمعات الأخرى كما هو قائم في أفريقيا، حيث كانت الأمهات يحملن أطفالهن وهن في العمل، مسـتمتعات بالقرب بـين البدنين؟ إن توقيت ولادة الأطفال في أوروبا الغربية وأمريكا تحت الاسـتعمار - حيث كان يولد في فبراير ومارس من الأطفال أكثر مما يولد في سـائر الشـهور، مما يصعب عمل النسـوة - حتى هذا التوقيت قد عكس حاجات العمالة والنتائج فيما يخص العناية المتاحة بالنسل.

من الجليّ أن هذه المنظومة قد جازفت بقدر أكثر من القدر المعهود من التوتر بين الأجيال من ناحية الشباب الأكبر سنا. فحين لا يكون مستطاعا للأولاد أن يتزوجوا حتـى يتملكـوا، وحين يكون من المعهـود أن تبقى الملكية في حـوزة الأب إلى حين وفاته، فإن احتمالات نشـوء علاقات خشـنة هي احتمالات عالية. في المسـتعمرات الأمريكيـة أدخل بعض الآباء تعديلا على هذا الأمر بأن تخلوا عن بعض الأرض قبل الوفاة (بالطبع، كانت الأراضي كثيرة على نحو غير معهود بالنسـبة إلى أوروبا)، لكن حتـى في هذه الحال فقد وقع الكثير من الشـجار المرير وشيء من العنف الصريح. في فرنسـا، في القرن الثامن عشر، كان الآباء الهرمـون هم أكثر ضحايا جرائم القتل، التـي ترتكب بأيدي الأبناء النافدي الصبر. لقد عبر أحد الفلاحين عن عدم الاكتراث، إن لم نقـل العدوانية، عند وفاة أبيه بأسـباب طبيعية: «اليوم مات أبي. لقد ذهبت لأحرث الحقل».

أخيرا، كان نسـق الأسرة الأوروبي يعتمد على قدر لا يسـتهان به من السـيطرة الجنسـية. لم يكـن أكثر الناس قادريـن على الزواج إلى ما بعد الحُلُم بعشر سـنين. في الحين نفسـه، كان كلٌ من الأحكام الدينيـة والحاجة إلى حماية الاقتصاد الأسري مـن الولادات غير المرغوب فيها يثبطان من النشـاط الجنسي التام قبل الزواج. لقد ترصدت القرى السلوك الجنسي للشباب من كثب، فلم تسمح بالارتباط بين العزاب إلى أن يظهر احتمال واضح لإمكان الزواج؛ قد يحدث نشاط جنسي في هذه المرحلة، فيفـضي إلى عدد مـن حالات الحمل قبـل الزفاف، لكن الـولادات كانت تقع بعد الزفاف بمدة طويلة. لقد نشأت حالات من اللاشرعية الصريحة، لكن المعدلات كانت منخفضة نسبيا فبلغت من 2 إلى 3 في المائة من الولادات جميعا. بعبارة أخرى، كان

على الغربيين الذين في مرحلة الشباب أن يتأقلموا مع القيود غير المعهودة التي وضعت على الممارسة الجنسية بسبب تأخر سن الزواج، ومن المثير للاهتمام أن نفكر في عواقب ذلك من جهة التوترات الفردية وتطور متنفسات بديلة. اشتمل الأمران الأخيران على اللجوء إلى الصّر - فكان يُسمح لرجل وامرأة بالاضطجاع معا، ولكن في ثيابهما - وكذلك استعمال الحيوانات لمقاصد جنسية (لا يمكننا التخمين عن مدى شيوع ذلك). ولقد طرأ، أيضا، ازدياد في البغاء، ولاسيما في المناطق الحضرية.

إجمالا، توحي الاستقصاءات المقارنة ببعض الأنساق المميزة التي ظهرت في الغرب، أنساق للأطفال الصغار جدا وللذين في مرحلة الشباب أيضا، والفضل فيها هو لاجتماع العقيدة الدينية والتدابير الأسرية. كان أثر الفروق منحصرا داخل المجال الاعتيادي. مثال ذلك أن الاسترضاع، كما رأينا، لم يكن مما تفرد به الغرب، وإن كان انصراف الأمهات إلى العمل ربما قد أسهم في ارتفاع نسبة حدوثه. فقد اتسم الشرق الأوسط أيضا بخصيصة التأديب الصارم، بيد أنه قد شهد قدرا من الجدل بشأن ذلك أكثر من الغرب، كما شجع الإسلام أيضا على قدْر من الانشغال المخيف بأمر الخطيئة. كان الاهتمام بأمر الطاعة ذائعا جدا. وكانت التأكيدات الغربية المميزة في هذه النواحي ظلالا من الأنساق المعيارية.

لكن مرحلة الشباب الطويلة في الغرب تباينت مع اهتمام أكثر المجتمعات الزراعية بالانتقال من الطفولة إلى الرشد انتقالا أكثر مباشرة، حيث يمكن للعمل أن يبقى، مع ذلك، تحت سيطرة الأسر الممتدة. ربما كان للنسق الغربي بعض المزايا، وإن شجع أيضا على مزيد من الاضطراب؛ من الممكن أن يُعزى كثير من الاحتجاجات في مدن أوروبا الغربية إلى الشبان الذين حُرموا النضجَ الاقتصادي التام. كانت الحقيقة البسيطة هي أن أكثر المجتمعات قد أدارت أمر الشباب والرغبة الجنسية بتقديم سن الزواج تقديما نسبيا، ولا سيما النساء؛ مع قدوم طراز الأسرة الأوروبي، فرضت الأنساق الغربية مزيدا من السيطرة الفردية والجماعية، ومرحلة وسيطة أطول بين الطفولة والرشد التام.

لعل المقاربة الغربية للأطفال الصغار، بما عكسته من بعض النفوذ لفكرة الخطيئة الأصلية، كانت أيضا أقل تدليلا، وأكثر إشعارا بالذنب من نظائرها في الأماكن الأخرى. لعل هذا قد اجتمع مع قدر أقل من العناية من جانب الأم، بالنظر

إلى مطالب العمالة داخل الأسرة النووية. هل أثرت هذه الفروق في المجتمع الواسع أيضا؟ إنه لمن المثير للاهتمام قطعا، وفق ما سوف نراه في الفصل السادس، أن يتركز أحـد الأهداف الأولى للإصلاحيين في الغرب على معاملة الأطفال الصغار، من القمط إلى فكرة الشعور نفسها بالخطيئة. لم ينشأ هذا الهدف عن التحليل الدقيق المقارن، بيد أنه قد أوحى بوعي لبعض سلبيات المقاربة الغربية قبل الحديثة.

لقد ابتدأت الخصائص الغربيـة قبل الحديثة للطفولة بالتغير ابتداء من أواخر القرن السابع عشر، وإن استمر كثير من الممارسات والأفكار الأقدم عهدا أمدا طويلا. سـوف يحوّر التغيير، بالتدريج، بعض تأكيدات المسيحية التقليدية، ومنها استحضار الخطيئة الأصلية، وكذلك بعض سـمات طـراز الأسرة الأوروبي، ومنها الإصرار الصارم على السيطرة الجنسـية. إن المقاربة الغربية المتغيرة للطفولة هي التي سيكون لها الشأن ليس في الغرب نفسه فقط، بل في أجزاء العالم الأخرى وبواسطة النفوذ الغربي.

سـوف نتناول التغيرات الكبرى في التجربة الأوروبية في الفصل السـادس، لكن ملاحظـة واحدة تسـتحق أن يكون لها موضع في هذا النقـاش. لقد ظهرت إحدى العلامـات الأولى على التبـدل في المقاربة الغربية للأطفال في المسـتوى الفكري. في أواخر القرن السابع عشر، حاجج جون لوك قائلا إن الأطفال، الأبعد عن أن تفسدهم خطيئة أصلية، هم بالفعل صفحات بيضاء، قادرون على التحسن بالتعليم الصحيح. في القـرن الذي تـلاه، أخذ كثير من مفكري التنوير هذه المهمة، فقرعوا المسـيحية التقليديـة بسـبب أذيتها للأطفال (وغير ذلك من الأخطـاء) وحضوا على مزيد من العناية بالتعليم المدرسي. عمد مفكرون آخرون، من مثل جان جاك روسو، فأضافوا إلى ذلـك اعتناقـا لفردانية أكثر حـرارة للأطفال، ولمنظومات في التنشـئة فيها رفق بالأطفال، ومنظومات مدرسـية ترعى الـشرارة الإبداعية. مثال ذلك أن بدأ في هذه المرحلة الهجوم على القمط. ما الذي تسبب في هذه المراجعة المهمة - المراجعة التي لها دور لا ينكر في استثارة بعض التغيرات الخاصة التي كان لها أن تؤثر في الأطفال، ابتداء من ممارسـات التسـمية ذات الصبغة الفردية إلى الصيـغ الجديدة للتعليم الشـامل؟ من الجليّ أن ظهور العلم، بتحديـه للدين التقليدي وبرهانه على إمكان أن تمضي المعرفة بعيدا عن العقيدة المسـيحية، قد شجع على إعادة التفكير. كذلك فَعَل الرخاء المتعاظم لكثير من الأوروبيين، فأتاح لهم تحمّل أنواع جديدة من رعاية

الأطفال. وقد اشتمل ذلك في خاتمة المطاف، في أواخر القرن الثامن عشر، على أول طائفة من العناصر الاستهلاكية المصممة للصغار. لكن هل كان هناك إدراك ضمني بأن بعض جوانب التقليد الغربي لم تكن خشنة فقط، بل منتجة لعكس ما يراد منها، إذ أنتجت توترات بين الأطفال والوالدين وفشلت في البلوغ بمواهب الأطفال إلى الحد الأمثل؟ لم يوحِ التقليد الغربي نفسه، على نحو مباشر، بأي أساس للزعامة في ما قد أصبح نزوعا عالمي النطاق إلى إعادة النظر في جوانب الطفولة؛ لكن ضعف التقليد نفسه ربما قد شجع على المزيد من التغيير.

إن الطفولة الغربية التقليدية تبقى، مع وشيك تغيرها، ذات أهمية من الوجهة التاريخية، والسبب في ذلك جزئيا هو دخولها في آخر الأمر في مناظرة قوية غنية بالمعنى. لم تضمحل الممارسات المتقدمة مع سيرورة التغيير. لقد دام الاسترضاع مدة أطول مما كان يتخيل، بالنظر إلى الانتقادات التي وجهت إليه. ودامت أيضا الأفكار الأقدم عهدا بشأن التأديب. لقد عيّن المؤرخ فيليب غريفين مظاهر الاستمرارية عند الأقلية المسيحية الإنجيلية في الولايات المتحدة، في اعتقادها الباقي بالحاجة إلى التأديب البدني الصارم وفي الكبت المحدود للغضب في العلاقات بين الوالدين والأطفال. هاهنا تعبير آخر مثير للاهتمام: مع تطوير المجتمع الغربي لسبل جديدة من أجل نقْل الأطفال، نزع إلى تكرار فكرة الفصل البدني المعتبر، فكان الأطفال يوضعون في عربات أو «مشّايات»؛ مقابل ذلك، فشلت المساعي لبيع عربات الأطفال في نواحي أفريقيا المدينية، ويرجع ذلك إلى الرغبة المستمرة في حمل الأطفال الصغار بالقرب من الجسد. مايزال المجال مفتوحا للتناظر في أمر الطفولة الغربية: ما الذي يميزها، وماذا بقي من روابطها المعقدة مع الماضي.

خلاصة

إن الطفولات في مختلف أقاليم العالم قد مازجت، في القرون ما بعد الكلاسيكية وما بعدها، بين الخصائص المعيارية للمجتمعات الزراعية وبين الثقافات الخاصة والممارسات المحلية، ولم تكن أوروبا الغربية، بخطوطها العريضة، استثناء من هذا التعميم. لقد أنتج اعتناق دين من الأديان الكبرى أنواعا جديدة من العناية بالأطفال في نواح كثيرة، منها أنماط التعليم المدرسي الجديدة. في الشرق الأوسط،

دفع هذا الأمر بالتعليم إلى مستويات جديدة، ومع ذلك فقد كان قدرٌ من التوسع في كل مكان تقريبا. كان للأفكار الدينية المتغيرة أن تحدث تأثيرا في التأديب، أو في سبل تبرير التأديب على أقل تقدير، أو في ردود الأفعال على موت الأطفال. لقد كان للمستويات الجديدة من الاتصال المباشر بين المجتمعات الكبرى. وكانت الأمريكتان استثناء من هذا. بعض التأثير في الطفولة، ولاسيما حين صار الدخول في الأديان جزءا من السيرورة، بيد أن النتائج الإجمالية كانت، على ما يظهر، متواضعة جدا. لعل نمو التجارة قد مثل ضغطا جديدا على كاهل الأطفال من جهة كونهم عمالا، علما بأن ذلك يصعب قياسه. إن طراز الأسرة الأوروبي الذي من الراجح أنه قد صيغ استجابة للرغبة في إدخال تحسين على الشروط الاقتصادية للبنية الأسرية بضمان الوصول إلى الملكية، قد غيّر سياق الطفولة قطعا، فأتى بنتائج امتدت إلى القرون التي جاءت بعد الحقبة ما بعد الكلاسيكية. لعل العمل تحت التمرين، ولاسيما في الحرف المدينية، قد أصبح أكثر قسوة، وهذه علامة أخرى على الضغوط الاقتصادية التي مورست على العمل، وإن كان أوضح ما يوحي بذلك هنا إنما يأتي مرة أخرى من الدليل الأوروبي. لم تكن الدوافع الاقتصادية مضادة للعوامل الدينية على نحو كلي. لقد كان للتعليم المدرسي الديني أن يتسع نطاقه حتى وإن صارت عمالة الأطفال أكثر إرهاقا من جوانب أخرى. لكن الأطوار الختامية من الحقبة الزراعية في التاريخ العالمي حركت مزيجا مثيرا للاهتمام من الإشارات، ابتداء من إعادات التعريف دينيا وانتهاء إلى الاستجابات للتغير التجاري. لقد أحدثت النتيجة فروقا مقارنة جديدة، بيد أنها قد ثبّتت أيضا ما للعمل والطاعة من دورين مركزيين في توقعات الراشدين من الطفولة.

للمزيد من القراءة

- Traci Arden and Scott R. Hutson, **The Social Experience of Childhood in Ancient Mesoamerica** (Colorado: University Press of Colorado, 2006).

- Pedro Sarmiento de Gamboa, **The History of the Incas** (Charleston, SC: BiblioBazaar, 2007).

- A. Goncu, **Children's Engagement in the World: Sociocultural Perspectives** (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1999).

- R. Sharer, **The Ancient Maya**, 6/e (Stanford, CA: Stanford University Press, 2005).

- Michael E. Smith, **The Aztecs** (Oxford, UK: Blackwell Press, 2003).

- Mario Aguilar, ed., **The Politics of Age and Gerontocracy in Africa** (Trenton, NJ: African World Press, 1998.(

- Benedict Carton, **Blood from your Children: The Colonial Origins of Generational Conflict in South Africa** (Charlottesville, VA: University Press of Virginia, 2000).

- Jane Guyer, "Household and Community in African Studies," **African Studies Review** 24: 86–137, 1981.

- John Iliffe, **Africans: The History of a Continent** (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1995).

- S.B. Hanley, **Everyday Things in Pre-modern Japan: The Hidden Legacy of Material Culture** (Berkeley, CA: University of California Press, 1997).

- Kathleen Uno, **Passages to Modernity: Motherhood, Childhood and Social Reform in Early 20th Century Japan** (Honolulu: University of Hawaii Press,1999).

- Mikiso Hane, **Premodern Japan: An Historical Survey** (Boulder, CO: Westview Press, 1992).

- Clementine Creutziger, **Childhood in Russia: Representations and Reality** (Lanham, MD: University Press of America, 1996).

- Albrecht Classen, **Childhood in the Middle Ages and the Renaissance** (Berlin: Walter de Gruyter & Co., 2005).

- Andrea Immel, **Childhood and Children's Books in Early Modern Europe** (New York: Routledge, 2006).

- David Kertzer and Mario Barbagli, eds, **The History of the European Family: Family Life in Early Modern Times** (New Haven, CT: Yale University Press, 2001).

- Katherine A. Lynch, **Individuals, Families and Communities in Europe, 1200–1800** (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2003).

- Don S. Browning, M. Christian Green and John Witte, Jr, eds, **Sex, Marriage and Family in World Religions** (New York: Columbia University Press, 2009).

- T.W. Rhys Davids, **Buddhism: Its History and Literature** (New York and London: G.P. Putnam's Sons, 2009.(

- Cyril Glasse, **The New Encyclopedia of Islam**, 3rd edn (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2008).

- Philippe Ariès, **Centuries of Childhood: A Social History of Family Life** (New York: McGraw-Hill, 1962).

- Erik Erikson, **Young Man Luther: A Study in Psychoanalysis and History** (New York: Norton, 1958).

- Mary Hartman, **Households and the Making of History: A Subversive View of the Western Past** (New York: Cambridge

University Press, 2004).

- Stephen Ozment, **Ancestors: The Loving Family in Old Europe** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001).- **Linda Pollock,** Forgotten Children: Parent-Child Relations from 1500 to 1900 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983).

- David Hunt, **Parents and Children in History: The Psychology of Family Life in Early Modern France** (New York: Harper and Row, 1972).

- Lawrence Stone, **The Family, Sex and Marriage in England, 1500-1800** (New York: Harper and Row, 1977).

- Jean Delumeau, **Sin and Fear: The Emergence of a Western Guilt Culture, Thirteenth-Eighteenth Centuries** (New York: St Martin's, 1990).

- Philip Greven, **Spare the Child: the Religious Roots of Punishment and the Psychological Impact of Abuse** (New York: Knopf, 1991).

- John Demos, **Past, Present and Personal: The Family and the Life Course in American History** (New York: Oxford University Press, 1986).

- Colin Heywood, **A History of Childhoods: Children and Childhood in the West from Medieval to Modern Times** (Cambridge, UK: Polity Press, 2001).

6

قوى التغيير ونموذج الطفولة الحديث: التطورات في الغرب من القرن الثامن عشر إلى سنة 1914م

يحـــذّر المؤرخــون من التعميـــم. يفضلون على نحو متكــرر رواية القصص التي تلــوّح بأنماط أكثر اتســاعا على عرض هذه الأنمــاط عرضا صريحا فيه مجازفــة بالإفراط في التبســيط. ويميلــون أيضا إلى تعيين مواضع دراستهم تعيينا دقيقا، وينزعجون من الأقــوال التي تغطي منطقة جغرافية واســعة جدّا. ومع أنّ المؤرخين العالميين ليســوا بالضرورة حذرين مثــل بقية ســلالتهم، فإنّهــم يتحســســون - وهم معــذورون لذلــك - من النقاشــات التي تُعنى بالغرب كثــيرا، لأنّ أحد مقاصدهــم هو إعادة التــوازن للفهــم التاريخي، بحيــث لا يظهر أنّ الغرب هو الذي يتولى أمر الماضي. من الأســباب الكبرى لهجوم المؤرخين العالميين على ما درجت

«كان مفهــوم المراهقة وقودا لتغيير اجتماعــي أوســع نطاقــا، وإن كان سلاحا ذا حدين»

تسميته بـ «نموذج التحديث» هو أنّ هذا النموذج قد أعطى الصدارة للغرب وسلّم (بصيغه المبسطة) بأنّ بقية أرجاء العالم إما أن تقفو الأنساق الغربية، وإما أن توصَم بقصور ما يحتاج إلى تعليل.

بيـد أنّ المبالغة في الحذر في أمر التاريـخ العالمي الحديث للطفولة قد تؤدي إلى ضلال بعيد؛ والأجـدى من ذلك هو اندفاعة جريئة. يبدأ هذا الفصل بوضع تخطيط لنمـوذج حديث للطفولة، لئلا نُشـغل عن الكل بالنظر إلى أجزائـه. يفصل الطفولة الحديثة المميزة عن الطفولة في المجتمعات الزراعية أربعة تغيرات كبرى. لا تصوِّر هذه الأنسـاق الطفولة بأسرها، بيد أنّها تحتم بضع نتائج منطقية، بغض النظر عن تحديد مـكان بعينه. أضف إلى ذلـك أنّ التغيرات قد وقعت أولا في أوروبا الغربية والولايات المتحـدة. لقد تبنّـت المجتمعات الأخرى التغيرات، على نحو جزئي، بالاستنسـاخ عن الغرب، ولكن أيضا لأسـباب مسـتقلة، تتجاوز مجرد المحاكاة. مـن الصحيح أيضا أنّ بعـض المجتمعات لاتزال ماضية في عملية الانتقال، ولهذا السـبب فإن حديثنا يدور حـول نموذج حديث مازال متحركا، وعلى احتمال أنّ بعض المجتمعات سـوف ترفض النموذج أو تدخل عليه تعديلات كبيرة. بيد أنّ المدعى هاهنا ليس نسخة بسيطة من تحديث طرأ على الطفولة. هناك اختلافات بين النموذج الحديث في صيغته التي نشأ عليها في الغرب، وهذا هو موضوع هذا الفصل، وبين الصيغة التي نشأ أو ينشأ عليها في بقية الأماكن (وهذه المقارنات تبرز في الفصول الآتية).

أخـيرا، مع أنّ النموذج الحديث قد يبدو أيضا «حسـنا»، بالمقارنة مع الظروف التقليديـة - وهذه طريقة أخرى للقول بـأنّ أكثرنا قد اعتاد على النموذج الحديث حتى إنّه ليَشـكُل علينا أن نرى في بدائله قيمة - فإنّه سوف يتضح جدا أنّ النموذج يحمل كلّ أنواع السـلبيات. بدأت بعض هذه السلبيات في الظهور في الغرب بحلول القرن التاسـع عشر، وبعضهـا ازداد وضوحا منذ ذلك الوقت. ولاشـتمال النموذج الحديث على تغيير جدي، فقد اسـتثار أيضا كثيرا من المخاوف، ولايزال بعضها قائما حتّى في الأماكن التي رسـخت فيها هذه الأنساق رسوخا متينا على ما يظهر. لايزال بعـض المجتمعات يناقش أمر تبنّي النموذج الحديـث، حتّى مع اجتناب الزخارف الغربية الخاصة، ومـن الممكن أن نعدّ هذا أمرا مفهوما جدا. ليس النموذج الغربي معقدا في جوهره، بيد أنه لا تجوز المبالغة في تبسيط موضعه من التاريخ العالمي.

من المهم تذكّر أنّ النقطة المركزية في هذا الفصل وما يليه تدخل في بضع مناظرات حقيقية ومعقدة حول الطفولة، تعقد هذه المناظرات أولا في مقدار المجال المتاح لعقد مبايَنة مشروعة بين نسخة حديثة من الطفولة ونموذج زراعي ذي صبغة تقليدية، ومن ثمّ تعقد في القضية المركبة ذات الصلة بما ذكرنا، أي قضية دور الغرب في ممارسة النفوذ على المجتمعات الأخرى في القرنين المنصرمين. ليس من الواجب أن تكون المبايَنة بين الحديث وقبل الحديث تامة - مما لا ريب فيه أنّ الاستمراريات سوف ترافق التغيير؛ ومن المقطوع به أنّ هذا الأمر لا يشبه مبايَنة بين الحسن والقبيح. إنّ النفوذ الغربي، المؤسّس على تطويره للصور الجديدة من الطفولة لنفسه بنفسه، لم يحجب قط السمات المميزة في الأقاليم الأخرى حجبا تاما، ومما يثير السخرية أنّ القوة والاستغلال الغربيين قد وضعا، على نحو متكرر، قيدا على المقدرة على المحاكاة، حتى على مستوى الأمور الأساسية المحدودة. ليست المناظرة بسيطة.

إنّ الطفولة الحديثة، وقد شرعت في الظهور أول مرة في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تشتمل على ثلاثة أصول، لبعضها صلة ببعض. تحابكَ مع الانتقالات الأساسية عامل رابع. يشتمل التغير الأول، وهو الأكثر جوهرية، على تغيير في وجهة الطفولة من العمل إلى التعليم المدرسي. إن الفكرة القائلة بأنّه ينبغي للأطفال الشروع في تقديم المساعدة للاقتصاد الأسري في سن صغيرة نسبيا، ومن ثمّ أن تكون لهم قدرة على تحصيل ما يعولهم، وربما الإتيان بموارد تضاف إلى الاقتصاد الأسري من منتصف مرحلة المراهقة وإلى آخرها، إن هذه الفكرة قد أصبحت عنصرا مركزيا في المجتمعات الزراعية. في النموذج الحديث تركت هذه الفكرة مكانها للفكرة العامة القائلة بأنّه ينبغي للأطفال الصغار ألا يعملوا البتة، وأنّ عليهم الذهاب إلى المدرسة؛ ولقد تمدد هذا، بالتدريج، إلى الفكرة العامة القائلة بأنّه حتّى الذين في وسط المراهقة لا ينبغي لهم العمل، والبديل الجديد هو مرة أخرى التعليم المدرسي. كان معنى هذا، وفق ما أدركه سريعا كثير من الوالدين، أنّ الأطفال قد كانوا أصولا اقتصادية فأصبحوا التزامات اقتصادية مطلقة، فاقتضى ذلك بدوره إعادة النظر الجدية في طبيعة الطفولة والقصد منها. عملت هذه الأمور جميعا على الدفع بالتعليم المدرسي إلى منزلة تجاوزت منزلته التي بلغها في المجتمعات الزراعية، حتّى في الإسلام واليهودية.

استحثّ هذا الأمر، ومعه مزيد من التمدين العام وتعقيده لأمر رعاية الأطفال، استحثّ العنصر الثاني من عناصر النموذج الحديث: اتخاذ قرار للحد من حجم الأسرة حتى بلغ مستويات منخفضة لا سابق لها. كان من المعهود للأسر الزراعية أن تسعى إلى إنجاب خمسة أطفال أو سبعة، لكن معدل الولادات هذا كان ببساطة غير ملائم لظروف يكلّف فيها الأطفال أموالا لطعامهم ولباسهم بل ونفقات مدارسهم، من غير أن يسهموا في العمل لقاء ذلك. لم يكن تحقيق معدلات ولادة أكثر انخفاضا أمرا سهلا دائما. لقد دخل كثير من المجتمعات في نقاشات صعبة حول الطرق المعقولة والأخلاقية، ولاتزال النقاشات مستمرة حتى في الولايات المتحدة. لقد كان تعديل الراشدين لأحوالهم بما يناسب ذلك محفوفا بالصعوبة أيضا: كيف ينبغي تحديد المسؤوليات الأسرية حين تصبح الوالدية أقل أهمية، من الناحية الكمية على أضعف تقدير؟ أيا كانت المخاوف، فإنّ عملية خفض معدل الولادات ثبتت مركزيتها في نموذج الطفولة الحديث.

اشتملت النقلة الأساسية الثالثة في النموذج الحديث على خفض جذري في معدل وفيات المواليد، من المستويات التقليدية، وفيها كان ما يتراوح بين 30 و50 في المائة من الأطفال المولودين يموتون قبل الثانية. كانت علاقة هذا الأمر بالتغيرات في معدل الولادات متفاوتة. في الغرب، جاء أولا الخفض في معدل الولادات، فشجع على مزيد من الانشغال بأمر وقاية الأطفال المولودين، واستثار هذا الأمر مزيدا من حاجات تحديد النسل. في أكثر أنحاء العالم الأخرى، هبطت معدلات وفيات المواليد أولا، وكثيرا ما كان ذلك نتيجة التحسن في خدمات الصرف الصحي وإجراءات الصحة العامة، وهذا الأمر قد أطلق الحاجة الملحة إلى الحد من معدل الولادات، جزئيا للتعويض.

في أوروبا وأمريكا الشمالية، حيث اتخذت التغيرات الحديثة شكلها أول مرة، استغرق وقوع التطورات عقودا كثيرة. اتسع نطاق التعليم المدرسي في مرحلة باكرة جدا، وقد شجعه في أول أمره الطباعة وما ظهر عند البروتستانت من عناية بأهمية القدرة على قراءة الكتاب المقدس. دخلت مكاسب التعلّم في نمو التصنيع والتغير التقاني أيضا، فظهر كثير من الكراسات المخصصة لتنمية المهارات. بدأت هذه التطورات ترسخ أقدامها بحلول القرن السادس عشر، لكن عملية التغيير كانت

تدريجية، والاعتنــاق الحقيقي لرؤية الأطفال من زاويــة التعليم المدرسي في المقام الأول لم يبرز إلا في القرن التاســع عــشر. إنّ الانخفاضات الكبيرة في معدلات الولادة قد ظهــرت في بعض الفئات الاجتماعية في أواخر القــرن الثامن عشر. بدأ الاهتمام بوفيات المواليد في القرن التاسع عشر، بيد أنّ التحول الكلي لم يتحقق حتى العقود التي سبقت نهاية القرن والتي تلته.

لقد ارتبطت هذه التغيرات، بعد أن تســارعت، بعامل رابع، ألا وهو الاهتمام المتزايــد من قِبــل الدولة الأمــة - وهي ذاتها مــن المنتجات الحديثــة التي ابتدأ تحديدهــا في الغرب - بالمواجهــات المباشرة مع الطفولة. لقــد حدثت بين الدول والطفولة ارتباطات قليلة في أثناء القرون الزراعية، وفيها كانت المســؤولية الكبرى واقعــة عــلى عاتق الأسرة (وهي أسر ممتدة في المعهود من الأحوال) مع مســاندة ثانويــة تقدمها الهيئات الدينية، ولا ســيما ابتداء من الحقبة ما بعد الكلاســيكية. لكــن الــدول شرعت، ابتداء من الثورة الفرنســية، تدخل في الصــورة بقوة، مع ما صاحــب ذلك من صراع حقيقــي لتعيين الحدود الفاصلة بــين الامتيازات الوالدية ومصلحــة الدولــة. لقد أرادت الحكومات الحديثة أن تكــون لها كلمة في الطفولة لتعين على تحســين الصحة؛ ولتشــجع الحصول على إمدادات ملائمــة من الجنود والعمال؛ ولضمان الولاء الســياسي، ويكون ذلك على نحو أســاسي بتوجيه المقررات الدراســية؛ ولحماية الأطفال من صور بعينها من ســوء المعاملة. اشــتمل الاتصال الحكومي المباشر بالطفولة على التزام متنام بتعليم علماني أساسا، تديره الدولة. بيد أنّــه قد دخل في نطاق ذلك أيضــا قوانين عمالة الأطفال، وإجراءات الصحة العامة، والإرشاد الموجّه إلى الوالدين برعاية حكومية، بل والرغبة في وضع اليد على الأطفال الذين لا يبدو أنّ والديهم يقدمون لهم رعاية مرضية، وكان ذلك مصدرا أخيرا لتبدّل أصولي طرأ على إطار الطفولة، وعلى الراشــدين الذين يتعاملون مع الأطفال، تبدّلا يحدِّد المقاربة الحديثة.

إنّ التغــيرات الحديثة الأساســية قد أتــت على إثرها بتعديــلات إضافية، كلما وقعت وحيثما وقعت. لقد اتســع نطاق صفــات الأطفال المرغوبة، كما هو متوقع، فاشــتمل على اهتمام خاص بالــذكاء: بينت المدارس وبرامج الاختبــار للوالدين أنّ الذكاء الممكن قياسه هو «أمر حَسَن».

استتبع النموذج الحديث تعاظما في الفصل بين الأطفال بحسب السن. وزعت أكثر المدارس الأطفال في الصفوف، أو في أقسـام، داخل كلّ صف وفق السن، أضف إلى ذلك أنّه مع انخفاض معدلات الولادات فإنّ أكثر الأطفال قد نشأوا مع عدد قليل من الإخوة، وقلل هذا الأمر من العلاقات البينية ورعى تعاظما في التفاعل مع نظرائهم في المدرسة ممن هم في السن نفسها. كان للفرز وفق السن أن يؤثر أيضا في السبل التي يتبعها كثير من الراشدين في النظر إلى الطفولة. بحلول القرن العشرين، تطور قدر عظيم من الخبرة في أنساق التطور وفق التدرج في السن، ومنها المهارات الإدراكية، تطور ذلك في الغرب أولا ومن ثمّ اتسع نطاقه. قامت هذه الخبرة على أنساق معينة وفق السن، وعززتها داخل المدارس وخارجها (وبالغت في ذلك، كما يحاجج بعض النقاد).

لقد تأثرت العلاقات بين الراشدين والأطفال بالنموذج الحديث، وإن أمكن أن تنشأ عن ذلك على نحو منطقي صيغ معينة شتّى. لقد قلل التعليم المدرسي من السيطرة الوالدية على الأطفال، وكان ذلك لحساب ممثلي الدولة كما هو جليّ. كان لهذا الأمر أن يثير تخوفا، ولا سيما حين كان يُنظر إلى المدارس بوصفها ممثلة لطبقة اجتماعية وقيم عرقية أو دينية مختلفة عن طبقة الأسرة وقيمها. من جهة أخرى، كثيرا ما ازدادت اتصالات الراشدين المباشرة بالأطفال الصغار لسبب بسيط، هو أنّه مع انخفاض معدلات الولادات، ومع أخذ التعليم المدرسي المتوسع للبنات من المنزل، فقد أصبح عدد الإخوة الذين يشرفون على مَن هم دون سن المدرسة أقل من قبل. لقد غدت الرعاية التي يتولاها الوالدان (الأم، في المعهود من الأحوال) أو شيء بديل عنها، مثل المعونة أو الرعاية النهارية بأجر، أمرا جوهريا. أخيرا، من الراجح أن تراجُع معدلات الولادات والوفيات قد زاد (في المتوسط) من الروابط الوالدية مع الأطفال فرادى. لقد اهتم الوالدون بالأطفال في المجتمعات الزراعية اهتماما عميقا، ولذلك فمن المهم اجتناب المبالغة. ولكن بالنظر إلى القلة الإجمالية للأطفال، وإلى قلة احتمال وفاة الأطفال الصغار، فإنّ الاستثمار العاطفي في الأطفال فرادى قد ارتفع. من المؤكد، وإن يكن هذا القول هو قولا اقتصاديا وعاطفيا معا، أنّ ميل الوالدين إلى تدليل الأطفال، في الجماعات ذات معدل الولادات المنخفض، قد نزع إلى الارتفاع، والدليل على ذلك يلاحظ في الغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر إلى الصين في أوائل القرن الحادي والعشرين.

إن لنمـوذج الطفولة الحديـث مضامين من جهة الجنوسـة، وإن كانت لطالما كُتمت في كثير من الأحيان بسبب شدّة تطرفها. لقد انحسرت الحاجة الموضوعية إلى الفروق بين الجنسـين عند الأطفال. إنّ انخفاض تكليف الأطفال بالعمل، وما لذلك من ارتباطات جنوسـية متعارف عليهـا، وتقليل التأكيد عـلى الأمومة للبنات، من حيث أعداد الأطفـال المرتقبين على أقل تقدير، إنّ هذين الأمرين قد حوّرا الحاجة إلى التشـديد على توجيه الصبيـان والبنات وجهتين مختلفتين عـلى نحو متطرف. أضف إلى ذلك أنّه قد كان من الممكن للبنات والصبيان أن يتساووا في حُسن أدائهم المـدرسي، وإن لم يتحقق هذا الأمر فورا؛ والحـق، ربما كانت البنات أكثر تفوقا. لقد سـتر كثير من المجتمعات هذا التغير أمدا طويلا، وكانت الحجة في ذلك، على سبيل المثال، هي أنّه ينبغي للبنات والصبيان أن يدرسـوا موضوعات مختلفة - لا هندسة للبنات، بل كثير من الاقتصاد المنزلي؛ أو حتّى كتب قراءة منفصلة، على نحو ما كان في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر، كُتُب تحدّث البنات عن مسؤولياتهن الخاصة الأسرية والرعوية. أو حين جُمع بين البنات والصبيان جمعا مفاجئا وعنيفا، على مثال ما أتى به التعليم المختلط الأمريكي في عشرينيات القرن العشرين، فإنّ أدوات أخرى، من مثل الرياضات المنفصلة، واللباس المميز، بل والألوان المميزة (هذه المرحلة هي التي شـهدت إتيان الثقافة الاسـتهلاكية الأمريكية باللون الـوردي للبنات والأزرق للصبيـان لأول مـرة)، هذه الأدوات كان لها أن تؤكد كم بين الجنسـين من اختلاف في الطفولة. بيد أنّ الأسـاس الموضوعي لهذا كله قد ضَعُف، وكذلك فإن الفجوة في الممارسة لم تلبث أن تضيق في آخر الأمر أيضا.

أخـيرا، إنّ مـا أحدثـه النموذج الحديـث، في مجمله، من مظاهـر الفصل بين الطفولة والرشـد قد زاد على الحال التي كانت في المجتمع الزراعي. ما عاد الأطفال يعملـون إلى جانب والديهم بعـد أن انتقل العمل (مع التصنيـع) إلى خارج محل السـكن وصار الأطفال في المدرسـة. لقد ازدادت صعوبة أن نـرى الطفولة في صلة مبـاشرة مع بقية الحياة. بالطبع، كانت المدارس تُعدّ للحياة، ولقد اسـتطاع كثيرون إدراك هـذا؛ بيد أنّ الصلات صارت ذات صبغة مجردة نسـبيا، وصار الآن أكثر نهار الطفل يقضى في حقيقة الأمر بعيدا عن عالم الراشـدين - «العالم الحقيقي» وفق ما صار الأمريكان يطلقون عليه من اسم كاشف عن المكنون. كان لهذا الفصل أن يؤثر

في موقف الراشدين من الأطفال، الذين ربّما صار ينظر إليهم الآن بوصفهم أصحاب امتياز، وكان له أن يعقّد من مساعي الأطفال للعثور على معنى في حياتهم الخاصة، وفي هذا تشجيع لأنواع جديدة من إجهاد الحياة وتشتت الوجهة.

كان هـذا هو النموذج الحديث: المدرسـة، ووفيات أقل، وأطفال أقل عددا بين إجمالي عدد السـكان والأسر فرادى، ومضامين وعواقب أخرى عدة. آن الأوان لنرى كيف ظهر هذا النموذج في الغرب أولا، ولنلحظ أيضا، بحرص شـديد، بعض الأشياء المبهمة التي تميّز بها الغرب وجاءت مع النموذج الحديث، بيد أنّها لم تكن جوهرية في النموذج الغربي.

إنّ العنصر الأول من النموذج الغربي، أي المدرسة بدلا من العمل، قد شجّع عليـه في آخر الأمر حقيقـة أن عمل الأطفال قد حلّ محلّـه، على نحو متكرر، الآلات والتصنيع، وأن قدرا من التعليم المدرسي أصبح أساسـيا للنجاح في سـن الرشـد. بيـد أنّ هذه الصيغة قد أُعـدّ لها في الغرب بواسـطة بعض التطورات الثقافية السـابقة التي اتخذت شـكلها في القرنين السـابع عـشر والثامن عشر المتأخرين، فأتت برؤية جديدة للطفولة سـبقت دعامـات التغيير الأكثر جلاء. والحـق، إنّ التبدلات التي طـرأت على الطفولة تقدم مثـالا آسرا على حدوث التغيير في الثقافات أولا، مما يستحثّ بالتدريج تغييرا سلوكيا فعليا يعززه مزيد من التطورات الأكثر الموضوعية، مثل المكننة.

لقد حدث نوعان من إعادة التفكير. شـجعت الثورة العلمية والتنوير على الاعتقاد المتنامي عند الفلاسفة الغربيين بأنّ الأطفال ليسوا فاسدين منذ الميلاد، كما جاء في اعتقادات الخطيئة الأصلية عند المسـيحيين، ولا سيما البروتستانت. لقد بيّن العلم أمرين: الأول هو أنّه في الإمكان طرح هذه الأفكار القديمة جانبا، والآخر هو أنّ في إمكان الأطفال الوصول إلى التفكير السـليم. حاجج جون لوك فقـال إنّ الأطفال سـجلات بيض منذ الميـلاد، منفتحون عـلى التعلّم وخيّرون بالجوهـر، أو هـم في حال محايدة عـلى أضعف تقدير، ما لم يفسـدهم مؤثر خارجي. انتشرت هذه الأفكار انتشـارا واسـعا، وشـجعت على تنامي الاعتقاد في أنّـه ينبغي تكريـس الطفولة للتعليم. ثارت مناظـرات حامية في هذا الرأي الجديد، مع إصرار أقلية قوية من البروتسـتانت، ولا سيما في الولايات المتحدة،

عـلى القول بالخطيئة منذ الميـلاد، وما يلازم ذلك من حاجـة إلى تأديب صارم بل عقابي. بيد أنّ نظرة معتدلة قد شـكلت الرؤيـة عند الأكثرية، وحدث ذلك بالتدريج في نحو قرن أو يزيد.

اشـتمل الابتـكار الثاني على تأكيد أنّـه ينبغي للروابط العاطفية الشـديدة أن تجمع الأسرة الناجحة، ولا سيما الروابط بين الأمهات والأطفال. لم يكن لتأكيد الحب العائلي مثيل سابق. بدأت الرسوم التي تصور الأسر المحترمة تُبرز مزيدا من التعابير العاطفيـة. كان من النتائج المنطقية لذلك أن ازدادت المظاهر العلنية لإبداء الحزن عنـد موت الأطفال. وكانت النتيجة المنطقية الأخـرى الآسرة هي الانفتاح المتنامي على آراء الأبناء والبنات فيما يخص ترتيبات الزواج، والاستعداد لإلغاء كل شيء إذا ما ادعـى الابن الكبير أو الابنة الكبرى أنهما لا يحبان من اختير لهما، لقد أصبح للأبناء الكبار صوت جديد بناء على إعادة التعريفات العاطفية.

ارتبطـت هذه التطـورات الفكرية بتغيرات أخرى حدثـت في الغرب في القرن الثامن عشر. لقد تغيرت ممارسـات التسـمية: قلّ عـدد الأسر الريفية التي تنتظر لسـنتين منـذ مولد الطفل حتّى تطلق عليه اسـما، وما عاد الاسـم يسـتعمل من جديـد إذا مات الطفل. أوحـت هذه التبدلات بتعلق عاطفـي متنام مع الأطفال، وباعتقـاد جديد بفردانيتهم. في كثير من أجزاء أوروبا تُرك القمط وسُـمح للمواليد بـأن يحركـوا أطرافهم بحرية أكبر. زاد هـذا الأمر من أعبـاء الإشراف بيد أنه دفع بمزيد من التطور الصحي. وُجهت انتقادات جديدة إلى إرسـال الأطفال للاسترضاع، وإن لم يحـدث التراجع الفعلي في هذه الممارسـة، كما رأينـا، إلا بطيئا؛ لقد حاجج الإصلاحيون فقالوا إنه ينبغي على الأمهات رعاية أطفالهن واجتناب المخاطر الهائلة التي تلازم الاسـترضاع. لقد نُصح الوالدون باجتناب الغضب أو التخويف في تأديب الأطفال، علما أن التغير في السـلوك قد حدث، بالطبع، على نحو تدريجي وغير تام. نشـأ اهتمام جديد بمشتريات الأطفال، لازَم الرغبة في التعليم؛ لقد ظهرت لأول مرة كُتب للأطفال دون غيرهم. وبالأمارة نفسها، ظهر دافع متنامٍ للتدخل في اللعب غير المنظم للأطفال، وفُضلت عليه الهوايات المبهجة. لقد ظفر الشـباب نفسه بتفضيل جديد من حيث المبدأ، فازداد نزوع الراشـدين إلى ادعاء سن أصغر من سنهم فعلا، وذلك متى كذبوا في حقيقة سـنهم. بيد أنه قد وُضعت للشـباب قواعد معينة أكثر

تفصيـــلا: لقد جلب التأكيد المتزايد عــلى الآداب الدقيقة، في الأسر المحترمة، جهودا جديـدة لضبط الوقفة وعادات المائدة. لقد كان هــذا مزيجا معقدا من التغيرات، ولقد كان بلا ريب مكسبا صافيا للأطفال الذين شملهم.

إن التحولات التدريجية نحو أهم سمات الطفولة الحديثة قد اقتضت أن تبقى أهم التغيرات، لا سيما ما يخص عمالة الأطفال، بعيدة عن الكمال حتى بحلول العام 1914 (لقد كان الاســتمرار في بعض الأنساق واحدا من حجج أهل المراجعة، الذين جادلــوا في ما ذهب إليه أرييه من مبايَنة حادة بين التقليد والحداثة الغربيين). مع رســوخ التصنيع ونمو المدن، كان البؤس الجديد، وليس النقلات الأساسية، هو الذي جــذب أنظار الملاحظين الفطنين. لقــد اضطرت أسر كثيرة مــن الطبقة العاملة إلى إرسال أطفالها للعمل في معامل خطيرة ـ لم تكن تجربة العمل جديدة، لكن الوسط الجديــد كان مزعجا. لقد اضطر عدد غير قليل من الأسر العاملة، ومنها ما اشــتمل على الأمهات غير المتزوجات اللاتي حملن أحيانا من المستخدمين، إلى إرسال الأطفال لملاجئ الأيتام واللقطاء، حيث كان أحسن ما لقوه فيها هو العمل الشاق والإشراف المشــدد أخلاقيا، أما أسوأه فكان سوء المعاملة. عاش كثير من الأطفال في الشارع، لم يهجــروا دائما، ولكنهم تعرضوا بالتأكيد لظــروف غير آمنة؛ لم يكن قليلا عدد الذين ســقطوا في جرائم صغيرة، كالتي وصفها تشــارلز ديكنز في «أوليفر تويست». لكن، عــلى وجه الإجمال، لم تكن هــذه الظروف دائمة، من دون إنــكار المظاهر المخفاة الذائعــة. إن الانتقــال إلى التعليم المدرسي هو الذي أعاد تشــكيل الطفولة بصورة شاملة في نهاية الأمر.

ابتــداء مــن أواخر القرن الثامن عشر نشــأ اهتمام جديد بتوســيع المنظومات التعليمية وإعادة تحديدها. لقد ظهرت مدارس جديدة متوســطة لتدريب النخبة، فيما أبدت الحكومات اهتماما مترددا بالتعليم الأســاسي للجماهير؛ سُــن في فرنســا في العام 1833 قانون يشــجع على المدرســة ولكنه لا يُلزم بها. كانت حركة الولايات الأمريكيــة الشــمالية أسرع في هذا الأمر، فأوجبت التســجيل في المدارس مبدئيا في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، وإن ظل كثير من الأطفال لا يداومون فيها إلا على نحو متقطع. بين ســتينيات القرن التاســع عشر وثمانينياته صارت إلزامية الدوام الفعلي شــائعة في العــالم الغربي (وإن لم يتحقــق ذلك في الولايات الأمريكيــة الجنوبية إلا

بعد العام 1900)، وبحلول تسعينيات القرن أصبحت الغالبية العظمى من الأطفال ملمـة بالقـراءة والكتابة. تعلق الأمر بما هو أكثر من مجـرد المتطلبات، وإن كانت تلـك من النواحي التي أدت فيها الحكومـات دورا كبيرا في الترويج للتعليم بوصفه نافعا للاقتصاد وللمواطنة الحديثة على حد سـواء. وعليه، فقد أكدت المدارس على المهارات الأساسـية كالقراءة والكتابة والحسـاب ومعها جرعات قوية من الحماسة الوطنيـة. وبحلول سـتينيات القرن التاسـع عشر أخذت الأسر الفلاحية في فرنسـا تعـترف بأن قدرا من التعليم نافع لأبنائها، بعد أن أضاف بيع المنتجات الزراعية إلى تجار الجملة منفعة جديدة للمعرفة بالقراءة والكتابة والحسـاب؛ بعد ذلك بقليل أصبح إرسـال البنات إلى المدرسة منطقيا أيضا، حيث كان المأمول هو نيل الأفضلية في فرص العمل الجديدة مثل التعليم في المدارس. جاءت مع التعليم قوانين تحد من عمالة الأطفال، وإن كان ذلك في المعامل على نحو أساسي؛ بحلول العام 1850 دخل هذا التشريـع في النصوص في أرجاء المجتمع الغربي جميعـا، وإن لم يطبق بفاعلية إلا بالتدريج. اسـتمر الكثير من الأطفال، طوال عشرات السنين، في العمل والدراسة معا، لا سيما في البقاع الريفية وبين الطبقة العاملة؛ لكن النزعة كانت واضحة، ولقد توطدت الحجج لتحول الطفولة من العمالة إلى التعليم المدرسي.

كذلـك شرعت، بالتدريج، أعداد متنامية من الوالدين في الطبقة الوسـطى، بل والدنيا، ترسـل أطفالها إلى المدرسـة المتوسـطة مدة لا تقل عن سنة أو سنتين. لقد ظهرت المدرسة الثانوية الأمريكية في أربعينيات القرن التاسع عشر؛ في العقود التي جـاءت بعد ذلك أتت الدول الأوروبية بالمدارس المتوسـطة الجديدة لأول مرة، إلى جانـب الوحدات المخصصة للنخبة، خدمة للطلب المتنامي. أُعيدَ تعريف الشـباب والطفولـة أيضا من جديد، علما بأن ذلك قد حدث غالبا في الطبقات الوسـطى في أول الأمر.

اتسـع نطاق انخفاض معدل الولادات في معظم القرن التاسـع عشر وما بعده. كان المزارعـون من أصحاب الأرض في الولايات المتحدة وأبناء الطبقة الوسـطى هم الذين مهدوا السـبيل لذلك منذ تسعينيات القرن الثامن عشر. سارت على إثر ذلك الطبقات العاملة، لا سيما بعد العام 1870، وكذلك فعل الفلاحون؛ لقد وقع التغيير في المناطـق العلمانية، في بلدان من مثل فرنسـا وكندا، على نحو أسرع من المناطق

الدينية. لقد اقتضت هذه العملية إعادة النظر في ما تشتمل عليه الطفولة والوالدية كلتاهـما، وكان ذلك شـيئا مربكا جدا؛ لقد عقد من العمليـة غياب الثقة والاقتناع بوسـائل تحديد النسل، ولذلك كان اتكال كثير من الأسر على كبح الرغبة الجنسية. بحلول القرن العشرين، صارت الأسر الكبيرة جدا غير مألوفة، لا سـيما في المدن وفي جماعـات غير المهاجرين. صحيح أن النازحين مـن البقاع الريفية، أو المهاجرين من جنـوبي أوروبا وشرقيها، ظلوا يأتون بمعدلات مرتفعة للولادات إلى نحو العام 1900، بيد أنهم شرعوا يتكيفون في أوساطهم الجديدة، وكثيرا ما حدث ذلك بسرعة كبيرة.

أتـت القطعة الخاتمة من اللغز الحديث، خفض معـدل الوفيات، على نحو أكثر مباغتة في الغرب. بحلول أواسط القرن التاسع عشر، ظهر على السطح الحزن العميق والميـل المتنامي للـوم الوالدين، ولا سـيما الأمهات، على وفيـات الأطفال، مما مهد لممارسـات جديدة ولكن من دون نتيجة تذكر في أول الأمر. ألقت المجلات النسائية، وهي صنف جديد من المطبوعات، اللوم على الأمهات بسـبب سـوء الممارسات التي أدت إلى وفاة الأطفال ـ مثل الإفراط في لف المواليد، ولقد عكس هذا شـعورا جديدا يقـضي بإمكانية تجنب معدلات الوفيات التقليدية ـ لكن، في واقع الحال، بقيت تلك المعدلات مرتفعة على نحو عنيد. وبالفعل، توقعت الأسر الفقيرة، التي ظلت معدلات الـولادات فيها عاليـة، بعض الوفيات؛ كتب أحد العمال الألمـان من غير ذوي المهارة يذكـر كيف كانت زوجته المثقلة بالأعباء تذرع شـقتهما الصغيرة جيئة وذهابا وهي تغمغـم فتقول: «ليتهم يموتون». بـدأ الازدياد في اتباع الإجراءات الصحية في التوليد، والفحوص الطبية قبل الولادة، والمراكز التي أقيمت في المدن للإمداد بالحليب وأغذية المواليد، يحقق نتائج جذرية ابتداء من العام 1880؛ في السـنوات الأربعين التي تلت ذلك، وعلى جانبي المحيط الأطلسي، هبطت وفيات المواليد مما بين 25 و30 في المائة إلى ما دون 5 في المائة (كان لانحسار استعمال المرضعات نصيب في هذا التطور أيضا). لقد اكتمل التحول الحديث اكتمالا جوهريا، وإن اسـتمرت التطورات. بحدوث هذا، ومع اسـتمرار الاختلافات بحسب الإقليم والطبقة، كان معظم النموذج الحديث قد نُصب في مختلف أرجاء المجتمع الغربي بحلول أوائل القرن العشرين.

صحبـت هذه التغيرات بضعة تطـورات أخرى لم تكن غير متناسـقة، بيد أنها عكست مقاربات غريبة وأكثر صرامة للطفولة الحديثة ـ مقارباتٍ كان لها أن تظهر

أو لا تظهر مع النموذج الغربي في أرجاء العالم الأخرى. كان عدد من هذه التطورات المصاحبة مثيرا للاهتمام، ليس فقط من جهة العلاقة مع الحركة الأساسية نحو النموذج الحديث، بل أيضا من جهة مباينتها للتقاليد الغربية السابقة، ومن ذلك العقائد المسيحية والتوترات السابقة بشأن الشباب والعمل. لعل الإعادة الجذرية لصوغ التصورات قد كانت ضرورية، من حيث المبدأ على الأقل، تحديدا لأن للميول الحديثة التصاقا شديدا ببعض الأنساق المميزة التي سادت في الغرب فيما مضى.

كانت إحدى السمات اللافتة للنظر هي إسباغ صورة مثالية على الطفل، بناء على التيارات الفكرية من القرن الثامن عشر. لقد صُور الأطفال، في أدب الطبقة الوسطى، بوصفهم أبرياء رائعين، مترعين بالحب ومستحقين له. أذاعت الرسوم والقصص هذه الصورة على نحو واسع. نالت الأمومة رصيدا جديدا بوصفها مصدرا أساسيا للحب الأسري، بيد أنه كان من المفهوم أن تجمع بين الإخوة كذلك مودة مفعمة بالمحبة، بل إن الآباء - وقد صار عملهم الآن خارج المنزل - كان لهم أن ينالوا شيئا من البهجة. مع أنه لا ريب في أن أسرا كثيرة لم تتقبل هذا التأكيد الجديد بترحيب، فإن المفكرات والقصص، مثل الرواية الأمريكية الكلاسيكية «نساء صغيرات»، قد بينت كم اجتهدت بعض الأسر لتحقيق ذلك. وفق هذا النموذج، ينبغي للغضب أن يذهب من صدر الأسرة، وإن لقي الحزن ترحيبا إلى حد ما في هذه الصورة الجديدة. لقد بُني وقت الفراغ الفعلي للأسرة، في الطبقات الوسطى وعند الصناع المهرة المحترمين، على مشاعر التقارب نفسها. صارت آلات البيانو، بوصفها ملتقى الأسرة على الغناء، جزءا حيويا من الأثاث ابتداء من ثلاثينيات القرن التاسع عشر؛ كما توطدت فكرة ذهاب الأسرة في عطلة. عبر الاحتفال بعيد ميلاد الأطفال، وهذه عادة أخرى جديدة، عن مودة الأسرة وإيمانها بفردانية الطفل.

كان للبراءة المفعمة بالمحبة نتائج منطقية أخرى. لقد ازدادت مسؤوليات الوالدين، ولا سيما الأم، عن حماية الأطفال من الفساد ومن اعتلال الصحة أيضا. اجتهدت كثير من النسوة ليوفرن لذريتهن مزاجا مرحا. لقد صار أصعب على الأطفال أنفسهم، ولا سيما البنات، التعبير عن عدم الرضا في أسر الطبقة الوسطى - فينبغي للشقاق ألا يكدر صفو المنزل المفعم بالمحبة. بحلول ستينيات القرن التاسع عشر، بدأت تُلحظ مظاهر جديدة من اضطراب الأكل في طائفة صغيرة من البنات،

لا سيما بنات الطبقة الوسطى. لعل القهم(*) العصبي الحديث، رفض الطعام الذي تعده الأم العطوفة، لعله كان ردا غير مباشر على التضييق الوالدي الذي لا يمكن أن يعاب صراحة؛ سوف يزداد هذا المرض رسوخا بعد ذلك بمدة قصيرة، بعد أن تصبح معايير الجسم النحيل مقبولة أيضا قبولا واسعا. وبينما حظي الصبيان بقدر أكبر بقليل من حرية الاختيار، فأتيح لهم الدخول في بعض اللعب الخشن مع الأصدقاء، بل حُضوا على ألا يُظهروا رخاوة، أو لا يكونوا «متأنثين» (Sissies)، وهذا لفظ جديد ذو دلالة، فإنهم واجهوا أيضا عددا من القواعد الجديدة، ومنها الرقابة على السلوك المهذب والسيطرة الدقيقة على الجسد.

كان الولع بالجنس مشكلة حقيقية واجهتها الصور التعبيرية الكبرى للبراءة المفعمة بالحب. لم يكن لأولاد الطبقة الوسطى، ولا سيما الذكور منهم، أن يتزوجوا في سن صغيرة، بسبب حاجتهم إلى إكمال التعليم والبدء في عمل قبل حمل المسؤولية الأسرية. في الحين نفسه، كان من الأهمية بمكان ألا يتحمل المرء أعباء أسرة فيها أولاد كُثُر، لا سيما، بالطبع، مع الأولاد الذين يُنجبون بطريق غير شرعي. إن الانشغال الجديد العظيم بأمر الاستمناء قد أماط اللثام عن مخاوف متزايدة حول الجنس والطفولة، وولّد الكثير من المساعي التأديبية الحقيقية. ومن المظاهر المتطرفة لهذا الأمر أن عددا من الأطفال كانوا يرسَلون إلى مصحات لعلاج الاستمناء البغيض، وقد اعتُقد أن هذه العادة تسبب أنواعا من الاضطرابات الصحية والاختلالات العقلية. كان يُتوقع من الأطفال أن يكونوا جذابين، ولقد نالت الفتيات كل أصناف التمرين في فن الظهور بمظهر جميل، وكان القصد من ذلك تحريض اهتمام الذكور بالغزل، بعد أن صار الزواج الآن ينبغي أن يؤسس من الناحية النظرية على الحب. إن المعايير الغربية الحديثة قد رعت تلاعبا معقدا، وفيه كان الجنس يقابل بالتجهم، أما الملاطفة الحافلة بالإيحاءات الجنسية فقد حظي قدر معقول منها بالتشجيع. لقد وجد بعض الأطفال، بل بعض الراشدين أيضا، أن الجمع بين الأمرين شيء محير.

إلى جانب تأكيد البراءة المفعمة بالمحبة والإشارات المعقدة بشأن الكبح الجنسي، أتى الغرب بابتكار أخير أساسي أدخله في مقاربته للطفولة في القرن التاسع عشر:

(*) Anorexia، فقدان الشهية

فكرة المراهقة (Adolescence). دخل هذا اللفظ في الاستعمال، على نحو ما، ابتداء من ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بيد أنه أخذ يحظى بالتداول لما أجازه علماء نفس الطفل من مثل الأمريكي ج. ستانلي هول في أواخر القرن التاسع عشر. أشارت المراهقة إلى شريحة محددة من الطفولة لم تحظَ قط قبل ذلك بالتعيين، وأُدرجت في فئة «الشباب» الأعم منها. لقد انبثق هذا المفهوم، وقد طُبق في ذلك الحين على الطبقة الوسطى أكثر من غيرها، من بعض أهم التغيرات الأساسية التي حدثت في تجربة الطفولة والأفكار المتعلقة بها. لقد دل هذا اللفظ، في أول ما دل عليه، على مرحلة الاعتماد على معيل، وهي مرحلة متنامية من مراحل عمر الأطفال الذي صاروا يرسلون الآن إلى المدارس المتوسطة بدلا من العمل. لقد رسمت المراهقة خطا حدوديا يفرق بين الذين في العُشاريات وبين الراشدين. كذلك كانت المراهقة علامة على مرحلة من النضج الجنسي ليست لها متنفسات محترمة. أصبح الأطفال في المجتمع الغربي قد شرعوا، تحت ظروف تغذية محسنة واتصالات مباشرة متزايدة وإغراءات حياة المدن، يمرون في تجربة الحُلُم في سن متقدمة في الصغر: بينما كان الحُلُم يقع في سن 16 في أمريكا في القرن الثامن عشر، هبطت تلك السن ما لا يقل عن سنتين بحلول ستينيات القرن التاسع عشر. من الجلي أن هذا التغيير الحقيقي جدا قد عقد من مهمة السيطرة الجنسية التي اعتمدت عليها معايير الطبقة الوسطى اعتمادا عظيما، وكانت المراهقة عونا على التعبير عن هذا التوتر. إن المراهقة، بمعناها الواسع، قد دلت أيضا على مرحلة من الاضطراب العاطفي لكثير من الأطفال، فكانت دلالتها عونا للوالدين على فهم السبب في ازدياد الصعوبة في العلاقات لسنين قليلة، على الرغم من التنشئة المفعمة بالمحبة.

كان مفهوم المراهقة وقودا لتغيير اجتماعي أوسع نطاقا، وإن كان سلاحا ذا حدين. إن المراهقين المنحرفين، لاختلافهم الكبير عن الراشدين، وأملا في صون البراءة الطفولية أو استعادتها، قد احتاجوا إلى معاملة مميزة من الشرطة والمحاكم؛ فلا ينبغي معاملتهم معاملة المذنبين فيُقذف بهم مع المجرمين الراشدين. لقد أتى الإصلاحيون لأول مرة، في مختلف أرجاء المجتمع الغربي، بأحكام جديدة للعدالة الموجهة إلى المراهقين في أواخر القرن التاسع عشر، ومعها محاكم منفصلة ومؤسسات عقابية منفصلة ـ المدارس الإصلاحية. لكن في الحين نفسه، شددت القوانين الحاكمة

على سلوك الشباب على نحو جذري. إن أنواع السلوك، مثل التخريب المتعمد، التي لقيت تسامحا في الأزمنة الأكثر تقليدية، عندما كان الناس يثقون بأن الشباب لن يخرج على ما تعارفت عليه الجماعة، قد أصبحت الآن غير قانونية في سياق المدن المتنامية، حيث لا يعرف أحد أحدا. كذلك، بالطبع، أصبح أمر النشاط الجنسي العلني، وأصبحت معاملة المجرمات المراهقات قاسية على نحو خاص. لقد كُرس جهد عظيم أيضا لتجريم السُكر، وتدخين المراهقين للسجائر، بضعة عقود من السنين. أصبح الارتقاء إلى مستوى المتطلبات الاجتماعية أشد صعوبة على كثير من الأطفال الأكبر سنا. برزت طائفة من الهيئات الجديدة، مثل الحركة الكشفية، لمساعدة الشباب في نقلاتهم الصعبة حتى لا يسقطوا في بدائل مضرة وغير قانونية. في الحين نفسه، ميزت المخاوف، المفرطة في أكثر الأحيان، من ارتفاع جرائم المراهقين نظرة المجتمع الغربي إلى المراهقة في القرن التاسع عشر وما بعده.

إن بعض التوترات في المقاربات الجديدة للطفولة، والأوضاع الجديدة للأطفال أنفسهم، قد تدخل في تشكيلها، عدا ما ذكرنا، الطبقة الاجتماعية وعوامل الجنوسة. كان لأهل الطبقة الوسطى المحترمين أن يأملوا في بقاء مراهقيهم تحت نظرهم، بيد أنهم لم يثقوا بالمهاجرين أو الطبقات العاملة. لقد تنامى الاعتقاد بعدم كفاءة كثير من الوالدين بعد أن غدا تعريف الوالدية المسؤولة أشد صرامة. تساعدنا الاختلافات الطبقية على تعليل الاتكال على الشرطة وعلى عدد من المساعي الأخرى للتدخل في شؤون الوالدين من الطبقة العاملة، ومن ذلك الإشراف المتشدد أخلاقيا على الفئات الضعيفة مثل الأمهات غير المتزوجات. لقد طور الشباب من أولاد الطبقة العاملة اهتماما بهوايات - كما توجد في مدن الملاهي - لقيت تجهما من الطبقة الوسطى، كما لقي النشاط الجنسي قبل الزواج تسامحا في ثقافة الطبقة العاملة أيضا، بشرط الزواج بعد الحمل. حقيقة الأمر أن ازدياد معدل الولادات غير الشرعية الذي طرأ في أوائل القرن التاسع عشر لدى المراهقين والراشدين الصغار ساعد على استثارة مستويات جديدة من اليقظة في الطبقة الوسطى. لقد عبرت الصدامات بسبب الخلاف في سمات الاحترام عند الأطفال عن معايير الطبقة الوسطى والانقسامات الاجتماعية العميقة في المجتمع الغربي في القرن التاسع عشر.

مثلت الجنوسة انقساما آخر. كان البنات والصبيان يُعدون مختلفين جدا، وكان يقــدر لهم أدوار مختلفة ـ الزوجة والأم بإزاء العامل المنتج أو رجل الأعمال. مع أن الصــور التعبيرية الجديدة قد أكــدت أمر البراءة المفعمة بالمحبة في الأطفال جميعا (ما لم يفسدهم الوالدون الوضيعون)، فإن البنات كن بريئات على نحو خاص، وكان يُعتقد أنهن مبرآت من الغضب وأقل من الصبيان المراهقين حملا للرغبة الجنســية. فرضت هذه المعايير على الفتيات قيودا شــديدة، علــما أن الكثير منهن قد نجحن في الارتقاء إلى مســتوى ما يتوقع منهن؛ كان الفشــل، لا ســيما في المضمار الجنسي، يُعاقب عليه عقابا شديدا. لقي الصبيان المحترمون تعقيدا خاصا. كان يرتقب منهم أن يكونــوا رقيقين في المنزل لكن قادرين على أفعال الشــدة في الخارج. كان عليهم احترام القيود الجنســية في الغزل (وإن ظهرت بعض حالات الضعف عن ذلك، حتى في الطبقة الوســطى)، بيد أنه قــد كان عليهم إدراك أن الرجال عدوانيون جنســيا بالطبيعــة. أمكن لبعض صبيان المدارس ممن هم في أواخر ســن المراهقة أن يقللوا من هذا التوتر الخاص بعلاقات جنسية مع بنات من الطبقة الدنيا أو البغايا، فنالوا بذلك ازدواجا جنســيا في المعايير بالمقارنة مع بنات الطبقة الوســطى. كانت صبغة الجنوســة الشديدة التي اصطبغت بها الطفولة هي، على وجه العموم، موروثا آخر مــن موروثات الطريقــة الغربية الخاصة في تناول الطفولة الحديثة. ومع أن شــدة هذه الصبغة ســوف تخــف في القرن العشرين، فلقد ظلت تؤثر في الغرب نفســه، وكذلك في الأحكام الغربية على الطفولة في المجتمعات الأخرى.

إن المجتمع الغربي في القرن التاســع عشر قد رافقت إنشــاءَه لنموذج الطفولة الحديث طائفة من الزخارف التي وضعت على الطفولة آمالا تكاد تكون مستحيلة، وعدد من القيود والكوابح الجديدة في الوقت نفسه. وجهت أجلى مظاهر التضييق نحــو أطفال الطبقات الأقــل احتراما، حيث صممت توليفة مــن القوانين الجديدة والرثاء الأخلاقي، لإبقاء الوضع تحت الســيطرة، بينما تبرز صعوبة الاحتفاظ ببراءة الطفولــة. لكــن المعايير التي طبقت على أطفال الطبقة الوســطى أنفســهم كانت تتطلب جهدا كبيرا أيضا. في أواخر القرن التاســع عشر، تقدم سيغموند فرويد، عالم النفس من فيينا، بحجاج يقوم في أساسه على القول إن المعايير الجديدة قد شوهت الدوافع الطبيعية للأطفال وخلقت راشــدين محبطين، بــل مرضى عقليا. كان المراد

من مفهوم المراهقة، من وجهة نظر أكثر عمومية، أن يعلل مرحلة إشكالية من دون أن يطرح جانبا الصبغة المثالية للطفولة. لم تكن هذه السمات جميعا شيئا جوهريا للنقلـة الديموغرافية وللأخـذ بالتعليم المدرسي، وإن ظهـرت في ذلك الحين بمظهر الشيء الحيوي. إن بعضا منها سـوف يسـقط في القرن العشريـن، ببلوغ النموذج الحديث نفسـه مرحلة النضج. والكثير منها سـوف تتجاهله المجتمعات الأخرى أو تحوره وهي تنشـد نقلات خاصة بها إلى الطفولة الحديثة ـ وإن كان ثقل المرجعية الغربية وإلحاحها قد جعلا من العسير تمييز ما ليس جوهريا.

للمزيد من القراءة

- Marianne N. Bloch, Devorah Kennedy, Theodora Lightfoot and Dar Weyenberg, eds, **The Child in the World, The World in the Child** (New York: Palgrave Macmillan, 2006).

- Hugh Cunningham, **Children and Childhood in Western** Society Since 1500, 2nd edn (New York: Longman, 2005).

- Anthony Krupp, **Reason's Children: Children in Early Modern Philosophy** (Lewisburg, PA: Bucknell University Press, 2009).

- Alan Prout, series ed., **The Future of Childhood: Toward the Interdisciplinary Study of Children** (Abingdon, UK: RoutledgeFalmer Press, 2005).

- John Gillis, **Youth and History: Tradition and Change in European Age Relations,** 1770–Present (New York: Academic Press, 1974).

- Philip Greven, **Protestant Temperament: Patterns of Childrearing, Religious Experience and the Self in Early America** (New York: Knopf, 1977).

- Rachel Fuchs, **Abandoned Children; Foundlings and Child Welfare in Nineteenth-Century France** (Albany: State University of New York Press, 1984).

- Stephen Humphries, **Hooligans or Rebels? An Oral History of Working-Class Childhood and Youth** (Oxford: Oxford University Press, 1981).

- Colin Heywood, **Childhood in Nineteenth-Century France: Work, Health and Education among the "Classes Populaires"** (Cambridge: Cambridge University Press, 1988) and A History of Childhood: Children and Childhood in the West from Medieval to

Modern Times (Cambridge, UK: Polity Press, 2001).

- Lee Shai Weissbach, **Child Labor Reform in Nineteenth-Century France** (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1989).

- J. Robert Wegs, **Growing Up Working Class: Continuity and Change among Viennese Youth, 1890–1938** (University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1989).

- Nancy Janovicek and Joy Parr, eds, **Histories of Canadian Children and Youth** (New York: Oxford University Press, 2003).

- Peter N. Stearns, **American Cool: Creating a Twentieth-century Emotional Style** (New York: New York University Press, 1998).

- Mary Jo Maynes, **Schooling in Western Europe, A Social History** (Albany: State University of New York Press, 1985).

- Paula Fass, **Children of a New World: Society, Culture and Globalization** (New York: New York University Press, 2006).

- Paula Fass & Mary Ann Mason, eds, **Childhood in America** (New York: New York University Press, 2000).

- Ansley Coales and Susan Watkins, eds, **The Decline of Fertility in Europe** (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1986).

- Michael Haines, **Fertility and Occupation: Population Patterns in Industrialization** (New York: Academic Press, 1989).

- Wally Seccombe, **Weathering the Storm: Working-class Families from the Industrial Revolution to the Fertility Decline** (London: Verso, 1993).

- Steven Mintz, Huck's Raft': **A History of American Childhood** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004).

7

إلى جانب النموذج الحديث: ضغوط الاستعمار

في أثناء الشروع في صياغة نموذج الطفولة الحديث في المجتمع الغربي، شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر طائفة من التغيرات مختلفة اختلافا كليا كان لها أثر في الأطفال في كثير من أجزاء العالم الأخرى. لم تكن هذه التغيرات دائما صارخة بقدر ما كانت التغيرات المتعلقة بإعادة تعريف الطفولة الحديث، بيد أنها قد تحركت، على نحو جذري جدا،في وجهات معاكسة لوجهة النموذج الحديث من نواحٍ كثيرة، فاشتملت على ازدياد في العمل بدلا من قلته، ومعدلات عالية للولادات على نحو متكرر، ومستويات مرتفعة من الوفيات والأمراض على نحو قطعي.

من الحيوي أن نتذكر أنه في أثناء اتخاذ التغيرات في الغرب لشكلها، كان أكثر أجزاء العالم الأخرى لايزال محبوسا داخل أنساق هي في أساسها زراعية. والحق إن هذا الأمر ليصدق،

«لقد أنتج الإرث الاستعماري في أمريكا اللاتينية طفولةً ذات شعبتين، لكل منهما مقصد بخلاف الأخرى، إحداهما تتحرك نحو الحداثة المحددة أوروبيا، والأخرى قائمة أساسا على المعايير الزراعية، وإن حملت انعطافات خاصة أتى بها الاستعمار»

على نحو ما، حتى على يومنا هذا، ومثال ذلك أن بعض أجزاء الريف الهندي لم تتأثر إلا قليلا بالتطورات من مثل الحملات التي شُنت على عمالة الأطفال أو إلزامية التعليم المدرسي. إن الفجوة بين المناطق التي شهدت انتقالات تدريجية نحو النموذج الحديث والأنساق الزراعية قد كانت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صارخة على نحو أكبر مما ذكرنا.

لكن، ليست هذه هي الحكاية كلها. إن الاقتصاد العالمي والتغيرات السياسية التي بدأت مع الصور الجديدة من الاستعمار، ابتداء من سنة 1500، أحدثت ضغوطا جديدة على الطفولة حتى في البقاع التي بقيت زراعية على نحو أساسي. فالضغوط التي حدثت برعاية الغرب، على نحو مباشر أو غير مباشر، قد عمقت من استغلال كثير من الأطفال، حتى في أثناء مناقشة الإصلاحات في الغرب نفسه.

ابتداء من القرن السادس عشر كان لثلاثة من التطورات ذات الصلة، التي لها موضع القلب من التاريخ العالمي، تأثير عظيم في كثير من الأطفال. اشتمل التطور الأول على اتساع عظيم في تجارة الرقيق، من أفريقيا إلى قارتي أميركا، وفي الرق نفسه. برز في التطور الثاني تنامي النزعة الاستعمارية الأوروبية، ولا سيما في الأمريكتين.. وتمحور الثالث، على نحو أكثر عمومية، حول الإنتاج الذي اتسع حتى أحدث اقتصادا عالمي النطاق ذا صبغة تجارية على نحو متزايد.

انعكست هذه التطورات الثلاثة جميعا على الأطفال، ونادرا ما كانت انعكاساتها حميدة. ببساطة،لقد أبرزت بعضُ النتائج السماتِ الشائعةَ في الطفولات الزراعية أو مدت نطاقها نحو الطبقات الدنيا - نضرب لذلك مثالا جليا فنقول إن تكليف الأطفال بالأعمال الشاقة لم يكن أمرا حديثا، بيد أنه قد أصبح أحيانا أكثر مشقة. كما ظهرت بعض النتائج الجديدة، التي أفضت إلى تحديات جديدة في وجه الطفولة وإلى إهانات جديدة لقيها الأطفال أنفسهم. لقد امتد نطاق الأنساق التي نشأت عن ذلك إلى سنين من القرن التاسع عشر وأحيانا إلى ما بعده.

يستعمل هذا الفصل أمثلة على التغيرات من بضعة مواضع، لكنه يخص بالتركيز الرق الأطلسي وتطورَ صور جديدة من الطفولة في أميركا اللاتينية، حيث امتزجت المؤثرات الأوروبية والأفريقية والأمريكية المحلية في الأطفال، كما في الحضارة عموما.

لقد حاجج بعض المؤرخين العالميين منذ عهد قريب فقال إنه من الوجهة العالمية

النطــاق فقــد ازداد الضغط نحو مزيد من العمل الجاد ابتداء من القرن الســادس عشر إلى القرن التاسع عشر، وهذا نسق قد بدت علاماته الأولى منذ القرون ما بعد الكلاســيكية. لقد اقتضى تنامي عدد الســكان في كثير من الأماكن المزيدَ من العمالة لإنتــاج ما يحتاجون إليه. جذبت أســواق التصدير المتوســعة التجــار والزراع، مع اهتمام كبير بالمزيد من العمالة أيضا. ظهرت نتائج ذلك في امتداد العمل إلى مرحلة متأخرة من العمر، وفي ازدياد كثافة الإنتاج عند الراشــدين، وفي تعاظم الضغط على عمالــة الأطفال. هذا الحجاج معقول، وإن يكن من العســير البرهان عليه في غياب إحصــاءات يُركن إليها. الواضح هنا هو أن منظومات بعينها، مثل الرق الأطلسي، قد غيرت معادلة العمل عند الأطفال وأشــياء أخرى معها. وكثير من ذلك سوف يستمر حتى سنة 1900، بل وراءها في بعض الأماكن.

في العــام 1756،أُخــذ أولاوداه إيقويانــو عبدا مــن قريتــه في نيجيريا، وعمره 11 عامــا. لقد كان صغير أسرته، وقــد دللته أمه، فنال تدريبــات في كل الرياضات والمهارات العســكرية. أدركت جماعته احتمال الخطــف، وكان من عادتها أن تعين مَن يراقب الأطفال وهم يلعبون. بيد أن رجلين وامرأة أفلحوا في التســلل بينما كان والدا إيقويانو يعملان في الحقل، وأخذوه وأخته. ملأ الخوف والحزن الطفلين - لكن العصابــة سرعان ما فرقت بين الاثنين، وسرعان ما حُرما حتى الســلوةَ البســيطة في البــكاء معا»، كما قال إيقويانو. حُمــل الصبي، الذي ضُم إلى أسرى آخرين لا يعرف لغاتهــم إلا ما ندر، إلى ســفينة تحمل الرقيــق، وفيها راودته أفكار شــتى، منها أن البحارة البيض ســوف يأكلونه. امتنع عــن الأكل، فأكره عليه بالجلد، وفي آخر الأمر كُلف العملَ في مزرعة في باربيدوس. وشــهد هناك من جديد مأساة تفريق الأطفال بعضهــم عــن بعض، بالبيع هذه المــرة - «لقد كان الأمر مؤثرا جــدا هذه المرة، إذ رأيتُهم وســمعتُ بكاءهم وهم يفترقون». «لمــاذا يفقد الوالدون أولادهم، والإخوة أخواتهــم... من المؤكــد أن هذا صنف جديد من القســوة... يضيف إلى بؤس الرق أهوالا جديدة».

بالطبع، لم يكن الرقُّ شــيئا جديدا في التاريخ العالمــي، وقد تضمن دائما إمكان أن يُحدث صدمة نفســية في الأطفال. كان الطلب على المراهقين المملوكين عاليا، لما فيهم من قدرة على العمل والتناسل. بيد أن تجارة الرقيق الجديدة ومؤسسات الرق

الأمريكية كانت أسوأ من أكثر منظومات الرق التقليدية سوءا بلا شك؛ مثال ذلك أن المجتمعات الإسلامية قد منعت التفريق بين الأم المملوكة وصغارها، وحمت الجواري اللاتي ينجبن من رجال أحرار. وكان معظم الأعمال التي يُكلَّف بها الأطفال، في الرق الإسلامي، أخفّ وطأة مما ستغدو عليه الحال في الاقتصاد الأطلسي الجديد. دفع الرق الأميركي أيضا بالأطفال الذين حملوا من أفريقيا، مثل إيقويانو، إلى ثقافة أشد غرابة وبعدا مما كان متعارفا عليه، على رغم أن الأجيال المتأخرة من الأطفال الأرقاء لن تواجه اقتلاعا بهذا القدر.

كان لتجربة الرق الأمريكي الفعلية عنصران: الأول هو شيء من السمات المعيارية لطفولة الطبقة الدنيا، مع شيء من التشديد؛ والآخر هو شيء من الصعوبات الواضحة وضوحا غير مألوف. لقد كان أكثر الوالدِين الأفارقة يصرون على التزام أطفالهم الطاعة، واحتفظت طريقتهم في تنشئة الأطفال بكثير من الأعراف الأفريقية ومنها عادة تسمية الطفل باسم قريب له، واستمرت هذه العادة عقودا كثيرة. كتب أحد المراقبين البيض ملاحظا: «أشد الأشياء ندرة هو أن تسمع ألفاظا تنم عن قلة الاحترام يقولها ولد لأحد والديه». كثيرا ما كان الأرقاء المسنون يتولون رعاية الأطفال حين يكون والدوهم في العمل، وهذا أيضا ليس تدبيرا غير مألوف. وكان هناك العمل نفسه: كان من المتوقع للأطفال المملوكين أن يشرعوا في العمل في سن صغيرة جدا - «حالما يمكنهم المشي»، هكذا كتب أحد العبيد مستذكرا. كان الأطفال الصغار يلتقطون الحطب للموقد؛ أما الذين في العاشرة فكانوا يعملون في الأرض. تعلم بعضهم، ولا سيما الذكور منهم، مهارات حرفية. بيد أنه قد كان هناك أيضا وقت للعب ولاحتفالات الجماعة.

تضمنت أكثر سمات الرق قسوة إمكان التفريق عن الأسرة بالبيع - تفريق الطفل نفسه أو أحد الوالدين. كان ملاك الرقيق ينظرون إلى الأطفال صراحة من جهة قيمتهم بالدولار - «ثمن ابنها الأكبر 1250 دولارا نقدا، ويمكنني قبضها». كان الخوف من التفريق أكثر شيوعا من التفريق نفسه، وإن كان بيع الأرقاء الصغار من الولايات الساحلية إلى الجنوب والغرب البعيدين قد ازداد ازديادا كبيرا بعد إبطال تجارة الرقيق الأطلسية في سنة 1808. وكان هناك أيضا الوضع المهين الذي لقيه الأطفال أمام البيض. قد يُسمح لهم، وهم صغار، بأن يلعبوا مع

الأطفال البيض، لكن أولئك سرعان ما كانوا يتعلمون أن يسودوا عليهم، فيلزموهم بطاعة «السادة والسيدات الصغار». كثيرا ما علق البيض على مظهر الأطفال المملوكين الرث والقذر، الناتج عن الفقر والعمل. كانت العقوبات القاسية التي توقَع بالأطفال الذين يتجاوزون حدهم متكررة. ورد عن أحد السادة كلام في بيع فتاة «غير منضبطة»، وهي «شخصية خطيرة جدا». كان الجَلد شائعا. لقد اجتهد الوالدون المملوكون حتى يغرسوا الإذعان في نفوس الأطفال. عُلِّم الصبيان أن «يثنوا جسدهم إلى الأمام مطأطئي الرأس، ويقيموا جسدهم على القدم اليسرى، ويسحبوا اليمنى على الأرض إلى خلف، وهم ينطقون بهذه الألفاظ: «كيف أنتم يا سيدي وسيدتي». وحتى الملاك البيض، الذين كانوا ينظرون إلى السود بقدر من العطف، فيرونهم جميعا أطفالا مزعجين لكنهم محببون بغض النظر عن سنهم، حتى هؤلاء كانوا يُظهرون من التعالي ما لا يلبث الأطفال إلا أن يشعروا به. وأخيرا، كانت مظاهر الإنكار الشائعة: لطالما عارض أكثر ملاك الرقيق أن يعطَى الأطفالُ المملوكون أدنى حد من التعليم. لقد برز هذا الأمر حين كانت قطاعات المجتمع الأخرى تؤكد التعليم المدرسي تأكيدا متزايدا، وحين كان الكثير من العبيد (مثل إيقويانو) يرجعون في أصولهم إلى أسر في أفريقيا كانت تفترض أنواعا معينة من التعليم. إن القسوة والدونية الظاهرة والحرمان النسبي قد اجتمعت كلها فخلقت في الأمريكتين طفولة مميزة، خبرها عدد كبير من الناس. بحلول سنة 1859، كان 56 في المائة من كل الرقيق في الولايات المتحدة دون سن العشرين، وكان لطفولاتهم أن تسري في تجاربهم وتنتقل إلى تجارب الأطفال الأفارقة الأمريكيين المتأخرين، الذين أتوا بعد تحرير العبيد بزمن طويل.

ابتداءً من القرن السابع عشر وإلى سنوات من القرن التاسع عشر، حدثت هجرات متنوعة جديدة، وبينما لم تكن تجربة النزوح جديدة قطعا، فقد كان للأنساق الحديثة مضامين شتى للأطفال. لقد هاجر بعض المراهقين وحدهم، وإن كان من الشائع حصولهم على نفقة من أسرهم إما في مواقع رحيلهم أو وصولهم أو كليهما. كثيرا ما وجد الأطفال أنفسهم، حتى إذا سافروا مع أسرهم، في وضع الوسيط بين والديهم وموطنهم الجديد. ولنضرب مثالا جليا ومألوفا لحال المهاجرين، فكثيرا ما كان تعلم الأطفال للغة الجديدة أفضل بمراحل من تعلم والديهم. لقد نال

الأطفال فرصا جديدة بفضل قيامهم بخدمة الوسطاء، بيد أن ذلك قد تسبب أيضا في توترات بينهم وبين معايير الوالدين، وقدر غير قليل من ارتباك الهوية لدى الأطفال أنفسهم.

لقــد دُفــع أيضا بعدد كبير من الأطفال إلى النــزوح في ظروف أبعد من أن تكون حرة. ففي أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عمدت كثير من المنظمات الخيرية في أوروبا إلى إرســال الأطفال إلى المســتعمرات بســبب عدم كفاية أسباب المعاش في موطنهم. كانت خدمة العمل بعقد الاستخدام هي أداة أخرى كثيرا ما استُخدمت مع الشــباب، فكانت توجب عليهم العمل بضع ســنين في الأرض الجديدة قبل أن يُعترف لهم بالرشــد المستقل. شــغلت عقود الاستخدام كثيرا من الآســيويين في أواخر القرن التاســع عشر، فنُقلوا إلى مناطق مثل هــاواي أو جزر الهند الغربية حيث امتد نطاق البحث عن العمالة المتاحة إلى بقاع جديدة. لقد اشتمل الأمر على الراشدين أيضا، لكن مســاهمة الأطفال كانت حيوية، وكان ذلك بناء عــلى الافتراضات المألوفة، التي راجت في المجتمعــات الزراعية، والتي تقول بأن عمالة الأطفال هي أمر ســوي. ومع أن عقود الاستخدام التي اشتملت على الأطفال قد خضعت للتفاوض من حيث المبدأ - علما بأن الوالديــن أو القائمين على الميتم هم الذين كانوا في أكثر الأحيان يتولون ذلك بدلا من الأطفال - فإن بعض الأطفال كانوا يباعون فعليا بوصفهم عمالة نازحة.

ربما كان لأنماط النزوح الأخرى تأثير. لم يكن من النادر إنجاب الرجال الأوروبيين، ممن سافروا إلى الخارج، أطفالا من النساء المحليات، ليهجروهن غالبا - عند رجوعهم إلى أوطانهــم. في كنــدا، كانت شركة خليج هدســون تعرض القليل مــن المال عوضا للأطفال الذين يتركهم آباؤهم خلفهم. (كان إنكار الأطفال المحليين غير الشرعيين أمرا شائعا في البلدان البروتستانتية، ولا سيما بريطانيا؛ كان الموقف في البلدان الكاثوليكية مثل فرنسا وإسبانيا أكثر تعقيدا). إن ارتفاع نسبة الرجال في النزوح (ومن ذلك النزوح الجــبري) قد زاد من عدد الأسر التي ترعاها الأم في أوروبا وأفريقيا؛ أو إذا نزحت الأم مع الأب، فقد كان الأطفال يُتركون عند امرأة من الأقارب.

كان لتأثير النزوح - في النازحين أنفســهم، وفي المجتمعات التي تســتقبلهم - أن يجتمع مع كبرى نتائج الاستعمار الأوروبي، على نحو ما ظهر بكثرة في تجربة أمريكا اللاتينية.

أثر الإسبان والبرتغاليون، باستعمارهم لأمريكا اللاتينية منذ أواخر القرن الخامس عشر، في الطفولة بطرق متعددة. استثارت حاجات العمالة المكثفة تأكيدا جليا على الأطفال بوصفهم مصادر للعمل، وهذه مرة أخرى سمة معيارية من سمات المجتمعات الزراعية، بيد أنها قد اكتسبت عناية ملحة. تضمنت التوجهات الأكبر نحو السكان الأصليين على إحساس بأن إدخال الإصلاحات في الطفولة أمر مطلوب للارتقاء بهؤلاء الرعايا من أهل المستعمرات إلى المستويات المتحضرة (وفق ما يحدده الفاتحون). لقد ولدت العلاقات الجنسية بين الأوروبيين والمحليين، وكانت أحيانا غير طوعية، ثقافة فيها أعداد كبيرة من الأطفال غير الشرعيين، على الأقل من الناحية القانونية، ولقد اقتضى هذا الأمر بدوره طائفة من الآليات الاجتماعية التي تتيح استخدامهم ونيلهم للرعاية. بيد أنه كان لنتائج ذلك أن تلقى مزيدا من الرفض الرسمي ممن هم في النخبة الاستعمارية.

كانت حاجات العمل جلية، وقد اشتملت على استعمال الأطفال بوصفهم رقيقا في مزارع السكر في البرازيل أو جزر الهند الغربية. كان كثير من الأطفال الأمريكيين الأصليين يجبرون، مع والديهم، على العمل في المزارع الأمريكية اللاتينية، ولا سيما ما دعي منها باسم إنكوميندا(*) وفيها كانت العمالة بالإكراه واسعة الانتشار على نحو خاص. كان العمل جزءا من الطفولة في أمريكا قبل الفتح، بيد أن عنصر الإكراه والعمل خدمة للملاك الأوروبيين من دون الجماعة المحلية قد أتيا بإضافات جديدة.

نظرا إلى عمل حضارتي الإنكا والأزتك فترة طويلة في الاقتصاد الزراعي، لم تختلف مقاربتهما للطفولة في حقيقة الأمر، دائما، عن مقاربات الأوروبيين اختلافا كبيرا. مثال ذلك أنهم كانوا أيضا، وفق ما رأينا، يشددون ليس على العمل فقط بل الطاعة أيضا. هناك إشارات إلى بعض الممارسات التأديبية الخشنة قبل وصول الأوروبيين، ولا سيما عند الإنكا والأزتيك. لقد برزت عند الأزتيك طائفة متنوعة من عقوبات الأطفال ابتداء من سن الثامنة، ومن ذلك الصفع، وما قد يبلغ في الحالات القصوى التعريض لدخان الفلفل الحار المحرّق (وكان ذلك يُحدث أثرا شبيها بأثر رُشاش الفلفل، ولعلّه

(*) عيّن قانون إسباني صدر في سنة 1503 الإنكوميندا بأنها جماعة معينة من الهنود في منطقة معينة يضعهم العرش تحت سلطان أحد الفاتحين من جندي أو موظف أو غير ذلك، يأخذ منهم الجزية مالا أو عمالة مقابل حمايتهم وتعليمهم الدين المسيحي. [المترجم].

كان يـؤدي بالفعل بقلّة من الأطفال إلى الموت). وعـلى رغم هذا التداخل - حيث استخدم الأوروبيون كذلك التأديب الجسدي - فإن الأوروبيين ازدروا الطرق المحلية في كثير من الأحيان. كانوا يرون على نحو متكرر أن سلوك الأطفال الهنود سيئ، وكثيرا ما كانـوا يتدخلون في اعتقاد الهنود بأن على الأطفال واجبات للجماعة بأسرها أكثر مما عليهم للأسر فرادى. لقد اجتهد الزعماء الأوروبيون، وعلى رأسـهم الإرسـاليون، كي يمنعوا الممارسـات التقليدية مثل اسـتعمال الأطفال في القرابـين الدينية. كذلك تدخلوا في الممارسـات المحلية بأن فرضوا على أقلية من الأطفال تعليما «إرسـاليا». لم تكن للمسـتعمرين الأوروبيين مقاربة جذرية جديدة في تنشئة الأطفال، بيد أنه كانت لهم رغبة في فـرض التغيير الديني حيث أمكنهم ذلك، ولقد أبرزوا اختلافات بعينها - سواء التساهل الظاهر أو الطرق الخاصة للعقاب - مسلّمين بأن ممارساتهم هي الأكثر رقيا.

كانـت أبرز المظاهـر الصارخة للتجربة الاسـتعمارية في أمريـكا اللاتينية أنها أحدثـت معدلات مرتفعة من اللاشرعية على نحو غير معهود، ولقد غدا هذا بدوره خصيصة للطفولة في هذا المجتمع دامت طويلا. نشـأت المعدلات العالية للاشرعية في المرحلة الاستعمارية، وكانت لذلك بضعة أسباب. كان أجلى الأسباب هو الاتصال الجنسي المباشر لعدد كبير من الرجال الأوروبيين بالنسوة المحليات، وندرة اعترافهم رسميا بالذرية التي نتجت عن ذلك. بيد أنه كثيرا ما حدث أيضا نشاط جنسي داخل نطاق الطبقات الدنيا نفسـها، من دون الالتزام بشـكليات الزواج - بين خلاسي، أو رجل مختلط الأعراق، وشريكة هندية أو أفريقية على سـبيل المثال. كانت النتيجة المتكـررة هي، مرة أخـرى، أطفالا غير شرعيين وأسرا بلا أب. كانت النسـبة المئوية لإجـمالي الولادات غير الشرعية كبيرة. في إحدى أبرشـيات سـاو باولو (البرازيل) في أربعينيـات القـرن الثامن عشر، كان 23 في المائة من إجـمالي الأطفال غير شرعيين، والسـبب الأكبر في ذلك هو النشـاط الجنسي بين الزمر العرقيـة المختلفة. ارتفعت النسب المئوية في القرن التاسع عشر إلى أعلى من ذلك، فبلغت 30 في المائة، بل 50 في بعض الأحوال.

تفاوتـت النتائج، من جهة الأطفال، تفاوتا كبيرا. احتفظ بعض الآباء بصلات مبـاشرة مفعمة بالمحبة بالأطفال وإن لم يعترفوا بهم رسـميا. نصَّ أحد أصحاب

المزارع في وصيته على أن ينال ابن غير شرعي له «ظلة(*) من السرير الذي أنام فيــه و... أربعة من قمصاني وأربعة سراويل بيض». والمــراد هنا هو أن الهبات تعبّر عن مودة حقيقية وشــخصية. تجاهل آباء آخــرون أطفالهم تجاهلا كليا. وكثــيرا ما نالت الأمهات اللواتي تولين تنشــئة الأطفال وحدهــن قدرا كبيرا من المعونة من الأسر الأخرى، ولقد كان بعضها يتبنى الأطفال على نحو مباشر. كان الاتكال على المرضعات شــائعا (إلا عند الطبقات العليا، ومما يثير الاهتمام، أنه في تلــك الطبقات كان يرتقب من الأمهات، بخلاف الحــال في أوروبا، أن يتولين بأنفســهنّ رعايــة الأطفال). كان «يُدوَّر» عدد كبير جــدا من الأطفال في أمريكا اللاتينيــة ـ أعني أنهم كانوا يذهبون إلى الأسر التي بلا أطفال أو التي تحتاج إلى عمالــة إضافية، حيث كان لعملهم أن يحدث فرقا حاســما. وكانت العمالة هي أهم المكونات. لقد صحبها أحيانا التأديب الخشــن على نحو مفرط، وشــهدت بعض الأحوال قســوة عظيمة. لكن مِن الراشــدين مَــن عاملوا عمالهم الأطفال بلطف، بل دمجوهم في صميم علاقاتهم الأسرية وخصّوهم بأشياء في وصاياهم. مــما يثير الســخرية أن القوانين الأمريكية اللاتينية لم تُجــز التبني القانوني (ولم يتغــير هذا الموقف إلا بعد وقت طويل وفي القرن العشرين)، بيد أن ذلك كثيرا مــا حدث بحكــم الأمر الواقــع. في مدينة واحدة من مدن تشــيلي، كان 17 في المائة من إجمالي الأطفال تقريبا في مرحلة ما من سنة 1880 يسكنون في منازل أصحابها الراشــدون ليســوا والديهم. أكملت ملاجئ الأيتام الكبيرة نظام تدوير الأطفال هــذا، فكثيرا ما كانت تأخذ المواليد للإرضــاع ثم تفرزهم للعمالة عند الأسر الأخــرى حالما يبلغون الخامســة أو السادســة. لقد ظــل أصحاب المزارع البرازيليون، لمدة من الزمان بعد إبطال الرّق، يستعملون عمالة الأيتام على نحو لا يختلف عن نظام الرّق إلا قليلا.

عارضت النخب والطبقات الوســطى في أمريكا اللاتينية هذه الســمات التي ميــزت الطفولــة في الطبقة الدنيا معارضة عميقة (وإن تكــرر إنجاب الرجال من الطبقــة العليا أطفــالا من خادمات أو نســاء من الطبقة الدنيــا). كانت المعايير الأوروبية في تنشــئة الأطفال مطبقة عند هــؤلاء تطبيقا تاما، وكان معنى هذا أنه

(*) canopy : قماش يوضع فوق الفراش وقاية من البعوض. [المترجم].

ينبغي للأسرة أن تكون من النوع التقليدي، في كل واحدة منها والدان. وعليه كان يشار في الكلام إلى اللاشرعية بوصفها أمرا «شائنا» يترك «وصمة معيبة ومخزية». كانت الأسرة ذات الوالدين ضرورية ليكون الأطفال «أكثر تعليما، واحتراما، واستعدادا للعمل». ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر، تعاظم الغضب حول هذا الأمر بعد أن صارت المعايير الأوروبية تعدّ من العلامات الحيوية على التحضر. وعليه، فقد أثنى أحد السياسيين التشيليين في سنة 1928 على الحياة الأسرية في أوروبا المغايرة لحال الطبقات الدنيا في بلاده: «حيث تسود اللاشرعية، وحيث السكان أقرب إلى البدائية ... والتخلف هو السائد». كان مما شغل بال الناس على نحو خاص أمور تتعلق بالصحة، فكان يعتقد أن أطفال الطبقة الدنيا «ينقلون الأمراض المعدية التي تجتاح السكان».

من الواضح أن الطبقات العليا والحكومات في أمريكا اللاتينية كانت تتحول إلى نموذج حديث، على الأقل فيما يخص أسرهم وعقولهم هم، بحلول أواخر القرن التاسع عشر. لقد تقدّم التعليم المدرسي. وخصصت القوانين تدابير احتياطية خاصة للمجرمين المراهقين. لقد حاولت البرامج مغالبة المعدلات العالية لوفيات المواليد ومعدلات قتل المواليد كذلك. ومع ذلك لم تنحسر، فعليا، التقاليد والشروط التي أنتجت طفولة من نمط مختلف، طفولة مكرسة للعمالة وسط بنى أسرية متقلبة بيد أنها فعالة جدا في كثير من الأحيان. لقد أنتج الإرث الاستعماري في أمريكا اللاتينية طفولة ذات شعبتين، لكل منها مقصد بخلاف الأخرى، إحداهما تتحرك نحو الحداثة المحددة أوروبيا، والأخرى قائمة أساسا على المعايير الزراعية وإن حملت انعطافات خاصة أتى بها الاستعمار. إن هذا النسق يستمر في توجيه كثير من بلدان أمريكا اللاتينية حتى في يومنا هذا.

لم تكرّر نسخ الاستعمار جميعا التجربة الأمريكية اللاتينية. بيد أنه قد كان دائما تأثير ما حادث عن المواقف الاستعمارية من أهل البلاد بوصفهم أطفالا، ومن أطفال أهل البلاد بوصفهم محدثين للمشاكل على نحو خاص. إن العلاقات الجنسية الأوروبية قد خلقت دائما فئات جديدة من الأطفال. وإن لم تخلق بالضرورة المستوى نفسه من اللاشرعية. دائما بقي اهتمام بالاحتفاظ بعمالة الأطفال بل بضمانِ أن يتاح الأطفال للعمل عند الأسياد المستعمرين أنفسهم، خدما منزليين ومنتجين في

الحقول. وقد نشــأ دائما شيء من التوتر، بحلول ســنة 1900، بين مســاعي الإتيان بمؤسسات جديدة للأطفال، مثل المدارس - سواء أكان ذلك على أيدي الأوروبيين أم المصلحين المحليين - وبين الظروف الفعلية للأغلبية.

إن التطورات التي نشــأت عن الرّق والاستعمار والعلاقات الاقتصادية الجديدة قد شــجعت أشــكالا جديدة من عمالة الأطفال ومواقف جديــدة من أنواع بعينها مــن الأطفال. لقد تزامــن حدوث التطورات مع بروز النمــوذج الحديث. كان هذا مصدر انقســام حاســم داخل مجتمعات خاصة مثل أمريكا اللاتينية، ولكنه حدث أيضا في عموم العالم. كان النســقان كلاهما مهمين، لكن عدم إمكان التوفيق بينهما كان هو الأهم. ولايــزال المجتمع العالمي يتعامل مع النتائج في أوائل القرن الحادي والعشرين.

لم يكن الاســتعمار والرّق هما القوتين المتفردتين بتشكيل الطفولة خارج الغرب في أوائل الحقبة الحديثة والقرن التاسع عشر. لقد استمرت الطفولة الصينية، وإن لم تكن ثابتة أو غير متغيرة تماما، تعكس كثيرا من الأنســاق التي توطدت في الحقبتين الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية، وكانت أنساقا مغايرة بوضوح للنموذج الحديث في أوجه كثيرة. كان أوضحها هو التأكيد المســتمر على الطاعة والعمل الشاق. بالفعل، فإن واجبات العمل ربما ازدادت في المرحلة بين سنتي 1600 و1900، إذ صارت الصين أكــثر مدينية فتعاظمَ التأكيد على التمرين للعمالة المنتجة. وهنا رابطة مع أنســاق في أرجاء العالم الأخرى. بينما تمكن كثير من الأطفال من إيجاد مســاحة للفســحة، وبينــما تفاوت الوالدون في الشــدة، فإن أسرا كثيرة قد فرضــت على الأطفال قيودا كبيرة، بل حاولت منع اللعــب وفضلت عليه المهن أو التعليم المدرسي الصارم. كان التأديب البدني الخشن شائعا. ظلّ الأطفال النموذجيون يصورون من جهة ما فيهم مــن صفات الراشــدين. لقد أُثني على أحدهم «لما فيه مــن مهابة تكاد تبلغ مهابة الراشــدين»، ووصِف آخر، ممن ســيغدو من أهل الفكر الناجحــين، بأنه «قد ولِد بمظهر وقور، فلم يشترك في لعب قط». ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر علامات بســيطة تدل على التغيير. من المؤكد أن الحكومة قد شرعت تنظر في صور جديدة من التعليم المدرسي، فأخذت ترسل بعض الشباب وصغار الراشدين إلى الخارج، كما اســتوردت الإرسالياتُ التغيير أيضا، ومن ذلك تحريض الناس على رفض عادة تقييد

القدمين. بدأ بعض الراشـــدين يجدون ســـعادة، هي ربما سعادة من نوع جديد، في الإتيـــان للأطفال بأفكار جديدة ومحرّكـــة للخيال، ومثال ذلك العم الذي كان يحب أن يستحث التفكير الإبداعي في أولاد أخيه كلما زارهم. بيد أن الكلمة العليا ظلّت، كـــما في أمريكا اللاتينية، للواجبات الأساســـية للطفولة في المجتمعات الزراعية، التي شكلتها بالدرجة الأولى المطالب المتزايدة للعمالة.

للمزيد من القراءة

- William A. Corsaro, **The Sociology of Childhood** (Thousand Oaks, CA: Sage, 2005).

- Ernest Bartell and Alejandro O'Donnell, eds, **The Child in Latin** America (Notre Dame, IN: Notre Dame University Press, 2001) (contemporary in focus but with historical references).

- Tobias Hecht, ed., **Minor Omissions: Children in Latin American History and Society** (Madison: University of Wisconsin Press, 2002).

- Dirk Hoerder, **Cultures in Contact: World Migrations in the Second Millennium** (Durham, NC: Duke University Press, 2002).

- Wilma King, **Stolen Childhood: Slave Youth in Nineteenth-century America** (Bloomington: Indiana University Press, 1991).

- Ping-chen Hsiung, A **Tender Voyage: Children and Childhood in Late Imperial China** (Stanford, CA: Stanford University Press, 2005).



8

الطفولة الحديثة في آسيا: اليابان تُكيف النموذج الجديد

«أثبتت اليابان، منذ أوائل عشرينيات القرن العشرين، وبعد الحرب العالمية الثانية قطعا، أنها قادرة على التأثير في الطفولة في أجزاء العالم الأخرى، لا سيما بواسطة الصادرات الاستهلاكية»

في العام 1984، أمرت الحكومة اليابانية بالتحقيق في تراجع استعمال أطفال المدارس لعيدان الأكل. كان التفضيل للسكين والشوكة ينمو بسرعة بين الأطفال لرغبتهم في أن يكونوا أكثر سرعة في أكلهم، وأن يصبحوا أيضا أكثر تساوقا مع الأنساق الدولية. أملت الحكومة في تشجيع التقليد بوصفه جزءا مما يجب أن تتضمنه الطفولة، الحديثة واليابانية. من الجلي أن هذه لم تكن لحظة تاريخية كبرى، بل كانت ملاحظة مثيرة للاهتمام على التغير والضغط المضاد في أحد أكثر مجتمعات التاريخ العالمي الحديث ديناميكية.

إن أقلمة اليابان السريعة لأحوالها وفقا للضغط الغربي الذي لم يكن له مثيل ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر كانت تطورا مذهلا

في المشهد الدولي. لقد دخل الأسطولان الأمريكي والبريطاني إلى خليج إيدو في العامين 1853 و1854 طالبين من اليابان أن تضع حدا لعزلتها وأن تنفتح على التجارة الغربية. تبع ذلك عقد من الزمان حافل بالصراع ومحفوف بمزيد من التدخل الغربي، حيث تناظر الزعماء اليابانيون في كيفية الرد، مقتربين أحيانا من الحرب الأهلية. لكن في العام 1868 اتخذ القرار: كان الجواب هو إصلاح عظيم. كل هذا معروف ومهم أيضا؛ ما ينبغي أن يضاف الآن هو مقدار ما كان لإعادة التعريف الكبيرة التي طرأت على الطفولة من نصيب أساسي في العملية.

لقد أدرك المصلحون اليابانيون بسرعة الأمور الجوهرية في النموذج الحديث حينما زاروا أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وكان التعليم المدرسي في مقدمة ذلك. كانوا مستعدين لهذا الأمر على نحو ما، فقد عملت اليابان على توسعة التعليم المدرسي الكونفوشي والبوذي على نحو سريع في أوائل القرن التاسع عشر، وكان فيها أعلى معدل للقراءة والكتابة في العالم، بعد الغرب. لقد شُيِّد نحو 30 ألف مدرسة خاصة بين العامين 1800 و1868، فوفرت التعليم الابتدائي لعدد كبير من أبناء العامة. بيد أن التحول إلى التعليم الجماهيري، وبالطبع الالتزام الجديد للحكومة بهذا المد، قد شكل نقلة كبيرة، وجلب على إثره عددا مفاجئا من التغيرات الإضافية. توحي الحالة اليابانية كيف أن كثيرا من التفرعات يمكن أن ترتبط بالنموذج الحديث، على أقل تقدير متى اقتُرض النموذج من الغرب مباشرة، وبلهفة في كثير من الأحيان.

في الوقت نفسه، لم تصبح الطفولة اليابانية غربية. لقد تجشم الزعماء مصاعب جمة لإنشاء نموذج حقيقي حديث يحتفظ مع ذلك بالقيم اليابانية المميزة في الطفولة، إما بسبل تقليدية وإما باختراعات جديدة، ومن ذلك نسخة خاصة من الوطنية. إن الحالة اليابانية، المتميزة بصفات نفسها، هي أيضا تحذير مفيد جدا، تحذير من التطبيق التبسيطي للتفكير التحديثي.

أخيرا، أثبتت اليابان، منذ أوائل عشرينيات القرن العشرين، وبعد الحرب العالمية الثانية قطعا، أنها قادرة على التأثير في الطفولة في أجزاء العالم الأخرى، لاسيما بواسطة الصادرات الاستهلاكية. إن سرعتها في انتهاز فرص البيع للأطفال هي جزء ساحر من قصة تأقلمها، ولسوف تصبح في آخر الأمر عنصرا ذا مغزى من عناصر عولمة الطفولة. إن التغيير الذي حدث برعاية يابانية يعقد، مرة أخرى، من كل

تصوير لتاريخ الطفولة العالمي الحديث بصورة غربية صارمة. لقد اتخذت الأنساق شكلها على نحو واضح ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر وإلى الاحتلال الأمريكي ما بعد الحرب في أواخر أربعينيات القرن العشرين.

كان التغيير قد بدأ يطرأ على الطفولة في اليابان قبل أن يُنظر في النموذج الحديث نظرا تاما. لقد انتشر التعليم المدرسي إلى أقلية كبيرة من الأطفال، وإن كانت نسبة الصبيان من هؤلاء هي الأعلى بكثير، وذلك في أوائل القرن التاسع عشر. نالت المدارس الخاصة الكونفوشية والبوذية شعبية متنامية، وقامت على التأثيرات التي ظلت ترد من الصين طوال بضعة قرون، بيد أنها قد بدلت فيها. مما لا ريب فيه أن هذه التطورات قد أعانت على تهيئة اليابان للتحول التام إلى طفولة أساسها التعليم بعد أن بدأ عهد الإصلاح في العام 1868. لكن في جوانب أخرى ظلت شروط المجتمع الزراعي هي السائدة على نحو كبير. كان أكثر الأطفال يعملون منذ صغر سنهم. لم ينشأ مفهوم تام للطفولة بوصفها مرحلة من الحياة واضحة المعالم، ويظهر دليل على ذلك في خلط الأطفال بالراشدين في العقوبات على الجرائم. لقد أكدت المبادئ الكونفوشية السائدة أمرَ التراتب والتأديب.

سخن النقاش في أمر الإصلاح المدرسي في ستينيات القرن التاسع عشر. لقد رجعت البعثات التي رعتها الحكومة من الخارج بتقارير عن مزايا التعليم الغربي؛ سوف يتولى كثير من المبتعثين تشكيل وزارة التعليم لاحقا. نالت الحاجةُ إلى إدخال مزيد من العلم(*) على التعليم عناية خاصة، وكذلك الحاجة إلى خرق العادة الكونفوشية في التوجه نحو التراث من دون الابتكار كمصدر للمعرفة. لقد اقترن بهذه النقاشات قدر كبير من الحذر، إذ لم يكد أحد ينادي بالتغريب الكامل؛ وبحسب ما كتبه أحد الزعماء في العام 1868: «من الواجب أن يُجعل التعليم الأجنبي خادما لمصالح اليابان».

من الجلي أن حركة الإصلاح قد أخذت بقوة بيد الحكومة الوطنية إلى داخل عملية إعادة تعريف الطفولة، وهي فكرة جديدة بالنسبة إلى اليابان، حيث كانت الطفولة تُرى (كما في كثير من المجتمعات التقليدية) بوصفها شأنا خاصا في

(*) المراد بالعلم هنا هو العلم بالعالم الفيزيائي وظواهره. [المترجم].

معظم وجوهه. صارت الأمة نفسها تراهن على إنجازات الأطفال، ونشأ عن ذلك مزيد من الإعلاء من شـأن صحة الأطفال، وتقديم النصح للوالدين، وسوى ذلك مـن الأمور. وازى هذا الأمر، في حدوثه، العمليـة الجارية في الغرب، وإن كانت المبادرات الحكومية هاهنا مباغتة أكثر. بيد أن الأمر سيتطلب عقودا قليلة حتى توافق الحكومة على معايير للمدارس تضمن نيل الطالب لتعليم حديث، وكذلك لطائفـة من القيـم اليابانية المميزة الموافقة لما هو آخـذ في البروز من التزامات نحو الوطنية.

بتشـكيل وزارة التعليم (في العام 1871)، والإتيـان بمجموعة أحكام تعليمية جديدة طموحة بعد ذلك بسنة، نالت بضعةُ تغيرات كبرى اهتماما خاصا. كان أول ذلك هو العناية الجديدة بالعلم واللغات الأجنبية الحديثة (لا سـيما الإنجليزية) وسوى ذلك من الموضوعات الجديدة. كان معنى ذلك، حتى في الأسر حيث توطد التعليم المدرسي، أن الأطفال قد شرعوا يتعلمون أشـياء كثيرة لم يعرفها والدوهم، ويتجاهلون أيضا بعض الموضوعات المحبوبة ـ وهذا تطور مثير للاهتمام في مجتمع يقدر التراتب وفق السن تقديرا عاليا منذ أزمنة بعيدة. حظي عدد كبير من الكتب والمستشـارين الأجانب بالترحيب ضمن هذا النظام، لا سـيما في سبعينيات القرن التاسـع عشر. ثانيا، لقد فُتح التعليم في مسـتوياته كلها أمـام المواطنين المؤهلين بغض النظر عن رتبهم الاجتماعية ـ «ما عاد التعلم خاصا بالطبقات العليا». وثالثا، وكان هـذا هو الأهم من جهـة الطفولة اليابانية عموما، فُـرض التعليم المدرسي الابتدائي الشامل، ووُضع هدف هو فتح 54 ألف مدرسة ابتدائية تديرها الحكومة. هنـا جاء جوهر الطفولة الحديثـة، أي الإصرار على أن يصبح التعليم المدرسي هو الواجب الصميم للطفولة، وكان من المدهش أن يحدث ذلك، وعلى نطاق واسـع، في بدايات عملية الإصلاح. لقد حاجج زعماء الإصلاح على نحو صريح فقالوا: «متى كانت عامة الشـعب فقراء وأميين، فلا يمكن استحضار ثروة كامل البلاد وقوتها». من الواضح أن الذي سيطر على هذا التغيير هو الأهداف الاجتماعية الكبرى وليس العنايـة الصريحة بالطفولة، بيد أن هـذه كانت هي الحال في الغرب قبلا إلى حد ما، ولم يقلل ذلك من التأثير العظيم للتعليم المدرسي في الطفولة في مختلف أنحاء الطيف الاجتماعي.

كان من المهم على نحو حيوي أن تشتمل هذه الإجراءات على البنات إضافة إلى الصبيان، وهذا هو مرة أخرى تجديد صارخ حدث في مجتمع واعٍ للجنوسة، وتغير كبير طرأ على الطفولة بذاتها. نشأت العناية بتعليم البنات من الرغبة في محاكاة الغرب، حيث كان التعليم الأساسي للإناث يحقق تقدما بسرعة. ونتج ذلك أيضا عن الاعتقاد بوجوب أن تكون الأمهات، في المجتمع الحديث، متعلمات حتى يربين أطفالهن تربية صحيحة. بعبارة أخرى، إن تكن الاهتمامات الأساسية مازالت تشتمل على تمرين الصبيان، فإن الحاجة إلى أمهات يعرفن القراءة والكتابة قد بدت أمرا ضروريا.

لم يكن مدهشا أن التغير الفعلي كان أكثر بطأ وترددا مما انطوت عليه ضمنا الإشارات الأولى. بحلول العام 1900، لم يكن قد فُتح من المدارس الابتدائية المقررة إلا نصفها، فالمجتمع كان لايزال فقيرا جدا. لكن بروز قدر كبير من المقاومة الشعبية كان أمرا أشد إثارة للاهتمام، وإن كان غير مفاجئ بالنظر إلى سرعة التغيير الطموحة. لقد اعتقد كثير من الفلاحين أن المدارس ما هي إلا قناة للتجنيد العسكري، ولقد ثاروا، بالمعنى الحرفي للكلمة أحيانا، في وجه اتساع نطاق السيطرة الحكومية على الطفولة. سوف ينقضي حين من الزمان حتى يدرك الفلاحون اليابانيون، كما فعل نظراؤهم في الغرب، أن في ترك الأطفال يكتسبون المهارات الأساسية في القراءة والكتابة والحساب مزايا عملية، ومن ذلك نيل الفرص للترقي ـ كأن يصبح أطفالهم معلمين. كما ظهرت ممانعة أمام الانفتاح الكبير للفتيات، وساعد التأكيد المتعاظم على المهارات المنزلية مثل الخياطة في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر على تجديد الجزم بأهمية الجنوسة في الطفولة، حتى في وجود مستويات جديدة من التعليم المدرسي.

بحلول العام 1900، ومع ما كان من قيود متنوعة، كان الأطفال اليابانيون جميعا، في واقع الأمر، يداومون في المدارس الابتدائية (وكان بعضها شديد الازدحام) ويصبحون عارفين بالقراءة والكتابة، ومثل ذلك إعادة توجيه للطفولة، كما أسست اليابان لسنة دراسية طويلة بصورة غير معهودة، فيها 200 يوم دراسي، وهذه دلالة واضحة على جديتها في إعادة تعريف الطفولة بعيدا عن عمالة الأطفال، وهو أمر استثنائي في مجتمع محدود الموارد. بيد أن شمول التغير للمراهقة كان، في هذه

المرحلة، أضيق نطاقا؛ ظل عدد من الأطفال حتى ممن هم في سن المدرسة الابتدائية يرسلون للعمل على نحو غير دائم على أقل تقدير، فكانوا يشكلون 15 في المائة من قوة العمل في المصانع. ازدادت الاستثناءات بعد سن 12. مما لا ريب فيه أن التعليمين الثانوي والجامعي قد اتسع نطاقهما، مع فرص قليلة للنساء، بيد أن التأكيد قد انصب على تمييز الأطفال الموهوبين الذين يمكن تدريبهم ليتجهوا نحو نوع من الخبرة التقنية التي يتطلبها المجتمع السائر في طريق التصنيع - في ميادين (مخصصة للصبيان) مثل الهندسة، التي نمت بسرعة. ظل العمل يرسم صورة العيش لأكثر الذين في سن المراهقة، استمر ذلك لبضعة عقود أخرى. والحق أن الاتكال على العمال ممن هم في سن الشباب، لا سيما النسوة منهم، قد أصبح رئيسا في عملية السير نحو التصنيع في اليابان. ولحاجة اليابان إلى الصادرات الرخيصة من أجل دفع أثمان الوقود والمعدات الباهظة المستوردة، ولعوزها في مواد التصدير الخام المهمة، فقد توسعت في إنتاج المنسوجات الحريرية، وأخذت من الصين مركز الصدارة العالمية. جندت معامل السخرة التي تستعمل الطرائق اليدوية الفتيات الريفيات، وكثيرا ما تم ذلك بشرائهن من أفراد أسرهن. مثلت الظروف الناتجة عن ذلك، من طول ساعات العمل وعدم حرية الحركة وانخفاض الأجر، تغييرا، لكنه لم يكن تغييرا في جهة تعريف جديد أصولي للطفولة في مرحلتها المتأخرة. ومع ذلك فإنه بحلول ثلاثينيات القرن العشرين كان عدد الأطفال في المدارس المتوسطة/ الثانوية في ارتفاع سريع.

ولفترة طويلة، كان أكبر تعديل ذي مغزى شهدته عملية التغيير اليابانية نحو نموذج الطفولة الحديث قد اشتمل على محاولة ناجحة لتطعيم التعليم المدرسي بمبادئ مختلفة عن المبادئ التي رآها اليابانيون في الغرب، لا سيما تأكيد الولاءات الجماعية والطاعة عند الأطفال، مقابل ما كان في أوروبا والولايات المتحدة من مقاربات أكثر ميلا إلى رعاية الفردانية (لقد حاولت السلطات الغربية نفسها أن تحد من النزعة الفردية بالتشديد على الولاء الوطني، بيد أنها قد اهتمت أكثر بالإنجاز الفردي وأقل بالتأكيد على الاندماج بين الزمر في الصف المدرسي). لقد أصبحت موازنة التغيرات في الطفولة قضية حاسمة من قضايا الهوية اليابانية. تبلور الهجوم المضاد الذي شنه المحافظون على النفوذ الغربي المفرط في بيان إمبراطوري

صدر في العام 1879. جاء في مذكرة تلت ذلك ووجّهت إلى المعلمين إلحاحٌ على «أن الولاء للبيت الإمبراطوري، والحب للبلاد، وبر الوالدين، واحترام الرؤساء، والثقة في الأصدقاء... تمثل الصراط الأعظم للفضيلة الإنسانية». حُثت المدارس المتوسطة/الثانوية، على نحو مماثل، على استعادة «فضائل الولاء وبر الوالدين والشرف والواجب، التي رُعيت لبضعة قرون». كانت العناية بالعلم والمعرفة الجديدة أمرا مقبولا في الميادين التقانية، بيد أنه كان ينبغي موازنتها بهذه النزعة الأخلاقية التقليدية، ومنها تأكيد مفهوم الجماعة عند الأطفال، والذي نشأ في القرى اليابانية منذ زمان بعيد جدا. من جهة الفتيات، أبرزت هذه المقاربة تأكيدا على تعليم يراعي الجنوسة، لتصبح البنت «زوجة صالحة، وأما حكيمة»، وهو تأكيد شمل أيضا بنات الطبقة العليا في المدارس العليا ـ وإن استمر اتساع الفرص بعد التمرين الابتدائي. استمرت اليابان في التشديد على التعلم بالحفظ عن ظهر قلب، أي ترديد كلام المعلم، مع احتضان للتعليم المدرسي على نحو أكثر عمومية في شبكة معقدة مفصلة من قواعد وأحكام السلوك، حدث ذلك في العلوم نفسها وفي المراحل الأولى على أقل تقدير. هنا أيضا، استمرت اليابان تولد في الأطفال ثقافة مميزة على نحو حقيقي، بيد أنها ليست أقل حداثة مما في الغرب. كان من الأشياء المهمة أيضا تشجيع الطلاب على عقد أواصر قوية بينهم ترعى تماسك الزمرة؛ بحلول أواخر القرن العشرين كان لهذه الصفة أن تستمر في تمييز التعليم الياباني في الصفوف الأولى، فكانت لها الأسبقية حتى على طاعة الراشدين. إن هذا التأكيد نفسه للزمرة قد شجع المعلمين اليابانيين على اعتماد التخجيل أسلوبا في التأديب، حتى بعد أن انحسر استعماله في الغرب، لا سيما في الولايات المتحدة، بسبب المخاوف من أثر ذلك في نظرة الأطفال إلى أنفسهم. بحلول أوائل القرن العشرين، كان الطلاب اليابانيون الذين يقصرون في الرياضيات يذكرون علنا أمام زملائهم في الصف ـ وهذه ممارسة أصبحت غير قانونية في الولايات المتحدة في هذا الوقت على أساس من حماية الخصوصية. أيا كانت سلبياتها الأخرى، ظلت المقاربة اليابانية أنجح من غيرها في تشجيع الأداء الأكاديمي.

أصبح التعليم، بسبب صفاته القديمة والجديدة معا، أكثر أهمية في المجتمع الياباني منه في الغرب، من جهة تحديده سبل الحصول على مهنة لاحقا. إن النظام

الياباني، مثله في أوروبا الغربية وبخلاف الولايات المتحدة، قد اعتمد اعتمادا كبيرا على الامتحانات التأهيلية التي سيكون لها، في آخر الأمر، أن تفتح السبيل إلى الجامعة أمام أقلية من الطلاب الناجحين. وعليه، فإن الوالدين الذين كانوا يتطلعون إلى نجاح أطفالهم قد أضافوا إلى مسؤولياتهم عن الطفولة الحاجة إلى العمل بجد للإعلاء من شأن التحصيل الأكاديمي، ومن ذلك الإتيان بفرص للترفيه والتنفيس في الفترات الجادة والحاسمة للاستعداد للامتحان.

لقد جلب التعليم على إثره تغيرات إضافية، ونقل كثير منها اليابانَ نقلة غير متوقعة فقرّبها من النسخة الغربية للطفولة الحديثة. كان اثنان من التغيرات متوقعَين على نحو كاف. لقد أخذت معدلات الولادات تهبط بسرعة في القرن التاسع عشر، ونتج ذلك منطقيا عن تناقص اتكال الأسرة على عمالة الأطفال الصغار، وعن تزايد التكلفة، ومنها كلفة تهيئة الأطفال للمدرسة؛ لقد أخذ هذا النسق يبرز في وسط من توسّع المدارس حتى قبل سنة 1868، وتسارع بعدها. ظلت معدلات الولادات أعلى مما هي في الغرب إلى سنوات من ثلاثينيات القرن العشرين، وإن كانت تمضي هابطة؛ بعد خمسينيات القرن العشرين، تغيرت اليابان بسرعة أكبر من قبل، فانتقلت من نسبة 2.7 طفل لكل امرأة في العام 1950 إلى مجرد 1.4 في العام 1995، وهذا أدنى بكثير من المستويات التي يحتاج إليها بقاء السكان. كما كان لإجراءات الصحة العامة التي رعتها الحكومة، وكانت أول ما اهتُم بنسخه عن الغرب، أثر سريع في المعدلات التقليدية لوفيات الأطفال في هذه المرحلة أيضا. هبطت وفيات المواليد من 16 في المائة في العام 1920 إلى 10 في العام 1939؛ نسبة 5 في المائة، التي بلغها الغرب في العام 1920، بُلغت في اليابان سنة 1950. واستمرت العملية، فبلغت وفيات المواليد 0.04 في المائة في سنة 1995، وهذا أحد أدنى المعدلات في العالم. إن هذه التغيرات السريعة نسبيا التي طرأت على ديموغرافيا الأطفال، على غرار ما حدث في الغرب قبلا، قد جعلت كل طفل ثمرة ثمينة في الأسرة أكثر من قبل.

لقد تبعت ذلك تعديلاتٌ أخرى. لم تقدّم اليابان تعريفا واضحا للطفولة على نحو خاص بوصفها طورا منفصلا من الحياة الإنسانية أو من المجتمع، قبل أواخر القرن التاسع عشر. لقد كانت فيها شبكة واسعة من المدارس قبل الحديثة، لكن ذلك عُدّ جهازا وليس تعريفا لطفولة مستقلة. إذا ما استثنينا المدارس الخاصة

نفسـها، لم تكن للأطفال مؤسسـات منفصلة، لا سيما مؤسسـات عامة - مثال ذلك أن المجرمين الذين في سـن الشباب كانوا يُخلطون مع الراشدين من نزلاء السجون. بل إن الزعماء الحكوميين، وحتى مع توطد الإصلاحات المدرسية، لم يذكروا الأطفال إلا نـادرا ـ كانـت الأهداف الوطنية فوق كل شيء. لكن مضامين الطفولة المكرسـة للتعليـم المدرسي، ومعها المزيد من الاتصال المبـاشر بالغرب، قد أخذت تولّد رؤية أكثر صراحة للطفولة نفسها.

منذ العام 1874 قال ميتسـوكوري شوهي، أحد المصلحين، معلقا على الحاجة إلى حمايـة الأطفال الصغـار بوصف ذلك جزءا من الإعـداد للتعليم الناجح، فبدا كلامه بشـكل لافت للنظر، وكأنه صدى للمفكرين الغربيين الذين سبقوه في هذه العملية:

> «عقول الأطفال، من مرحلة الطفولة المبكرة إلى السادسـة أو السابعة، نظيفة ليسـت فيها أدنى شائبة، وشخصياتهم صافية ونقية كاللؤلؤ الكامل. ولمـا كان ما يلامس عيونهم أو آذانهم من خير أو شر يُحدث انطباعا عميقا لا يـزول حتى الممات، فإنّ هذه السـن تمثل خير فرصـة لتأديب طبائعهم وتمرينهـم على السـلوك القويم. فإن تكن طرائـق التمرين ملائمة يصبحوا مثقفين وفاضلين، وإن تكن سيئة يصبحوا أغبياء ومتعصبين».

إن أفكارا كهذه قد شجعت المصلحين على الحَجاج بأن على الوالدين مسؤولية خاصـة عن رعاية نسـلهم البريء وتنويـره - ولكن أكثر الوالدين، وبسـبب النزعة التقليدية اليابانية على أقل تقدير، لم يعرفوا كيف يفعلون ذلك على الوجه الصحيح. كان المعلمون والخبراء في شـؤون الطفل ضروريين ليس فقـط للتعليم بل للارتقاء بالرعاية الصحية الصحيحة للأطفال عموما. وعلى غرار الغرب، وبسبب المثال الغربي جزئيا، أخذت تظهر بكثرة كراسـات في تنشـئة الأطفال وسـوى ذلك من المؤلفات الإرشـادية. اكتسـبت الأفكار الجديدة قوة مع التحول المدينـي السريع في اليابان، التحـول الذي أخذ والدين كثيرين من بنى الأسر الممتدة التي كانت ذات يوم عونا على رعاية الأطفال في القرى؛ وكثيرا ما اضطر الزوج والزوجة كلاهما إلى العمل خارج المنزل، مما ضاعف مشـكلة رعاية الأطفال. إن القلـق من تجوال الأطفال في المدن مطلقـين، والدخول في تجربـة الحياة المدينية على نحو مسـتقل، قد عملا بوضوح

على الإعلاء من شـأن الأفكار الجديدة بشأن ابتكار رعاية خاصة للصغار. لقد غدت الطفولة، على نحو متزايد، موضوعا شائعا للنقاش في الصحافة الشعبية وفي مؤلفات الخـبراء أيضا. حاولت طائفة عظيمة مـن الدوريات الجديدة، مثل «مجلة الأسرة»، أن تنشر الأفكار الجديدة بشـأن الأطفال، فحضت على العناية الدقيقة وكذلك على الاعتقـاد الحديـث بأنه ينبغي لليابـان أن تتخلى عن النظـر إلى الأطفال بوصفهم مشكلة، وأن تتحول إلى فكرة أن «الطفل كنز».

ركّز كثير من المصلحين اهتمامهم على الفقراء، الذين كثيرا ما أعوزتهم الوسـائل التـي تتيح لهم العناية بالأطفال الذيـن يحبونهم على الوجه الصحيح. أعانت هذه العاطفـة على توليـد أول مراكز الرعايـة النهارية في اليابان، وكانـت تحت رعاية الإرسـاليات المسـيحية أحيانا. بحلول العام 1912، بلغ عدد المراكز 15 على مستوى البـلاد، وكان أكثرهـا في المدن الكبرى؛ بحلول سـنة 1926، ارتفع العدد إلى 273. لم تقـدم هذه المراكـز الرعاية البدنية فقط، بل قدمت لـلأسر الفقيرة النصح في أمور الارتقاء بصحة الأطفال وتقديم المسـاندة النفسـية. كثيرا ما أخذ المسـتخدمون في المراكز أسرا بكاملها في نزهات إلى أماكن من مثل حدائق المدن، لإقناعهم بـ «البهجة اللامحدودة حين تكون الأسرة بأكملها معا».

اشـتملت طائفة أخرى من التطورات التي انبثقت من الانشـغال الواضح بأمر الأطفال، ومن المثال الغربي، اشـتملت على محاكم خاصـة بالمراهقين ودور إصلاح للمجرمـين منهم، فـكان ذلك صورة أخرى مـن صور فصل الأطفـال من اتصالهم المباشر دون تمييز مع الراشـدين، حتى في حالات الانحراف. فرضت الحكومة إنشاء إصلاحيـة في كل منطقـة إدارية في تشريع وُضع في العـام 1900. حظر تشريع آخر في العام 1911 اسـتخدام المصانع للأطفال من دون سـن 12، وهذا إجراء حاسـم اتخـذ في مرحلة سـير اليابان في طريـق التصنيع، وعلى نحو أبكـر مما كان في أكثر البلدان الغربية. كان من المسـاعي الوقائية الأخرى تحريم تدخين الأطفال، واستمر ذلك بضعة عقود من الزمن. حضت الحكومة والوكالات الخاصة على إنشاء ملاجئ الأيتام ومدارس الحضانة وعيادات الأطفال، وعلى تقديم المشـورة المهنية للشباب؛ بحلول سنة 1920, كانت البرامج المخصصة للأطفال تستهلك 60 في المائة من ميزانية وزارة الداخلية. شـجع الدافع الداخلي نفسه، عند الطبقة الوسطى، طائفة متنامية

من اللُعب التي أُنتجت للأطفال خاصة، وصُممت «من أجل تحرير الطفل حتى يستكشف اهتماماته وفضوله بحرية»، بينما شيدت حركة ترعى إنشاء الملاعب مساحات عامة جديدة للأطفال جديدة. كان في أحد الملاعب، وقد أُنشئت في سنة 1917 على يد علماء نفس الطفل، حديقة حيوان، وبركة سباحة، وحديقة نبات، و«زلّاقات» وحلقة لمصارعة السومو.

بحلول عشرينيات القرن العشرين، أصبحت اليابان من كبار مصدري اللعب، حققت ذلك بالجمع بين الأفكار الجديدة بشأن الأطفال وبين الفرصة التي أتاحها الاقتصاد العالمي. لقد استورد اليابانيون اللعب من أوروبا في مراحل الإصلاح الأولى، بيد أنه لما شُغل المصنعون الأوروبيون بسبب الحرب العالمية الأولى، أصبحت الفرصة للاشتراك في السوق العالمية جلية. تضاعفت صادرات اللعب اليابانية ثلاث مرات في أثناء الحرب، ثم تضاعفت ثلاث مرات أخرى بحلول سنة 1920. في ذلك الحين استؤنفت المنافسة الأوروبية ففرضت ضغطا جديدا على الصناعة اليابانية يدفعها إلى الابتكار؛ وكان المصلحون يلحون على الإتيان بخيال أعظم قدرا، حتى يكون عونا على التعويض عن النزوع الوطني لمجرد النسْخ والتعلم من الآخرين. كانت نينْتينْدو إحدى الشركات التي شقت السبيل في هذا الاتجاه، وقد أُسست في العام 1889. وهي أبرز ما ميز المقاربة اليابانية، ميزتها عن صانعي اللعب الأوروبيين الغربيين، وإن تشابهت مع ما في الولايات المتحدة من مساع أكثر ابتكارا، والتي تضمنت استعدادا واعيا للتعامل مع الأطفال بوصفهم أطفالا، لا كنسخ مصغرة من الراشدين. إن اللعب الأوروبية، على غرار نماذج الجنود، قد أُتقن صنعها وحظيت بشعبية ونفوذ، بيد أن وجهتها كانت نحو الإعداد لأنشطة الراشدين، ومنها الحرب. ابتداء من عشرينيات القرن العشرين توجهت اليابان نحو المستهلكين الأطفال بمباشرة أكثر من قبل، وخاطبت الجانب الخيالي من حياتهم. وعليه فإن كتابا شعبيا هزليا عنوانه «مغامرات سي - تشان» قد أدى في العام 1924 إلى منتجات ثانوية منها أوراق اللعب والقبعات. كذلك أخذت الدمى موضوعات من الكتب الهزلية. لقد فُصلت الألعاب التي أساسها الحكايات التجارية الخيالية عن توقعات الراشدين. واستمر هذا مع انتعاش صناعة الألعاب اليابانية بعد الحرب العالمية الثانية، فأخذ الدولة إلى موقع السيادة في السوق العالمية للصادرات وفي تحديد أذواق الأطفال.

لقد احتفظت اليابان بيُسر بموقــع الزعامة، إلى جانب الولايات المتحدة، في تصميم اللعــب والمنتجــات المخصصة للأطفال تصميما ينم عن ســعة الخيال (أو عن نزعة استغلالية بحسب ما قد يذهب إليه بعضهم)، فعلت ذلك حتى بعد انتقال التصنيع الفعلي إلى مراكز العمالة الأرخص كالصين.

في الطفولة، كســواها من الموضوعات الكثيرة الأخرى، تتطلب عملية التغيير الحديــث المثيرة التي حدثــت في اليابان تحليلا يتصف بقــدر من الحذق. لقد مــس التغيير الأصــول إذ تحول اليابانيون بطبقاتهم كلهــا وفي عقود قليلة جدا (عــلى نحو أسرع بكثير مما كانت الحــال في الغرب قبلا) إلى طفولة فيها تعليم مدرسي وصحة جيدة، وسط تراجع معدل الولادات. لقد رأينا أن معدل الولادات الياباني قد هبط بحلول خمســينيات القرن العشرين، بتشجيع أكثر صراحة من الحكومة، حتى بلغ المســتويات الغربية، وإن كان أكثر اتكالا على الإجهاض مما كانــت الحال في الغرب. مما له القدر نفســه من الأهميــة حقيقةُ أن تنصيب الطفولة الحديثة قد شــجع، كما حدث في الغرب، مجموعة أوســع من إعادات النظر في مفاهيم الطفولة، فأتى ذلك بطائفة متنوعة من المؤسسات والممارسات الجديــدة. وباســتيعابها العديد من الخصائص الغربيــة، أصبحت اليابان قادرة على الإسهام في مؤثرات تجاوزت حدودها أيضا. في الوقت نفسه، لم يأتِ التغيير بنمط غربي تماما من الطفولة. إن الصفات التي نُشدت وشُجعت في الأطفال قد احتفظت بقيم مميزة.

مــن المهم أيضا أن نلحــظ أن اليابان قد ولّدت أوجها للطفولة بعضها أقرب إلى أوجــه طفولة الولايات المتحدة وبعضها أقرب إلى طفولة أوروبا الغربية، والســبب في ذلــك هو، من جهة أولى، المحاكاة المتمايزة، ومــن جهة أخرى الدوافع الداخلية. كانت أجهزة التعليم والاختبار مشابهة، بتأكيدها على المعايير الأكاديمية القوية قبل الجامعة وعلى المتابعة الدقيقة، مشابهة لما في فرنسا وألمانيا، وقد أخذت عنهما. لكن الرغبة في ترويج التقدم التعليمي في الصفوف الابتدائية عند الأطفال جميعا، وكذلك ما رأينا من جعل الطفل مركزا تدور حوله الصناعة التجارية للعب، كان فيها شــبه كبــير من بعض أوجه الولايــات المتحدة. إن الجمع المعقد بين ما ذكرنا هو، بالطبع، ما يؤكد الانطباع عن التميّز الياباني.

يعني هــذا التعقيد أيضا أن مناظـرات حامية موضوعهــا الطفولة قد عُقدت ولاتــزال تُعقــد في اليابان بين الزمر الاجتماعية وفي صفــوف الزعماء، وأن في اليابان تيارا مســتمرا من التغيير. مع أن التعلّــم بالحفظ والولاءات للزمر قد كانا مختلفين عما في الغرب من تأكيدات اختلافا ما، فقد شجع مصلحون يابانيون كُثر، ولايزالون، على مزيد من الفردية والإبداع.

أتى الاحتــلال الأمريكي لليابــان بين العامين 1945 و1952 عــلى نحو محتوم بمزيد من التأثيرات الخارجية التي لونت الطفولة اليابانية. في المدارس، قُلل من شــأن النزعة الوطنيــة، وعبادة الإمبراطور خصوصا، بينما شُــجع على مزيد مــن النزعة الفردية. مع تعرّض الفــروق الاجتماعية لمزيد من التراجع، اتســع نطاق كلّ من المدرســة الثانوية والجامعة اتســاعا سريعا. هذه هي المرحلة التي شهدت، في سنة 1947، جعْل التعليم المدرسي إلزاميا لتســع سنوات بحكم القانون (فاشــتمل على بعض الصفوف الدنيا من المرحلة الثانوية). لكن المناظرات استمرت أيضا، كما حدث في ستينيات القرن العشرين لما جمع المحافظون صفوفهم في وجه ما روجه الأمريكيون من أفكار ذات صبغة فردية أكثر من قبل بشــأن المواطنة، فأثاروا الكلام عن تجديد «رعاية الشعور الأخلاقي». أتت اندفاعــة أخرى نحو الإصلاح، وكانــت في ثمانينيات القرن العشرين، بهجوم على التأكيد المفــرط للتعلّم الصم، فحرضت على العناية بالقدرة عــلى التفكير وبالابتكار بوصفهما أمرين ضروريين لنجاح اليابان في ميدان الاقتصاد العالمي وعصر المعلومات؛ اســتعملت الــوزارة عبــارات مثل: «من التشــابه والتجانــس إلى مزيد من التنوع وتوســيع حرية الاختيار»، والحاجة «إلى تحديد الشخصية والقدرات واستعدادات الأفراد، وتطويرها». في الوقت نفسه، كانت اليابان تنتج أطفالا يؤدون في المنافسات الأكاديمية الدولية على نحو اســتثنائي، ولم يكن عجبا أن حاجج بعض الوطنيين فقالوا إن بقية العالم هم الذين عليهم الآن اللحاق باليابان. لم يختفِ موضوع التعليم الأخلاقي الخاص، فكانت إشاراتٌ إلى «الوعــي الوطني الصميــم» وإلى «ثقافة اليابان وتقاليدها الفريدة»؛ وبحســب ما قالــه أحد المحافظين: «عليكم تعليم الأطفال التراث، ســواء أحبــوا ذلك أو لم يحبوه». لقد أســهمت اليابــان، من هذا الوجه وســواه من الأوجه، في وضــع المعايير للطفولة الحديثــة، فكان بينها وبين كثير مــن المجتمعات الأخرى شرِكةٌ في قضايا مهمة جدا، بيد أنها استخدمت في ذلك بعض الأدوات التعبيرية المميزة وبضعة من المواضيع الخاصة.

للمزيد من القراءة

- Paula S. Fass, **Children of a New World: Society, Culture and Globalization** (New York: New York University Press, 2007).

- Kathy E. Ferguson and Monique Mironesco, **Gender and Globalization in Asia and the Pacific** (Honolulu: University of Hawaii Press, 2008).

- M. Gutman and N.D. Coninck-Smith, **Designing Modern Childhood: History, Space and the Material** Culture of Children (Piscataway, NJ: Rutgers University Press, 2008).

- Jyotsna Pattnaik, **Childhood in South Asia: A Critical Look at Issues, Policies and Programs** (Charlotte, NC: Information Age Publishing, 2005).

- Brian Platt, "Japanese Childhood, Modern Childhood," **Journal of Social History** 38: 965–85 (2005).

- Gary Cross and Gregory Smits, "Japan, the U.S., and the Globalization of Children's Consumer Culture," **Journal of Social History** 38: 873–90 (2005).

- Kathleen Uno, **Passages to Modernity: Childhood and Social Reform in Early Twentieth Century Japan** (Honolulu: University of Hawaii Press, 1999).

- Mark Lincicome, **Principles, Praxis and the Politics of Educational Reform in Meiji Japan** (Honolulu: University of 100 Modern childhood in Asia Hawaii Press, 1995).

- Joseph Tobin, ed., **Re-Made in Japan: Everyday Life and Consumer Taste in a Changing Society** (New Haven, CT: Yale University Press, 1992).

- Michael Stephens, **Japan and Education** (New York: Macmillan, 1991).

- Donald Roden, **Schooldays in Imperial Japan: A Study of the Culture of a Student Elite** (Berkeley: University of California Press,1980).

- Helen Hopper, **Fukuzawa Yukichi: From Samurai to Capitalist** (New York: Longman, 2004).

- Peter N. Stearns, **Schools and Students in Industrial Society: Japan and the West 1870-1940** (Boston: Bedford, 1998).

- John Traphagan and John Knight, eds, **Demographic Change and the Family in Japan's Aging Society** (Albany: State University of New York Press, 2003).

9

الطفولة والثورات الشيوعية

استـــمرت عملية انتشار نُســخ من نموذج الطفولة الحديثة في القرن العشرين في كثير من أجــزاء العالم، وإن عقّدت موروثاتُ الاســتعمار والتبعيـــة الاقتصاديـــة بـــل تجربة الـــرق التي تقدمـــت عملية التغيير العالمي. اســتمر الغرب واليابـــان في التأقلم وفقا للأنســـاق التي كانت لاتزال حديثة. اتجهت المدن الأمريكية اللاتينية نحو طفولة أكثر اشــتمالا على التعليم المدرسي، بيد أن الانقســـامات الاجتماعية قد عقّدت من العملية. لكن أكثر ما يلفت النظر من بين القوى الجديدة في تغيير الطفولة في النصف الأول من القـــرن العشريـــن قد جاء من انفجـــار الثورات السياسية والاجتماعية التي غدت جزءا قويا من مشهد القرن.

«إن التأكيدات الخاصة التي جاءت بهـا الشـيوعية نفسـها قـد كانت آسرة وحيويـة لكثـير مـن الأطفال طوال أكثر من نصف قرن، فكرسـوا أنفسـهم للزمـر الشـبابية والوعي السياسي»

كانـــت الثـــورات الكـــبرى علامـــات مميزة للتاريـــخ العالمي في القـــرن العشرين في مراحل كثـــيرة، ولقد حـــدث أكثرها أهمية ـ في روســـيا

والصين وكوبا وفيتنام ـ بإلهام شيوعي. هاجمت ثورات القرن العشرين جميعا النفوذ الغربي، مع تعمد الزعماء الشيوعيين إدخال ترتيبات مختلفة بقدر كبير عن ترتيبات الغرب البورجوازي الذي تسوده الرأسمالية. لكن الثورات، على وجه الإجمال، قد دفعت العناصر الكبرى لنموذج الطفولة الحديثة إلى الأمام، بل جاءت بواحد من أكبر النواقل لنشر هذا النموذج في القرن العشرين. إن مكمن التحدي في تناول حالتي روسيا والصين (وكتلتيهما السكانيتين الضخمتين) هو مَشْط السمات المعيارية الحديثة، بعض التقاليد الخاصة التي قادت التغيير، وأيضا المحاولة العامدة لصوغ طفولة شيوعية مميزة.

بدأت بعض الإصلاحات المترددة التي تعلقت بالطفولة تنتشر في روسيا والصين قبل ثورتيهما، وهي عون لنا على شرح السبب في أن الثوريين، مع حماستهم للتغيير المنهجي، قد رأوا في النسق الحديث شيئا منطقيا، ولا سيما التعليم المدرسي. لقد آمن الزعماء أيضا بأنه من الممكن تشكيل التعليم ليقدِّم مزايا خاصة للمستقبل الشيوعي، الذي ينبغي له ألا يهتدي بنماذج غربية على نحو خاص. أتت الأنظمة الشيوعية أيضا بابتكارات أخرى في مقاربتها للأطفال ـ مثل التأكيد العميق على الزمر الشبابية ـ فكانت إضافة إلى قوة التغيير. من المهم أيضا لحظُ أن التقديم البسيط للنموذج الحديث في سياق مثل المجتمع الصيني، مع ما فيه من تقاليد الطفولة القائمة من زمان بعيد، كثيرا ما اشتمل على عوامل شديدة الاختلاف عن العوامل القائمة في الغرب. قد تنشأ أنواع مميزة من الفوضى والفرص، يعززها الحماس المتهور للتجربة الثورية.

تضمنت المقاربة الشيوعية للطفولة بالتأكيد اعترافا أكثر وضوحا بدور للدولة مما ظهر في الغرب واليابان. إن السيطرة الحكومية الكبيرة على الطفولة، ولم يكن ذلك بواسطة المدارس فقط بل الزمر الشبابية وغير ذلك من الآليات، كان هدفها تنشئة الأطفال اجتماعيا حتى يكونوا عمالا و(أحيانا) جنودا، وأن يكونوا مواطنين موالين قطعا ـ وهذان هدفان اشتركت فيهما الدول الأخرى الحديثة؛ لكن هذه السيطرة قد سعت أيضا إلى قولبة الأطفال ليصبحوا مختلفين عن والديهم ولتنشأ فيهم قيم وشخصيات أكثر ملاءمة للأهداف الشيوعية. كان المطلوب إعادة صنع الأطفال من جديد، من حيث المبدأ على الأقل. في الواقع، بالطبع، لم تنجح التلاعبات

الشيوعية دائما؛ حتى جهود السيطرة على ما يقرأه الأطفال كان لها أن تضلّ في مراميها. تركّزت التغيرات الكبرى في حقيقة الأمر على نقلات إلى التعليم المدرسي والمعدلات المنخفضة للولادات والوفيات أكثر من تركيزها على النكهة الشيوعية الخاصة. بيد أن دور الدولة قد مضى وراء ذلك خطوة أخرى ذات شأن.

إننا نعالج، إذن، طائفة أخرى من الأمثلة على تحول أصولي، يتقاطع مع تجربة الغرب واليابان بسبل كثيرة، لكنه يتميز بتقاليد منفصلة وبقوة المطامح الثورية. لقد كان في الثورات نفسها عدد كبير من الشباب وصغار الراشدين ممن كانت لهم رغبة في المجازفة باستعمال العنف لتمزيق البنى القائمة في مجتمعاتهم، حيث كانت النسبة المئوية للأحداث من السكان لاتزال عالية جدا. إن هذه الحقيقة، ومعها الأيديولوجيا التي تسعى إلى خلق أنواع جديدة من الناس بحسب القيم الشيوعية، وكذلك القوة الجليّة للنموذج الحديث نفسه، قد كانت الضامن لحدوث تغيير جذري. لقد امتزجت الأنساق الحديثة المألوفة بالظروف الخاصة لعصر ثوري جديد.

لم يشكل الحزب الشيوعي الروسي زمرا شبابية خاصة قبل ثورة العام 1917، والسبب الأكبر وراء ذلك هو اضطرار الحزب بأكمله إلى العمل في الخفاء، كما لم تطوّر روسيا القيصرية اهتماما خاصا بالطفولة جاوز حدود التوسع في التعليم بالتدريج - في حقيقة الأمر، لم يكن هناك أي بحث روسي في الطفولة قبل القرن العشرين. في بلد ذي صبغة زراعية قوية، كانت السيادة الكبرى هي لشروط المجتمع الزراعي الأساسية، ومن ذلك التأديب القاسي للأطفال على نحو متكرر.

لكن اهتماما جديدا بالأطفال ظهر على نحو يكاد يكون مباشرا بعد انتفاضة سنة 1917، بينما كان الثوريون الشيوعيون يناضلون لأخذ السلطة والتمسك بها. مثال ذلك أن أول مؤتمر للمنظمات الشبابية قد عقد في 1918. قبل ذلك بسنة، منع قانون جديدٌ العمل قبل سن الرابعة عشرة (وإن لم يفرض فرضا جيدا). تبع ذلك مرسوم بمحو الأمية في سنة 1919، ومع أن بعض هذا قد كان القصد منه هو الدعاية ـ من أهم المشاكل في تناول الشيوعية الروسية رغبتها في إذاعة محاسن أفعالها مع الأطفال لتسجيل النقاط أمام شعبها وفي الساحة الدولية، من دون عناية بالحقيقة دائما - فإن النظام قد شرع باكرا في إنشاء مدارس جديدة،

ومن ذلك شبكة من مدارس الحضانة ورياض الأطفال. شُرع أيضا في بذل الجهود لتحسين صحة الأطفال وكذلك لإبطال العقاب البدني للأطفال - والأمر الأخير هو جهد يستحق الاهتمام حقا كان القصد الصريح منه هو تغيير الأنماط التي شاعت في المدارس والمجتمع الروسي قبل الثورة. كان الالتزام الإجمالي بالأطفال لافتا للنظر، بالنظر إلى المشاكل الكثيرة التي جوبهت في أولى سنوات الثورة وإلى الفقر الحقيقي للمجتمع الروسي.

لماذا - إذا نحينا الأهداف الدعائية جانبا - كان هذا الاهتمام الواسع؟ كان التعليم المدرسي قد ابتدأ بالاتساع في روسيا القيصرية، ولذلك فمن الراجح أن البناء على هذا الجهد كان أمرا منطقيا - وإن حدث البناء بطريقة جذرية جديدة. واجه النظام الجديد أيضا أزمة أصابت الأطفال بضع سنوات: إن ما نتج عن الحرب العالمية الأولى، ومن ذلك سوء التغذية، وعن السنوات الثورية والحرب الأهلية، ومن ذلك المجاعات الواسعة، قد زاد كثيرا من معدل الوفيات عند الأطفال. لقد حلّق معدل الوفيات عند الأطفال الصغار، وكان 30 بالمائة قبل العام 1914 فبلغ 50 في المائة أو تزيد بحلول العام 1921 (ارتفعت بعض التقديرات فبلغت 90 في المائة من الحديثي الولادة). إن ما دفع من جديد إلى العناية بالأطفال هو، جزئيا، مشاكل مثلت تهديدا حقيقيا.

كان من الصحيح أيضا أن النظام الجديد قد أراد مع تحديه لمعظم العالم، أن يحظى بقبول دولي، ولهذا كان الالتزام بالمزيد مما في نموذج الطفولة الحديث أمرا مغريا. لكن الشيوعية، فوق كل هذا، كأيديولوجيا، كانت مشحونة في أعماقها بالاعتقاد بأن الأطفال يولدون خيّرين وبرآء وقابلين للتحسّن؛ مشاكل الطفولة تنتج عن الترتيبات الاجتماعية غير القويمة والفقر واللامساواة بين الطبقات. ولذلك فمن الواجب بناء روسيا الجديدة على الجهود التي تبذل لحماية الأطفال وتعليمهم. شكّل هذا الاعتقاد، وقد نشأ من إيديولوجيا التنوير الأساسية نفسها التي صاغت الأطوار الأولى من النموذج الحديث في الغرب، شكّل المطامحَ والسياسات الثورية تشكيلا قويا. لقد دفع نحو النموذج الحديث ونحو جهد منسّق أيضا لإنتاج نوع من الأطفال مختلف عن التأكيدات الجارية في الغرب، التي أفسدتها الرأسمالية فسادا قاتلا كما كان يعتقد.

اقتضى الاعتقاد الشيوعي في براءة الأطفال، وأيضا في عيوب كلٍّ من الطفولات الرأسمالية والظروف قبل الثورية في روسيا نفسها، اقتضى نتائج منطقية مثيرة للاهتمام. كانت إحداها، ببساطة، هي اعتقاد الخبراء الثوريين بأنهم أعلم بحاجات الأطفال من والديهم. لقد كان هذا الاعتقاد عند الخبراء في الغرب أيضا، بيد أنه كان أقوى في روسيا: يحتاج الوالدون لتحسين الطفولة إلى الإرشاد وإلى الحد من قبضتهم على الأطفال. بل إن الثوريين اعتقدوا أنه ينبغي للأطفال الشيوعيين المدربين تدريبا حسنا أن يأخذوا على عاتقهم تعليم والديهم المتخلفين في بعض الجوانب. على الدولة أن تكتسب سلطة فعالة في تنشئة الأطفال - وكان المقصود بهذا، بالطبع، هو المدارس، كما في النموذج الحديث عموما، ولكن أيضا في أنشطة إضافية. وبحسب دعوى أحد الزعماء الحزبيين: «الطفل هو موضوع تربية الدولة»، بينما بقيت للأسرة أهمية كبيرة، فإن دور الدولة قد ظل كالسيف المصلت أيضا. إن الاعتقادين في براءة الطفولة وفي الرسالة الشيوعية بخصوص الأطفال يعينان أيضا على تفسير الدعاية المحمومة: كان لتحسين الأطفال منزلة أساسية في المثال الثوري حتى أنه كاد يكون من المستحيل الإقرار علانية بالمشاكل الأساسية (فيما عدا ما يمكن إلقاء اللوم فيه على البقايا قبل الثورية مثل الدين). نتيجة لذلك كُنست القضايا مثل جنوح المراهقين ودُس أكثرها تحت البساط.

كان لإعادة بناء الطفولة في ظل الشيوعية عناصر أربعة: أحدها هو النموذج الحديث نفسه، بأوجهه المعهودة، غير أنه كان موضوعا لمناظرات حامية. الثاني هو الأدوات الشيوعية الخاصة التي أضيفت إلى النموذج الحديث. الثالث هو الاستمراريات المنسوبة إلى الظروف الروسية السابقة التي بقيت على رغم اعتراضات القيادة. وآخر ذلك هو بعض التغيرات، ولا سيما ما طرأ منها نحو طفولة أكثر استهلاكية، والتي أخذت في الظهور ابتداء من خمسينيات القرن العشرين على رغم اعتراضات رسمية كبيرة كالتي تقدَّم ذكرها.

لقد رأينا أن النظام قد عزم سريعا على مدّ نطاق التعليم المدرسي، على الأقل من حيث المبدأ، وعلى إدخال تحسينات في صحة الأطفال، ومن ذلك بذل الجهد لخفض معدلات الوفيات. كان التقدم في التعليم المدرسي استثنائيا على نحو حقيقي، وإن عانت القيادة الثورية من الموارد المحدودة؛ فقد كان الالتزام عميقا. انتشرت

المدارس الابتدائية بسرعــة، في مجتمع بلغت معدلات من يعرفون القراءة والكتابة فيه في سنة 1914 نسبة 28 في المائة فقط. تَبِع ذلك بسرعة توسع في المدارس الثانوية والجامعــات. بين عامي 1929 و1939، تضاعف عــدد التلاميذ في مدارس الصفوف الدنيا ضعفين، أما عدد المداومين في المدارس المتوســطة فقد تضاعف ثمانية أضعاف وفي المــدارس الثانويــة أحد عشر ضعفــا. تضاعف عدد المقاعد الجامعية خمســة أضعــاف بحلــول العام 1939، وتضاعــف ضعفين وفوق ذلك بقليــل بحلول العام 1951، فبلغ عدد الطلاب 1.3 مليون. اســتثمرت الحكومة أيضا في البحوث الواسعة في البيداغوجيا(*)، سعيا إلى طرائق جديدة في التعليم تتفق مع الأهداف الشيوعية وتأتي بأحســن ما عند الطلاب من طاقة للتعلّم؛ كان هناك أمل حقيقي، ولعله أمل ســاذج، في أن يكون التعلم الحكومي الاشتراكي ممتعا وعفويا. لقد خصصت الجوائز للطلاب المتفوقين. ولما أدركت الأسر ما للتعليم من أهمية لمستقبل أطفالهم، عملت على نحو متزايد للمســاندة في النجاح المدرسي، ولا ســيما في المدن الآخذة في النمو. لقد كان هذا تحوّلا حقيقيا: صار معنى الطفولة الآن هو التعليم المدرسي، فوق كل شيء آخر.

كان معظم هذا التطور مثالا مألوفا للنموذج الحديث، بيد أنه قد كانت هناك بعــض التحريفات المميــزة. أراد النظام من المدارس أن تصــارع آثار النظام القديم وأن تُعدّ لقدوم مجتمع أحسن حالا، ولذلك فقد استُثمر كثير من الجهد في الهجوم عــلى الدين («الخرافة») وفي غرس مبادئ الماركســية في الأذهان، إلى جانب التأكيد الشديد على العلم. اشتملت الحماســة الماركسية أحيانا على تمارين استظهار كُلف بها الطلاب الصغار جدا، ممن لم يفهموا على الأرجح سوى القليل مما أمروا بإدخاله في رؤوســهم؛ بحلول خمســينيات القرن العشرين، عمد التقسيم الدقيق للصفوف بحســب العمر إلى تأخير الماركســية إلى الصفوف العليا مــن المرحلة الابتدائية وما بعدهــا. كان أكثر الأمور إثارة هو المحاولة الطموحة لتوســيع نطاق رياض الأطفال ومــدارس الحضانة، من أجــل التبكير في إعداد الأطفال والتقليــل من نفوذ الأسرة. استجاب البرنامج أيضا للعدد الكبير من الأمهات اللاتي عملن في الاتحاد السوفييتي، ولما نتج عن ذلك من حاجة لتدابير احتياطية من أجل رعاية الأطفال. لقد اتســعت

(*) هي دراسة طرائق التعليم. [المترجم].

رياض الأطفال اتساعا سريعا، وإن خفضت محدودية الموارد من هذه الجهود؛ بحلول سنة 1929، كان نحو 10 في المائة ممن هم في فئة عمرية مناسبة لرياض الأطفال يجدون فيها مكانا رسميا لهم، علما بأن المؤسسات الأخرى قد أتت بإضافة ما إلى البرنامج. قبلت الأسر الريفية برياض الأطفال ببطء وعلى مضض، فلقد فضلت عليها الأشراف الأسري الأكثر تقليدية، لذلك كان هذا الجانب من عملية التغيير موسوما بالتردد في الريف.

كان الدفع نحو خفض معدل وفيات الأطفال أمرا مثيرا للإعجاب، وإن كان للحوادث - ومنها الغزو الألماني في الحرب العالمية الثانية - أن تولّد انتكاسات. أصر مرسوم صدر في العام 1918 على التمسك بالأهداف الجديدة، زاعما أن كثرة بالغة من الأطفال قد ماتوا «بسبب جهل العامة المضطهدة وعدم مسؤوليتها وعناد الدولة [القيصرية] الطبقية ولا مبالاتها». وسّعت الحكومة بسرعة من نطاق العيادات والخدمات المكرسة لمرحلة ما قبل الولادة، وحاولت توسيع نطاق فرق أطباء الأطفال أيضا. تواصلت العيادات بفاعلية، وعلى نحو متزايد، مع الوالدين ولا سيما الأمهات، فكانت ترسل المذكرات بل تقوم بزيارات شخصية إذا لم يجلب الأطفال للفحص، وهذه مقاربة تدخلية أقوى مما كان في الغرب. أصدرت الدولة أيضا سلسلة من الكراسات الإرشادية، وفي هذا، مرة أخرى، تسليم بأن الوالدين لا يعول عليهم تماما - وبحسب ما وضعه أحد المراجع منذ وقت باكر، «تحتاج التربية الأسرية إلى إرشاد إضافي». أو، مرة أخرى، كما جاء عن خبير آخر وهو يناقش المعايير الأساسية لإيواء الأطفال وتغذيتهم: «حتى هذا الأمر لا يُحسن أكثر الوالدين القيام به». جرى التأكيد على النظافة تأكيدا شديدا، في المدارس وسواها من الأماكن، وهذا هو مرة أخرى نسق فيه شَبَهٌ كبير بما في الغرب واليابان. بحلول العام 1960، هبطت معدلات وفيات المواليد 90 في المائة عما كانت في العام 1918، فبلغت 3.8 في المائة من جميع الأطفال المولودين، وبحلول العام 1989 كان الرقم هو 2.5 في المائة. بقيت هذه المعدلات أعلى قليلا مما في الغرب، وعكَس ذلك تدني معايير المعيشة الإجمالية وتدني مستوى بعض المنشآت الطبية عن المعيار بشكل لا يمكن إنكاره؛ ومع ذلك فلقد كان التغيير جذريا، ومن الواضح أنه قد دخل بالاتحاد السوفييتي إلى نموذج الطفولة الحديث من هذا الجانب المهم.

بازدياد ذهاب الأطفال إلى المدرسة بدلا من العمل (العمل للاقتصاد الأسري على أقل تقدير)، وبتهاوي معدل الوفيات، وبغير ذلك من قضايا مثل النقص المزمن في السكن ومشكلات رعاية الأطفال، لم يكن مفاجئا أن يشارك شعب الاتحاد السوفييتي في الناحية الثالثة من التغيير الحديث، خفض معدلات الولادات. لقد قللت الهجمات على الدين أيضا من بعض الموانع التقليدية القائمة في وجه تحديد النسل وإن كان ذلك من غير قصد، وكان من المثير للاهتمام أن الأقليات الأكثر تدينا في الاتحاد السوفييتي، ويُلحظ في هذا الأمر المسلمون أكثر من غيرهم، قد احتفظت بمعدلات للولادات أعلى من المتوسط. بيد أن السياسة الحكومية قد تذبذبت. في عشرينيات القرن العشرين جرى نقاش مفتوح حول خفض معدل الولادات وتجريبٌ لمختلف الطرائق. لكن ستالين أعاد الدولة رسميا إلى سياسة معاكسة تشجع على الإنجاب، سعيا منه إلى زيادة عدد السكان لخدمة المقاصد الاقتصادية والعسكرية. حظرت الدولة الإجهاض في العام 1926. بيد أن معدلات الولادات استمرت في الهبوط، كان السبب في ذلك جزئيا هو الانتشار الواسع للإجهاض اللاقانوني؛ هاهنا، تولت الأسر الروسية والنساء الروسيات القيادة في سلوك تحدى الأهداف الحكومية تحديا تاما. وإذ أدركت الدولة الآثار السلبية للإجهاض اللاقانوني، فقد غيرت وجهة سياستها في العام 1951؛ بحلول ثمانينيات القرن العشرين كانت أكثر النساء الروسيات يخضعن إلى ما لا يقل عن عملية إجهاض واحدة. لقد أصبح الاتحاد السوفييتي مجتمعا ذا معدل منخفض للولادات، مع بعض التفاوتات المثيرة للاهتمام. لقد كانت عناية الوالدين المتزايدة بالأطفال فرادى واحدة من النتائج الشائعة، ومن ذلك دعم الوالدين للنجاح المدرسي، وفي ذلك ربطٌ لهذا المجتمع بالأنساق الحديثة في اليابان والغرب.

إن أقل ما يقال في الإضافات الشيوعية إلى الطفولة الحديثة أنها كانت مثيرة للاهتمام بقدر ما كان التحول العظيم إلى الطفولة الحديثة. إن التلقين العقائدي الماركسي والمزاعم الدعائية بشأن الأطفال السوفييت كانت جلية بقدر ما، وإن لم تكن بغير أهمية. لقد أيد الاتحاد السوفييتي بلهفة حركات حقوق الإنسان الدولية التي تعنى بالأطفال، وكان ذلك جزئيا على الأقل وسيلة للإيحاء بما لهذه الدولة نفسها من مزايا. مثال ذلك أن المتحدثين باسم الاتحاد السوفييتي كانوا يستشهدون

بالصعاب العظيمة التي لقيها الأطفال في الحرب العالمية الثانية مستغلين هذه القضية لمعارضة ما زعموا أنه جهود غربية لترويج العسكرة، فيقولون محاججين: «علينا أن نلفت عناية كل محبي الأطفال إلى آثار سباق التسلح».

لقد اشتملت التطورات الأكثر أهمية للأطفال السوفييت أنفسهم على جهاز واسع من الزمر الشبابية أسس كملحق بالتعليم المدرسي وكوسيلة لمدّ نفوذ الحزب الشيوعي على الأطفال، مع الحد من ضوابط الوالدين المستقلة. على وجه العموم، كانت الزمر الشبابية تطورا مهما طرأ في التاريخ العالمي الحديث، ولقد ابتدأت ببرامج مثل «كشافة الصبيان» في أوروبا الغربية والولايات المتحدة؛ كان القصد منها هو تقديم العون على ضبط الأحداث وجعلهم نافعين اجتماعيا. استخدمت الحكومات الفاشية الزمر الشبابية، مثل «شبيبة هتلر»، للتلقين العقائدي والتدريب شبه العسكري. لكن المنظومة الشيوعية استخدمت هذه الأداة على نطاق أوسع.

نُظم الأطفال جميعا، تقريبا، ممن بلغوا التاسعة، في منظمات «الرواد الصغار»، التي رعت طائفة من الأنشطة ـ دروس الرقص والتدريب الرياضي والمعسكرات الصيفية ـ وجهود العمل الجماعي. إن كثيرا من «الرواد الصغار» الذين تخرجوا في الرابعة عشرة قد انتقلوا منها فشاركوا في «الكومْسومول» (زمر الشبان الشيوعيين)، حيث كانت السيطرة الحزبية أكثر علانية، والتلقين العقائدي السياسي أكثر صراحة.

إن الزمر الشبابية والمدارس والمشورة الرسمية قد كانت جميعا بمنزلة علامة على جدية الطفولة ومركزيتها الجمعية. كان لايزال يتوقع من الأطفال العمل لمدة قصيرة؛ نظمت المدارس أنشطة إنتاجية مختلفة، مناسبة للعمر، ومن المؤكد أن الزمر الشبابية استعانت بخدمات الأطفال في حصاد الحبوب وتقديم الرعاية للكبار وصنع الدمى وطائفة واسعة من الأنشطة الأخرى. كانت الأهداف هي مساعدةَ الدولة ـ لا الاقتصاد الأسري ـ من دون التدخل في الرسالة التعليمية الكبرى، وتعليمَ الأطفال المهاراتِ المناسبة وشرفَ العمل. وبينما وفرت الزمر الشبابية أيضا أنشطة لوقت الفراغ، ونجح أطفال المدارس، متى ما استُدعوا إلى «العمل الاجتماعي»، في التركيز على الجانب الاجتماعي من دون العمالة، فإن الدولة نفسها لم تهتم باللعب كثيرا، بل بتهيئة الأطفال للرشد. لقد عكست في هذا مزيجا من العقائد الشيوعية وبعض البقايا القوية من التقاليد الزراعية، فأتت كلتاهما بتنويعات مثيرة للاهتمام

طرأت على النموذج الحديث. في العام 1984، حضت مجموعة أحكام تعليمية على الأمانة والشجاعة وغيرهما كأهداف لشخصية الأطفال، وكذلك «حرص بعضهم على بعض»، وهو واجب للخير الجمعي ـ وهذه التوليفة لم توجد في الكراسات الغربية في هذه المرحلة. كانت المنظمات الشبابية تُكبر الفضيلة جدا، وهذه علامة أخرى من علامات جدية الطفولة والمسؤوليات الاجتماعية للأطفال. لقد أُنبت إحدى فتيات الكومسومول حين هددت بالذهاب للبحث عن أبيها الذي فارق أمها: «لكن غالينا كومسومول، وينبغي لها أن تمتلك الجرأة والأمانة لتخبر رفاقها بنمط الحياة التي سوف تحياها». إن انتساب الأطفال الموهوبين القوي إلى أكاديميات الرقص أو هيئات التدريب الرياضي قدم مثالا آخر على السعي إلى استعمال الطفولة لمقاصد اجتماعية ولطبعها بطابع من الجدية قريب من جدية الرشد.

تلاعبت المنظومة السوفييتية أيضا ببعض التغيرات في تقسيمات الجنوسة، وأقامت ذلك على أساس من اعتقادها الرسمي بالمساواة بين الذكر والأنثى في المجتمع الشيوعي. هاجمت دروس مختلفة ما درج عليه التقليد من حطٍّ لمكانة المرأة. لكن اللباس المدرسي أكد التفرقة بين الجنسين، إذ جُعلت لفتيات المدرسة الثانوية ثياب ذات صبغة نسائية واضحة. وسرعان ما بدأت الدولة نفسها تؤكد الواجبات الأسرية للنساء، ومن ذلك الأمومة. ولقد التقط الأطفال أنفسهم الإشارات المتعلقة بالجنوسة، فلحظوا ما لحظه الصبي الذي قال حين طلب منه أن يعامل الفتيات على نحو أحسن قليلا: «لينين كان صبيا». مما لا ريب فيه أن انتشار التعليم قد قلل من التفرقة بين الجنسين في الطفولة، بيد أنها لم تكن ثورة تامة.

لم تكن المقاربة الشيوعية للطفولة ناجحة نجاحا كليا. والسبب في ذلك جزئيا هو الحروب والتهجير من مكان إلى آخر، وما كابده كثير من الأطفال من سوء المعاملة والفقر؛ لقد كثر عدد التائهين والأيتام. ارتفعت أيضا معدلات الطلاق، وكذلك عدد الأطفال في البيوت التي بلا أب. بحلول ثمانينيات القرن العشرين، كانت المخدرات، وجنح المراهقين، من المشاكل الثابتة وإن سُترت أبعادها بالتكتم الرسمي. فشلت المنظمة الشيوعية أيضا في تحقيق ما عزمت عليه من زعزعة للسيطرة الأسرية على الطفولة وللمباهج التقليدية. لقد استمر كثير من الأطفال الروس يلعبون ألعابا تقليدية ويستمعون إلى قصص تقليدية، ومنها ما هو خرافي جدا. كان والدوهم

يأخذونهم إلى عروض الدمى المتحركة وإلى السـيرك، وكان كلاهما ذا شعبية واسعة. كان كثـير من الراشـدين يروون ذكرياتهم عن النزهات السـعيدة التي قضوها مع أسرهم في الغابات أو الريف. أماطت الحملات الرسـمية نفسـها اللثام عن استمرار احتفالات الأطفال الأسرية. مثال ذلك أن الجهد الكبير الذي بذل لمحاربة أشجار عيد الميلاد ـ «علينا محاربة الطريقة القديمة في الحياة» ـ قد بيّن تغلغُل العادات القديمة.

أخيرا، بحلول خمسـينيات القرن العشرين ظهرت أنـواع جديدة من العصيان، قـام بها المراهقـون خصوصا، وثارت في وجه النمـوذج الحديث كثورتها على بعض الإضافات الشيوعية وعلى رأسها المبالغة في الجدية والوعظ الممل وبيروقراطية حركة الكومسـومول المتخشـبة. منذ العام 1955، ردد أحد الكومسومولات هذه النغمة: «لقـد بدأنا نضالنا بلا هوادة ضد المتبطلـين الذين يقلدون «الموضة» الأجنبية التي لا قيمة لها». إن الشـباب ذوي الذهنية الاسـتهلاكية قد «انفصلوا انفصالا تاما عن حياة العمل والرومانسية المتنوعة والغنية التي يحياها شباننا وشاباتنا السوفييت». مع أن الاهتمام المتنامي بالموسـيقى الغربية، وطُرز اللبـاس، ومنها الجينز الأزرق، وسـوى ذلك من الإشارات المبكرة للثقافة الشبابية العالمية النطاق، مع أن ذلك كله قد حُورب من قبل الحكومة، فقد اكتسـب اهتماما متزايدا من الشـباب مع إرخاء المنظومة الشـيوعية من قبضتها قليلا ابتداء من وفاة سـتالين وإلى انهيار النظام في العام 1991.

اشـتملت الثورة الروسـية على ثورة في الطفولة، وإن لم تشـتمل، بالطبع، على انقلاب تام أصاب التقاليد بأسرها. لقد طرأت على مقاصد الأطفال وأنشطتهم نقلة جذرية. ومع وصول النظام السـوفييتي إلى نهايته في آخر الأمر، لم يكن هناك شـك في احتفاظ النموذج الحديث بقوته. تضمنت القضايا الحقيقية على الزوال المفاجئ للمنظمات والعقائد الشيوعية التي كان لها أثر بالغ في الطفولة السوفييتية. مع أن كثيرا من الأطفال لم يقبلوا المنظومة قبولا تاما، فإنه لم يكن من الواضح أيٌّ من أنواع البدائل سوف يكون متاحا.

مع بسط الشـيوعيين الصينيين كامل سـيطرتهم على البر الصيني بحلول العام 1949، بزّوا نظراءهم السـوفييت السابقين عليهم في شراسة العزم على بناء مجتمع مختلف عن النماذج الحديثـة الغربية اختلافا جذريا. كان عليهم أيضا أن يصارعوا

الـتراث الكونفوشي القـوي ومضامينه بشـأن الطفولة. ليس مـن الغريب في هذا السـياق أن أتى النظـام، على نحـو دوري، ولأول مرة ببعض التجـارب المثيرة، مثل التجارب في التعليم المدرسي وفي دور الشـباب في المجتمع الأوسع. كذلك كان دافعا قويا، أقوى مما في الاتحاد السـوفييتي، للتشـجيع على الأسر الكبيرة بوصفها مصدرا للقوة الاقتصادية والعسـكرية، كان ذلك جزءا من الإحسـاس بعداوة العالم المحيط بالصـين، وعرضا من أعراض التفكير الأكـثر تقليدية الذي يرى منفعة في زيادة عدد الأطفـال. لكـن النظام الجديـد تحول على المدى البعيد نحو السـمات الأساسـية للنموذج الحديث، الذي اشـتمل في نهاية المطاف على سياسة ذات مغزى على نحو خاص لتحديد النسل. إن الزمر الشبابية والتأكيد القوي على الخدمة الاجتماعية قد شابهت السمات التي طورها السوفييت.

كان افتراضان، مماثلان لما كان عند السـوفييت، هما المرشـدين للسياسة التي تتعلق بالأطفال: الأول هو الاعتقاد المتفائل بأن الأطفال برآء وقابلون للتحسن بنوع من الإرشاد الصحيح؛ والآخر هو الإيمان الراسخ بأن السياسات الماضية التي تعلقت بالأطفال، ومن ذلك التقاليد الكونفوشـية وضوابط الوالدين الواسعة، قد كان فيها عيوب عميقة هي المسؤولة عن المشاكل العصيبة التي أُبتُلي بها ماضي الصين. نتيجة لذلك كان من الواجب وضع حد لنفوذ الأسرة لحساب التدريب الملائم.

لم يكـن الإصـلاح المـدرسي موضوعا جديـدا في الصين. لقد اجتهـد المصلحون الصينيون والإرسـاليون الغربيون، ابتداء من نحو العام 1900، من أجل إنشاء مزيد من المدارس الحديثة، مدارس خالية مما في افتراضات الكونفوشية بشأن الحاجة إلى غرس الانسـجام في أذهان الأطفال، ومـدارس أكثر انفتاحا على الموضوعات العلمية والنظـر العقلي عموما. أكد الخبراء الشـيوعيون، أخذا عن البحث الروسي على نحو جزئي، الحاجة إلى تعيين الخصائص الفردية وتشـجيع الإبداع. إن مقدار ما كان لهذا مـن أثر فعلي في التعليم المدرسي هو أمر مطروح للتسـاؤل. لقد اسـتمر المعلمون الصينيون، وفق الدراسـات الخارجية، يسلمون بأن على الأطفال الارتقاء إلى المعايير الثابتـة لكل مرحلة من العمر؛ تمحور التأكيـد حول المعايير العامة بدلا من التطور الفردي. شـاع في الصفوف الدنيا حمْلُ الأطفال على تسميع الدروس جماعة، واتخذ ذلك، جزئيا، كوسـيلة للسـيطرة على النزوات الفردية، فكان في ذلك أكثر من مجرد

تلويح إلى الكونفوشية. أضف إلى ذلك أن التأكيد الجديد على التلقين العقائدي الماركسي قد جاء بطبقة إضافية أخرى من الانسجام الملقن للكثير من الأطفال. لقد حُدِّث الأطفال عن الأبطال الشيوعيين من الزعيم ماو ومن بعده، وعن الحاجة إلى تكريس حياتهم للنضال من أجل الشيوعية ـ علما بأن أحد الذين أُجريت معهم مقابلة قد لحظ، وهو يتذكر أيامه في المدرسة: «أقول صادقا إننا لم نكن نعلم آنذاك ما هي الشيوعية».

بيد أنه لم يكن هناك شك في الانتشار الواسع للتعليم المدرسي نفسه. في خمسينيات القرن العشرين، تضاعف عدد الأطفال في المدارس الابتدائية ثلاثة أضعاف، فبلغ 90 مليونا ـ وهذا استثمار هائل في أمة كانت لاتزال فقيرة. كانت الزيادة في مستوى المدارس الثانوية أكبر من ذلك بكثير، من جهة النسبة المئوية. وتستمر عملية التوسع هذه حتى يومنا هذا. لقد التزم النظام في العام 2003 بتعليم 15 في المائة من أصحاب الفئة العمرية المناسبة تعليما جامعيا ـ وهذه نسبة مئوية أدنى مما في اليابان أو الغرب، بيد أنها تمثل قدرا عظيما بالنظر إلى حجم السكان، وسوف تفضي إلى فورة عظيمة في تشييد جامعات جديدة. لقد حل التعليم المدرسي محل العمل في بؤرة اهتمام الأطفال أنفسهم ووالديهم أيضا على نحو متزايد.

كما حدث في الاتحاد السوفييتي، بُذلت أيضا جهود عظيمة لإنشاء مدارس الحضانة ورياض الأطفال، من أجل حمل عبء رعاية الأطفال عن الوالدين اللذين أصبح كلاهما يعمل على نحو متزايد خارج المنزل، وكفرصة للتلقين العقائدي. لقد خدمت الأهداف نفسها طائفةٌ متنوعةٌ من الزمر الشبابية. أسس الشيوعيون «الجنودَ الصغار الحمر» في أثناء النضال الثوري نفسه، فاستعملوا الأطفال لمهمات الحراسة وغيرها. امتدت هذه الزمرة فاشتملت على تلامذة الصفوف الدنيا (الابتدائية) واستلحقت بـ«الرواد الشبان» و«رابطة الشبان الشيوعيين». لقد مُورست ضغوط عظيمة من التخجيل على الأطفال لينضموا إلى ذلك. مثال ذلك أن الرواد الصغار قد أُلبسوا منديلا للعنق يميزهم، فإذا بلغ الطفل الصف السادس ولم يكن له منديل اجتنبه نظراؤه، صبيا كان أم بنتا.

ضُمت واجبات العمل إلى التعليم المدرسي والزمر الشبابية، وجُعل ذلك مرة أخرى لهدفين هما الإنتاج الجدي لحساب الاقتصاد الذي تديره الدولة، والتدريبُ على القيم

الصحيحة. كان لطلاب المدارس المتوسطة أن يقضوا نحو شهر في الورشات المدرسية، فيصنعوا أشياء مثل الدارات الكهربائية للسيارات والشاحنات؛ وكانوا أيضا كثيرا ما يُندبون في مهمات للعمل في الريف. اشتمل مثال مذهل من أمثلة استخدام الأطفال على دوريات الشوارع لمنع الراشدين من البصق علانية: لقد تصادف هذا الأمر مع التأكيد القوي على النظافة في المدارس، لكن مغزاه الأكبر هو قلبه للكونفوشية رأسا على عقب، إذ جعل من الأطفال رقباء على الكبار المشاكسين. في أثناء الثورة الثقافية في العامين 1966 و1967، كاد ماو تسي تونغ ينقلب على التعليم نفسه، إذ أقلقه اتخاذ الكثرة البالغة من الأطفال للقيم البورجوازية. أرسل الملايين من طلاب المدارس الثانوية والجامعات إلى الريف للعمل في الزراعة. لقد كانت هذه نزوة مؤقتة، واستؤنف بعدها التأكيد على التحصيل التعليمي في سبعينيات القرن العشرين، بيد أن تلك كانت لحظة مثيرة للاهتمام. شهدت الثورة الثقافية أيضا استعمال عصابات الشبان الشيوعيين لتخويف الراشدين - مثل المعلمين ذوي الذهنية التقليدية - وهذا انقلاب آخر متعمد أصاب التراتبات الكونفوشية. هاهنا، عثر الذين في مرحلة الشباب أنفسُهم أحيانا على متنفسات للتمرد على ما في المنظومة المدرسية من تأديب وتنافسية.

إلى جانب التعليم المدرسي، اجتهد النظام الجديد لتحسين صحة الأطفال. أُسست العيادات في أحياء المدن، أما في الريف فقد عمل «الأطباء الحفاة»(*)، الذين جمعوا بين الطب الحديث والتقليدي، على تقديم الرعاية، ومنها التلقيح من أمراض الطفولة الكبرى. هبط معدل وفيات الأطفال بسرعة ابتداء من خمسينيات القرن العشرين؛ بحلول العام 2003، هبط معدل وفيات المواليد إلى 3.7 في المائة، بمتوسط سنوي بلغ 18 في المائة بين العامين 1955 و1960.

أثار الزعيم ماو بعض التساؤلات بشأن العنصر الأخير من نموذج الطفولة الحديث، فحاجج في خمسينيات القرن العشرين قائلا إن معدل الولادات العالي هو بمنزلة الرصيد للصين إذ يأتي بالعمالة المطلوبة، منتقدا خبراء السكان الغربيين الذين كانوا يحضون أمما مثل الصين على تقليل حجمها. ولكن بحلول ستينيات القرن

(*) ظهر «الأطباء الحفاة» أولا في ثلاثينيات القرن العشرين، وذلك برعاية «حركة تعمير الريف»، ثم تعزز وجودهم بخطاب ألقاه ماو تسي تونغ عن الرعاية الصحية في العام 1965، والأطباء الحفاة هم مزارعون تلقوا حدا أدنى من التدريب الطبي لتقديم الرعاية الصحية الأساسية في المناطق الريفية، ويأتي اسمهم من المزارعين الجنوبيين، الذين غالبا ما كانوا يعملون في حقول الأرز وهم حفاة الأقدام. [المحررة].

العشرين، ابتدأ التحول نحو تحديد عدد السـكان. كان لسياسة الدولة دور كبير في الأمر، ولكن كذلك كان لرد فعل الوالدين على الانحسـار في عمل الأطفال لحسـاب الاقتصاد الأسري وعلى ضغوط عمل الوالدين في وظائف خارج المنزل. بحلول أواسط سـتينيات القرن العشرين، كانت العيادات والأطباء الحفاة يوزعون وسـائل تحديد النسل، ومن ذلك الحبوب واللولب المانع للحمل، وكانوا يباشرون عمليات الإجهاض. أخذت معدلات الولادات تهبط بسرعة، وكانت المدن في مقدمة ذلك ـ سجلت بعض الأحياء انخفاضا قدره 50 في المائة في فاصل زمني مدته سـنتان في وسـط العقد. في ثمانينيـات القرن العشرين، عمل النظام الذي جاء بعد ماو على إحكام السياسـات الصارمـة أكثر من قبل، فحظر الزواج قبل الخامسـة والعشريـن وجرّم كل زوجين ينجبان أكثر من ولد واحد. كان في ذلك تأكيد عظيم لسلطة الدولة، وهجران عظيم بالقدر نفسه لما كان في الصين من أعراف بشأن الأطفال.

من جهة الممارسـة، اجتمـع الابتكار الثوري مـع التقاليد المختـارة ـ ولم تتبع الابتكارات جميعا النصوص الشـيوعية اتباعا فعليا. لقد أُمر الوالدون والأطفال معا بوجوب التقليل من شأن الأسرة، وبوجوب «أن ينشغل الأطفال بأمر منفعة الشعب ومصالح الدولة». هاجمت إجراءات محددة سـيطرة الوالدين: مثال ذلك أن قانون الزواج الذي سُن في العام 1950 قد سمح للشبان والشابات باختيار الزوجة والزوج من غير أخذ موافقة الوالدين. بيد أن قبضة الأسرة ظلت شديدة. مع أن 30 في المائة من الأطفال الصينيين قد كانوا في رياض الأطفال بحلول سـبعينيات القرن العشرين، لاسـيما في المدن، فإن أكثر من ذلك بكثير قد كانوا برعاية أجدادهم وجداتهم. أيضا حددت التقاليد هيئة ردود الأفعال على السياسـات الحكومية الجديدة: بالنظر إلى أنـه لم يسـمح للأسرة الواحـدة إلا بولد واحد، فمما لا ريب فيـه أن كثيرا من أهل الأرياف قد عادوا إلى ممارسة قتل المواليد الإناث (حتى يكون «الولد الواحد» صبيا)؛ وبلغت نسبة الفتيات إلى الصبيان في ملاجئ الأيتام من 9 إلى 1. لقد نشأت عن ذلك زيادة كبيرة جدا في عدد الذكور. شـجعت سياسة الولد الواحد أيضا على مستويات من الاسـتثمار العاطفي والـدلال المادي في معاملة الأطفـال، مما وثق الأواصر بين الوالدين والطفل في بعض الجوانب ـ وهذا تطور مألوف في تاريخ الطفولة الحديث، بيد أنه ليس هو الهدف الشـيوعي بالضبط. بحلول العام 2000، كانت السـلطات

المدرسـية ترفع التقارير عن الضغط الهائل الناشـئ عن «زمر 4-2-1» التي أرادت التأكد من نيل الأطفال الوحيدين المحبوبين للمعاملة الحسنة. والأربعة هم الجدان والجدتان، وقد اجتمعوا مع الوالدين، وكلهم جعلوا رصيدهم لحساب نجاح الطفل الواحد، وأتوا بمكوّن جديد ذي شأن في سلوك المدارس نفسها.

مع تبني النظام الشيوعي لسياسات اقتصاد السوق في العام 1978، ومع ما تبع ذلـك من نمو اقتصادي سريع، تداخلت الطفولـة الصينية المدينية مع الطفولات في كثير مـن المجتمعات الأخرى بطرق إضافية. خبا وهـج بعض التجارب على العمل الجماعـي وفُضل عليهـا التأكيد الصريح على النجاح الـدراسي والالتحاق بالجامعة (في واقـع الأمر، فاق الطلبُ على المقاعد الجامعية العرض). لقد نشـأت اهتمامات اسـتهلاكية جديدة، وقد حدث ذلك عند الأطفال والوالدين على السواء. مثال ذلك أن سـلع الأطفال الرضع المسـتوردة أصبحت مطلوبة في ثمانينيات القرن العشرين، ومن ذلك اللعب و«الحفاظات» ومستحضرات التجميل للفتيات الأكبر سنا. لقد بدأ كثير من أطفال المدن الصينيين يشاركون في الثقافة الشبابية العالمية.

لقد كان للإسـهام الشـيوعي في تغيير طبيعة الطفولة في القرن العشرين شـأن عظيم. حيثما أمسكت الشـيوعية بزمام الأمور، جاءت على إثر ذلك سريعا تغيرات في مفاهيـم الطفولـة وفي المبـادرات الحكوميـة نحـو الأطفال. لقـد كان للمثال الشـيوعي نفوذ أيضا في أجزاء العالم الأخـرى، فدفع نحو عناصر النموذج الحديث. إن التأكيدات الخاصة التي جاءت بها الشيوعية نفسها قد كانت آسرة وحيوية لكثير من الأطفال طوال أكثر من نصف قرن، فكرسـوا أنفسـهم للزمر الشـبابية والوعي السـياسي. مع انحسـار الشيوعية بعد أواسـط ثمانينيات القرن العشرين ـ حتى في الصين، مع انعطافها نحو اقتصاد السـوق ـ أصبح بقاء هذه التأكيدات موضعا لقدر من التساؤل، وأتت معه طائفة من الخيارات للطفولة الحديثة لن تحددها المعايير الغربية.

للمزيد من القراءة

- Marina Balina and Evgeny Dobrenko, **Petrified Utopia: Happiness Soviet Style** (London, UK: Anthem Press, 2009)

- Catriona Kelly, **Children's World: Growing Up in Russia, 1890-1991** (New Haven, CT: Yale University Press, 2007).

- Christina Kiaer and Eric Naiman, **Everyday Life in Early Soviet Russia: Taking the Revolution Inside** (Bloomington: Indiana University Press, 2006).

- Clementine Creuziger, **Childhood in Russia: Representation and Reality** (Lanham, MD: University Press of America, 1996).

- Lisa Kirschenbaum, **Small Comrades: Revolutionizing Childhood in Soviet Russia, 1917-1932** (New York: Routledge, 2001).

- Landon Pearson, **Children of Glasnost: Growing up Soviet** (Seattle: University of Washington Press, 1990).

- Jim Riordan, ed., **Soviet Youth Culture** (Bloomington: Indiana University Press, 1989).

- N. Vishneva-Sarafanova, **The Privileged Generation: Children in the Soviet Union** (Moscow: Progress Publishers, 1984).

- Kitty Weaver, **Bushels of Rubles: Soviet Youth in Transition** (Westport, CT: Praeger, 1992).

- Brian Power,**The Ford of Heaven: A Cosmopolitan Childhood in Tientsin, China** (Oxford: Signal Books, 2005).

- E. Stuart Kirby, ed., **Youth in China** (Hong Kong: Dragonfly Books, 1966).

- Anita Chan, **Children of Mao: Personality Development and Political Activism in the Red Guard Generation** (Seattle: University of Washington Press, 1985).

- Jon Saari, **Legacies of Childhood: Growing up Chinese in a Time of Crisis, 1890-1920** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1990).

- Ni Nan, **Hometowns and Childhood** (San Francisco: Long River Press, 2006).

- Sing Lau, ed., **Growing Up the Chinese Way** (Hong Kong: Chinese University Press, 1996).

- Thomas Bernstein, **Up to the Mountains and Down to the Villages: The Transfer of Youth from Urban to Rural China** (New Haven, CT: Yale University Press, 1977).

- Luo Xu, **Searching for Life's Meaning: Changes and Tensions in the Worldviews of Chinese Youth in the 1980s** (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2002).

- Beverley Hooper, **Youth in China** (Harmondsworth, UK: Penguin Books, 1985).

- Ann-ping Chin, **Children of China: Voices from Recent Years** (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1988).

10

الطفولة في المجتمعات الغنية في القرنين 20 و21

«إن الخبرة النفسية المتنامية قد جعلت كثيرا من الراشدين يضعون طفولتهم وطريقة تنشئتهم موضع التساؤل. صار لوم المرء لوالديه على مشكلاته أمرا مقبولا أكثر من قبل، وهذا تطور آخر مثير للاهتمام»

مرت الطفولة في القرن العشرين بتغيرات كبرى في المجتمعات الصناعية المتقدمة. كانت السيادة في أثناء ذلك لنسقين، ولقد حدث بينهما تفاعل بالطبع. في النسق الأول استمرت المجتمعات في الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية في المضي في تنفيذ ما وصفناه من خصائص الطفولة الحديثة بصورة أكثر شمولا. أعني بذلك أنها أضافت التزامات إلى التعليم المدرسي، وقللت من عمالة الأطفال في صورها الأكثر تقليدية على أقل تقدير؛ وأتمت الخفض المثير لمعدلات وفيات الأطفال الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر؛ وتحولت تحولا واضحا، مع بعض التعرج، إلى معدلات منخفضة للولادات (انضمت اليابان إلى هذا الموكب الخاص ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، مع تشجيع

حكومـــي اتكل في البداية عـــلى الإجهاض اتكالا عظيما قبـــل الانعطاف نحو الصور الأخرى من تحديد النسل). لقد اشتمل التنفيذ الأتم على تغيرات حقيقية، حتى إن كانت المبادئ قد أرسيت قبلا.

أما في النسق الثاني، فلقد أتت المجتمعات الصناعية المتقدمة أيضا بابتكارات في التعامل مع الأطفال، فأعادت النظر في طرائق التأديب التقليدية، وأضافت إلى ذلك الاهتمام المتنامي - والقلق - بمعاملة الأطفال كمستهلكين. أدخلت الولايات المتحدة تغـــيرات في هذه النواحي منذ العشرينيات(*). في أوروبا الغربية، حدثت الانتقالات المثيرة - في الاتجاه نفسه على وجه العموم - ابتداء من أواخر الخمسينيات.

لقد اتســـع أيضا نطاق الدور الحكومي في تنظيم الطفولة، وتجاوز الأساســـيات الســـابقة مثل فرض التعليم وتوفـــيره وتنظيم العمالة. اشـــتمل ذلك على مقاربتين حـــدث بينهما شيء من الصـــدام، وكان الهدف من كليهما من حيث المبدأ هو جعل الطفولة أحسن حالا، وتقديم المزيد من الحماية للأطفال. مررت كثير من الحكومات إجراءات وقائية جديدة في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية. فرضت الولايات المتحدة الأمريكية على الأطفال لبس الخُوَذ عند قيادة الدراجات، وتصاعدت بثبات اشتراطات الأمان عند ركوب الســـيارات. سعت الحكومة الإيطالية إلى تنظيم السن الذي يُســـمح عندها للطفل بركوب المصعد وحده. وســـعت الكثير من الحكومات، بحلول أوائل القرن الحادي والعشرين، إلى التدخل في وجه ســـمنة الأطفال. شكلت الجهود للسيطرة على المواد الموجهة إلى الأطفال فئة أخرى كبيرة، أريدَ منها التقليل مـــن الوصول إلى العنف غـــير الملائم وإلى البورنوغرافيا(**) في وســـائل الإعلام. مع اســـتمرار الحكومات في جهودها السابقة لـــ «إنقاذ الأطفال»، فقد ناقش كثير منها الأحـــوال التي تتطلب أن تأخذ الدولة فيهـــا الأطفال من الوالدين الذين يظن فيهم أنهم غير مناســـبين، وألا يقتـــصر ذلك على حالات العنف العابـــث، بل حيث يظهر الإفراط في الكحول أو تناول المخدرات أو حتى عدم السيطرة على الإفراط في الأكل، وهـــذا الأمر الأخير هو، مرة أخرى، مما جـــاء مع القرن الحادي والعشرين. لم تطبق

(*) ابتـــداء من هذا الموضع وهذا الفصل، متى وردت النســـبة (بصيغة الجمـــع) إلى ألفاظ العقود على هذا النحو المختصر كان المقصود هو عقود القرن العشرين إلا إذا ذُكر خلاف ذلك. [المترجم].

(**) البورنوغرافيا هي تناول موضوعات جنســـية، تصويرا أو رواية، على نحو يقصد منه إحداث التهييج الجنسي. [المترجم].

جميع القوانين تطبيقا شـــاملا، وعثر الأطفال والراشــدون على سبل للالتفاف عليها. بيــد أن الإيمان بالإشراف الحكومــي على الطفولة قد امتد نطاقــه على نحو مطرد نسبيا. لكن، في الوقت نفسه، ظهر في الخطاب بعد الحرب العالمية الثانية أيضا كلام عن حقوق الطفل بوصفها فئة من حقوق الإنســان بصورة أكثر عمومية. تركّز أكثر هــذا النقاش على الدول النامية، حيث ظهر أن محاولات حماية الأطفال من العمل المفــرط، لضمان حصولهم على التعليم المدرسي، هــو أمر ملح على نحو خاص. لقد كان لجهود حقوق الإنســان أن تنطبق أيضا على التحرر من ســوء المعاملة حتى في الغــرب، أو، على نحو متردد، على حريات التعبــير في وجه برامج الرقابة المفرطة في الحماسة التي تُطبق في المدارس.

في تعامــل العلماء مــع التغيير الاجتماعي على نحو أكــثر عمومية، في أماكن مثــل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، اســتعمل بعضهــم مصطلحات مثل «ما بعــد الصناعية» أو «مــا بعد الحديثة»، مما يوحي بتحولات مثيرة عن الأنســاق الصناعية من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. لعل أوصافا لافتة للنظر مثــل هذه، قد أحاطت ببعض التغيرات المهمة، كالانتقال إلى أعمال أكثر قربا من الوظائف المكتبية والتراجع النســبي للعمل في المصانع، بيد أن جدواها من جهة الطفولة هو موضع للتساؤل. مما ينبغي ذكره أن أكثر العالم قد كان لايزال في أول انتقالــه إلى العصر الصناعي. لقد طرأ ازدياد عــلى كثير من التطورات الداخلة في تعريــف الطفولة الحديثة، حتى عند الدول الرائدة في الصناعة؛ بذلت الجهود - مثل أنظمة الســلامة الآخذة في الاتساع - للحد من وفيات الأطفال بقدر أكبر من قبل. بل إن بعض الابتكارات الأكثر وضوحا، مثل التوســع في النزعة الاســتهلاكية للأطفال، قد عكســت جزئيا اســتجابات والديــة لمعدلات الــولادات المنخفضة، استجابات جاءت سعيا منهم إلى أن يبرهنوا للأطفال، في الأسر ذات الطفل الواحد إلى الأطفــال الثلاثة، كم هم معزوزون. لقد كانــت العناصر الجديدة مهمة، بيد أنها عملت في سياق التعديلات المســتمرة وفقا للتغيرات السابقة الأكثر أساسية. بالطبع، من الممكن، وينبغي، طرح هذا الادعاء للنقاش، بيد أنه لا يبدو أن هناك ســببا لاســتعمال المصطلحات التي توحي بأن النموذج الحديث قد أطيح به من قبل صيغة جديدة ما بعد حديثة.

في مـا يخص الغرب على وجـه التحديد، رأى بعض المراقبـين، أخيرا، في التاريخ القريب «نهاية للطفولة»، بتعرّض الأطفال لعناصر اسـتهلاكية أكثر قربا إلى مستوى الراشـدين، وبخفوت الصيغة المثالية لبراءة الطفولة. إن التغيرات في حياة النسـاء، ابتداء من الخمسينيات، ونزوعهن إلى مزيد من العمل خارج المنزل، حتى والأطفال صغار، قد اقتحمت أيضا أنسـاق تنشـئة الأطفال التي أسـبغت عليهـا في العقود السـابقة صبغة رومانسية. لكن من المهم أن نتذكر أن براءة الطفولة قد كانت هي نفسـها فكرة جديدة نسبيا، وليست فكرة عامة تقليدية، وإن أكبر ظهور لها كان في الغرب، وكان ذلك جزئيا كرد فعل على أفكار تقدمتها مثل الخطيئة الأصلية. بعبارة أخرى، لم يكن غياب براءة الطفولة تطورا ذا صبغة عالمية بوضوح. لكن مما لا ريب فيـه أن بعض الأفكار العامة عن البراءة، وعـن الحماية قطعا، قد ظلت قائمة حتى في الغـرب، على الأقل نحو الأطفال قبل سـن المراهقة. وبالفعل، بينت الدراسـات في أوائـل القرن الحادي والعشرين أن الأمهـات العاملات قد أنفقن من الوقت مع أطفالهن فعليا (لا بمجرد كونهن معهم في المكان نفسـه) أكثر مما فعلت نظيراتهن من ربات المنزل في الخمسينيات.

لا جـدال في أن الظـروف المتغيرة قد أثـارت قدرا مهما من إعـادة التفكير. في عملية التغيـير التي تجاوزت ثالوث التعليم المـدرسي ومنخفض معدلات الولادات والوفيات، حورت المجتمعات الغربية بعض التأكيدات التي ميزت مقاربتها للطفولة في القرن التاسع عشر، من دون أن تمس النموذج الحديث الأساسي. صارت الأعراف أكثر مرونة؛ بحلول الأربعينيات، تم التخلي عن أوامر الوالدين بشأن وضعية الجسد السليمة posture. أصبحت قضايا أخرى أكثر أهمية، ومن ذلك أسلوبٌ أقل رسمية يناسب النزعة الاستهلاكية. لقد بقيت الانشغالات بأمر الجنس، ولا سيما في الولايات المتحدة، بيد أن الثقافة والممارسـة قد تحولتا كلتاهما نحو مزيد من التساهل. كان مصير الاهتمام الشـديد بمبادئ الاحترام، بإزاء ما عند الطبقات الدنيا أو المهاجرين، التراجـع أيضا وسـط هذه التغيرات، مـن دون أن يزول كليـةً. ازدادت كثافة صور الأطفـال الجذابين والمحبوبين - تبين أنها فعالة جـدا في الإعلانات عن المنتجات، أو لإنجـاح الأفلام - بيد أنها أصبحت أكثر تعقيدا؛ وأصبحـت العناية بالمراهقة، وهي ابتكار من ابتكارات القرن التاسع عشر، هاجسا مشبعا بالهموم لكثير من الراشدين.

بقيـت الاختلافات داخل الفئة المتقدمة الصناعية. مثال ذلك أن أوروبا الغربية واليابان قد أولتا الامتحانات التنافسـية، لفرز الطلاب في مختلف مستويات التعليم الثانوي، وأيضا لتعيين الأهلية للدراسـة الجامعيـة بعد ذلك، من التأكيد أكثر بكثير مـما فعلت الولايات المتحـدة. كان معنى هـذا، بدوره، أن كثيرا مـن الأطفال قد خضعـوا لقدر متعاظم من الضغوط المدرسـية أثناء سـنواتهم الأولى أكثر مما كان الأمـر في الولايات المتحدة عمومـا. في الطرف الأخير من مرحلـة الطفولة، فرضت الجامعـات الأمريكيـة، على نحو متعارف عليه، رسـوما تعليميـة، وكثيرا ما كانت رسوما ضخمة، بينما دعمت اليابان وأوروبا الغربية أكثر المدارس بأموال من العوائد الضريبيـة، ووفرت لأكثر الطلاب المؤهلين لدخول المدرسـة مواصلات مجانية غالبا. لقـد كان هناك اختلاف عظيم فيما يتعلق بمن هم في سـن الشـباب، وكذلك فيما يتعلق بالمسـؤولية الأسرية. تعاظمت النزعة الاسـتهلاكية عند الأطفال، حدث ذلك في الولايات المتحـدة وفي اليابان (بحلول أواخر القرن العشرين) بسرعة أكبر مما في أوروبـا الغربية، وإن كانـت بين الجانبين تيارات متشـابهة قطعا. تنوعت الأنظمة الغذائيـة. بـين سـنتي 1950 و2004، حقق الأطفال الأوروبيون مكاسـب في طول القامة على نحو سريع - أصبح الهولنديون أصحاب أكبر متوسط للطول بين شعوب العالم. أما الأطفال الأمريكيون فقد سـجلوا مكاسب أقل من ذلك، ومن المحتمل أن السـبب في ذلك هو المصادر الجديدة للهجرة وتعاظم اللامساواة الاجتماعية، ولكن من الراجح أن لذلك سـببا آخر هو أن نظامهم الغذائي كان غنيا بالأطعمة الرديئة، مما يعيق تحقيق مكاسب في الطول.

طرأت على رعاية الأطفال اختلافات مثيرة بعد الخمسينيات، مع وجود انشغالات مشتركة كتشجيع أداء الأطفال في المدرسة. في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، بدأ المزيـد والمزيد مـن الأمهات يعملن في وظائف خارج المنـزل. أثار هذا الأمر قضايا جلية تتعلق برعاية الأطفال، علما بأن النسوة في كل مكان قد عبرن عن عدم ارتياح مبدئي بسـبب أدوارهن الجديدة، وزعمن، حتى وقد أصبحن يذهبن إلى العمل، أن عـلى الأمهات أن يبقين في المنزل. في أوروبا الغربية، صـارت مراكز الرعاية النهارية شـائعة على نحـو متزايد، وارتاح أكثر الوالدين لهذه المعونـة. في الولايات المتحدة، كانت الهموم بشأن الرعاية أكبر قدرا، نظرا إلى أن كثيرا من النساء قد فضلن الاتكال

على قريباتهن أو على حلول ترقيعية بدلا من وضع أطفالهن في دور الرعاية. وأخيرا، في اليابـان، كان عدد الأمهات العاملات أقـل، فاحتفظن بدور أكثر مباشرة في رعاية الأطفال الصغار وتدليلهم مكافأة لهم على اجتهادهم في المدرسة. في الأقاليم الثلاثة كلها، بالطبع، خُفف من الاختلافات نسق مشترك من تهاوي معدلات الولادات (إذا نحينا جانبا طفرة المواليد الوجيزة)، وهذا ما حصر المشكلة بقدر ما.

مـن المهم أيضا أن نتذكر التأثير المختلف للأحداث الكبرى. لقد عانى الأطفال في البلدان الأوروبية الغربية مثل ألمانيا وفرنسـا معاناة كبيرة في الحرب العالمية الأولى، بسـبب التقييد على الغذاء ومسـتويات المعيشـة، مضافا إلى ذلك غياب الآباء بل فقْدهم في كثير من الأحيان؛ سـوف تتكرر هذه التجربـة في الحرب العالمية الثانية على نحو أوسـع. مـع تأثر الأطفال في الولايات المتحدة بمـا ذُكر، فقد كان مرورهم بتجربـة الاضطراب أقل. لقـد أصاب القصف أثناء الحـرب العالمية الثانية الأطفال في أوروبـا الغربية واليابان بندبات، بالمعنيـين الحرفي والنفسي. ومرت على الأطفال الأمريكيين مدة وجيزة من القلق أثناء سـباق التسلح النووي في الخمسينيات، وكان ذلـك جزءا من الحـرب الباردة المتصاعـدة. ويحاجج بعض المحللـين بأن مخاوف الإبـادة الأكثر عمقا قد بقيـت كامنة في المراهقين حتى بعـد أن تحرر الأمريكيون من مخاوفهم الكارثية كما يبدو، واتجهوا بدلا من ذلك إلى نزعة استهلاكية متنامية بحلول أواخر الخمسـينيات. لكن من المقطوع به أن الأطفال الأمريكيين لم يواجهوا المجابهة الحرفية مع الحرب الحديثة التي أثرت فيما لا يقل عن جيلين من نظرائهم في أوروبا الغربية وجيل كبير واحد في اليابان.

بقـي للاختلافـات الاجتماعية والاختلافات بين الجنسـين، ومعهـما الجغرافيا، شـأن. لقد اكتمل إدخال صغار الطبقة العاملة إلى ميـدان التعليم المدرسي بحلول العشرينيـات، عندما أصبحت قوانين الحضور مطبقـة بالكامل، بيد أنهم ظلوا أقل من نظرائهم من الطبقة الوسطى احتمالا لأن يكملوا المدرسة الثانوية، أو أن يذهبوا إلى الجامعـة، وكان معنـى هـذا أن مراهقتهم مختلفة أيضا. اسـتمر الفقر المدقع وسوء التغذية عند أقلية من الأطفال، ولا سيما في مجتمعات مثل الولايات المتحدة، حيـث لم يكتمل تطور دولـة الرفاه؛ بحلول الثمانينيـات في الولايات المتحدة، أخذ عـدد الأطفال تحـت خط الفقر يكبر بسرعـة خصوصا في البيوت التـي ترعاها أم

عَزَبَة - وهاتان نتيجتان توأمان من نتائج خفض العناية الحكومية واضطراب الحياة الأسرية. كذلك أتت الأقليات العرقية - الآخذة في الاتساع في أوروبا بسبب الهجرة الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية، وفي الولايات المتحدة أيضا - بسياقات مميزة للطفولة، ناشئة عن رد فعلها على الإجحاف وعن قلة فرص العمل المتاحة، كما تكرر تشكيلها للعصابات وللأساليب الموسيقية المستقلة. وبينما تراجعت أهمية الجنوسة، فقد ظلت تؤثر في أنماط التعليم المختارة، واللباس، وسواه من الخيارات الاستهلاكية، والواجبات المنزلية. طرأ أحيانا اتساع على أنواع معينة من الفروق بين الجنسين، مثال ما حدث في الولايات المتحدة في أثناء العشرينيات، لما اختير الوردي والأزرق لتعيين التذكير والتأنيث عند الأطفال الصغار، ولما أكّدت الأنشطة اللاصفّية المنفصلة على نحو كبير الفروق بين الذكورة أو الأنوثة.

مع كل الاعتراضات، ظل بين أطفال الأثرياء عدد كبير من النزعات المشتركة. وابتداء من اكتمال تنصيب الطفولة الحديثة، رسمت النزعات صور عدد من التبدلات الجدية التي طرأت على السبل المتبعة في تعريف الطفولة واختبارها، وعبرت هذه التبدلات الحدود القومية. أعدّت تلك النزعات أيضا لعدد من الأنشطة المشتركة على نحو متعمد، وهذه أيضا عبرت الحدود، وكانت منها الأساليب في اللباس، وكثير من اللُعَب والهوايات، والموسيقى الشعبية. وكان الذي نتج عن ذلك، على نحو جلي، هو توليفة من المحاكاة المتعمدة - ومن ذلك استعمال كراسات تنشئة الأطفال نفسَها، مثل كراس الدكتور سبوك(*) الذي صدر في الولايات المتحدة، وترجم بلغات كثيرة - وظروف الغنى المشتركة والحاجة إلى إعداد مزيد من الأطفال لأدوار العمل الخاصة بالراشدين التي تعتمد على قدر عظيم من التعليم.

لم تكن مصادفة، إذا أخذنا مثالا صارخا على نحو خاص، أن متنزهات ديزني قد حظيت بالنجاح في النواحي الثلاث بأسرها، بوصفها رمزا لالتزام الأسرة بالترفيه والاستهلاك الموجهين إلى الأطفال. أُنشئت هذه المتنزهات في الولايات المتحدة في الخمسينيات. ظفرت النسخة اليابانية منها، وأقيمت بالقرب من طوكيو، بنجاح

(*) هو بنجامين مكلين سبوك (1903 – 1998)، طبيب أطفال أمريكي، حقق كتابه «رعاية الرضيع والطفل» Baby and Child Care، الذي نشر سنة 1946 نجاحا كبيرا. (وله العديد من الكتب الأخرى الناجحة في هذا المجال). تميز الدكتور سبوك بكونه من أوائل أطباء الأطفال الذين درسوا التحليل النفسي لمحاولة فهم حاجات الطفل والأسرة. [المحررة].

سريــع. كانت أوروبا أكثر تصلبــا في ذلك قليلا، لما فيها من مقاومة للثقافة التجارية الموجهــة إلى الأطفــال وللأمركة عمومــا، ومن ذلــك العادات الأمريكيــة في الأكل والوجبــات الخفيفة؛ لكن ديزني الأوروبية نجحت أيضا، بعد إدخال تعديلات قليلة عليها، فأصبحت أكبر مقصد للســياح في فرنســا، وأطاحــت بمواقع الجذب الأخرى الأقل تمركزا حول الأطفال مثل نوتردام واللوفر.

اشتمل إكمال نموذج الطفولة الحديث على بعض التهذيبات الإضافية وكثير من النتائج الإضافية. من المهم أن نتذكر كيف أن تنصيب بعض سمات الطفولة الحديثة الجلية على نحو ظاهر إنما حدث في عهد قريب، حتى في أماكن مثل المملكة المتحدة والولايات المتحدة.

كانت مظاهر العمــل الباقية هدفا جليا، مع اهتمام خاص بالآثار المتخلفة عن اتــكال الطبقة العاملة على عمالة الأطفــال في دعم الأسرة، وإلى جانب ذلك ما عند بعض قطاعات الأعمال من رغبة مســتمرة في اغتنام هذا المصدر للعمالة الرخيصة. لقــد مُررت القوانين الأساســية التي تتعلــق بعمالة الأطفال في أثناء القرن التاســع عــشر في البلــدان الصناعية، بيد أنه قد بقي الكثير مــما ينبغي فعله. مثال ذلك أن العقــود التي تقدمت ســنة 1900 والتي تلتها قد شــهدت ذروة عمالة الأطفال في الولايــات المتحــدة، من جهة الأعــداد المطلقة. في ســنة 1890، كان في العمل نحو مليون طفل بين العاشرة والخامســة عشرة (12 في المائــة من العدد الإجمالي)؛ وفي ســنة 1910، بلغ العدد ذروته، فكان يستخدم رســميا نحو مليونين (18 في المائة)، من غير أن يحســب في هذا العمالة المســتمرة في المزارع. كان رأي الطبقة الوسطى قد استقر على أنه لا ينبغي الجمع بين العمل والأطفال، وعلى هذا فإن الإحصاءات، التي أذيعت على نحو واســع، قد اســتثارت - على نحو متوقع - مبادرات إصلاحية جديدة. شــكلت «اللجنــة الوطنية لإصلاح عمالة الأطفال» في ســنة 1904، وظلت الصحف طوال ما يزيد على عقدين من الزمان تنشر قصصا عن سوء المعاملة. كانت البؤرتان التوأمان هما الضرر الواقع على صحة الأطفال في معامل السخرة أو المعامل ذات المــواد الكيميائية، والعوائــق في وجه التعليم المــدرسي الصحيح. كذلك بدت الأخطار الأخلاقية كالســيف المصلت، مع تعرض العمال الأطفال للاستغلال الجنسي أو لشَرَك الأنشطة الإجرامية في الشوارع. لقد أدلى كثير من الأطفال الذين سبق لهم

العمل بشــهادات عما لقوه من ســوء المعاملة. بحسب الإصلاحيين، ينبغي للأطفال أن يستمتعوا بحق الحماية من العمل، حتى العمل في المزارع، وأن هذا الحق يعلو على ما للوالدين من سلطات لتنظيم هذا الجانب من الطفولة.

كان هناك جدل بالطبع. كثيرا ما دافع أرباب قطاعي الأعمال والزراعة عن عمالة الأطفــال. لقد أتوا بشــواهد عن المنافع الأسرية ومنافــع التدريب وحماية الأطفال أنفسهم من رذيلة البطالة. لكن عمالة الأطفال أخذت في التراجع بالتدريج، بتوليفة مــن التغيرات في الصناعة، ومن القوانين مثل فــرض التعليم، ومن قرارات للوالدين أنفســهم. كذلك كان للتقانة نصيب: مثال ذلك أن الصبيان الذين كانوا يتولون نقل الرسائل في المدن قد حلت الهواتف محلهم على نحو متزايد، بينما خفضت الأدوات المنزلية من الحاجة إلى خادمات في ســن المراهقة. بحلول سنة 1920، هوت النسبة المئوية للأطفال، من فئة 10 ســنوات إلى 15 ســنة الذين استخدموا رسميا إلى 8 في المائة. وبحلول سنة 1940، هبطت إلى مجرد 1 في المائة.

كانت هناك بعض الاســتثناءات المثيرة للاهتمام. مثــال ذلك أن ملاك الصحف قــد حاججوا بأنه لا تزال الحاجة ماســة إلى قيام الصبيــان بأعمال التوصيل - وهذا أمــر مثير للســخرية، بالنظر إلى الصوت العــالي للصحف ودورهــا في تلك الحملة الكبرى. لقد حمّلت رســالتها على دعوى تدريب الأطفال على العمل وعلى مهارات قطاع الأعــمال، وقد وافق على ذلك كثير من الوالدين، ومنهم الوالدون من الطبقة الوســطى، وداموا عــلى ذلك بضعة عقود أخــرى إلى أن أُبطلــت الحاجة إلى هذه الوظائــف، أيضا، بخدمات النقل التي يتولاها الراشــدون. كذلك أفلت من التنظيم التام اســتعمالُ الأطفال الذين ينجبهم عمال المــزارع النازحون، وهم جميعا تقريبا مــن الأقليات أو الأجانــب. كان لايزال بضع مئات الآلاف مــن الأطفال يعملون في الزراعة الأمريكية بحلول ســنة 2001، ولم يكمل برنامج المدرســة الثانوية سوى 55 في المائــة من الأطفال النازحين العاملين. لكن، على نحو إجمالي، في الولايات المتحدة وأوروبــا الغربية بحلول الثلاثينيات، وفي اليابان بحلول الخمســينيات، لم يقع خلطٌ بين الأطفال والعمل الرســمي. لبعض الوقت، حُــددت الطفولة المعفاة من العمل بسن 15 ســنة وما دونها، لكن التعليم المدرسي أصبح بالتدريج إلزاميا إلى سن 16- طبقت أوروبا الغربية هذا التمديد في الخمســينيات - مع مد نطاق اليوم والســنة

الدراسـيين، وهذا ما خفض فرص العمل لأكثر الأطفال، إلى نهاية المدرسـة الثانوية على أقل تقدير.

أكملت هـذه التغيرات، بدورها، إعـادة تعريف الطفولـة اقتصاديا. لقد كان الأطفـال التزامـات، لا أصولا. الأسر التـي لم تدرك هذا قبلا، لم تقـدر على اجتناب هـذه النتيجة بحلول الربع الثـاني من القرن العشرين، ولقد أتى ذلك بدعامة أخرى من دعامات تراجع معدلات الولادات. مما يكشـف الكثير من أن الكسـاد العظيم الـذي حدث في الثلاثينيات، وكان له أن يشـجع على مزيـد من الاتكال على عمالة الأطفال بالنظر إلى تهاوي الأجور والبطالة الواسـعة في صفوف الراشـدين، قد كان لـه أثر مضـاد: لقد هبطت معدلات الولادات إلى أدنى مسـتوى لها بسـبب إدراك الأسر أنها لن تتحمل تكلفة أكثر من نسـخة أو نسـختين من الطفل الحديث. كان لتغـيرات أخرى علاقة بهذه النقلة الجديدة. بـين الثلاثينيات والأربعينيات، طورت أكـثر المجتمعات الصناعية صناديـق تقاعدية جديدة - في الولايـات المتحدة، كان نظام «الضمان الاجتماعي»، الذي بدأ يسـهم في مجال التقاعد في الأربعينيات. كان الأثـر الحـادث عن هذا هو خفض اعتماد المسـنين على أولادهـم كمصادر للدعم الاقتصادي؛ في الولايات المتحدة، مرة أخرى، كان المسـنون في الثلاثينيات قد جعلوا في حسـبانهم أنهم متى عجزوا عن الاسـتمرار في العمل كان رجاؤهم الأكبر هو في أولادهـم، تحول الأمر بحلول الأربعينيـات إلى الاتكال على الحكومة. لقد كان ذلك دافعا آخر إلى خفض معدل الولادات وإلى إكمال إعادة تعريف الطفولة - بل الرشد المبكر- بعيدا عن العمل.

لقد بقيت شـذوذات وترددات قليلة. بحلول السـتينيات، بدأت فرنسا وبعض الدول الأوروبية الأخرى تجاربها على توليفة من العمل والمدرسة لعينة من الأطفال من سـن 15 سنة فما فوقها. كانت الحجة في ذلك أن التدريب الميداني على العمالة اليدوية - والأحسـن أن تكون عمالة يدوية ذات مهارة - إذا قُدِّم لنحو ربع جميع الأطفال الذين أتوا في أسفل سلم الاختبارات الأكاديمية، فإنه يضمن أن تكون مرحلة البلـوغ منجزة اقتصاديـا، إذا مُزج بشيء من التعليم المدرسي. أنعشـت برامج من هـذا النوع، بجوهرها، فكرة العمل تحت التمريـن، وإن كان ذلك لمنفعة الفرد لا الأسرة التـي هو منها. بعبارة أخرى، كان لنمـوذج الطفولة الحديث أن يعدَّل، من

أجل أقلية من الأطفال، وإن كان ذلك فقط في أواسط المراهقة، حين يظهر أنه يمكن ضمان مسـألة المقدرة على مزيد من التعليم المدرسي. بالطبع، عند بلوغ السادسـة عشرة، وفيها يصبح من المسموح قانونيا ترك المدرسة كليا، فإن أقلية من الأطفال، أو والديهم، قد أخذوا هذا القرار بأنفسهم، علما بأن هذا العدد قد تضاءل بثبات بعد أن أصبح الدوام في بعض صفوف المدرسة الثانوية على أقل تقدير هو الأمر المتعارف عليه والمقبول على نحو متزايد، وبعد أن أصبح من الواضح أن فرص الراشـدين قد تحسنت تحسنا عظيما بحيازة شهادة من مدرسة ثانوية أو ما فوق.

بحلول الثمانينيات، بدأ عدد متنام من الأطفال الأمريكيين الأكبر سنا يعملون في سن الـ 17، في وظائف بدوام جزئي بعد المدرسة أو في الصيف. في المبدأ، كانت التزاماتهم بالعمل ذات مرتبة ثانوية بالنسـبة إلى اهتمامهم بالمدرسـة، وإن نتج عــن ذلــك صراع في كثير من الأحيان، إذ كانت الوظائف وسـواها من الأنشـطة تشـغل عن المدرسـة وواجباتها، وتترك المراهقين متعبين غـير مركزين. كان هذا الأمـر إحياء لتعريفات الطفولة المؤسسـة على العمل الأقـدم عهدا، وإن لم يبلغ حد برامج المدرسـة - العمل التجريبية. كان الأطفال الذين يعملون بعد المدرسة يعملون في الدرجة الأولى من أجل أنفسـهم - لتوفير سلع استهلاكية مثل سيارة، أو للاسـتعانة بذلك على النفقات الجامعية (وهـي، في الولايات المتحدة، مرهقة على نحو خاص) - وليس لعون الأسرة، وإن كان لذلك، بالطبع، استثناءات. كذلك، لم يتخـذ هـؤلاء، في معظمهم، وظائف تعدّهـم إعدادا مباشرا للقيام بأنشـطة الراشدين، فقد كانوا يؤدون غالبا مهام خدمية منخفضة المستوى. ومع ذلك فإن هذا التغيير كان تذكيرا مثيرا للاهتمام بأن الطفولة الحديثة لم يكن تعريفها سهلا دائما، لا سيما في أواسط المراهقة.

بيد أن أكثر النقـاش المتبقي حول الطفولة والعمل إثارة للاهتمام قد تركّز على أعـمال الأطفال في المنزل. في أثناء العشرينيات، سـلم كثـير من المعلقين الأمريكيين بأن المهام المنزلية سـوف تجعل الأطفال نافعين لأسرهـم، وإن لم يأتِ ذلك بدخل، وسـوف تكون عونا على غرس قيمة العمل في الأذهـان. لكن الأعمال الروتينية، في واقع الأمر، تراجعت على نحو ثابت. لقد حلت الآلات محل عمالة الأطفال هنا أيضا - مثـال ذلك أن أفران الغاز قد أبطلت مهمـة تلقيم الأفران بالفحم، وأن الجلايات

قد خفضت من مهــام الجلي، وقللت الأسر الصغيرة من الحاجة إلى مراقبة الأطفال الأصغــر ســنا. بيد أن الأمر قد اشــتمل على أكثر من هذا: كثيرا مــا وجد الوالدون، ولا ســيما عندما بدأت الأمهــات في العمل، أن القيام بالأعمال الروتينية بأنفســهم هو أســهل من تعليم الأطفال ورصدهم؛ كما أن ضغوط الدراســة جعلت الوالدين يتحفظون عن طلب الكثير من أطفالهم. اشتملت أنواع جديدة من النصح للوالدين على تحذير من الاســتغلال - وعلى ما جاء في إحداها: «احرصوا جدا على ألا تثقلوا الطفل بالمســؤوليات». ولقد أصبح الأطفال أنفســهم أكثر مقاومة، ولا ســيما بعد ســن 10 أو عاما 12. ظلت الفتيات أكثر عملا من الصبيان؛ وعمل الأطفال قليلا في البيوت ذات العائل الواحد (لكن العمل كان في أدنى حد متى وجد زوج أم أو زوجة أب). ولقد تراجع العمل بسرعة: في سنة 1976، قال 41 في المائة من كل الطلاب في صف التخرج في المدارس الثانوية الأمريكية إنهم يعملون عملا ما في المنزل كل يوم، ولكن بحلول ســنة 1999 هبط الرقــم إلى 24 في المائة. في كثير من الأسر، حل الآباء محل الأطفال في موقع المساعد المنزلي الأول للأم. هنا، أيضا، ازداد الفصل بين العمل والطفولة بطرق غير متوقعة.

لم يشكل أي من هذه التغيرات مشكلة كبيرة، ولكنها أدت إلى شيء من الحيرة. إن كثــيرا من الوالدين، مع قبولهم بالمدرســة كمســؤولية كــبرى للأطفال، قد ظلوا يشــعرون بشيء من الحنق لقلة ما يقدمه الصغار من عمل، وتساءلوا عن التزامهم نحــو الأسرة. من وجهة نظر الأطفال، اقتضى مزيد من الإبعاد عن العمل مزيدا من الإبعاد عن الرشــد أيضا. من جهــة الذين تماهوا مع التعليم المــدرسي راغبين، كان لهــذا الأمر أن يمــر من غير أن يُلحظ. بيد أن بعض الأطفال أنفســهم قد تســاءلوا بوضوح متعجبين عما هي غايتهم، وكان لهذا، بدوره، أن يســهم في المشــاكل بشأن الهويــة والمعنى التي كثيرا ما تضمنتها الملاحظــات حول أمر الأطفال المعاصرين في المجتمعات الغنية.

كان أجلى نظير لتراجع العمــل هو زيادة التعليم المدرسي. لقد رأينا أن التعليم المدرسي قد أصبح تجربة شاملة، وامتد نطاقها بعد ذلك إلى المراهقة، بل إلى ما جرت العادة على الاعتراف به من الرشد المبكر. في الخمسينيات، كانت أقلية ملحوظة من الأطفال في البلدان الصناعية لاتزال تترك المدرســة الثانوية قبل التخرج - ولا ســيما

الصبيان، الذين وجدوا أن الحصول على وظائف أيسر لهم منه بالنسبة إلى الفتيات المراهقـات، والذين كانت ثقافتهم، في بعض الأحيـان على أقل تقدير، أكثر مقاومة للتعليم المدرسي في كل الأحوال. لكن بحلول سـنة 1960، هبط عدد الأطفال الذين لا يكملون المدرسـة الثانوية هبوطا شديدا؛ لقد أصبحت المدرسة الآن مكافئة ليس للطفولـة فقط بـل للمراهقة. في كل مكان من العالم الصناعـي، تزايد أخيرا الدوام في المـدارس ما بعد الثانوية أيضا. تولـت الولايات المتحدة الزعامة في هذا، فبحلول السـبعينيات كان يداوم في كلية معينة ما يزيـد على نصف أصحاب الفئة العمرية المناسـبة على أقل تقدير. بحلول التسـعينيات، كانت تيارات مشابهة لذلك تؤثر في أوروبـا الغربية وكندا واليابان، وفيها لم يعد التعليـم العالي وقفا على أهل النخبة. كان 40-50 في المائة من أصحاب الفئة العمرية المناسـبة للجامعة والمدارس الفنية المتقدمة يداومون في إحداها. وعلى غرار ما سبق في المدارس الثانوية، تفوقت النساء على الرجال في العدد، بنسبة 45 - 55 في المائة أو تزيد. دفع انتشار توقعات الدراسة الجامعية وخبراتها انتشـارا بينا بمرحلة الشـباب، وبقدر ما من التبعية الاقتصادية (للأسرة أو الدولة أو كلتيهما)، إلى سـنوات متأخرة من العقد الثالث من العمر عند الجنسين، مما أخّر الرشد التام. لقد فتح مجال المعادلة الحديثة، الطفولة = التعليم المدرسي، لابتكارات إضافية.

أضف إلى ذلك أن كثافة التعليم المدرسي قد تغيرت أيضا، في مسـتويات شـتى، والسـبب في ذلك جزئيا هو اتسـاع نطـاق التعليم المدرسي نفسـه. مثال ذلك أنه في القرن العشرين فقط صارت الدرجات والتقارير المدرسـية ممارسـة معيارية في المدارس الأمريكية؛ كان السائد قبل ذلك هو إجراءات فضفاضة قوامها إما النجاح أو الرسوب. لقد أُدخلت اختبارات جديدة ووسِّع نطاق القديم منها. أُدخلت اختبارات «مجلـس الكلية» في أوائل القرن العشرين كوسـيلة لفرز طـلاب المدارس الثانوية مـن أجـل الدخول إلى كليات النخبة. لقد اتسـع نطاقها وتأثيرها اتسـاعا ثابتا، إلى أن أصبحت في أوائل القرن الحادي والعشرين نوعا من شـعائر العبور لأكثر أطفال الطبقة الوسطى، وبعضهم قد قدمها بضع مرات، بعد أخْذِ دروس مكثفة، في مسعى إلى زيادة مجموع الدرجات. لقد اتخذت الاختبارات في أوروبا واليابان صورة مبالغا فيهـا على نحو أكـبر. كانت الاختبارات وتقارير المعلمـين عونا على فرز الأطفال في

مسـارات مختلفة من المرحلة المتوسـطة في نحو سـن -11 وكان الأطفال الذين لا يفلحون في دخول المسار الذي يمهّد للكلية يجدون صعوبة في إعادة تحديد المسار. انتظرت طائفة أخرى من الاختبارات إكمال المدرسـة المتوسـطة، كأساس للدخول إلى الكليـة والتخصص. لقد تفاوتت الأسـماء - فـكان في بريطانيا المسـتويان A & O، وفي فرنسـا البكالوريـا - بيد أن الضغـط كان هائلا. ليس مـن العجيب أن إكمال الاختبارات كثيرا ما أطلق احتفالات شـبابية ضخمة، فيها مسـيرات في الشوارع، بل شـغب في باريس؛ أو عربدات للسـكرانين، مكملة بأزياء خاصة، في روسـيا ما بعد الاتحاد السوفييتي.

اشـتمل التغيير هنا أيضا على المرور بكلّ من مدركات الطفولة والرشد وهمومهما. لقـد أصبح تشـجيع الأداء المدرسي جانبا حيويا من التربيـة. كان لهذا أن يعني اختيار أنشـطة صيفية معززة على نحو مناسـب، أو تدليل الأم للأطفـال وإطلاق العنان لهم للتنفيس في المنزل الياباني. إن إخضاع الأطفال الصغار لاختبارات الذكاء، لمعرفة إمكاناتهم وتحديد العلاج الممكن، كان طريقة جديدة لتقييم الذرية. مع انتشـار طرائق الإلقاح الصناعي للوالدين العقيمين، أصبح النجاح المدرسي يشكل معايير اختيار المتبرعين (وكان إلى جانبه الطول وحسن الطلعة والخلفية الدينية، وإن كانت الأخيرة غير ذات صلة من الناحيـة الوراثية). كان من المفضل أن يكون المتبرعـون بالنطفة أو بالبويضة من ذوي الذكاء العالي ومن حملة شـهادة جامعية عليا. لا ريب في أن المجتمعات بأسرها كانت تُكـبر أن يكـون في الأطفال قدرٌ من الذكاء، لكن ذلك أصبح الآن هاجسـا فعليا ينتاب بعض الراشدين، وعنصرا من عناصر فهم الأطفال لأنفسهم أيضا.

بالنظـر إلى هـذه التغـيرات، لم يكن عجبـا أن ظهر شيء من الـتردد. كان من المعهـود للوالدين من الطبقة العاملة البريطانيـة أن يتكلموا على الأمل في النجاح المـدرسي، متطلعين إلى أن يصبح أولادهـم أطباء أو محامين، لكنهم في واقع الأمر لم يفعلوا لمعونة صغارهم إلا القليل، وكثيرا ما أظهروا قلة اهتمام بالنتائج أو الأنشطة المدرسـية؛ بعبارة أخرى، لقد أثرت الفروقات الطبقية في معادلة المدرسة - الطفل. في الولايـات المتحـدة حيث كان للريبة من العقلانية تاريـخ طويل، كان القلق من تأثير المبالغة في التعليم المدرسي على سـلامة الأطفال ينتاب حتى الطبقة الوسطى. طوال النصف الأول من القرن العشرين، مارست زمر كثيرة من الوالدين ضغطا على

الحكومات ونجحت في الحد من الواجبات المدرسية المنزلية أو حظرها، لأنها تفرض إجهـادا ليـس في محله. في مرحلة تاليـة من القرن، تناولت الحـركات التي عملت لمصلحة مزيد من تقدير الأطفال لأنفسـهم، إلى جانب التضخم الواسـع في متوسط الدرجات، مخاوف مماثلة لما ذكرنا. لقد حظرت بالفعل أساليب التخجيل التقليدية، مثـل عرض الدرجات علانية. ذهب كثير مـن المدارس إلى ما هو أبعد من ذلك لكي توفر لأنواع مختلفة من الأطفال شعورا بالمكافأة. مثال ذلك تكليف المدارس الثانوية أكـثر من طالب واحـد بإلقاء خطبة التخرج - بلغ عددهم 16 في إحدى الحالات في كاليفورنيا - مراعاة للمشـاعر خُصِّصت المكافآت للدوام والمواطنة لدعم فئة أخرى من الطلاب؛ شـكلت ملصقات السـيارات التي كتب عليهـا: «لدي طالب شرف في ابتدائية كريستفيو»، صورة أخرى من صور بروز حركة تقدير الذات. بينما كان دور الولايات المتحدة مركزيا لحركات تقدير الذات، فإن المنظومات في بريطانيا وسـواها أخذت تتبنى لغة وسياسـات مشـابهة لذلك. كانت أقلمة الأطفال، ووالديهم، من أحوالهم للتركيز على التعليم المدرسي عملا قيد التنفيذ.

إن التبني الشـائع لمعدلات الولادات المنخفضة قد أصبح، ببساطة، حقيقة من حقائـق الحياة في المجتمعات الصناعية. في كل مـكان، في النموذج الحديث، كانت الأسر الأكثر فقرا تنزع إلى أن تكون أسرا أكبر مما في الطبقة الوسطى، وفي هذا انقلاب بالنسـبة إلى الأنسـاق قبل الحديثة، مما يعكس اختلافات في المعرفة بطرق تحديد النسـل، وببعض الاعتقادات المتبقية عـلى الأرجح، والتي تذهب إلى أن الأطفال قد يكونون نافعين اقتصاديا في الطرف الأدنى من السـلم الاجتماعي. في بعض الأحيان، شـجعت الحكومات أيضا الأسر الأكبر حجما. مثال ذلك أن فرنسـا قد تبنت سياسة تحبذ معـدلا عاليا للولادات في الثلاثينيات، ومرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية، لانشغالها بأمر مستويات السكان المنخفضة؛ التي كان لها، مع أشياء أخرى، أن تؤثر في القوة العسـكرية. لقد اشـتمل جزء من دولة الرفاه الفرنسية على دفعات مالية للوالدين الذين ينجبون أكثر من طفلين؛ قدمت بعض الحكومات الأوروبية الأخرى برامـج مماثلة لذلـك، وإن كانت أصغر حجما. لعل النتيجـة تمثلت في الإبطاء من نزعةِ خفضِ معدل الولادات، بيد أنها لم توقفها. لم يمكن للحكومات، في المجتمعات الصناعية على أقل تقدير، أن تنظم بالفعل قرارات الوالدين بشأن حجم الأسرة.

إن أكبر شذوذ من الشذوذات في نسق المعدل المنخفض للولادات إثارة للاهتمام قد اشتمل على تعاظم سريع في عدد الأطفال من الأربعينيات إلى أوائل الستينيات، كانت القيادة فيه للولايات المتحدة، أما أوروبا الغربية فكانت الأصداء فيها أضعف. طوال أكثر من عقد من الزمان، سعت أسر الطبقة الوسطى إلى إنجاب ثلاثة أطفال أو أربعـة، وكثيرا ما كان ذلـك بفوارق زمنية صغيرة، أمـا أسر الطبقة العاملة فقد تسـاهلت في أمر خفض معـدل الولادات عندها. لقد عكس بعض هذه الحماسـة لمزيد من الأطفال رغبة مكبوتة بسـبب الكساد، لما عجزت الأسر عن بلوغ أهدافها المرغوبـة؛ ومثـل بعضها ردود أفعال على الحرب العالميـة الثانية. لقد مكن الرخاء المتنامـي بعد الحرب كثيرا من الأسر من التفكير في إنجاب مزيد من الأطفال، فكان ذلـك وقودا لتعاظم سريع في قيام الضواحي حول المدن، والتي مثلت بدورها دعما لنموذج مثالي لأسرة أكبر حجما. شـجعت العروض التي قدمتها وسـائل الإعلام على الأسر المسـتقرة والأمومة الحارة، وصب كثير من النسوة طاقة جديدة ليس فقط في رعاية نسلهن، بل في خدمة اللجان المدرسية وسوى ذلك من الوسائط التي صممت لمسـاعدة الأطفال. لقد أحـدث التعاظم السريع في عدد الأطفال ازدحاما مدرسـيا وتوتـرات أخرى كان لها دور في انفجار الاحتجاجـات الطلابية في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، في الستينيات.

بيد أن التعاظم السريع نفسه في عدد الأطفال قد زال في 15 سنة. لقد تنافست تكلفة الأطفال الإضافيين مع الأهداف الاسـتهلاكية الأخرى. وتعب كثير من النسوة، عـلى نحو واضح، من ذلك القـدر من واجبات الوالدية ومـن العزلة في الضواحي. إن الانطلاقة الرائدة لإحياء الحركة النسـوية الأمريكيـة، أي كتاب «اللغز الأنثوي» Feminine Mystique (1963) لمؤلفتـه بيتي فريدان، قد هاجمت مباشرة نموذجَ الأسرة في الخمسـينيات بوصفها تشـويها لحياة النسـاء. إن تدفق الأمهات إلى قوة العمالـة قد تنافس مباشرة مـع معدل الولادات، فكانت الغلبة للعمل. اسـتأنفت معـدلات الولادات نزعتها نحـو الانخفاض. بحلول سـنة 2000، كان لبضعة بلدان أوروبية، على رأسـها إسـبانيا واليونان، معدلات للـولادات منخفضة جدا، حتى إلى درجة أن مستويات السكان قد بدأت تنخفض، لولا قدوم المهاجرين. مع ما وقع من انقطاع مثير للاهتمام، فلقد ظهر أن النموذج الحديث قد ثَبَت فعلا.

بالطبع، كانت لمعدلات الولادات المنخفضة عواقبها، فمدت من نطاق التأثيرات التي كانت قد برزت في النقلة الديموغرافية التي حدثت في القرن التاسع عشر. بذل كثير مــن الوالدين عناية إضافية بأطفالهم، على الأقل مــن جهة الهدايا والترتيبات الدقيقــة لتعزيــز النجاح المدرسي. في هذه الجوانب، شــجعت معــدلات الولادات المنخفضة على قدر ما من مميزات الطفولة الغنية الأكثر وضوحا. كان معنى تصاغر حجم الأسرة أن يصبح للأطفال أنفسهم عدد أقل من الإخوة الذين يتفاعلون معهم؛ كان لهذا أن يروج لمزيد من الاتصال المباشر بالراشــدين (أعني الوالدين أو المشرفين الآخريــن) في الطفولة الباكرة، ولقد شــجع، قطعا، التعويــل المتزايد على الأصدقاء الذين هم من السن نفسها، وأكثرهم يلتقون في المدرسة. لقد أبلغ كثير من الوالدين عن مخاوف متزايدة حول التنافس بين الإخوة، إذ تَحارب الولَدان - وهذا العدد هو المتوســط لكل أسرة - على نيل عناية الوالدين، علــما بأنه ربما فاقت تلك المخاوف المشــكلات الفعلية. كان من الجــلي على نحو أكبر أن أهميــة الإخوة قد تراجعت منزلتها في حياة الأطفال لسبب بسيط هو أن عددهم صار أقل من قبل.

من جهــة أكثر عمومية، دفعت معدلات الــولادات المنخفضة نحو إعادة تحديد البنى العمرية بســبل كان لها أن تؤثر في مقاربــة المجتمع للطفولة. لما كان التعاظم السريــع في عدد الأطفال أمرا اســتثنائيا وجيزا، فقد تراجعت نســبة الأطفال المئوية بسرعــة من العدد الإجمالي للســكان في العالم الصناعي، وفي الوقت نفســه، وبفضل الازدياد في متوســط العمر المتوقع، فإن النســبة المئوية لكبار السن قد ارتفعت. من المفهوم أن مســتويات جديدة مــن العناية بدأت تُكرَّس للمســنين، من خلال برامج الضــمان الاجتماعي والبرامج الطبيــة. ومع أن هذا الأمر لم يحــرف بالضرورة وجهة السياســة المتبعــة عن العناية بالأطفــال، فلربما كان له ذلك الأثــر. مثال ذلك أنه في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين هبطت النسبة المئوية للمسنين تحت خط الفقــر في الولايات المتحدة، والفضل في ذلك هو، فوق كل شيء، لبرامج التقاعد، بينما ارتفعت نسبة الأطفال في هذه الفئة. في نسق ذي صلة، استفاد الأكبر سنا من العملية السياســية، بمعــدلات عالية من المشــاركة في التصويت؛ إزاء ذلــك، أصبح المواطنون الأصغر ســنا أقل احتمالا، على نحو متزايد، أن يصوتوا، ولعل الســبب في ذلك هو أن القضايا السياسية البارزة لا يظهر أنها تؤثر فيهم. بيد أن هذا التفاوت في التصويت قد

أسهم في تعميق الفجوة بين الراشدين والأحداث من جهة السياسات المتبعة.

المفارقة، إذن، أن معدلات الولادات المتهاوية كان لها أن تزيد من عناية الوالدين بالأطفـال فرادى، بينـما قيدت ما هو متاح للأطفال في طـول المجتمع وعرضه من موارد ومن اهتمام سـياسي. برز هنـا تحد واضح للمجتمعـات الصناعية في القرن الحادي والعشرين.

ختامـا، مع اسـتكمال المجتمعـات الصناعية تنفيـذ النمـوذج الحديث، فقد اسـتمرت بأسرها تمر بانخفاضـات سريعة في معدلات وفيات الأطفال، لا سـيما في مرحلـة الرضاعة. لم يكن ليوقف هذا النسـق، لمدة وجيزة، إلا المرور فعليا في حالة حـرب أو كوارث أخـرى. فوق هذا، كانت هنا ناحية بقـي فيها الالتزام الاجتماعي قويا: لا يجـوز أن يموت الأطفال، والمجتمعات الصناعية قد صبت موارد عظيمة في سبيل بقاء الأطفال أحياء.

إن الـثراء المتنامي والبرامج الحكومية الجديدة قد وسّـعا من نطاق الجهود في ميدان صحة الأطفال بما يتجاوز كثيرا الجهود لاستئصال وفيات الأطفال. لقد تنوعت البرامج الخاصة، فبقيت الولايات المتحدة على حدة في ذلك، بيد أن أكثر الحكومات في المجتمعات الصناعية المتقدمة قد طورت غطاء من الرعاية الصحية الشاملة عملَ على توسيع الخدمات الصحية المتاحة للأطفال. كذلك وصلت الاستثمارات الضخمة إلى الأطفـال ذوي الاحتياجات الخاصة، فلم توفـر العناية الصحية فقط، بل الدعم المدرسي للأطفال ذوي الإعاقات المتنوعة.

لم يكن مستغربا ظهور شذوذات ومشكلات، حتى مع اتباع الجميع تقريبا هذا التوجـه. فبينما هبطـت معدلات وفيات الأطفال عند كل الفئات، فإن اللامسـاواة الاجتماعيـة قـد ظهرت بوضـوح. كثيرا مـا كانت معـدلات وفيـات المواليد عند الأمريكيين الأفارقة تبلغ ثلاثة أضعاف مسـتويات وفيات المواليد عند البيض، وذلك بسبب الفقر، وقلة الوصول إلى الرعاية الطبية، وكثرة حمْل الفتيات في سن المراهقة، وهـو حملٌ فيـه مجازفة (كذلك عـانى الأمريكيون الأفارقة من معـدلات عالية، لا تتناسـب مع أعدادهم، من الوفيات بسـبب العنف في مرحلة المراهقة. من ناحية أخـرى، لقد تخوف بعض المراقبين من إبقاء بعض الأطفـال على قيد الحياة بكلفة باهظة، أو مع احتمال واضح أن يكونوا بصحة رديئة عند بلوغهم الرشـد. لا شك في

أن الالتـزام المنتشر ببقاء الأطفال أحياء قد جعل القبول بالوفيات أمرا أشـد عسرا. في الولايـات المتحدة، كان قليلا عدد الزيجات التي تسـتمر بعد وفاة طفل، وذلك على العكس من الأمر في القرن التاسـع عشر، لما كان يعتقد أن الحزن يقرب الأسرة بعضهـا إلى بعض؛ لقد أصبح من الصعب تحمُّل الإحسـاس بـأن يكون المرء حاملا لوزر وفاة طفل. أصبح من الذائع اللجوء إلى اختصاصيين نفسيين للتعامل مع حزن الأطفـال الذين يقتربون من الموت، مثل وفاة زميل في المدرسـة. لقد حظيت قضية العلاقـة بين الطفل والموت برمتها بعناية جديـدة. في العشرينيات، حاجج كثيرٌ من الخبراء الأمريكيين قائلين بأنه ينبغي إبعاد الأطفال عن الحزن والجنائز، ومع أن هذا الموقف قد خفف منه قليلا بحلول السبعينيات، فإن الانشغال بالأمر قد استمر. لقد ذهبت إحدى مدارس الحضانة إلى حد الحظر لذِكْر «صَبْغ»(*) بيض الفصح (لا بأس بذكـر «تلوين») لئلا يُصدم الأطفال باللفظ. ولقد حاجج كثير من الخبراء قائلين بأن الأطفال المعاصرين لم يعودوا يفهمون الموت، والسـبب هو قلة احتمال أن يشهدوا هذه التجربة مباشرة. لقد كانت المضامين النفسية للطفولة مثيرة للفضول.

لقد ظهـرت، بالطبع، بعض المشـكلات الجديـدة. حملت المعـدات الحديثة للأطفـال أخطارا جديدة. كان للأدوات المنزلية أن تكون خطيرة، وكذلك السـيارات، لم يكـن غريبـا قيام حملات كبيرة ابتـداء من العشرينيات لتوفـير الأمان للأطفال؛ اشـتمل كثير منها على وضع قدْر متنام من المسـؤولية على الوالدين، وإن لم تلبث أن دخلت الميدان أيضا وسـائل أمان جديدة مثل حزام الأمان وغطاء القناني «المنيع عـلى الأطفال». لقد ذهبت الولايات المتحدة بعيدا على نحو خاص؛ إذ فرضت على الأطفال قيود أمان، كان فيها استثناء واحد كاشف عن أمر مهم: إن اعتماد الأمريكان على السـيارة قد شـجع على اختبارات سياقة سهلة نسـبيا، وفي سن صغيرة نسبيا، بالمقارنة مـع أوروبا أو اليابان. لقد غدت السـياقة والمراهقـة شريكتين حميمتين في الولايـات المتحدة، مع معدلات كبيرة للحوادث صارت تمثل أكبر أسـباب وفيات المراهقين؛ مقابل ذلك، حظرت أكثر الدول الأوروبية السياقة قبل سن 18. لقد أبعد المـوت والطفولة أحدهما عـن الآخر، في البلدان الصناعيـة في أوائل القرن الحادي والعشرين، على نحو لم يشهده التاريخ الإنساني قبلا، بيد أنه قد بقيت قضايا.

(*) النطق بهذا اللفظ بالإنجليزية dyeing مماثل للنطق بلفظ «يموت» (dying)). [المترجم].

انضمت نزعات ثلاث جديدة، أو معززة، إلى التغيرات في الطفولة في المجتمعات الصناعية المتقدمة في القرن العشرين. اشـتملت النزعة الأولى على صور جديدة من عدم الاسـتقرار الأسري، ولا سـيما الارتفاع السريع في معدل الطلاق. بحلول أواخر القرن العشرين، كان 50 في المائة من جميع الزيجات الأميركية، و35 من البريطانية، ينتهـي بالطلاق، وهذه هي الذروة بعد ازدياد ظل يطّـرد بضعة عقود. بالطبع، لم يكن عدم الاسـتقرار نفسـه شـيئا جديدا. لقد واجهت الأسر فيما سبق موت أحد الوالديـن أو كليهما، أو فقرا مدقعـا كان يجبر الوالدين على وضع الأطفال في ملجأ. إجـمالا، خفت وطأة هـذه الضغوط على نحو فعلي في القـرن العشرين؛ على نحو خاص، كان عدد الأيتام أقل من قبل. لكن مما لا ريب فيه أن تفكك الأسرة المتعمد قد أثر في كثير من الأطفال تأثيرا معاكسـا، إذ وجدوا أنفسـهم عالقين في صراع بين الوالديـن، وتضرروا أحيانا اقتصاديـا. حابت النزعات القانونيـة حضانة الأم طوال معظـم القرن، وإن حدث قـدر من تعديل الكفة بعد السـبعينيات. كان للمعارك المريـرة حول أمر الحضانة أن تزيد مـن العبء على كاهل الأطفال. لقد أقدم عدد قليل من الوالدين على الطلاق بسبب أطفالهم، ولقد حاجج الخبراء لمدة من الزمان قائلين بأن الطلاق خير من الصراع، وهذا الرأي كان موضوع مراجعة في التسعينيات. لكن من الواضح أن كثيرا من الوالدين كانوا يقررون أن سعادتهم الشخصية أهم من بقاء الأسرة مجتمعة لأجل الأطفال، وكان هذا تغييرا ذا مغزى في حد ذاته.

كثـيرا ما عمّق الطلاق والتسـاهل الجنسي المتنامي من ظاهرة الأبوة السـيئة، وإن لم يكـن هذا أيضا جديدا. لقد رفض عدد كبير من الآباء للأطفال غير الشرعيين، وعدد غير قليل من الآباء المطلقين، أن يفوا بالتزاماتهم المالية تجاه أطفالهم، وأحيانا هجروهـم هجرانا دائما. أتت حكومات مختلفـة بإجراءات جديدة في محاولة منها لفـرض إعالة الأطفال، بيـد أن الفجوة بين الآباء وأطفالهم لم تردم. لم تكن هذه كل قصة أبوة القرن العشرين، فقد كرس كثير من الآباء مسـتويات جديدة من العناية للأطفال؛ أغدق بعض الآباء المطلقين، لشـعورهم بالذنب، الهدايا على الأطفال متى رأوهـم، وهذه علامة أخرى مـن علامات الالتزام الجديد. لقد تفاوت نسـق عدم الاسـتقرار الأسري بأسره وفق الإقليم والطبقة الاجتماعية أيضا؛ كان في فرنسا، وهي علمانية ولكن بتقاليد كاثوليكية، معدلات للطلاق أدنى من بريطانيا، في اليابان، التي

كانت ذات معدلات عالية للطلاق في أوائل القرن، صارت الأسر أكثر تماسكا.

اشتملت النزعة الثانية الجديدة على إعادة النظر بصورة كبيرة في تأديب الأطفال. منـذ أوائل القرن العشرين، ألح خبراء تنشـئة الأطفال الأمريكيون على الوالدين أن يعيـدوا النظر في الأنسـاق القديمة. وفقا للرأي الجديـد، كان الأطفال عرضة للأذى نفسـيا، وكانوا بحاجة إلى أن يعاملوا بحرص. ليس الواجب ألا يكون تخويفهم جزءا مـن التأديـب فقط، بل ينبغي ألا يعرضوا للشـعور بالذنب، لأنـه يضر باحترامهم أنفسـهم، ويفضي إلى مشـكلات تأتي لاحقا. إن ظهور البحث النفسي، وعلم النفس كمهنة، قد ولّد مسـتويات مثيرة جديدة من النصح للوالدين، وأخذ كثير من هؤلاء يعتقدون أن غرائزهم قد تكون معيبة، وأن الاتكال على كراس في تنشئة الأطفال، أو عـلى مجلة مخصصة للوالديـن، هو أمر لا مفر منه. هنا فاضت بسرعة، مرة أخرى، نزعـة أمريكية على أجزاء العالم الأخرى. تباهى الوالدون الحديثون حداثة شـاملة بالتفكير العقلاني مع أطفالهم، أو بإبعادهم عن المواقف التي قد تشجع على السلوك السيئ. لقد بلغت هذه النزعة حدا متطرفا، فصار كثير من الوالدين الآن لا يلجأون إلى التأديب البدني، ولا إلى الصراخ التأنيبي المثقل بالذنب، بل إلى العقاب المسـمى «العَزل» Grounding، أي عزل الأطفال عن نظرائهم وعن متعهم الاستهلاكية مدة من الزمان، والأحسـن أن يكون ذلك من غير إشـارات الغضب الباعث على الشعور بالذنب. من جهة الأطفال، تعلّم كثير منهم أن تحذيرهم لوالديهم من أنهم يحدثون شعورا بالذنب هو وسيلة سليمة من وسائل تصويب سلوك الوالدين.

بالطبـع، لم يؤمـن كل الوالدين بأكثر الخـبرات جِدّة. بيد أنه قـد أعيد النظر على نحو واسـع في التأديب البدني. تُقدم إيرلنـدا حالة مثيرة للاهتمام. لقد أوصت المحاكم القانونية بالعقاب الجسـدي، وتسـامحت الأسر معه، واسـتعمل استعمالا فعـالا في المـدارس في النصف الأول من القرن، من دون كثـير من الجدل حوله. في أحد الصفوف، بلغ الأمر أن ضُرب الطلاب على الأيدي بحزام لتدني علاماتهم. بحلول الثلاثينيات، ارتفعت بعض الأصوات في وجه التطرف في سـوء المعاملة، واستدعيت قلة من المعلمين للمسـاءلة. نشأ مزيد من النقد بحلول أواخر الأربعينيات. شكلت مجموعة من الوالدين في دبلن جماعة حماية للأطفال من أجل إبراز سـوء المعاملة المدرسـية للعلن. حدّت قوانـين جديدة مـن العقوبات البدنية في الخمسـينيات

والستينيات، وإن استمرت أصوات تؤيد الحاجة إلى الصفع. أخيرا، في سنة 1982، حظر العقاب البدني في المدارس حظرا تاما؛ صار الطرد المؤقت أو الدائم هو أشد العقوبات المدرسية. أصرت القرارات الحكومية على أنه ينبغي للمعلمين معاملة طلابهم «باللطف مع الحزم، وأنه ينبغي أن يكون الهدف هو السيطرة عليهم بواسطة ميولهم وعقولهم وليس بالخشونة ولا الشدة». لقد مُنع حتى التهكم أو «الملاحظات التي يحتمل لها أن تقوض ثقة التلميذ بنفسه».

كانت النزعة عامة إلى حد ما. ألح خبراء تنشئة الأطفال، على نحو يكاد يكون متجانسا، على معارضة الصفع ابتداء من العشرينيات. حرمت بريطانيا وولايات أمريكية عدة (وليس كلها) العقاب الجسدي في المدارس بحلول الثمانينيات. بل إن البلدان الإسكندنافية قد حظرت الصفع في المنزل. على نحو أكثر انتشارا، في الولايات المتحدة وسواها، أصبحت تعريفات سوء معاملة الأطفال أكثر صرامة، وصارت الأفعال التي كان يمر عليها سابقا مرور الكرام، مثل الكدمات الشديدة، تُعدّ جريمة. استمر تعرض الأطفال للعنف، بيد أنه تراجع على نحو يكاد يكون مؤكدا، وتغيرت مواقف المجتمع بمعظمه تغيرا حاسما.

لعل الأكثر وضوحا هو أن القرن العشرين قد بنى على ما سبق من نزعات فنصّب الطفل على عرش الاستهلاك. أخذ الوالدون وسواهم يشترون للأطفال كثيرا من اللعب، ابتداء من مرحلة الرضاعة. في أوائل القرن، حذرت قلة من الخبراء من تطويق الأطفال الصغار بالدمى المحشوة، بيد أن كثيرا من الراشدين قد اتفقوا على أن امتلاك ما يحبون هو أمر نافع للأطفال. بحلول العشرينيات، كان يقال للوالدين الأمريكيين أن يستعملوا الأشياء الاستهلاكية كسبيل للرشوة؛ الأطفال الذين يخافون الظلمة يغرون بالدخول إلى الغرفة بقطعة من الحلوى، ويدخلون قليلا قليلا في كل ليلة حتى تغلب لذةُ الاستهلاكِ الرهابَ. أصبحت الأعياد وأعياد الميلاد احتفالات استهلاكية، بل لقد حض الخبراء في العشرينيات على تقديم الهدايا للإخوة في عيد الميلاد، منعا للتنافس. بحلول الخمسينيات، أخذ الوالدون يتولون مسؤولية ضمنية عن ضمان ألا يلحق بأطفالهم الملل. كان الملل، وهو فكرة حديثة على أي حال، يعامل كقضية من قضايا الشخصية: ينبغي تعليم الأطفال، البنات خاصة، ألا يُملّوا غيرهم. بيد أن الملل قد تحول الآن إلى حال المسؤول عنها هو شخص آخر، بدءا من

الوالدين. وعليه، صارت مقولة «أشعر بالملل» شكوى من الشكاوى الشرعية للأطفال.

إن كون الأطفال مستهلكين قد أثار بعض القضايا الجديدة الجلية التي تتعلق بمصادر السلطة والسيطرة. مع تبجُّحِ كثير من الأطفال بإنفاقهم للمال - بدأت ممارسة إعطاء المصروف في الولايات المتحدة في تسعينيات القرن التاسع عشر ثم انتشرت؛ وبالطبع، لقد كسب بعض الأطفال الأكبر سنا المال بأنفسهم - فإن كثيرا منهم وصلوا إلى السلع مباشرة. أضف إلى ذلك أن وسائل الإعلام الجديدة، الإذاعة وبعدها التلفزيون وأخيرا الإنترنت، قد وصلت إلى الأطفال مباشرة، فكانت تقصفهم بكلّ من الصور والإعلانات. لقد تخوف كثير من الوالدين من هذا التفاعل الاقتصادي المباشر مع الأطفال، ودخلت الحكومات أحيانا إلى الميدان للتنظيم، كأن تشجع تصنيف الأفلام وفق مقبوليتها عند الأطفال؛ أو، على مثال ما في السويد، أن تحظر الإعلانات التلفزيونية الموجهة إلى الأطفال. لقد هوجمت المجتمعات الحديثة، على نحو متكرر، بالتحذيرات من الآثار الهائلة للكتب الهزلية والإذاعة والأفلام وألعاب الفيديو، وكانت الحجة الشائعة في ذلك أنها ربما تعرض الأطفال للعنف أو النشاط الجنسي غير المقبول. لا جدال في أن نطاق ما تعرّض له الأطفال والمراهقون، من خلال وسائل الإعلام، قد اتسع على نحو ثابت. لا جدال في أن النزعة الاستهلاكية للأطفال قد ارتبطت بالعنف والنشاط الجنسي، بيد أن مقدار تأثير هذا كله هو أمر مفتوح لشيء من الجدال. لقد وجد كثير من الوالدين أنفسهم منقسمين: مع انشغالهم بما يقابله أطفالهم من مواد، كان عليهم أيضا واجب القيام بالترفيه، وكثيرا ما أحسوا بالذنب إحساسا حقيقيا بسبب عجزهم عن إيلائهم أطفالهم مزيدا من العناية. وعليه، فقد رسخت النزعة الاستهلاكية أقدامها على نحو ثابت، حتى في أفقر قطاعات المجتمعات الصناعية. أصبح امتلاك الأشياء، والرغبة فيها، جزءا مركزيا من حياة الطفل. وأحدث كثير من جوانب النزعة الاستهلاكية عالما للأطفال خاصا بهم، فيه موسيقى ولباس مميزان وغير ذلك من الصفات التي تمثلت قيمتها، جزئيا، في أن الراشدين لم يوافقوا عليها.

إن الصفقة التي عقدت من أجل الطفولة المعاصرة شابهت الصفقة التي نشأت في المجتمعات الزراعية، واختلفت عنها في آن واحد؛ ففي الأخيرة، كان يفترض في الأطفال أن يعملوا، علما بأنه قد أعطيت لهم أدوار خاصة في الأعياد

كتعويض جزئي. في النسخة الراهنة من الطفولة الحديثة، كان يفترض من الأطفال أن يحتملوا التعليم المدرسي، بل كان يتوقع منهم من الوجهة المثالية أن يتفوقوا فيه، علما أنه قد منحت لهم - مقابل ذلك - وفرة من المواد الاستهلاكية وحرية اختيار ليس لهما مثيل.

كان لتقوية النزعة الاستهلاكية عند الأطفال بعض النتائج المنطقية. لقد تغيرت العلاقة بالأجداد. في المجتمع الغربي، أخذ أكثر كبار السن يستبْقون منازلهم لأنفسهم ابتداء من العشرينيات، بدلا من مقاسمة أولادهم الراشدين. بذلك المعنى، كان لتفاعلهم مع أحفادهم أن يتراجع. لقد استمرت بعض الأسر في الاتكال على الأجداد والجدات في رعاية الأطفال، لا سيما متى كان على الأمهات العزباوات الذهاب إلى العمل. بيد أن الصورة السائدة للأجداد والجدات قد تحولت إلى صورة المدللين الاستهلاكيين الذين يجلبون أشياء حلوة لذيذة لأحفادهم، ومعها كثير من المودة الصريحة، ويتوقعون مقابل ذلك تفاعلات مبهجة جدا، ولو أنها كثيرا ما كانت قصيرة الأجل. لقد كان الدور مهما، بيد أنه كان جديدا أيضا.

عند المراهقين، لم تكن النزعة الاستهلاكية مصحوبة بالصور التعبيرية الجنسية فقط، بل بتغيير في النشاط الجنسي، في سائر أرجاء العالم الصناعي. في الولايات المتحدة بدأ الخروج في مواعيد غرامية منذ نحو سنة 1920. اشتملت المواعيد، خلافا للغزل الأكثر تقليدية، على صبي وفتاة ينشدان نوعا من الترفيه الاقتصادي خارج المنزل – الخروج للعشاء، الذهاب إلى فيلم – من دون أن تكون المراقبة النظامية سمة مركزية للقائهما. كان لمستوى ما من التفاعل الجنسي أن يأتي بعد ذلك، أكان ذلك مجرد «العناق» أو «المداعبة» أو «الذهاب في الطريق إلى آخره». من حيث المبدأ، كان يفترض في الفتيات أن ينظمن مستوى النشاط الجنسي، بالافتراض المسلم به بأن لديهن قدرا أكبر من التحفظ الجنسي، وقدرا أكبر، قطعا، من الخسارة عند الإفراط. لم يكن من المعهود أن تفضي المواعيد إلى الجماع، لكن مما لا ريب فيه أن النشاط الجنسي قد ازداد. بحلول الخمسينيات في الولايات المتحدة (وعلى نحو أكبر مما عرف آنذاك، أو منذ ذلك الوقت، تصاعدت معدلات الحمل قبل الزواج، حتى مع حض الفتيات الأكثر احتراما على المحافظة. جاءت الستينيات بوسائل أسهل توافرا لتحديد النسل، لا سيما الحبوب التي قوّت من نزعة النشاط الجنسي المتنامي

عند الذين هم بين وسط المراهقة وآخرها. ليس من ريب في انخفاض سن أول لقاء جنسي، لا سيما عند الفتيات، مع ما كان من اختلافات فردية واجتماعية طبقية. بحلول الستينيات، أيضا، أخذ سن الزواج يرتفع، لا سيما عند الطبقة الوسطى، بسبب سعي النساء والرجال، أيضا، إلى إكمال التعليم ونيل انطلاقة مهنية؛ وزاد هذا فيما لمرحلة الشباب - ابتداء مما بين وسط المراهقة وآخرها إلى أواخر العقد الثالث من العمر - من معنى كمرحلة لشيء من التجريب الجنسي، شجع عليه أيضا أحيانا الشراب أو المخدرات. لقد وفت وسائل الإعلام التجارية بواجبها في تصوير هذا الانطباع من الانغماس الشبابي في اللذات، وبالغت فيه بعض المبالغة.

نشأت تيارات مضادة. تخوفت بعض الناشطات النسويات من أن الشابات، وقد صرن الآن أقل حرية في رفض التقرّبات الجنسية، قد أصبحن يتعرضن للاستغلال، وعارض عدد معين من الأحداث هذه النزعة متعمدين، لأسباب دينية أو شخصية، باقين على عزوبيتهم حتى الزواج. لقد تطورت في الولايات المتحدة، في أثناء التسعينيات، حركة كبيرة تشجع الأحداث على «قول لا» للجنس كما سواه من الرذائل، ولقد ذهب قدر لا بأس به من التمويل الاتحادي نحو برامج تعليمية تخص التبتّل. لم تحظ أدوات تحديد النسل بتشجيع رسمي، لأنها قد تيسر أمر ممارسة الجنس، وإن كان الوصول إليها ليس عسيرا جدا. لقد هبط الحمل في مرحلة المراهقة قليلا، ولكن بقيت مسألة ما إن طرأ على النشاط الجنسي تغيير كبير موضوعا للنقاش. إن الحملات المضادة للتحرش بالطالبات جنسيا، وللاغتصاب عند اللقاء في المواعيد، قد عكست مشكلات حقيقية للأمريكيين في مرحلة الشباب، بل أيضا خوفا مجتمعيا من الثقافة الجنسية الشبابية الجديدة. كانت الاستجابات للأنساق الجنسية الجديدة في أوروبا واليابان مختلفة، مع ازدياد في توافر أدوات تحديد النسل وهبوط الحمل في مرحلة المراهقة هبوطا ملحوظا.

كان للتغيرات في النزعة الاستهلاكية والتأديب أثر واحد أخير، وهو أكثر ظهورا في الولايات المتحدة، لكنه أثر في أوروبا أيضا على نحو متزايد. بحلول الثمانينيات، وتأسيسا على نزعات سابقة، أصبحت السمنة عند الأطفال مشكلة كبيرة. إن الأطفالَ الذين دللهم والدوهم أو دللوا أنفسهم بأنفسهم، بفضل انتشار الصودا والوجبات السريعة؛ والأطفالَ الذين لم تنل عاداتهم في الأكل الرصد الدقيق بسبب خشية الوالدين من ممارسة التأديب أو اعتقادهم بأن الطعام قد يعوض عن غيابهم في

العمـل؛ والأطفالَ الذين كان ترفيههم يتسـم بقلة الحركة عـلى نحو متزايد بفضل التلفزيون والحاسوب، والذين كثيرا ما كانوا يؤخذون إلى الأنشطة الأخرى بالسيارة، إن كثيرا من هؤلاء الأطفال قد سـمنوا. وجدت دراسـة أجريت سـنة 1994 أن 25 في المائة من جميع الأطفال الأمريكيين مصابون بالسـمنة، وفي ذلك ارتفاع عن رقم السـبعينيات مقداره 50 في المائة؛ وبحلول سـنة 2004 ارتفع هذا الرقم فتجاوز 30 في المائة. بحلول هذا الوقت نفسـه كان 13 في المائة من الأطفال الفرنسيين مصابين بالسمنة، وفي هذا زيادة تتجاوز 50 في المائة عما كان في أوائل التسعينيات.

في سـنة 1907 أعلنت إلين كي، وهي سويدية من المرجعيات المعتبرة، أن القرن العشرين هو «قرن الطفل». حظي الشـعار برواج واسـع في الولايات المتحدة. فمع ظهـور المكاسـب في الصحـة والتعليم المدرسي ظهـورا واضحا، ومـع إتاحة الخبرة الجديدة، ومع البدء في تقدم النقاشات حول تأديب أكثر لطفا، ومع وفرة استهلاكية أكثر من قبل، فقد كانت نبوءة كي أمرا معقولا، ولقيت ترحيبا واسعا. لقد نجح الأمر مـن بعض الوجوه: كان الأطفال في المجتمعات الصناعية أحسـن تعليما، وأبعد عن احتمال أن يعملوا تحت ظروف قاسـية، وأبعد بكثير عن احتمال أن يموتوا، بل كان صفعهم أقل احتمالا مما كان في القرن التاسع عشر. لكن بحلول سنة 2005، انخفض عدد المرجعيات المؤيدة لتفاؤل كي؛ فالصورة أشد تعقيدا من ذلك.

أولا: أتت المكاسـب أحيانا في إثرها بمشـكلات أخرى. لم يسـتطع أحد في سنة 1900 أن يتوقـع سـمنة الأطفال؛ وقد صارت بعد ذلك بقـرن أمرا لا مفر منه. لقد قل الموت، بيد أن الحوادث المأساوية ظلت تستأصل حياة كثيرين ممن هم في سن المراهقة. هناك أيضا مزيد من الجوانب السـلبية غير المتبلورة، ومن ذلك المشكلات الجديدة التي تتعلق بالإجهاد والهوية: تبين الإحصائيات المتاحة بأسرها أن الاكتئاب والانتحار عند الأطفال، لا سيما مَن في سن المراهقة، قد ارتفعا على نحو ظاهر.

ثانيا: حتى لو نحينا المشكلات الواضحة جانبا، فإن هموم الراشدين التي تتعلق بالأطفال قد ازدادت في بعض الجوانب، لا سيما في الولايات المتحدة. إن تكن النزعة الاسـتهلاكية قد وفرت للأطفال والوالدين بعـض الفرص الجديدة للعب معا، وهذا مصدر حقيقي للبهجة الأسرية، فمن العسير أن يشعر المرء بالراحة التامة من نزعة الأطفال الاستهلاكية على وجه الإجمال. إن الفجوة المتنامية بين المراهقين والوالدين،

والتي أساسها جزئيا هو الأذواق والقيم الاستهلاكية المختلفة جدا، هي فجوة محسوسة، وشاقة على الراشدين. إن موت الأطفال هو أقل احتمالا، ولكن مادام الموت قد صار الآن غير مقبول البتة، فإن قلق الراشدين حول الصحة والسلامة لا يهدأ. مما يضاف إلى هذا المزيج هو المسؤوليات الجديدة عن حُسن حال الأطفال عاطفيا ونفسيا، ومن ذلك الحاجة إلى اجتناب الغضب (أو إلى الشعور بالذنب إذا فشل الاجتناب). إن لظهور الخبرات التي لا مفر منها حدّين أيضا: بينما يجد الوالدون في كراسات تنشئة الأطفال نصحا وراحة قيمين، فإنه يقال لهم أيضا إن بديهتهم قد تكون خاطئة، وليس هذا أمرا سارا. إن الخبرة النفسية المتنامية قد جعلت كثيرا من الراشدين يضعون طفولتهم وطريقة تنشئتهم موضع التساؤل: صار لوم المرء لوالديه على مشكلاته أمرا مقبولا أكثر من قبل، وهذا تطور آخر مثير للاهتمام. إليكم حقيقة قاسية: بين الخمسينيات والسبعينيات، تراجع عدد الوالدين الأمريكان الذين قالوا إنهم استمتعوا بتربية أبنائهم تراجعا ظاهرا؛ ووفق استطلاعات الرأي، كان أسعد المتزوجين هم الذين بلا ولد.

ثالثا: مع سعة انتشار الخطاب عن مباهج الوالدية وجاذبية الأطفال، فإن المجتمعات الصناعية قد أصبحت، على نحو واضح، منقسمة حول المقاربات التي تتبعها مع الطفولة. كثيرا ما يفضل الراشدون، تفضيلا واضحا، العمل أو لذاتهم الاستهلاكية المستقلة على التعامل مع الصغار على نحو واسع - علما بأنهم أيضا قد يشعرون بالذنب في أثناء ذلك. إن التراجع المطلق في عدد الأطفال يحوّل وجهة الاهتمام حتما، وإن يكن ذلك ناتجا عن الحسابات الاقتصادية الجديدة التي تتعلق بعمل الأطفال وكُلفتهم، فإنه يشجع على إعادة توجيه الاهتمامات أيضا. في السبعينيات، أخذ الألمان يعيّنون ظاهرة دعوها باسم Kinderfeindlichkeit، أو العدوانية بحق الأطفال - وتتجلى على وجه الخصوص بالأزواج الذين اجتنبوا الوالدية اجتنابا كليا. إن تكن الولايات المتحدة قد ظهرت بمظهر أكثر ودية قليلا، فإن عدد الجماعات التي تقتصر على الراشدين الأكبر سنا الذين حظروا وجود الأطفال بينهم، إلا زوارا بالفينة بعد الفينة، كان أيضا ابتكارا مثيرا للاهتمام. إن العلاقة بين الطفولة والمجتمعات الصناعية المتقدمة كانت لاتزال قيد التجريب؛ لقد أتت بكثير من المزايا، بيد أن المسالك كانت أقل تحديدا مما ظهرت عليها قبل 100 سنة.

للمزيد من القراءة

- Donna Bee-Gates, **I Want It Now: Navigating Childhood in a Material World** (New York: Palgrave Macmillan, 2007).

- Peter N. Stearns, **Anxious Parents: A History of Modern American Childrearing** (New York: New York University Press, 2003).

- Neil Postman, **The Disappearance of Childhood** (New York: First Vintage Books, 1994).

- Gary Cross, **Kids' Stuff: Toys and the Changing World of American Childhood** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997) and **The Cute and the Cool: Wondrous Innocence and Modern American Children's Culture** (New York: Oxford University Press, 2004).

- Martin Guggenheim, **What's Wrong With Children's Rights?** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005).

- Joan Jacobs Brumberg, **The Body Project: An Intimate History of American Girls** (New York: Random House, 1998).

- Mary Ann Mason, **The Custody Wars: Why Children Are Losing The Legal Battles And What We Can Do About It** (New York: Basic, 1999).

- Stephanie Coontz, **The Way We Never Were: American Families and the Nostalgia Trap** (New York: Basic Books, 2000).

- Howard Kushner, **Self-Destruction in the Promised Land: A Psychometric Biology of American Suicide** (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press,1989).

- Merry White, **The Material Child: Coming of Age in Japan and America** (Berkeley: University of California Press, 1994).

- Muriel Jolivet, **Japan, A Childless Society?** (New York: Routledge, 1997).

- Roger Goodman, **Japan's "International Youth": The Emergence of a New Class of School Children** (Oxford: Oxford University Press, 1990).

- R.H. Samuel and R. H. Thomas, **Education and Society in Modern Germany**, repr. edn (New York: Routledge, 2003).

- Fritz Ringer, **Education and Society in Modern Europe** (Bloomington: Indiana University Press, 1979).

- Joseph Hawes and N. Ray Hiner, **Children in Historical and Comparative Perspective: An International Handbook and Research Guide** (New York: Greenwood, 1991).

- Colin Heywood, **A History of Childhood: Children and Childhood in the West from Medieval to Modern Times** (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

11

اضطرابات القرنين العشرين والحادي والعشرين: مواجهة الأطفال للحرب والعنف

شهدت السـنوات الـ 100 المنصرمة أهوالا كثيرة أصابت الأطفـال في مختلف أجزاء العالم. لنعبر عن ذلك بطريقة أخرى: إن كثيرا من أسوأ وجوه التاريخ القريب قـد حاقت بالأطفال. لا يحتاج المرء سوى التفكير في عدد الأطفال الذين علقوا في المحرقة (الهولوكوست) في أثناء الحرب العالمية الثانية، فأُدخِلوا المعسكرات قسرا، حيث شـهدوا خزي الوالدين وهلاكهم، وكثيرا ما قُتِلوا هم أنفسـهم في غرف الغاز. مـات في المحرقة 1.5 مليون طفل يهودي، من أصل عدد الأطفال اليهـود الأحياء في قارة أوروبا (خارج روسـيا)، وعددهم المقدر في العام 1939 هو 1.6 مليون. لقد قتلوا، بالطبع، كيهـود في الاهتياج المعادي

«كثيرا ما يقترن التدهور بالنزوح، لا سـيما من الريف إلى المدينة، وهذه عمليـة - وإن لم ترتبـط بالحرب - قد تعكس مشاكل جديدة للأطفال وتتسبب فيها»

للسامية الذي أصاب النازيين، ولم يقتلوا كأطفال، ولم يقدم لهم الاعتقاد بما للأطفال مـن مكانة خاصة أي حمايـة. إن حروب القرن العشرين الداميـة الكثيرة، وتهجير السـكان، وفيهم من الأطفال مئات الآلاف، وما اسـتمر من ذلك إلى القرن الحادي والعشريـن وفيه، هو جزء لا يتجزأ من تاريخ الطفولة القريب. لقد لطخت الحرب المعاصرة الحدودَ بين المدني والعسكري، واشتمل هذا الأمر على الأطفال بسبل كثيرة. إن مسـتويات جديدة مـن الكراهية العلنية، مثل التي بـين الجماعات الإثنية، قد استثارت الهجوم على الأطفال بسبل كانت أقل شيوعا في القرن التاسع عشر.

وقـع الأطفـال في الأزمنة المنصرمة ضحايا للبربريـة الجمعية. لنذكر مصير كثير من الذين ذهبوا في الحملة الصليبية التي قام بها الأطفال: لقد بيعوا رقيقا. لم تكن الهجمات على الأطفال، كوسـيلة لتخويف الراشـدين أو تدمير مستقبل الجماعات التـي لا تبـدو محل ثقة في أعين المحتلـين اختراعا من اختراعـات القرن العشرين. بيـد أن القرن المنصرم يقف بين القرون بوصفه أدماها، بسـبب كثرة عدد الحروب والنزاعات الداخلية ونطاقها، والمستويات الجديدة للوسائل القتالية المستعملة. لقد ثبت أن «قرْن الطفل» هو، لكثير من الأطفال، زمانٌ سيئ لأن تكون طفلا.

بدأت العملية باكرا، كالنزوحات القسرية لجماعات سكانية يونانية وتركية بعد الحرب العالمية الأولى في غمرة نزيف غزير للدماء. وهي مسـتمرة إلى يومنا هذا في النزاع الأهلي الذي يقع في كثير من أجزاء أفريقيا وغيرها.

إن الموضـوع جزء لا مفر منه من التجربـة التي مر بها كثير من الأطفال قريبا، وهو يأخذنا بعيدا عن حياة أكثر الأطفال في المجتمعات الأكثر استقرارا وعن مضامين الالتزام المتزايد بنموذج الطفولة الحديث. يقدم هذا الفصل بعضا من أمثلة المعاناة البدنية والنفسـية، مـن غير تفصيل الحالات بأسرها. ويصـف بعضا من أكثر نتائج التهجير شيوعا، وهي استغلال العمالة، والعبودية الجنسية، وظهور الأنواع الجديدة من الأطفال المجندين.

هنـا حاجة إلى شيء من الحذق. ينظـر هذا الفصل في ظروف كثير من الأطفال في العقـود المعاصرة فيتناول منها جوانبها المهمة والصادمة معا وعلى نحو حقيقي. ليـس هنا محاولـة للإتيان بقائمة كاملة تضم المواقـف الفظيعة، بيد أن أخْذ بعض العينات هو أمر صادم بنفسـه. تبين النتيجة عـدم كفاية كثير من الجهود الوقائية

الدوليـة والإعلانات الصادرة عن نية حسـنة. وبينما لا تمثل تلك الظروف خصائص الأطفـال في مختلـف أرجاء العـالم، فإنها تبرهن عـلى أن انتشـار التعليم المدرسي والنزعة الاسـتهلاكية لا يمكن أن يعدا من الخصائص التامة أيضا. إن التنوع العظيم في تجارب الأطفـال ليفرض بضعة مضامين أخرى. أول ذلك أن أهوالا مماثلة تكمن في المجتمعـات التـي لا تمزقها الحرب ولا الكراهية الإثنية عـلى نحو جلي، بيد أنها تعاني ببسـاطة من فقر مدقع؛ إن بيع الأطفال للعمالة الجنسية، بل بيع أعضاء من أبدانهم، يعد هناك أيضا استجابة للمواقف اليائسة. لحظ بضعة مراقبين أن الأطفال الأمريكيين الأفارقة في مشـاريع الإسكان في شـيكاغو، وهي مشاريع يمزقها العنف، يمرون بتجارب لا تختلف كليـا عن تجارب الأطفال في بقاع الحروب الصريحة. ثاني المضامين هو أنه بينما لا ينبغي التلطيف من تعاسـة مصير الأطفال في الأقاليم التي تمزقهـا الحروب أو في مخيمات اللاجئين، فإن القصـص لا تخلو من بعض الجوانب الحسـنة؛ إن توليفة من التدخل الخارجي والعبقريـة الأسرية تولد في أحيان قليلة تحسـينات غير متوقعة، ومن ذلك الوصـول إلى شيء من التعليم المدرسي الحديث. وثالـث المضامين هو أنه يبقى من المهـم أن نتذكر أن الأطفال في المجتمعات الأكثر استقرارا، وإن كانوا محميين من الإعاقات الدائمة واضطرابات ما بعد الصدمة، فإنهم يواجهون أوضاعا سـلبية خاصة بهم، بعضها قائم، على ما يظهر، في صميم النموذج الحديث وفي النزعة الاستهلاكية المتغلغلة.

في التاريخ العالمي المعاصر تفريق بين المجتمعات الواقعة تحت وطأة النكبات، وفيها لا يكاد الأطفال يسلمون من كل ما يمكن تخيله من فظائع، وبين المجتمعات الآخـذة في تنصيب شروط الطفولة الحديثة المعترف بها على نحو أكثر ذيوعا، أو في توسعة هذه الشروط. يستحق الأطفال في المجتمعات الأولى قدرا من العناية الفعالة أكـبر بكثير مما نالوه في كثير من الأحيان، لأن الضرر الواقع بالأطفال مسـتمر، على مـا يظهر، بلا هوادة ومع كل ما تقدم من ملاحظات. بيد أنه لا ينبغي أن تشـغلنا الأهوال شـغلا كليا عن القضايا التي يواجهها الأطفال في أوسـاط أخرى، فهي قضايا حقيقية ولو كانت أخف وطأة.

إن تكن التباينات بين الأطفال في وسط من الحرب أو النزاع الأهلي وبين أطفال الطبقات الوسـطى الغربيـة أو اليابانية الاسـتهلاكيين الأغنياء هـي تباينات قوية

وواقعية، فإن بعض المراقبين يقترحون، مع ذلك، رابطا غير متوقع بينهما: إن الأطفال أنفسـهم في كثير من القطاعات الغنية معرضون للعنف على نحو متزايد، في وسائل الإعلام وفي ألعاب الفيديو، وإن لم تمس حياتهم «الواقعية» بذلك إلا قليلا. هل تنهار الفروق بين الطفولة والعنف على المستوى العالمي، وإن حدث ذلك بسبل مختلفة؟

لا توجـد عمليـة واحدة في القرنـين العشرين والحـادي والعشرين قتلت من الأطفال مثلما قتلت المحرقة، بيد أن الظاهر من أمر نسـق العنف أنه قد تسـارع مع الحرب العالمية الثانية وما تلاها من عقود. لقد تراجعت الفروق بين العسكريين والمدنيين، وكثيرا ما علق الأطفال في تلك العملية. لقد علق كثير من الأطفال، بالطبع، عـلى نحو مباشر في ما وقـع في زمان الحروب من حصار وقصـف ابتداء من العام 1939، وكان ذلـك انفجارا عظيما في مظاهر العنف وُجِّه إلى المدنيين عن عمد. لقد أخـرج بعض الأطفال مـن لندن وقت الحرب، بل بذل جهـد لإجلاء بعض الأطفال من لينينغراد (سـانت بطرسبورغ) قبل تطويق القوات الألمانية لها وحصارها. واجه الأطفال المجلون أنفسـهم مشـاكل حادة في ما أحاط بهم من جو غير مألوف بعيدا عن الأسرة، وعانوا شـعورا هائلا بالذنب لأنهم في مـأوى والآخرون يهلكون. كانت الظـروف التي نالت من الأطفال الذين أقاموا في وسـط مـن إلقاء القنابل وقصف المدفعية الذي حول كتلا سـكنية بكاملها إلى أنقاض أسـوأ من ذلك بكثير. لقد مس الكثيرين الموتُ والإصابة، وفقْد أعضاء الأسرة، والنقص في إمدادات الغذاء، والإجهاد النفسي العظيم. لم تكن المشـكلة أوروبية فقط: لقـد مر الأطفال في المدن الصينية بتجـارب مماثلة لما ذكـر في أثناء الهجوم الياباني، ومن بعـد ذلك الأطفال في المدن اليابانية التي أغارت عليها القاذفات الأمريكية.

بعـد الحرب العالميـة الثانية، خفت الهجمات التي أصابـت الأطفال على نحو وجيز. كان أجلى استثناء من ذلك هو العنف والزعزعة اللذان أحاطا بتشكيل دولة إسرائيل والحروب التي تكررت على نحو منتظم والانتفاضات الفلسطينية المستمرة إلى يومنا هذا. اسـتؤنف العنف على نطاق أوسع بحرب فيتنام وما تلاها. في واحدة مـن أقوى الصـور المعبرة في حرب فيتنام تظهر فتاة وهي تجري في الشـارع عارية وظهرها مشتعل من النابالم الأمريكي (المذهل في الأمر أنها بقيت حية). أتت الحرب الأهلية التي نشبت بعد ذلك في كمبوديا بمزيد من نزف عظيم للدماء.

لقد حاق بالأطفال كثيرا العنف الذي وقع في أمريكا الوسطى في السبعينيات، وفي النزاع الذي ثار في كولومبيا بسبب المخدرات منذ عهد قريب. شكلت الحروب الأهلية في ميانمار (بورما)، واشتملت على غارات على تايلاند، مركزا آخر. جلب سقوط الاتحاد السوفييتي العنف والتهجير إلى بضع أمم جديدة في آسيا الوسطى والقوقاز. تورط كثير من الأطفال في الحرب في يوغوسلافيا السابقة، ومعها الهجمات المتعمدة على زمر بعينها باسم التطهير الإثني. طالت جولتان من الهجمات الأمريكية والحليفة على العراق - لا سيما حرب الخليج في العام 1990 ومن بعدها الغزو الجديد في العام 2003 - وفترة فاصلة بينهما أقر فيها حظر على إمدادات الغذاء والدواء، كثيرا من الأطفال. لقد قتل مئات الآلاف أو أصيبوا، أو تأثروا بنقص إمدادات الغذاء والدواء. إن الحرب التي استوطنت أفغانستان، من الغزو السوفييتي في سنة 1979 إلى الحملة التي قادتها الولايات المتحدة في أوائل القرن الحادي والعشرين وما بينهما من نظام طالبان الظالم، ساعدت كلها على إنتاج حالة هوت فيها معدلات العمر المتوقع للأطفال إلى مستوى هو من أدنى المستويات في العالم. كما كانت مفجعة، على نطاق أكبر مما سبق، حال بضع بؤر التوتر في أفريقيا، التي هزها النزاع الأهلي والهجمات الحكومية المعاكسة، فقد طالت أطفالا من السودان وأوغندا إلى الكونغو والإبادة المهولة في رواندا، وغير ذلك من المناطق في الوسط والغرب.

لقد قُدِّر - والتقدير هو كل ما يمكن تقديمه - أن 150 مليون طفل قد قتلوا في الحروب والحروب الأهلية منذ السبعينيات، في مختلف أرجاء العالم، وأُقعِد 150 مليونا آخرون أو أصيبوا بعاهة دائمة. والأمر هو كأن كل طفل ولد في أمريكا الشمالية في المرحلة نفسها قد قتل أو أصيب. أضف إلى ذلك أن التقديرات تورد أن 80 في المائة من كل الناس الذين قتلوا في صراعات في أواخر القرن العشرين وأوائل الحادي والعشرين كانوا من النساء والأطفال، سقطوا في صدامات نادرا ما اشتملت على اشتباكات شاملة بين جيوش تقليدية من ذكور راشدين.

لقد استهدف الأطفال أحيانا عمدا. في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات أخذ الجنود اليابانيون شابات في كوريا واستعملوا العنف لإجبارهن على أن يصبحن رقيقا جنسيا؛ في أحد بيوت الدعارة العسكرية، كانت 400 فتاة تخدم 5000 جندي

ياباني يوميا. بعد ذلك بأربعين سنة، كانت قوات الخمير الحمر الكمبودية، المصممة علـى التطهير الإثني، تضرب الأطفال بالهراوات حتى الموت أمام والديهم، أو تضرب ابن ثلاثة أشـهر بشـجرة. كانت حفر الموتى تحتوي على المئات من أجساد الأطفال. وكان للمقاتلـين الأفارقـة نصيب من قتل الأطفال في العقـود القريبة ـ ثلث الذين قتلوا في نزيف الدم في الكونغو في التسـعينيات كانوا دون الخامسـة - بيد أن عددا أكـبر من ذلك قد أصيبوا بعاهـة دائمة ـ ذراع بترت بسـاطور ـ كما تكرر اغتصاب الفتيـات الصغيرات، وفُعِل ذلك عمدا للتسـبب في الأذى والخـزي. من موقع آخر من مواقع القتال: كان 58 في المائة من الفلسـطينيين الذين أصيبوا في صدامات مع الإسرائيليين دون السابعة عشرة.

آثار الحرب قد تكون خطيرة أيضا. اشتمل كثير من الصدامات في القرن العشرين على الألغام الأرضية، وهي مما يسـهل انفجاره بالأطفـال بعد انتهاء المعارك. يفقد صبـي من كمبوديا رجله بلغم أرضي في طريقه لجلب الماء من البئر؛ سـوف تنقضي سنة حتى يؤهل لنيل بديل اصطناعي، والسبب هو الطول البالغ لقائمة المستحقين.

لقد علم أكثر العالم أن هذه الأمور تناقض المعايير الدولية المتفق عليها. إن أحد أكثر الاندفاعات العفوية الشـائعة عند الواقعين تحت الهجـوم، ومنهم العراقيون المحتجون عـلى الغزو الأمريكي، كان هو إبراز صور الأطفال الموتى أو المصابين، علما منهـم بما لهـذا من صدى حين يذاع على الرأي العالمي. بيد أن الشـعور بالرعب لم يكسر النمط القائم.

في مختلف مراحل القرن، لكن خصوصا، مرة أخرى، منذ الحرب العالمية الثانية، كثـيرا ما أجـبر الأطفال على الفرار من مشـاهد الحرب. لقد أقـام ملايين الأطفال، في أماكن شـتى، في مخيمات للاجئين في السـنوات السـتين المنصرمة، تحت ظروف متفاوتـة، ولكن في مواجهة دائمـة مع قدر كبير من الاضطراب. إن ما يصل إلى 4 في المائة من أهل الأرض جميعا قد اضطروا إلى الفرار من منازلهم مرة واحدة على أقل تقديـر في القرن المنصرم، ومن أولئك 20 مليون طفل. شرح ولد في السـابعة عشرة من أذربيجان قصة فراره ببسـاطة قائلا: «تركنا قريتنا لما بدأت القنابل بالسـقوط. كانت القنابل مثل زلازل لا تسكن. تقضي سنوات كثيرة لكي تشيد منزلا، ليدمر بعد ذلك في لحظة».

إن أسوأ المخيمات هي تلك الجاثمة على حافة العنف. يقصف مخيم في تايلاند على يد قوات المتمردين. يفقد صبيان أمهما في الهجوم ويشـاهدانها تموت أمامهما؛ أحدهما سـوف يموت أيضا من جروح في أعضائه الحيوية؛ والآخر تسـتبدل معدته بكيس من البلاستيك.

لو نحينا العنف الصريح جانبا لوجدنا أن مخيمات اللاجئين قد أعوزتها إمدادات الغذاء والدواء على نحو فظيع: يعاني كثير من الأطفال في المخيمات مشـاكل طبية، ومن ذلك الأمراض التي تنقل جنسـيا والتي التقطت في عمليات سلب سابقة. سوء التغذية متفش، والمجاعة شـائعة جدا. في أحد المخيمات الكمبودية، يؤهل الأطفال لطلـب غذاء إضافي فقط إذا كان وزنهم يبلـغ 25 في المائة من وزن فئتهم العمرية ـ بعبارة أخرى، إذا كانوا يعانون سـوء تغذية على نحو خطير ـ ويفقدون حقهم إذا ارتفع وزنهم فوق ذلك المسـتوى. لقد شهدت مخيمات كثيرة في قارات كثيرة وعلى نحو بارز أطفالا يموتون من الجوع، لعجزهم عن رعاية أنفسهم.

لقد فقد كثير من الأطفال في المخيمات أو ما يتصل بها من المنشـآت والديهم، وأجـبروا أحيانا على رؤيتهم وهم يموتون على أيدي قوات المتمردين. في كمبوديا في العـام 1970 ـ وهو بلد يتولى فيـه تقليديا رعايةَ الأطفال الذين بلا والدين أقاربهم الآخـرون أو أبناء قريتهـم ـ كان هناك ثلاثة ملاجئ للأيتام، فيهـا 1600 طفل. ثم مزقت الحرب التقاليد: بحلول العام 1974، كان هناك 3 آلاف ملجأ، فيها 250 ألف نزيل، يعيشون في كثير من الأحيان في ظروف مرعبة لأن الحاجات قد فاقت الموارد عـلى نحو كبير جدا. وبسـبب موت الوالدين، أو مجرد فقْـد آثارهم في أثناء الفرار الطويل من العنف، بلغت نسـبة الأطفال من سـكان بعـض مخيمات اللاجئين 65 في المائة. كان هذا الرقم، على سـبيل المثال، لمخيم في أفغانسـتان امتلأ بالفارين من نظام طالبان. في رواندا في العام 1994، فرق 100 ألف طفل عن والديهم، وإن قدم الموظفون القائمون على توزيع المعونات مساعدة في لم شمْل بعض الأسر بعد ذلك.

كان في المخيـمات دائمـا إجهاد عظيم نـزل بالأطفال المهجرين. كثـيرا ما كانوا يقيمون في منطقة لم يعرفوا لغتها حيث فقدوا إحساسهم بالسيطرة على حياتهم. في مخيم للاجئين في دولة جورجيا، شـخصت معاناة من بعض الإجهاد العقلي والبدني عند 83 في المائة من الأطفال المهجرين.

إن العيشـــة الطويلة في المخيمات قد عملت على تشظية الأسر، حتى في حالات وصول الأسرة إليها مجتمعة. لم يكن للوالدين، لا ســيما الآباء، موارد، ولذلك لم يكن لهم ســلطة على أطفالهم تســتمد من المســاومة التقليدية. وليس من المدهش أن عددا كبــيرا من الأطفال حاولوا أن يعيلوا أنفســهم، متجاهلين توســلات والديهم. باعت بعض الفتيات أجسادهن. وكثيرا ما تحول الصبيان والفتيات إلى السرقة. تلاشى احترام الوالدين، وحل الاصطفاف مع الأطفال الآخرين محل الولاءات التقليدية. في حــالات أخرى، كان الوالدون هم من دفع طفلاتهم وأطفالهم إلى الدعارة أو السرقة، كوســيلة لتحصيل قدر من أسباب المعاش للأسرة. أقر كثير من الوالدين بيع بناتهــم للجنس ثمنا للغذاء، إذا أمكنهن توفــير بعض الفتات لأفراد الأسرة الآخرين. لم يكن نادرا أن الجنود الذين أرسلوا لحفظ النظام قد كانوا زبائن متلهفين للجنس الذي تقدمه الطفلات، وهذه مشكلة واجهتها بضع بعثات من بعثات الأمم المتحدة. إجمالا كان للأطفال أن يحيق بحياتهم الاضطراب بكل السبل المتخيلة تقريبا، حتى لو نجوا من الحرب نفسها.

بعــض النهايات الســعيدة كانت ممكنــة. لقد حاولــت وكالات الأمم المتحدة وزمر الإغاثة الخاصة أن تقدم أشــياء أكثر من مجرد رفع المعاناة، وإن كانت المهمة ثقيلة جدا على نحو متكرر. كثيرا ما نظم عمال المســاعدات فرقا شــبابية كوســيلة لتوفير شيء من النظام والجدوى، وكان للمهارات المكتســبة أن تســتخدم أحيانا في الحياة خارج المخيمات. لعبت المجالس الشــبابية دورا ذا شأن في تعافي كوسوفو في يوغوســلافيا السابقة. اســتطاعت الفرق الشــبابية أحيانا أن تقدم المعونة للأطفال الصغار. حاولت وكالات كثيرة أن تؤســس مدارس، بيد أن الضروريات كانت مشكلة جلية. في كوســوفو، مرة أخرى، أفلح صندوق «أنقذوا الأطفال» في إنشاء مدارس في العراء فيها ما يزيد على 40 ألف طفل.

بحلول التســعينيات، حوكم بعض المجرمين بحق الأطفــال أمام محاكم دولية. أدين رجل في رواندا بالتشــجيع على ممارسة العنف والاغتصاب بحق الأطفال؛ كما أدين بضعة مجرمي حرب في يوغوســلافيا الســابقة، وكان ذلك مرة أخرى بســبب أفعال ارتكبت بحق الأطفال. بعبارة أخرى، كانت هناك معايير دولية، ولقد أظهرت بين وقت وآخر قوتها.

اســتطاع الأطفال، من آن إلى آخر، أن يجدوا لأنفســهم (وكثيرا ما كان ذلك مع بعض أفراد الأسرة) حياة أفضل خارج المخيمات. بعد أشــهر، بل ســنين، سُمح لكثير مــن اللاجئين الفيتناميــين والكمبوديين بالدخول إلى الولايات المتحدة، وقد أســس بعضهم حياة فيها على رغم الشدائد التي واجهتهم. الأطفال اليهود الذين نجوا من المحرقة وما جــاء بعدها من المخيمات التي نصبت للمهجرين، وأفلحوا في الوصول إلى إسرائيل، كثيرا ما استطاعوا أيضا تجاوز ماضيهم. في الحالتين كلتيهما، كان لفرص التعليم المدرسي التي أتيحت لاحقا دور ذو شأن في التعافي.

أخيرا، كان لنجاة الأطفال أن تأتي أحيانا على أيدي أعدائهم، وإن لم يحدث ذلك إلا نــادرا جدا. لقد أرســل بعض أبناء قبيلة توتسي الرواندية، في أثناء هجوم قبيلة هوتو عليهم، أرسلوا أطفالهم إلى جيرانهم من الهوتو، وهؤلاء تولوا رعايتهم بالفعل. استشهد الوالدون بمثل محلي يقول: «من أراد أن يعاقب قاتلاً، فليودع ولده عنده».

كان للحــرب والفــرار أيضا نصيب في نشر الأطفال المجندين، الذين اشــتركوا في الحرب مباشرة، وكثيرا ما كان ذلك رغما عنهم، بيد أنه أيضا كثيرا ما تبلّد إحساسهم بما حولهم من عنف. لقد قُدّر أنه في أي ســنة من السنين في أواخر القرن العشرين، وأوائل القرن الحادي والعشرين، كان هناك نحو 300 ألف طفل يحملون الســلاح، ولا ســيما في أنحاء من جنوبي شرقي آســيا وأفريقيا، بل أيضا في ســاحات القتال في أميركا اللاتينية مثل كولومبيا.

إن قليلا من الاستقصاء التاريخي هو أمر حيوي لهذه الظاهرة المؤسفة. كثيرا ما خدم الأطفال في قوات عســكرية. لقد نال طفل في الثالثة عشرة، حارب في صفوف الثورة الفرنســية وقتل على يد القوات الملكية، الثناء لشهادته في سبيل القضية، من دون إحســاس بأن مســاهمته العســكرية هي أمر غير معهود وغير لائق. إن جزءا لا بــأس به من الجنود في الثــورة الأمريكية - في الجانب الوطني، وأيضا بين المرتزقة الألمــان الذيــن كانوا في خدمــة بريطانيا - كانــوا من الصبيــان في الرابعة عشرة أو الخامســة عشرة، وقد اشــترك في الحرب بعض الأطفال الصغار ممن هم في الثامنة. مــما لا ريب فيه أن البعض قد دُفعوا إلى المعركة رغما عنهم، بيد أن كثيرا منهم قد حاربوا طواعية. تحت ظــروف المجتمع الزراعي، قد تبدو الحرب بديلا مرغوبا فيه عند كثير ممن هم في مرحلة الشباب، فرصة للإثارة وللهروب من الاقتصاد الأسري.

إذن، ما الذي استجد في أمر الأطفال المجندين؟ كان أحد الأمور الجديدة هو المعايير الدولية المختلفة. لم يعد مقبولا، على ما يظهر، وفق الرأي العالمي السائد، أن يشترك الأطفال في الخدمة العسكرية؛ لقد أقرت الأمم المتحدة ذلك بشكل قاطع.

بيد أنه كان من الصحيح أيضا أن الأطفال المجندين المعاصرين كانوا يتعاملون مع وسائل قتالية أشد فتكا بكثير مما كان بأيدي نظرائهم الذين سبقوهم. من المؤكد تقريبا أن عدد من أُكره منهم على دخول المعارك كان أكبر منه في صراعات الأزمنة الماضية. لقد عانى عدد أكبر منهم عواقب هائلة، مثل الأمراض المنقولة جنسيا المؤدية أحيانا إلى الوفاة. إن الغضب العظيم من ظاهرة الجنود الأطفال يعكس مزيجا مركبا من المعايير العالمية الجديدة (وإن لم تكن فعالة) ومن التدهور الحقيقي في حياة كثير من الأطفال.

أكثر الجنود الأطفال هم في أوائل المراهقة، لكن بعضهم دون العاشرة. أكثرهم من الصبيان، بيد أن الفتيات كثيرا ما يُجندن لأدوار مساندة، ومنها الجنس كرها أو طوعا، ولشيء من القتال. مثال ذلك أن الفتيات، في جبهة تحرير مورو الإسلامية في الفلبين، يستعملن لإعداد الطعام وتقديم الرعاية الطبية، بيد أن كل زعيم قد اختص أيضا بفتاة للذة الجنسية.

كثيرا ما تكون القوة أمرا مركزيا للخدمة العسكرية. إن جماعة يونيتا (UNITA) المتمردة في أنغولا قد جندت لاجئين أطفالا من رواندا بالإكراه بعد أن أمسكت بهم في الكونغو. انتهى الأمر بكثير من الجنود الأطفال إلى مواجهة العنف، ليس من آسريهم فقط بل أيضا من القوى المناوئة، التي كثيرا ما عذبتهم طلبا للمعلومات وللثأر. أخذت زمرة المتمردين التاميل في سريلانكا الأطفال من ملاجئ الأيتام وشكلت منهم ما دعته بـ «لواء الأطفال» المكون من الأطفال دون غيرهم؛ كثيرا ما كان هؤلاء الأطفال أنفسهم يعاملون بوحشية إذا ما وقعوا في يد الحكومة. لقد تعرض بعض الجنود الأطفال للعنف المتطرف على نحو متعمد، بل أُجبروا على مهاجمة أسرهم، ليكون ذلك بمنزلة شعائر دخولهم إلى حياة سفك الدماء.

كانت للخدمة العسكرية، بالطبع، أسباب أخرى. فقد أقرت الأسر ذلك أحيانا، وكذلك الجماعات الأوسع منها. انخرط كثير من الأطفال الفلسطينيين في القتال، بصورة منهجية أو غير منهجية، بسبب ما أدركوا أنه هجمات إسرائيلية على مجتمعهم.

كان للجنود الأطفال أن يكونوا محاربين ملهمين. قال جندي راشد من ميانمار معلقا على الأطفال الذين حاربهم: «كان كثير من الصبيان يندفعون إلى الميدان، وهم يصرخون مثل البانشيات(*)... لقد رميناهم بالنار بيد أنهم ظلوا يُقبلون». بالأمارة نفسها، أصبح كثير من الجنود الأطفال، متى اجتازوا شعائر دخولهم إلى الحرب، متوحشين جدا، يبتهجون بسلطتهم التي استمدوها من البندقية، فيقتلون ويشوهون ويغتصبون لا لسبب ظاهر سوى البرهان على هيمنتهم. كثيرا ما وجد الأطفال الذين دخلوا الخدمة العسكرية صعوبة في الرجوع إلى منازلهم، حتى لو كانوا قد أكرهوا على القتال؛ كان المنزل يبدو لهم وديعا، وكثيرا ما يكون الوالدان قد فارقاه، أما الجماعة التي هم منها فتكون عدائية على نحو مفهوم.

لم تكن الحرب والفرار والانخراط في الجندية هي وحدها البلايا التي نزلت بالجم الغفير من الأطفال المعاصرين. في آخر القرن العشرين، ظهر سوط آخر جديد اتخذ صورة الإيدز. لقد ظل المرض يؤدي دورا في حياة أطفال كثيرين في القرن العشرين، بيد أن القصة الكبيرة كانت هي تراجعه المطرد، حيث نجحت إجراءات المناعة والصحة العامة في تحسين هذا الجانب من حياة الأطفال. لقد أتى الإيدز، في بعض الأقاليم، بأول اندفاعة مضادة. بحلول سنة 2000، كان المرض قد قتل 4 ملايين طفل على نحو مباشر، ويتّم 13 مليونا آخرين. كانت أفريقيا، ولا سيما جنوبيها وشرقيها، هي أكبر من عانى من ذلك. بحلول سنة 2001، كان من هم في سن المراهقة أسرع التقاطا للمرض من الفئات العمرية الأخرى في أفريقيا، نتيجة للجهل أو الجموح. لقد أصر كثير من الرجال على ممارسة الجنس من غير وقاية العازل، ودفعت كثير من الصبايا، المتلهفات للذة أو المفتقرات إلى حظوة ذَكَر يعولهن، إلى المحاباة. لقد سهلت الحرب، بما فيها من هجمات جنسية متكررة، انتشار المرض في بعض الأقاليم أيضا. لكن وفيات الأطفال قد حدثت في أغلبها بسبب انتقاله من الأم إلى الجنين. مع انتشار معدلات المرض العالية إلى الأقاليم الأخرى الفقيرة نسبيا، ظهرت مخاوف مفهومة من تراجع أحد المكاسب العظيمة للطفولة الحديثة.

(*) في الأساطير الأيرلندية، البانشي هو روح متى سمع صياحها في منزل كان ذلك نذيرا بموت واحد من أهله - [المترجم].

لقد ساءت ظروف العمل لكثير من الأطفال في مراحل مختلفة، وفي أماكن مختلفة في أثناء القرن المنصرم، وهذه نزعة أخرى تمضي في جهة معاكسة للنموذج الحديث، وتؤثر في أقلية لا يستهان بها من أولئك الأطفال في القوة العاملة. كثيرا ما يقترن التدهور بالنزوح، ولا سيما من الريف إلى المدينة، وهذه عملية - وإن لم ترتبط بالحرب - قد تعكس مشاكل جديدة للأطفال وتتسبب فيها.

التأكيد هنا هو على التغيير. من الواضح تماما أن أكثر الأطفال، منذ قدوم الزراعة، قد عملوا، ولذلك فإن حقيقة العمل، وكثيرا ما كان شاقا، ليست جديدة. وجزء من الإحساس بالتدهور هو نتيجة للمعايير الجديدة العالمية القائمة على نموذج الطفولة الحديث: ذهب كثير من الصحافيين والعلماء إلى أنه ينبغي للأطفال ألا يعملوا شيئا أكثر من بعض المساعدة في المنزل أو في محل للأسرة؛ ينبغي لهم أن يذهبوا إلى المدرسة. هذا التقييم الحديث مهم في حد ذاته، لكنه يعقّد أحيانا أمر الحكم على جدّة الاستغلال الاقتصادي للأطفال. ذلك أنه حتى في المجتمعات التقليدية كان لبعض الأطفال أن يتعرضوا لظروف عمل تعسة جدا، ومن ذلك الرق الصريح؛ الضرب في العمل، وظروف الإسكان السيئة في موقع العمل، وانخفاض أجور عمالة الأطفال - هذه لم تكن من الاختراعات الجديدة للعالم الحديث.

إليكم الصورة الأساسية: على الرغم من أن المزيد والمزيد من الأطفال ليسوا في قوة العمل، فإن نسبة مئوية متزايدة من أولئك الذين هم فيها يجدون أنفسهم في مواقف استغلالية، في وظائف كثيرا ما تتهددهم بالخطر، وطبعا، لا تقدم لهم إعدادا حقيقيا ولا تدريبا على حياة الراشدين العملية. ومع أنهم كثيرا ما يحاولون العمل لمعونة الأسرة، وكثيرا ما يكون وضعهم الذي هم فيه بسبب فقر الوالدين، فإنهم يحرمون على نحو كبير من الإرشاد والوقاية اللذين كان من عادة الاقتصاد الأسري أن يقدمهما. النتيجة هي، مرة أخرى، ليست جديدة كليا في حقيقة الأمر، فالأطفال قد عانوا في العمل في الماضي أيضا؛ لكن المعاناة قد أصبحت شائعة على نحو متزايد بين الأطفال العاملين في العالم المعاصر.

تشتمل ملاحظة ذات صلة بالأمر على المكان الاجتماعي والجغرافي. الأغلبية الواسعة من الأطفال المستغَلين في العمل هم في أفقر أقاليم العالم، وليس في العالم ككل. وحتى في تلك الأقاليم، فإنهم يأتون على نحو نموذجي من أدنى الزمر

الاجتماعيـــة. مثال ذلـــك أن الأطفال العاملين في بيرو هم مـــن الأمريكيين الهنود أو الخلاسيين، وليسوا من البيض. الأطفال الذين يعملون في مشاغل البُسط في الهند هم من الطبقات التقليدية الأدنى، وليس من كل فئات ســكان البلاد على وجه العموم. يعكس العمل الاستغلالي المكانة الاجتماعية المنحطة ويُثبتها على نحو متزايد، في كل من المجتمع العالمي وفي مجتمع المرء نفسه.

كان أصل الســبب في الاستغلال الاقتصادي لعمالة الأطفال على نحو معمق هو الازديـــاد في انتزاع كثير مـــن الأطفال من الاقتصادات الأسريـــة التقليدية في الريف. إن النمو الســكاني والمنافســة من مصادر الإمداد الأخرى يمنعان كثيرا من الأسر من اســتعمال العمال الأطفال بالطرق المعتادة. صناعة السجاد في الهند هي مثال وثيق الصلة بالموضوع. لطالما ســاعد الأطفال في إنتاج الســجاد في القرى الهندية. بيد أن إنتاج الســجاد قد انتقل على نحو متزايد إلى المصانع في المدن. يُستخدم الأطفال في هذه المصانع استخداما واسعا بسبب شدة انخفاض أجورهم - وهي أدنى بكثير من الحــد الأدنى الوطنـــي المفترض للأجور. كثير من عمال البُسُـــط الأطفال هم نازحون مـــن القرى. لقد خُطف بعضهم على نحـــو صريح؛ وكثير منهم قد ضُرِب على الوجه واليدين، بوصف ذلك جزءا من التأديب في العمل، وقليل منهم قد وُسِـــم. قد تصل ساعات عملهم إلى 15 ساعة في اليوم.

يعمـــل الأطفال في كثير من مدن أفريقيا وأمريكا الوســطى، ومنهم، مرة أخرى، كثـــير من النازحين من الريف، يعملـــون خدما. يحملون الحقائب ويقومون بأعمال أخرى من أعمال الشـــوارع. يقدمون العون في تعبئة مواد البقالة. يشحذون. يؤدون أعـــمالا ترفيهية في الشـــارع، كما يفعل الأطفال آكلو النار في المكســـيك - هناك وفي أماكـــن أخرى، يـــأتي العاملون في الترفيـــه من الأطفال في كثير مـــن الأحيان من قاع المجتمـــع. ينام كثير منهم في الشـــارع أيضـــا. إنهم عرضة لأمـــراض مختلفة، تتعلق بالعمـــل والمأوى كليهما؛ يتورط بعضهم في المخدرات؛ يتعرضون أيضا لقدر كبير من عنف الشرطة.

في توغو، وكانت مســـتعمرة أفريقية على ساحل أفريقيا الغربية، تغيرت طبيعة العمـــل تحـــت التمرين تغـــيرا يعكس، مرة أخرى، المشـــاكل الجديـــدة في الاقتصاد التقليـــدي. تجـــبر قلة الوظائـــف الملائمة في الريـــف الأسرَ على البحـــث عن برامج

لأطفالهـم ذات طابع مديني أكثر من قبل، وبسـبب ذلك يكبر عدد العاملين تحت التمرين بسرعة ـ بحلول سنة 1981، بلغ عددهم في مدن البلاد 23 ألفا، يعملون في ميادين مثل صناعة الألبسـة والتعمير. يقتضي النمو أن تكون للمسـتخدِمين سلطة جديدة، فيفرضون على الأسر مزيدا من الرسوم لفرص العمل عندهم، ويستعملون، الأطفال على نحو متزايد، كمصادر عمالة رخيصة من دون مهارة، متجاهلين أهداف التمريـن. وعليـه، ينتهي الأمر بالعاملـين تحت التمرين إلى خدمة مسـتخدميهم خدمات بيتية؛ تُفرض عليهم حراسـة الدكان ليلا. يصل عدد العاملين تحت التمرين في بعض الأعمال الصغيرة إلى 80، وبعضهم دون الخامسة عشرة، كلهم إلا قليلا منهم قد تركوا المدرسـة. يحول هذا العدد دون أي تظاهر بالتمرين: الهدف هو الحصول عـلى قوة عمالة منخفضة الأجر، من أطفال كثيرا ما يضربون ليلزموا حدودهم. هنا مثال معاصر آخر من أمثلة الطفولة القاسية التي تخلو من أي نقطة انطلاق واضحة إلى الرشد. الحجة المؤيدة للاستغلال قوية.

لقد سـقط كثير من الأطفال في السـنوات المائة المنصرمة ضحية لبضعة عوامل متحابكة. بانتقال الأطفال إلى المدن، فَقَد كثير منهم حماية الأسر الممتدة والجماعات الوثيقة التشابك. وجد عدد كبير منهم، ولا سيما النساء، أنفسهم متورطين في الجنس العرضي أو الدعـارة الصريحة. هذا الأمر يجعلهم، وأطفالهم بالطبع، عرضة لمخاطر المـرض على نحو أعظم. غالبا ما يجد الأطفال الميتمـون فرصا اقتصادية أقل، وهذا هـو، مرة أخرى، ما قد يدفعهـم نحو عمل خطير أو مخزٍ. متـى قُذف بالحرب أو الزعزعة إلى هذا المزيج، فمن الممكن للموقف أن يغدو باعثا على القنوط على نحو حقيقي.

مـن المحال إحصاء عدد الأطفال الذين علقوا في كارثة واحدة من كوارث العالم الحديث أو أكثر، والسـبب هو جزئيا وفاة كثير منهم قبل بلوغ الرشـد، لسقوطهم ضحايا للعنـف أو المرض. وُضعت معدلات تقديرية لكل صنف من المشـاكل، من الحـرب إلى الإيـدز. من الناحية الإجماليـة، كان الذين علقوا في شَرك أسـوأ الأمور المرعبـة هم أقلية بين أطفال العالم. من جهة هؤلاء، من الواضح أن نموذج الطفولة الحديث، كائنة ما تكون مشاكله ووعوده، لم يكن متاحا لهم على نحو كبير، بل كثيرا ما كان نقيضه هو الحاصل بسـبب معدلات الوفيات الآخـذة في الارتفاع أو ازدياد

قسوة العمالة. إن الظروف المعاصرة قد قسمت الطفولات إلى نوعين مختلفين جدا من التجارب، بين هذين الحدين المتطرفين أحوال متوسطة ينبغي الاعتراف بها. لقد أفلح قلة من الأطفال - المحظوظين الذين نالوا تعليما مدرسـيا أو الذين أُنقِذوا إلى مخيمات اللاجئين - في الانتقال من نمط للطفولة إلى آخر؛ بيد أن بعضهم ممن وقع ضحية الصراعات غير المرتقبة، كالتي حدثت فيما كان يدعى الاتحاد السـوفييتي أو يوغسـلافيا، قد انحدر انحدارا مفاجئا من توقعـات بنيل تعليم مدرسي إلى العيش عيشة الهاربين.

يحتـاج عامل أخـير إلى نظر. في العقـود الأخيرة من القـرن العشرين، ظهرت مسـتويات جديدة من الاتصال المباشر بين مجتمعات العالم بأسرها، إلا قليلا، وهي كثـيرا ما تختصر بلفظ العولمة، أضافت إلى الطفولة عناصر جديدة مهمة. في الفصل التـالي نلتفت إلى تلك العواقب. لسـوء الحظ، إذا كانـت العولمة تضيف إلى نموذج الطفولة الحديث بعض المكونات المثيرة للاهتمام، فإنها تسـتطيع أيضا أن تزيد من شـدة التدهور الاقتصادي لكثير من الأطفال، وهـي لم تداوِ، حتى تاريخه على أقل تقدير، من جراح غارات الحرب والمرض. ويستمر الانقسام في الطفولة.

لمزيد من القراءة

- Elizabeth Goodenough and Andrea Immel, **Under Fire: Childhood in the Shadow of War** (Detroit, MI: Wayne State University Press, 2008).

- David M. Rosen, **Armies of the Young: Child Soldiers in War And Terrorism** (Piscataway, NJ: Rutgers University Press, 2005).

- P.W. Singer, **Children at War** (Berkeley: University of California Press, 2006).

- Lauren St John, **Rainbow's End: A Memoir of Childhood, War and an African Farm** (New York: Scribner, 2008).

- James Garbino, Kathy Kostelny and Nancy Dubrow, **No Place to be a Child: Growing Up in a War Zone** (Lexington, MA: Lexington Books, 1991).

- James Marten, ed., **Children and War: A Historical Anthology** (New York: New York University Press, 2002).

- Graca Machel, **The Impact of War on Children** (New York: UNICEF, 2001).

- Marc Vincent and Birgette Sorenson, eds, **Caught Between Borders: Response Strategies for the Internally Displaced** (London: Pluto Press, 2001).

- Bernard Schlemmer, ed., **The Exploited Child** (London: Zed Books, 2000).

- Rachel Brett and Irma Specht, **Young Soldiers: Why They Choose To Fight** (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2004).

- Human Rights Watch website: **www.hrw.org/en/search** (enter search term 'abuses of children').

12

العولمة والطفولات

إن اثنين من التطورات في أواخر القرن العشرين قد واكبا عصرا جديدا من العولمة - عصرا من الاتصالات المباشرة المكثفة والتفاعلات بين المجتمعات، في مختلف أرجاء العالم، بالمعنى الحرفي. كان أجلى التطورين، وهو ذو تأثير مباشر في الأطفال والذين في مرحلة الشباب، تطور تقاني: يسّر البث التلفزيوني الفضائي أمر وسائل الاتصال العالمية النطاق، ومن ذلك الشبكات مثل «إم تي في»، التي مارست دورا حاسما في نشر ثقافة دولية أو نسخة شبابية منها على أقل تقدير؛ وفي العام 1990 قدم الإنترنت وسيلة للاتصال المباشر لا مثيل لها، انتهزها كثير من الأحداث في مجتمعات بينها من الاختلاف في نواحٍ أخرى ما بين الولايات المتحدة وإيران. كان التطور الثاني سياسيا: قرار الصين، ومن بعدها روسيا، الانفتاح على أنواع جديدة من الاتصالات الدولية المباشرة. لقد

«لقد أسهمت العولمة في عمالة الأطفال القاسية، فعلت ذلك على نحو أساس بفشلها في حل مسألة القيود الاقتصادية التي جابهتها أسر كثيرة جدا في العالم النامي، ومن المؤكد أنها زادتها سوءا في بعض الأحوال»

انتهت الحرب الباردة؛ ووسعت الشركات المتعددة الجنسيات مدى أذرعها في وسط من الجهود المتنامية لخلق اقتصادات قائمة على السوق.

لم تكـن العولمة عملية جديـدة كليا، والمؤرخون يتجادلون بشـأن موقعها من مراحـل التاريخ. لقد أثرت عوامل نفوذ مهمة، ناشـئة عـن الاتصالات المباشرة بين الأقاليـم، أثـرت في الطفولة في المراحل السـابقة. إن الصلات الأكثر شـدة في أواخر القرن التاسـع عشر، ومنها الإمبريالية الغربية، قد أعادت تشكيل صورة الطفولة في بقـاع كثيرة وبسـبل كثيرة. مثال ذلك أن القرارات التـي اتخذتها اليابان فيما يخص العلاقات مع العـالم الخارجي قد جعلت القوى العالمية تؤثر في الطفولة ابتداء من العام 1868. بيد أنه ليس من جدال بشأن تسارع العولمة في القرن العشرين، لا سيما في العقود الأخيرة منه، بما حملته معها من طائفة جديدة من التأثيرات في الطفولة.

لم تكـن العولمـة المعاصرة عملية بسـيطة. لم تكن جديدة كليـا، حتى بتأثيرها في الشـباب والطفولة. إن الانتشـار العالمي النطاق لأهم الرياضات مثل كرة القدم والبيسـبول، بوصف ذلك جزءا من حياة المُشاهد، والمطامح الرياضية للأحداث من أمريكا اللاتينية إلى آسـيا، قد ابتدأ في أواخر القرن التاسـع عشر. هاهنا تعقيد آخر: اسـتفزت العولمـة أنواعا جديدة من المقاومة، ونال بعضهـا ولاء زمر من الأحداث. مثال ذلك أن بعض المسـلمين قد خافوا من تأثير العولمة في تقاليدهم، إذ رأوا فيها وسـيلة جديدة من وسـائل الهيمنة الغربية. تخوف كثير مـن الأمريكان اللاتينيين من تأثير ثقافة الاسـتهلاك الأمريكية في ذريتهم. على جبهة أخرى، أحسّت زمر من الأحـداث في الغرب وحافة المحيط الهـادي بالقلق على نحو علني من تأثير العولمة في ظروف العمالة والبيئة. لم يكن مؤكدا انتصار العولمة على مختلف المعارضات. في الغرب وحافة المحيط الهادي، بينت الاستطلاعات أن الأحداث أكثر محاباة للعولمة، على وجه الإجمال، من الراشـدين الأكبر منهم، متباهين بتسامحهم وانفتاحهم على الأفـكار الجديدة؛ أمـا في أمريكا اللاتينية وأفريقيا والأجزاء الأخرى من آسـيا، فقد اتفق الأحداث والراشـدون على قـدر معين من الحذر. التعقيـد الثالث: إن تأكيد العولمـة على تزايد الاتصـالات الدولية المباشرة لم يشر إلى جهـة مفردة، ولقد كان لهـذا أهمية كبرى للطفولة. مثـال ذلك أن العولمة الاقتصادية قد زادت من سـوء أوضاع العمل عند بعض الأطفال؛ أما العولمة السياسية - أعني المدى المتنامي لذراع

المنظمات الدولية الحكومية منها وغير الحكومية - فقد تحركت نحو مزيد من التأييد لحقوق الأطفال.

لم تحكم العولمة قبضتها على الطفولة؛ لقد ظلت الأنساق الإقليمية الكبرى باقية، وكذلك النزعات الباكرة التي دخلت في صلب نموذج الطفولة الحديث، وكان قد قطع أشواطا بعيدة، فقد بقيت في معظمها. إن أهم جوانب العولمة قد أتت، على نحو فعلي، بدعم جديد لهذا النموذج، وسنرى ذلك. ومع ذلك فإن العولمة تستحق أن ننظر فيها على نحو منفصل من جهة كونها قوة جديدة في تاريخ الطفولة، أحدثت أنواعا إضافية من التغيير والمقاومة في أواخر القرن العشرين وأوائل الحادي والعشرين. كان لأربعة من أوجه العولمة تأثيرات خاصة: أنساق النزوح الجديدة؛ وجهود الجماعات السياسية الدولية للإتيان بمعايير دولية لمعاملة الأطفال؛ والعولمة الاقتصادية، أو ضلوع أقاليم العالم المتنامي، إلا قليلا، في عملية إنتاج مشتركة رافقها تراجعٌ في الاقتصادات التي ترعاها الدولة؛ والعولمة الثقافية، أو انتشار النزعة الاستهلاكية العالمية النطاق.

لم يكن النزوح جديدا، بالطبع، ولطالما كانت له عواقب على الأطفال. مثال ذلك أن الأطفال المهاجرين في الولايات المتحدة في نحو العام 1900 كثيرا ما أدوا دورا خاصا كوسطاء بين الوالدين، الذين كثيرا ما كانت إنجليزيتهم لا يعول عليها، وبين المجتمع الجديد الذي يعملون، وغالبا يذهبون إلى المدرسة، فيه. كانت تلك تجربة باعثة على التحدي، بيد أنها كانت أحيانا مقوية، وإن كانت محيرة للوالدين على نحو متكرر. في نفس الوقت، كثيرا ما ظهرت آثار الإجحاف على السطح فوجدت لها أهدافا بين الأطفال المهاجرين؛ كانت فرص العمل محدودة بسبب الانحياز الإثني، وقد جسدت أنشطة العصابات التوترات بين كثير من شبان المدن في أحياء المهاجرين.

أُضيف إلى هذا المزيج جانبان من جوانب النزوح في أواخر القرن العشرين، ويقرنان بالعولمة على نحو فضفاض، وأُضيفت معهما العناصر المعروفة. أول ذلك أن النزوح قد وقع من مسافات بعيدة بعدا غير معهود واشتمل على أناس من ثقافات مختلفة جدا. انصب الباكستانيون وأهل جزر الهند الغربية على بريطانيا؛ وشكل الأتراك وأهل شمالي أفريقيا أقليات إسلامية كبيرة في فرنسا وألمانيا وهولندا؛ وتقاطر

الفلبينيون والفلسطينيون على دول الخليج الغنية بالنفط؛ وأحدث اللاتينيون والآسيويون تنوعا جديدا في الولايات المتحدة. تحت هذه الأوضاع، أصبح دور الأطفال بوصفهم عوازل بين الوالدين والمجتمع الجديد أكثر أهمية، بيد أنه قد ترتب عليه مزيد من العبء. فقد كان لفرص الصدام بين الأجيال داخل جماعة المهاجرين أن تزداد، الصدام على قضايا مثل الخروج في مواعيد غرامية أو لباس الإناث. كان لفرص التعبير عن الإجحاف أن تتسع أيضا. لقد واجه كثير من الشبان المهاجرين في بريطانيا عداوة متنامية، يقطعها بانتظام العنف الصريح وأعمال الشغب العرقية؛ كان لنشاط العصابات أن ينشأ استجابة لذلك، مثل بروز العصابات الشبابية اللاتينية على ساحلي الولايات المتحدة في أوائل القرن الحادي والعشرين، أو ظهور العصابات الهندية (الآسيوية) على ساحل كندا الغربي. اندلعت بضعة حوادث شغب قام بها شبان مسلمون في فرنسا في أوائل القرن الحادي والعشرين، وكانت تعكس مستويات عالية من البطالة والتمييز في المعاملة على يد الشرطة. كانت أنواع مختلفة من الموسيقى الشبابية مثل الريغي التي أُتي بها من جزر الهند الغربية، وكذلك موسيقى البنك روك العنصرية أحيانا، تعبر عن الإبداع، بيد أنها كانت تعبر أيضا عن التوتر الجليّ في هذا التمازج الدولي للأحداث في الأوساط المدينية.

اشتمل الابتكار الثاني، عند بعض المهاجرين الذين في مرحلة الشباب، على الاحتمال المتنامي لزيارتهم لأوطانهم الأم، والفضل في ذلك هو لرخص السفر الجوي نسبيا أو سواه من السبل؛ كثيرا ما قصد الهنود والباكستانيون الوطن لقضاء الإجازة، فكان في ذلك صون لروابطهم بالأسر الممتدة، ووفر في كثير من الأحيان الفرص لترتيبات زواج للشباب أنفسهم. لقد ازدادت الفرص المتاحة لكثير ممن في مرحلة الشباب ليصبحوا «ذوي ثقافتين» في هذا الموقف، ملمين بثقافتين ومتنقلين بينهما بحرية. كان لهذا الأمر أن يشتمل على الأحداث الذين لم ينزحوا، بيد أن صلاتهم المباشرة بأبناء عمومتهم النازحين قد وفرت لهم الاطلاع على عادات المجتمعات الأخرى. كان في ذلك دعامة قوية للعولمة، وإن لم يستثر نموذجا ثقافيا واحدا.

بدأت جهود المنظمات الدولية لمساعدة الأطفال وإعادة تشكيل هيئة الطفولة منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى - علامة على العولمة السياسية وتنامي قوة الرأي

الإنســاني العالمي. عملت طائفة من الزمر على توزيع الغذاء والمعونة على الأطفال الذين هجروا في الحــرب، ومنهم الأطفال في الدول التي كانت من الأعداء. إن يكن هذا الأمر قد طبق على أوروبا بصورة أساسية، فإن مبدأ المؤسسات الخيرية الدولية الخاصة للأطفال قد ثبت أقدامه باطراد. بعد الحرب العالمية الثانية، كان لهذا الأمر أن يتفتــح في صورة مزيد من الجهود لمصلحة اللاجئين والأطفال في البلدان الفقيرة. إن المنظمات الخاصة، مثل صندوق «أنقذوا الأطفال»، والهيئات السياسية المتفرعة عن الأمم المتحدة، قد التمســت جميعها العمل الخيري ووزعت الأموال والمنتجات. كانــت حاجات الأطفال الفقــراء تفوق التبرعات على نحو منتظــم، بيد أن المعونة كانت ذات شأن، وكذلك ما تضمنته من مبادئ جديدة.

في العشرينيــات، أيضا، بدأت منظمة العمل الدوليــة، التابعة لعصبة الأمم، في تمريــر القرارات المضادة لعمالة الأطفال دون الخامســة عشرة. كان الهدف هو مد نطاق المعايير التي أصبحت شــائعة في المجتمعات الصناعية إلى العالم بأكمله. اتسع نطــاق هذا الجهد أيضا في ظــل الأمم المتحدة بعد الحرب العالميــة الثانية. هاجم عــدد كبير مــن المؤتمرات والقرارات العمل المفرط، مــع الإصرار على حق كل طفل في التعليــم. وضعــت الأمم المتحدة مســودات لبيانات رســمية في حقوق الأطفال (صــدر ميثاق حقوق الطفل في العــام 1989)، ووقعت عليها أكثر الدول، من حيث المبدأ عــلى الأقل: كانت الأهداف الأساســية هي الارتقاء بالصحة، واجتناب ســوء المعاملــة، والوصول إلى التعليم، إضافــة إلى مزيد من الحقوق المعيارية، مثل حرية الديــن والتعبــير - وهذه قائمة بالموضوعات معروفة، بيد أنــه صار ينظر إليها الآن في ضــوء مقاربة عالمية النطــاق. كان الجهد المبذول لحظر إعــدام الأطفال والذين في مرحلــة الشــباب عــلى جناياتهم هو من أهــم الأمور التي ركّــز عليها الاهتمام في التســعينيات، ولقد قبلــت، عمليا، كل المجتمعات في العالم بهــذه الاتفاقية، أما الولايات المتحدة فكانت إحدى الــدول المتمنعة عن ذلك (حتى العام 2005). لقد اجتهــدت منظمة الصحة العالمية للإعلاء من شــأن صحة الأطفال وبقائهم على قيد الحياة، وطبقت تحســينات عدة تحــت رعايتها - من حملات التلقيح التي تغلبت، على نحو كبير، على بعض الأمراض القاتلة التقليدية، مثل شــلل الأطفال، إلى البرامج التعليميــة التي صممت لتحســين رعاية الأمهات للمواليد. في أواخر الســبعينيات،

أصبح للرأي العالمي، وكذلك للمنظمات الدولية، ضلوع فعال في الهجوم على شركة نستله بسبب توزيعها مسحوق حليب أطفال في أقاليم حيث كان الماء غير النظيف وجهل الوالدين يؤديان إلى معدلات أعلى للوفيات مما يحدث في حالات الإرضاع الطبيعي؛ بعد مقاومة الشركة العملاقة للحملة الدولية في البداية، راجعت موقفها بشكل كبير في الثمانينيات. عملت برامج الأمم المتحدة الأخرى بنشاط على ترويج بعض أشكال السيطرة على عدد السكان، لمصلحة الاستقرار الاقتصادي وسلامة الأطفال معا: أقر مؤتمر كبير في العام 1996 هذا الهدف، على الرغم من التوترات مع السلطات الدينية في العالم الإسلامي وفي الكنيسة الكاثوليكية؛ أوصي على وجه الخصوص بتوفير مزيد من التعليم للنساء كوسيلة لخفض الضغط السكاني. أخيرا، عملت طائفة من الوكالات التابعة للأمم المتحدة والوكالات الخاصة على نشر أحدث المبادئ في التعليم وتنشئة الأطفال، وكثيرا ما وزعت المواد التي تحض الوالدين على العناية بأطفالهم كأفراد.

إن التزام أعداد كبيرة من ذوي النوايا الحسنة، وأكثرهم من أهل البلدان الأكثر غنى، برؤية عالمية لحقوق الأطفال وصحتهم وحمايتهم اقتصاديا كان جزءا مهما من العولمة على نحو أكثر عمومية. كانت فكرة حقوق الأطفال جديدة في كل المجتمعات، بيد أن فكرة اتفاق دولي حول هذا الشأن كانت مثيرة بالقدر نفسه على الأقل. وكان لها أن تحدث آثارا مهمة، حتى لو نحينا التصريحات المدوية جانبا. مثال ذلك أنه في العام 2003 حظرت الإمارات العربية المتحدة استعمال الأطفال كراكبين للجمال (هجانة) في السباقات: لطالما فضل الأطفال في ذلك بسبب خفة وزنهم، فكانوا يربطون على الحيوانات العظيمة على الرغم من رعبهم الجلي. كان هناك نسق راسخ وَجَب إعادة التفكير فيه من قبل دولة متلهفة للاتصال المباشر المتنامي مع الدول ولدور عالمي ناجح. الولايات المتحدة تأثرت أيضا. نص حكم للمحكمة العليا في العام 2005 على أنه ينبغي ألا يخضع القاصرون لحكم الإعدام، وهذه قضية ظلت الولايات المتحدة، طوال بضعة عقود، تخالف فيها كل بلدان العالم تقريبا؛ لقد استشهد بالمعايير القانونية الدولية كأساس مهم للقرار. من وجهة أكثر عمومية، وإلى جانب محاكاة الحكومات فرادى لنموذج الطفولة الحديث، فإن الحركة العالمية من أجل الأطفال هي عون على تعليل التراجع في معدل الولادات

تراجعا ثابتا (وإن كان متفاوتا)، وكذلك التراجع في معدلات وفيات المواليد والأطفال؛ وينطبق الأمر نفسه على الانخفاض الثابت في عمالة الأطفال في العقود الأخيرة من القرن العشرين، والازدياد الثابت في النسبة المئوية للأطفال الذين يتلقون بعض التعليم على أقل تقدير.

بيد أنه قد كانت أوجه قصور مهمة في مدى النشاط العالمي المتعلق بالأطفال. في المقام الأول، اشتعل الخلاف العلني في قضايا بعينها. لقد فشلت حملة قامت في العام 1973 للفوز بالموافقة العالمية على حظر عمالة الأطفال ممن هم دون السادسة عشرة، بسبب أن عدد الدول التي قبلت التوقيع لم يكن كافيا. اعتقدت بضع دول فقيرة أن اقتصاداتها تعتمد اعتمادا ما على عمالة الأطفال الرخيصة، وأن لكثير من الأسر الفقيرة الحاجة نفسها ؛ رفضت أيضا دول مثل الولايات المتحدة التوقيع لسببين معا هما الاتكال على عمالة الأطفال عند العمال الزراعيين النازحين، والمقاومة العامة لكل تعدٍ دولي على حرية التصرف الوطنية. كانت الاتفاقية البديلة في العام 1989 مهمة، لكن أكثر تواضعا: أصبح الآن الإفراط في سوء معاملة الأطفال محظورا من حيث المبدأ، مع تركيز خاص على الاستغلال الجنسي، وبيع الأطفال لدفع ديون الأسرة، واستعمال الأطفال في القوى العسكرية. وقعت أكثر الدول على هذه الوثيقة. كذلك ظهرت خلافات في أمر تحديد النسل، وقد أوقفت الولايات المتحدة، ابتداء من الثمانينيات، تمويل الوكالات الدولية التي توزع أدوات تحديد النسل أو التي تتيح الإجهاض بأي وسيلة كانت. زاد من الخلافات في هذه القضية المعارضة الكاثوليكية، وكذلك الإسلامية بقدر ما.

بالإضافة إلى الخلافات، قصّر كثير من الإجراءات السياسية الدولية عن الإتيان بنتيجة لأن المشاكل كانت حادة جدا، أو بسبب أن الأقاليم قد تجاهلت، كل على حدة، المبادئ المشمولة - حدث ذلك أحيانا حتى حين وقّعت بعض الدول على الميثاق الدولي من أجل الظهور بمظهر حضاري ومواكب لكل حديث. وقّع كثير من الدول على وثيقة حق الطفل في التعليم المدرسي، لكن بسبب نقص الموارد واعتماد الأسرة على عمالة الأطفال، فإن كثيرا من الأطفال قد حُرموا من التعليم تماما. استثارت معايير دولية أخرى خلافات صريحة على النطاق المحلي. كان للصراعات بشأن تحديد النسل أن تضع الزوجات في مواجهة مع الأزواج، والأطباء مع الكهنة؛

ومـع أن معـدل الولادات قد هبـط بالفعل، وحدثت انخفاضـات كبيرة في أمريكا اللاتينيـة وفي الصين، فقد اسـتمرت المعدلات العاليـة في أفريقيا وكثير من المناطق الإسـلامية. لقد انفتحت ثغـرة عظيمة، على ما ناقشـناه في الفصل 11، بين بيانات الحقـوق الدوليـة الرنانة وبين المعاملة الفعلية للأطفـال في أحوال الحرب والصراع الأهـلي: بذل العاملون في ميدان الحقوق جهدا عظيـما للتخفيف من آثار الحرب، ولقـد حققوا نجاحـا من حين إلى آخر، لكن من الواضح أنهم لم يتمكنوا من مواكبة حجم المشـكلة. كانت الآثار العالمية في الأطفـال أمرا لا ينكر، بيد أنه لم يكن هناك صوت عالمي فعال موحد.

أظهرت التوجهات بشـأن عمالة الأطفال بعضا من القيود على الجهود المعيارية العالمية، وعلى النموذج الحديث نفسه، ولكنها دلت أيضا، في آخر الأمر، على التأثير. لقـد جسرت هذه القضيـة الفجوةَ القائمة بين السياسـات والاقتصـادات العالمية. بحلـول أواخر القـرن العشرين، كانت معدلات عمالة الأطفـال تهوي في كل مكان تقريبـا، مع صعـود في التعليم المدرسي، ولم ينفِ ذلك حقيقـة أن أكثرية كبيرة من الأطفال كانت لاتزال تعمل في بعض الأماكن، وتحت ظروف من الاسـتغلال الواسع. لكـن الحال في جنوبي آسـيا وجنوبيها الشرقي كانت أمـرا يبعث على التحدي على نحو خاص لأن الإقليم لم يفشـل فقط في الامتثال للجهود الدولية للجم اسـتخدام عمالة الأطفال، بل عانى بالفعل معدلات مرتفعة في التسـعينيات، وفي ذلك معارضة صريحة للنزعـة العالمية. من الواضح أن قدرا من التحليل الإقليمي المقارن قد كان ضروريـا، ذلك أنه حتى بحلـول العام 2008 بينت تقارير الأمم المتحدة أن نحو 44 مليونا من الأطفال بين الخامسـة والرابعة عشرة كانوا يعملون في هذا الإقليم، ومع الإعـلان عن قدر مـن التراجع في هذه المرحلة، فلقد كان أبطأ مما في البقاع الأخرى على نحو ملحوظ. تفاوتت التعاليل لهذا الأمر، بالمقارنة مع أقاليم أخرى حيث كان الفقر واسعا بالقدر نفسه أو أكثر. من المؤكد، من جهة الهند، أن استمرار الجماعات السكانية الريفية الكبيرة قد كان أحد العوامل، بالمقارنة مع المجتمعات مثل أمريكا اللاتينيـة، حيث كانت الأسر الفقيرة أكثر مدينية. كانت نقطة ذات صلة بالأمر هي النقص في المنظومة المدرسية المتاحة على نحو تام، وبعض التردد من طرف الحكومة في الدفـع نحـو إلزامية التعليم. نتيجـة لذلك، تعثرت المكاسـب في معدل المعرفة

بالقراءة والكتابة، ولعل هذا يفسر أيضا رسوخ الاعتماد على الأطفال. في جنوبي آسيا ككل، شهدت الأماكن التي تمر بأزمة اقتصادية خاصة أو تضطرب بحرب أهلية، مثل سريلانكا إلى عهد قريب، شـهدت قدرا مرتفعا من عمالة الأطفال باعتبارها سـبيلا للأسر التي تحاول التوفيـق بين دخلها ومصروفها. اعتمد أحد الادعاءات على الرأي الراسـخ منذ زمن، والقائل بوجوب العمل على الأطفال، وبأنهم مهيأون له في سـن مبكرة.

بيـد أن التميـز الإقليمي، وعدم اكتـمال قبضة المعايير العالميـة، لم يكونا آخر القصة. بحلول العام 2008، وبعد تعثر، بدا أن إقليم جنوبي آسيا آخذ في الدخول في النزعة العالمية لاستبدال التعليم المدرسي بالعمل، لا سيما بعد أن تم تسجيل بعض التحسينات المتواضعة في الرخاء. كان في الهند 17 - 20 مليون طفل يعملون في العام 1999، لكـن الرقم هبط إلى 12.6 مليون بحلـول العام 2008، وهذا انخفاض مثير. لقـد كان للنفوذ العالمي النطاق والتأثـير المطلق للاقتصاد الأكثر حداثة أثر حقيقي وإن كان تدريجيا.

زادت العولمة الاقتصادية الأمر تعقيدا. ليسـت مسـتويات التجارة وحدها هي التي تبدلت مع هذا التطوير المركزي، بل منظومات الإنتاج الأساسـية أيضا. شيدت الشركات المتعددة الجنسـيات، بقواعدهـا في الولايات المتحـدة أو أوروبا الغربية أو حافـة المحيـط الهادي، منشـآت إنتاجية حيثما وجدت عمالة بتكلفة مناسـبة، وتنظيمات بيئية وموارد وأنظمة نقل مفيدة. كانت المنتجات المعقدة مثل السيارات تُجمع من أجزاء تصنع في آسيا وقارتي أمريكا وأوروبا. أما بالنسبة إلى الأشياء الأصغر حجما مثل المنسوجات، فإن شركات البيع العملاقة مثل غاب أو نايكي اعتادت على اسـتئجار مقاولين فرعيين يديرون مصانع قائمة بالفعل في أماكن من مثل إندونيسيا أو فيتنام أو ليسوتو.

لم تكـن ظـروف العمالة في الشركات المتعددة الجنسـيات جيدة دائما - كانت تنشـد المناطق ذات الأجر المنخفض، وكثيرا ما قترت في الإنفاق على معدات الأمان، واشـترطت ساعات عمل طويلة. مع ذلك، كان اسـتخدامها لعمالة الأطفال قليلا - كانت النسـبة المئوية للأطفال الذيـن يعملون في الاقتصاد العالمي مباشرة هي نحو 5 في المائـة فقط من الأطفال العاملين بحلول أوائل القرن الحادي والعشرين. كانت

تأثيرات العولمة الاقتصادية غير مباشرة على نحو أكبر، بيد أنها كانت عظيمة. كان هناك ضغطان كبيران. في المقام الأول، كثيرا ما حل الإنتاج العالمي محل التصنيع التقليدي، الذي كان يستخدم فيه الأطفال والأحداث. إلى جانب النمو السكاني المستمر في أماكن من مثل أفريقيا والشرق الأوسط، أفضى هذا الأمر إلى معدلات عظيمة في بطالة الشبان والشابات - أصبحت أرقام تبلغ في المدن 30 في المائة أو أكثر شائعة. وأصبح هذا الأمر، بدوره، من أهم المصادر لمختلف أشكال القلاقل عند الأحداث، ومن ذلك الانخراط في الحركات الدينية والسياسية المتطرفة. اشتملت النتيجة الثانية من نتائج العولمة الاقتصادية على خفض الإنفاق الثابت على البرامج الاجتماعية من قبل الحكومات في مجتمعات من مثل البرازيل أو الهند. دعت الفلسفة المهيمنة إلى التحول إلى اقتصادات أكثر حرية تقوم على السوق بدلا من الإنفاق الحكومي، كذلك فعلت الوكالات مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي التي كثيرا ما ضغطت في سبيل تقليص برامج الرفاه أيضا وجعلت ذلك من شروط قروض التنمية. وللهفة الحكومات إلى دفع النمو الاقتصادي، وأملا منها في أن يأتي النمو في آخر أمره بالمنافع للطبقات الأكثر فقرا، فإنها سارت قدما في ذلك، باستثناء قلة صغيرة جدا منها. ونتيجة لذلك هبطت المساعدات الأسرية.

كانت الأنساق معقدة. مع كل ضغوط العولمة، استمرت النسبة المئوية للأطفال العاملين في الهبوط على نحو ثابت، كما رأينا، من 6 في المائة من إجمالي القوة العاملة في العام 1950 إلى 3 في المائة في العام 1990 - أو من 28 في المائة من الأطفال دون الرابعة عشرة في العام 1950 إلى 15 في المائة في العام 1990. تسارعت التراجعات في الثمانينيات وما بعدها. بحلول العام 2004، كان 88 في المائة من جميع الأطفال في الأعمار المناسبة للمدرسة الابتدائية، في مختلف أرجاء العالم، يداومون في مدارس ابتدائية. لم تحدث العولمة، إجمالا، انقلابا عكسيا في الحركة نحو النموذج الأكثر حداثة. كذلك لم تكن بعض القصص المرعبة صريحة. لقد علّق أحد علماء الاجتماع الهنود على التقارير الصحافية التي تندب الساعات الطويلة والاحتجاز اللصيق الذي يعانيه العمال الأطفال في صناعات صيد السمك على الساحل؛ لقد جنّد الأطفال من مناطق أخرى، وكثيرا ما حدث ذلك بعد نزاع مع والديهم الذين أرادوا بقاءهم قريبين من المنزل. بيد أن الأطفال أنفسهم وجدوا العمل أمرا سويا

كليا، وسروا لهروبهم من الظروف الصعبة للقرى التي أتوا منها. لقد أسعدهم أيضا أنهم استطاعوا إرسال القليل من المال إلى أسرهم. استغلال؟ لا شك في ذلك، وفق كثير من المعايير. لكن المسألة الأهم كانت هي الفقر الطاحن. لقد أسهمت العولمة في عمالة الأطفال القاسية، فعلت ذلك على نحو أساس بفشلها في حل مسألة القيود الاقتصادية التي جابهتها أسر كثيرة جدا في العالم النامي، ومن المؤكد أنها زادتها سوءا في بعض الأحوال.

لقد كان للمنافسة العالمية النطاق وخفض البرامج الاجتماعية نتيجة واضحة: ازدياد في عدد الأطفال الذين في حال فقر. لقد حدث هذا الأمر حتى في البلدان الصناعية مثل الولايات المتحدة، وكانت له نتائج عظيمة في أفريقيا وجنوبي آسيا وجنوبها الشرقي وأجزاء من أمريكا اللاتينية. ازداد عدد الأطفال الذين تعتمد معيشتهم على أنشطة الشوارع - التسول والدعارة والعمل العرضي الذي لا يحتاج إلى مهارة والنشل - في أماكن كثيرة. ارتفعت عمالة الأطفال الصريحة لبعض الوقت، وقد رأينا ذلك، في جنوبي آسيا وجنوبها الشرقي - وقع ذلك على نحو أساسي في دكاكين الإنتاج الصغيرة والمنافذ الأخرى حيث العمالة المتاحة الأدنى أجرا ضرورية للبقاء. بلغت الزيادة 50 في المائة في أواخر التسعينيات في هذا الإقليم الضخم، هذا من غير حساب الذين تستخدمهم الأسر في الزراعة، متحدية النزعات العالمية النطاق الكبرى. بل لقد بلغ الأمر أن كثيرا من الأسر الفقيرة، التي أرهقها الدين، باعت الأطفال إلى العمل. من المؤكد تقريبا أن شراء الشابات للعمل في تجارة الجنس قد ازداد، ونقل بعضهن إلى مراكز السياحة الجنسية، مثل تايلند، من مواطنهن في أوروبا الشرقية أو سواها من الأماكن. بل إن بعض الأسر قد باع أعضاء من الجسد من أجل عمليات زراعة الأعضاء، وكان المراهقون هدفا خاصا لذلك. كائنة ما تكون المنافع الأخرى للعولمة - وكانت هناك حجج قوية تحابي نتائجها الإجمالية الحسنة في الاقتصادات السريعة النمو في أماكن مثل الصين والهند - فإنها زادت على نحو مثير من مساوئ الكفاح من أجل الحياة عند كثير من الأطفال وأسرهم.

كانت النزعة الاستهلاكية العالمية النطاق هي الوجه الكبير الأخير من العولمة، وقد أثرت في القيم والسلوكيات معا، واشتملت على كثير من الأطفال بسرعة. لقد رأينا اقتران الطفولة المتزايد بالنزعة الاستهلاكية في الغرب واليابان؛ لم يكن مستغربا

أن تفيض هذه العلاقة على المجتمعات الأخرى. بدأ اللبنانيون في ســن المراهقة، في المدن، يحضرون الأفلام الغربية على نحو منتظم في العشرينيات والثلاثينيات. لقيت الحماسة للبيسبول قبولا عند الشبان اليابانيين والأمريكيين اللاتينيين، وازداد انتشار التعلّق بكرة القدم. لكن تمام انفجار النزعة الاستهلاكية العالمية النطاق عند الأطفال قد انتظر إلى أواخر القرن العشرين، بتقاناته الجديدة وفرص السوق. تردد الأحداث على مطاعم الوجبات السريعة، وكثيرا ما أشــعر ذلك والديهم بخيبة الأمل – وكانت هذه، بالطبع، أحد مقاصد هذه الأذواق الجديدة. أصبحت محلات ماكدونالدز وما شــابهها من المنافذ ملاذات للشباب في كوريا والصين وسواهما من الأماكن، فكانت أماكن ليَروا وليُروا، ولينغمسوا في كثير من الأحيان في اهتمامات أخرى مثل المواعيد والعلاقات الغرامية. أعلت العروض التلفزيونية مثل «شارع سمسم»، والذي تُرجم إلى أكــثر اللغات الكبرى، من شــأن معايــير جديدة للأطفال، وقدّمــت «إم تي في» وجولات الروك العالمية لغة موســيقية شــبابية مشــتركة وولّدت نوادي للمشجعين عالمية النطاق بالمعنى الحرفي. شرع زي الأحداث المدينيين يتخذ سمات معيارية في أماكن كثيرة، وكثيرا ما كان ذلك معارضا لأنساق الراشدين وللأنساق التقليدية، وقد تمحــور على نحو معهود حول الجينز الأزرق المنتشر في كل مكان. أصبحت المرافقة إلى مــدن الملاهي من المعايير الجديدة التــي يظهر بها الوالدان تفوقهما الاقتصادي وحبهما لأطفالهما في عملية اســتهلاكية واحدة: أصبح أخذ الأطفال إلى أورلاندو(*) شــعيرة من شــعائر الوالدين الأمريكيين اللاتينيين الناجحــين المهتمين. كان هذا هو السياق الذي أصبحت فيه شخوص ديزني ودمى باربي جزءا من رزمة اللعب العالمية للأطفال. كان هذا هو السياق الذي بقي فيه كثير من الشبان الصينيين سهارى حتى طلوع الفجر ليشاهدوا دورة كروية أوروبية تجري في الجانب الآخر من العالم. أخذ مراقبــون معينون يؤكدون، على نحو فيه بعض المعقولية، أن ثقافة شــبابية عالمية النطاق قد برزت إلى الوجود.

في العام 2000، كانت معلمة شــابة منتسبة إلى «فرق السلام الأمريكية» تعمل في قريــة في شرقي روســيا، لم تر قبل ذلــك أمريكيا وليس فيها حاســوب ولا وصلة

(*) هي المدينة التي يقع بها متنزه عالم ديزني في ولاية فلوريدا. [المحررة].

إنترنــت. مع هذه العزلة المضروبة على طلابها فقــد وصفوا فكرة عامة دقيقة جدا عمّن تكون أجمل نســاء العالم، ووقع اختيارهم على بريتني سبيرز. في السنة نفسها أدركت إحدى الأنثروبولوجيات، وكانت تعمل في مدغشــقر على دراســة المراهقين والشــباب في أحد أحياء الفقراء، أدركت أن لدى هؤلاء الذين هم موضوع دراستها فكرة محددة جدا عن منتجات الجمال التي ينبغي للشــابات أن يطلبنها: المنتجات التي تجعلهن يظهرن أكثر شبها ببريتني سبيرز.

في نحــو العــام 2000 أيضا، وصــل التلفزيون إلى بعض جــزر المحيط الهادي الأكــثر بعدا. عندما رأت الفتيات الصور الجديــدة، أصبح كثير منهن غير راضيات عن أجســامهن ومعايير الاكتناز التقليدية. لقد ارتفعت معدلات القهم والبوليميا ارتفاعا ملحوظا.

حابــت النزعة الاســتهلاكية العالمية النطــاق الموجهة إلى الأطفــال الأقاليمَ والأسر ذات الرخاء النســبي. بحلول العام 2000، أخذ الازدياد في الســمنة عند الأطفــال يُلحــظ في أطفال الطبقة الوســطى في الصين والهنــد، وليس في الغرب فقط. الأعمال والأنشــطة الترفيهيــة التي فيها كثير من الجلــوس، ومعها الوفرة في الغــذاء، أتت بعواقب عالمية النطاق. حفلات الشــباب في إيران أو باكســتان التي تتميز بالموســيقى الغربية، والسجائر الغربية، والويسكي الاسكتلندي كانت بوضــوح علامات على الانتســاب إلى أهــل النخبة، وإن كانــت تتحدى الأعراف الدينية المحلية. بيد أن الأطفال الفقراء نسبيا لم يُستبعدوا من ذلك كليا، ولا سيما في المدن. كان لجزء مما يكســبونه أن يُنفق على منتجات اســتهلاكية جديدة – كالألبســة المسايرة للموضة ومستحضرات التجميل للمتورطات في تجارة الجنس في مدغشقر، على سبيل المثال.

من الأساسي أيضا الاعتراف بأن الثقافة الشبابية العالمية لم تقم تماما على المصادر الغربيــة. لقد أصبحت اليابان والقليل مــن البلدان الأخرى مراكز مبدعة أيضا، بناء عــلى النزعــات التي ابتدأت منــذ العشرينيات وفق ما رأينا. لقد اكتســبت اليابان ســيادة عالمية النطاق في ترويج الصور والمنتجات الجذابة للأطفال، واستخدمت في ذلك، بل اســتحدثت، تصوّرا جديدا للطفولة المبكرة: كان الجنون العظيم بمسلسل «هلــو كيتــي» أحد مظاهر ذلــك. في أثناء التســعينيات، كانت الحماســة العالمية

الانتشار لشخصيات بوكيمون علامة أخرى من علامات النفوذ الياباني. تولت اليابان أيضا الزعامة في مختلف الأساليب والمنتجات الداخلة في الأزياء الشبابية المثيرة للإعجاب، وقد جاءت صادرات الأزياء المثيرة في رأس قائمة الصادرات اليابانية، من جهة المدخول، بحلول سنة 2003. لقد أتت الأساليب اليابانية بنماذج موجّهة للثقافة الشبابية في شرقي آسيا بل الشرق الأوسط. لقد برزت برامج الرسوم المتحركة والأدوات الإلكترونية اليابانية المصممة للشباب بروزا مرموقا في مختلف أرجاء العالم. عرضت مجلة «وايرد» Wired المنتجات التي تبنتها الشابات اليابانيات بوصفها مبشرة ومتنبئة بنزعات عالمية النطاق أكبر حجما.

لم تكن النزعة الاستهلاكية الشبابية متجانسة على النحو الذي تخيله كثيرون، حتى عندما أصبحت شعبية على نحو واضح. كانت الحماسة لموسيقى الراب الأميركية تعني أمرا مختلفا عند الأحداث محدودي التمكن من الإنجليزية. إن اللعب بألعاب الفيديو أو اللُعب اليابانية - كانت لبعض «الصرعات»، مثل بوكيمون، جذور في الثقافة اليابانية الخاصة لم تسافر معها أوتوماتيكيا - كان يقدم معاني مختلفة أيضا، وفق السياق. هذا النوع من المزج هو نتيجة شائعة من نتائج الاتصالات الثقافية المباشرة الجديدة، ولقد عمل، قطعا، على الحد من المقدرة على تعريف ثقافة شبابية واحدة.

بالطبع، لم تنجح دائما الجهود التي بذلت للمزج. بحلول أوائل القرن الحادي والعشرين، ومع نمو المدن والفرص الاستهلاكية في بعض أجزاء أفريقيا، عُرضت على الوالدين فرص لشراء عربات الأطفال لمولوديهم، وهذه ترجمة جلية للمعايير العالمية النطاق. بيد أن مقاومة كبيرة قد نشأت في وجه ذلك بسبب التقاليد الأفريقية القائمة منذ زمان طويل، وهي حمل المواليد بالقرب من الجسم، حتى في أثناء العمل. لقد ترددت الأمهات بشأن التخلي عن الاتصال المباشر الذي كن يرين فيه أمرا قيما قد يكون نافعا للتطور العاطفي للطفل. في كيرالا، وهي ولاية في جنوبي الهند، حاول المحافظون أن يكيفوا حماسة الفتيات المراهقات المتنامية لمسابقات الجمال. كان الحل الذي توصلوا إليه هو هذا: مهرجان تُظهر فيه المتنافسات معرفتهن باللغة والأساليب الثقافية المحلية، ومن ذلك الرقص. المشكلة هي: لم تكن لدى الشابات المهتمات بالاشتراك في المسابقة إحاطة كافية بالأعراف، أما أكثر الفتيات التقليديات

فقد قاطعن المسابقة. كان من العسير العثور على فائزة حقيقية، وكان الإخفاق هو نصيب جهود الجمع بين الأمرين، في المدى القصير على أقل تقدير.

بيد أنه كانت هناك بعض السـمات المشـتركة. لقد أكسبت النزعة الاستهلاكية العالميـة النطاق الأحداثَ، والأطفالَ ولكن بقدر أقل، في كثير من الأقاليم إحساسـا بهوية وانتماء منفصلين. عندما سـئل شـاب في هونغ كونغ، عن سـبب تحوله إلى زبـون دائم لمحلات ماكدونالدز، قال إنه لا يحب الطعام كثيرا، بالمقارنة مع الأكلات الصينيـة، بيد أنه قد تفاخر بوجوده في مـكان كوزموبوليتاني كهذا. من الواضح أن الأسـاليب الجديدة قد منحت الأحـداث بديلا عن قبول سـيطرة الوالدين التامة؛ يمكـن للنزعة الاسـتهلاكية بهذا المعنى أن تكون سـلاحا حقيقيـا في صراع صامت للقـوى رجحت فيه كفة الشـباب. كثـيرا ما كانت للأطفال أفضليـة ليس لها مثيل لقيـادة مجتمعـات أكبر حجما، ومن ذلـك أفراد الأسرة الراشـدون، نحو مزيد من المعرفة والجدارة الاسـتهلاكية (ومن ذلك المعرفة باستخدام الحاسوب)، وهذا دور جديد مثير. في الوقت نفسـه، أثرت النزعة الاستهلاكية أيضا فيما عند الراشدين من تصورات للطفولة ولمسؤولياتهم كوالدين. في وقت ما في أواخر القرن العشرين، أخذ الوالـدون في أكثر الأمكنة يعتقدون أن تقديم السـلع والأوقات الطيبة للصغار هو جزء حيوي من دورهم، وعانوا شـعورا حقيقيا بالذنـب كلما بدا أن طاقتهم لفعل ذلك غير كافية. هاهنا قدر عظيم من الأمثلة الرمزية والعملية. بحلول الثمانينيات، تحول كثير من الوالدين المكسـيكيين إلى الأسـلوب الأمريـكي في الاحتفال بهالوين، المكمّـل بحلوى تقدم للصغار، وذلك بإزاء المهرجان الديني المهيب الذي لطالما ميز هذا الاحتفال عندهم؛ وأخذ الوالدون في إسـطنبول يشترون هدايا الميلاد لأطفالهم مع أنهم ليسـوا مسـيحيين؛ وشـهد عيد الفطر، الذي يأتي في آخر شهر رمضان عند المسلمين وهو من أوقات التزهد، تغيرا في شراء الهدايا والبطاقات للصغار. قليلة هي المؤسسـات المعنية بالأطفال التي اسـتطاعت أن تقاوم النزعة الاستهلاكية العالمية، إذا ما استثنينا الهيئات التي فعلت ذلك بسبب شدة فقرها أو بُعد موقعها الريفي.

لم تشـمل العولمـة بحلول أوائل القـرن الحادي والعشرين الحركات الشـبابية العالميـة النطاق الموجهة نحو الاحتجاج أو التحريض. في أواخر السـتينيات وأوائل السـبعينيات، قبيل ارتفاع مد العولمة المفاجئ، في هذا مفارقة، برزت ملامح لحركة

احتجاج شـبابية دولية. ثـارت انتفاضات طلابية، قامت عـلى نحو خاص في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، بيد أن بعض أصدائها قد تردد في شرقي أوروبا وسـواها مـن الأماكن، وهاجمت حرب فيتنـام، والعنصرية، والقيود التـي تفرضها المدارس المزدحمـة، والقيود على الحركة، وزخارف المجتمع الاسـتهلاكي الذي أوقع الوالدين - وفـق أكثر الزعماء المفوهين - في أحبولة حياة سـطحية بلا معنى. لقد اسـتولت الجماعات الطلابية على المدارس، وأشـعلت في باريس في سـنة 1968 حركة كادت تبلغ الثورة، وأعطت الطلاب سيطرة على أجزاء من المدينة بعضا من الوقت. ادعى كثير من المراقبين جازمين بأن الذين في مرحلة الشباب سوف يأخذون مكان الطبقة العاملة كمصدر للقلاقل المعاصرة، كحَمَلة لضمير إنساني.

لقـد ثبت أن التنبؤ غـير صادق. انحسرت الاحتجاجات الشـبابية الغربية بعد سـنة 1973 بالتدريج، وإن استمرت قلة من الجماعات العنيفة في أوروبا عقدا آخر مـن الزمان. لقد انقضى التعاظم السريع في عدد الأطفال فخفض ذلك من الازدحام المدرسي، وحظيت برامج الجامعات ببعض الإصلاحات، وثبت أن النزعة الاستهلاكية جذابـة لمعظم الأحداث أكثر مما هي منفرة. رأينـا أن الأحداث كثيرا ما انضموا إلى القلاقـل بحلـول القرن الحادي والعشريـن، بيد أن ذلك قد تـم غالبا تحت رايات إقليمية، منها الحركات الدينية، لا الرايات العالمية النطاق. لقد أيد كثير من الأحداث الحملات العالمية لحقوق الإنسـان، بل انجرّ عدد أكبر من ذلك إلى القضايا البيئية، وإن كانت مسـاهمة أبناء الدول الصناعية في ذلك تفوق مسـاهمة سواهم أضعافا مضاعفـة. إن التقاليد والظروف المختلفة، وكذلك درجـات الانجذاب المتفاوتة إلى جوانـب العولمة، قد بثت الفرقة بين شـبان العالم وشـاباته، وإن خضعوا لقدر من التأثيرات المشتركة.

كانت العولمة نفسها شيئا مثيرا للتفرقة، ولقد رأينا ذلك. اختلف الأطفال الأغنياء نسـبيا، المشـاركون في الصور الجديدة من النزعة الاسـتهلاكية، اختلافا عظيما عن الأطفـال الذيـن حُشروا حديثـا في أدوار العمل في الهند أو صغـار ريو دي جانيرو شـطّار الشـوارع، وإن كان لهؤلاء أيضا طموح في نيل بعض المغريات الاسـتهلاكية. إن البريطانيـين أو الألمـان المراهقين الحليقي الرأس، الذين حرّشـوا العنف في وجه الأقليات العرقية، قد شـاركوا الشـبان المهاجرين في اهتمامهم بأسـاليب موسيقية

شـبابية، بيد أن الأساليب قد تصادمت كتصادم العصابات من الفريقين، ولم تحدث عـن ذلك نتيجة موحـدة. لقد كان للعولمة نفوذ في التقاليـد المحلية للطفولة عند كثـير من الأطفال والراشـدين معا، بيد أنهـا لم تتفوق عليها. ربما سـعى الوالدون اللبنانيون لكي ينال صغارهم تعليما وفق الأسـلوب الغـربي، وربما قرأوا القليل من الكراسـات الحديثة في تنشـئة الأطفال، بيد أنهم لم يرغبوا رغبـة حقيقية في قبول أطفالهـم للمسـتويات الغربية في الفردية على نحو يسـمو فوق الواجبات الأسرية الأكثر تقليدية. لقد بقيت عوالم الأطفال متنوعة.

كانت للعولمة أيضـا علاقة معقدة مع نموذج الطفولة الحديث، عدا حقيقة أن نفوذهـا في كثير من البقاع لم يكن نفوذا تامـا. لقد قدمت تيارات النزوع الجديدة لكثـير من الأسر التعليم المدرسي وكثير مـن الأدوات الأخرى للطفولة الحديثة، وإن كان للعنصرية واللاتساوي في الفرص أن يحدا من أثر ذلك لدى البعض. لقد عملت العولمة السياسـية بوضوح في سبيل النموذج الحديث: كانت الوكالات الدولية تريد صحة أحسـن حالا، ومعدلات للـولادات أكثر انخفاضا، وحمايـة قانونية للأطفال، وتقليـلا من العمل أو إلغـاءه، وتعزيزا لفرص الوصول إلى التعليم المدرسي. لسـوء الحظ، كانت الذراع السياسـية هي أضعف عناصر العولمة، من جهة التأثير الفعلي. وقللـت العولمة الاقتصادية، بما أتت به مـن نتائج عند كثير من الأطفال، من إتاحة النموذج الحديث للأطفال الذين في الشـوارع أو المستخدمين استخداما رسميا، مما صعب من إيجاد الوقت من أجل التعليم المدرسي، وعقّد أيضا من الظروف الصحية في بعـض الأحـوال. أخيرا، كانت العولمـة متوافقة مع النمـوذج الحديث من جهة الأطفـال الذين رأوا في النزعة الاسـتهلاكية مصدرا للذة مصاحبـا للتعليم المدرسي؛ لعله كان لها بعض المضامين الفردية المتوافقة مع النموذج الحديث أيضا، وقد رعت أيضا سمات حديثة أخرى مثل جماعات الأقران والأنشطة المحددة وفقا للعمر. لكن للنزعة الاسـتهلاكية أيضا أن تحرف الأطفال عن التعليـم المدرسي وقد يثبت أنه لا صلة لها بالسمات المركزية للنموذج الحديث.

في حقيقـة الأمر، حاجـج بعض المراقبين قائلـين إن العولمة كانـت تعيّن إطار الطفولـة في كثـير من أجزاء أفريقيا، على حسـاب النمـوذج الحديث. لقد جعلت البطالة المتنامية كثيرا من الشباب أكثر هامشية وقللت من شأن التعليم المدرسي. إن

الشــباب الذين أمكنهم كسب المال، مثل البغايا اللائي يخدمن الزبائن الأغنياء، كثيرا ما كرســوا مرابحهم للاســتهلاك، بيد أن ذلك لم يؤدِ بهم إلى جهة معاكسة للتهميش في المجتمع الأوسع. لم يبرز الشباب في هذه الظروف كفئةٍ محمية وظيفتها الأساسية القصوى هي التعليم. لم يكن التهميش نســقا اشــتمل على الأفارقة جميعا، ذلك أن اللهفــة إلى التعليم قد بقيت، وكان عدد الطامحين إلى التعليم المدرسي الثانوي أكثر من الأماكن المتاحة؛ وكثيرا ما كانت الحماســة للتعليــم ذات صلة بالالتزام بخفض معــدلات الولادات أيضا - بعبارة أخرى، كان النموذج الحديث في تجسّــد أفريقي. بيد أنه كان للعولمة أن تحرف كثيرين، في أفريقيا وسواها، عن النموذج الحديث أو أن تقوضه كليا، فتولّد طائفة جديدة من العوامل في فجر القرن الحادي والعشرين.

أخيرا، وهذا أمر متوقع أكثر من غيره، كان للعولمة أيضا أن تشجع على المقاومة باســم التقليد. لقد احتشد كثير من الأحداث وراء الهويات الإقليمية المهددة، حتى إن شــاركوا في بعــض جوانب العولمة. مثــال ذلك أن كثيرا من الشــابات في الشرق الأوســط قد رجعن، طوعا، إلى أســاليب أكثر تقليدية في اللباس في نحو سنة 2000، كوســيلة لتقرير اســتقلالهن عن العولمة التي يهيمن عليها الأجانب وعن الضغوط من أجل تجانس أعظم قدرا.

إجــمالا، كانت العولمة قوة حقيقية، تُضاف إلى العوامل التي تســتثير التغيير في الطفولة في السنوات القريبة من سنة 2000. إن العولمة باجتماعها مع الدفع، القائم مــن زمان بعيد، نحو النموذج الحديث في بعــض الأحوال، وبإحداثها بعض مظاهر النفوذ المشتركة الإضافية، لم تمحُ صور التنوع قديمها ولا حديثها. لقد احتوت القرية العالمية النطاق على أنماط مختلفة من الطفولة كثيرة.

لمزيد من القراءة

- Paula Fass, **Children of a New World: Society, Culture and Globalization** (New York: New York University Press, 2007).

- Rachel Christina, **Tend the Olive, Water the Vine: Globalization and the Negotiation of Early Childhood in Palestine** (Charlotte, NC: Information Age Publishing, 2009).

- Marilyn Fleer, Mariane Hedegaard and Jonathan Tudge, **World Yearbook of Education 2009: Childhood Studies and the Impact of Globalization: Policies and Practices at Global and Local Levels** (New York: Routledge, 2009).

- Heather Montgomery, **An Introduction to Childhood: Anthropological Perspectives on Children's Lives** (Chichester: John Wiley & Sons, 2008).

- B.S. Trask, **Globalization and Families: Accelerated Systemic Social Change** (New York: Springer Science+Business Media, LLC, 2009).

- Hugh Hindman, ed., **The World of Child Labor: An Historical and Regional Survey** (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 2009).

- **Journal of Social History** (vol. 38: June 2005) on globalization and childhood. Nancy Scheper-Hughes and Carolyn Sargent, **Small Wars: The Cultural Politics of Childhood** (Berkeley: University of California Press, 1998).

- Tracey Skelton and Gill Valentine, **Cool Places: Geographies of Global Youth Culture** (London: Routledge, 1998).

- **United Nations Development Program, Human Development Report** (Oxford: Oxford University Press, 1999).

- Tobias Hecht, **At Home in the Street: Street Children in**

Northeast Brazil (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

- Jeremy Seabrook, **Children of Other Worlds: Exploitation in the Global Market** (London: Pluto Press, 2001).

- James Watson, ed., **Golden Arches East: McDonald's in East Asia** (Stanford, CA: Stanford University Press, 1998).

- Timothy Burke, **Lifebuoy Men, Lux Women: Commodification, Consumption and Cleanliness in Modern Zimbabwe** (London: Leicester University Press, 1996).

- **United Nations Children's Fund, The State of the World's Children 2002** (New York: UNICEF, 2002).

13

معضلة سعادة الأطفال

«هـل الأطفال أكـثر سـعادة الآن بعد أن صار يتوقـع لهم أن يكونوا كذلك؟»

نالــت ســعادة الأطفال عنايــة جديدة، على المستوى العالمي، في العقود الأخيرة. ويثير التقدير المتنامــي لســعادة الصغــار عددا من المشــاكل التأويليــة، وقــد تكــون مفيدة كمقدمــة أخرى للمشــكلات التحليلية الحاســمة في أحدث أطوار التاريــخ العالمــي. إن في موضوع الســعادة عونا عــلى تركيز النقاش في أمر التغيرات ما بين المرحلة المعاصرة والماضي، ومن ذلك أســباب التغيير؛ إنها تدفع إلى الأمام النظرَ في القضايا المقارنة في وسط ما للنــماذج الغربية مــن أهمية جليــة، وأوجه قصــور أيضا؛ وتوجــب، فعليا، وفــوق كل شيء، مزيدا من التقويم للتأثير المعقد للأفكار الجديدة حول الراشــدين والأطفال على حد ســواء. هناك الكثــير مما لا نعرفه عن الســعادة بوصفها جانبا تاريخيا قريب العهد من جوانب الطفولة، بيد أن ما نعرفه يثير الجدل، والقضايا الإضافية التي علينا طرحها هي قضايا كاشفة عن أمور مهمة أيضا.

النقطــة الأولى هي نقطة صارخة، لكنها تحتاج إلى بعض التحذيرات الفورية: لم تقرن المجتمعات التقليدية (والمجتمعات الزراعية قطعا)، ما عدا قلة منها، الطفولة بالســعادة على نحو منهجي. لقد رأينا أن قلة من الراشــدين الذين تركوا ســجلات مكتوبــة عن حياتهم، في المرحلة الكلاســيكية، قد نظروا بشــغف إلى جانب ما من جوانب ســنواتهم الأولى، إذا ما استثنينا كلمة طيبة عرضية ذكروا فيها الأم. لم يحس الوالدون، من جهتهم، بمســؤولية خاصة عن جعل الأطفال سعداء. جعلهم مطيعين وكادّيــن، نعم؛ تربيتهم أخلاقيا، حتما؛ أما الســعادة فلم تكن جزءا من المعادلة. في بعض الأحوال، ومثالها الاعتقاد المســيحي في الخطيئة الأصلية، كان لمنتجات ثقافية معينة أن توســع المســافة العادية بين النظر إلى الطفولة والأمل في الســعادة. من المؤكد أن تواتر وفيات الأطفال والحاجة الجلية إلى جعل الأطفال يعملون عقّدا كل فكرة عامة عن السعادة حتى من الوجهة الأكثر عمومية.

لكن التحذيرات مهمة. إن حقيقة عدم الموازنة بين الطفولة والســعادة لا تعني أن الراشدين قد ســعوا في المعهود إلى جعل الأطفال تعساء. لقد فعلَ ذلك بعضهم (ويفعلــه البعــض في المجتمعات الحديثة)، ملتذين بمعاناة الأطفال. لكن لا ســبب للاعتقاد أن أكثر الراشــدين كانوا يســيئون معاملة الأطفــال متعمدين، وكثير منهم كانــوا يــسرون سرورا حقيقيا بوجود أطفالهم، وبالمتع التي يشــاركونهم فيها ـ على رغــم غياب التزام صريح بالســعادة. أضــف إلى ذلك أنه، باســتثناء ما كان يحدث بســبب سوء المعاملة، فلا ســبب للاعتقاد بأن الأطفال أنفسهم كانوا بالضرورة غير ســعداء على نحو خاص في السياقات التقليدية. من المؤكد أنهم كانوا كذلك أحيانا، بســبب انحطاط المكانة وأعباء العمل مضافة إلى تعقيدات النمو المعتادة. بيد أنه كثيرا ما كان الأطفال يســتطيعون نيل السرور في المهرجانات التي تقيمها الجماعة، ولعــل مقدار ما يُترك لهم من فراغ لينغمســوا في اللعــب، في أثناء وقت الفراغ من العمل، قد وفر لهم بالفعل مقدارا معينا من الإشباع. إن «فكرة» السعادة هي التي كانت مفقودة.

بدأ هذا الموقف يتغير، في المجتمعات الغربية، في القرنين الثامن عشر والتاســع عشر ـ تحديدا في الوقت الذي تمدد فيه الاهتمام بالسعادة إلى الجوانب الأخرى من الثقافة. لقد وسع التنوير من نطاق التقدير الإيجابي للسعادة ـ ومثال ذلك أن هذا

الأمر سوف يظهر في إعلان الاستقلال الأمريكي، بما فيه من ذِكْر للسعي وراء السعادة، على قدم المساواة مع السعي وراء الحياة والحرية. مع تراجع الأفكار الأقدم عهدا عن الخطيئة ببطء عند بعض الجماعات المسيحية، انفتح باب على إعادة التفكير في معاملة الأطفال. بعد ذلك، ومع النقلة الديموغرافية، أحدث التراجع في معدلات وفيات الأطفال انخفاضا في الحاجز العظيم القائم أمام التزام الراشدين بالنظر إلى الأطفال باعتبارهم التزامات ذات صبغة إيجابية أكثر من قبل، ولعل الهجوم على المستويات التقليدية لعمالة الأطفال كان له الأثر نفسه.

مع ذلك، فمن المفاجئ أن النقاشات الفعلية في أمر الأطفال من جهة فكرة السعادة قد ظهرت على السطح ببطء. كان هناك بعض الإشارات في إنجلترا في نحو العام 1800، بيد أنه لم يكن شيء منها منهجيا جدا. إن القصائد القليلة التي نظمت عن بهجة المولودين، وبعض مقولات أهل الفكر عن «نضارة الأطفال وروعتهم» لا تكاد توحي بتفكير جديد. في الولايات المتحدة، برزت على نحو غير متوقع إشارات إلى سعادة الأطفال في القرن التاسع عشر، لكن الهدف من ذلك كان التربية الأخلاقية التقليدية وليس السعادة بحد ذاتها (وإن كان من المثير للاهتمام أن اللفظ قد استُعمل): لقد حضت طائفة من الكتّاب المرشدين الناصحين الوالدين قائلة إنه بالفضيلة دون غيرها يستطيع الأطفال نيل السعادة: وعلى هذا النحو (جاء في كراس مشهور وضعته كاثرين بيتشر): «يمكن تعليم الأطفال منذ نعومة أظافرهم أن سعادتهم الآن وفي الآخرة معا موقوفة على تكوين عادات الخضوع، ونكران الذات، والإحسان». في أواخر القرن التاسع عشر، وردت في الأعمال الإرشادية إشارات متزايدة إلى أهمية المرح للأطفال، لكن مع أن هذا الأمر قد كان واجبا جديدا في مجتمع يبدي اهتماما متزايدا بالتفاعلات الإنسانية السارة، فإنه إنما كان حجر عبور إلى ملازمة حقيقية بين الطفولة والسعادة. كانت الفكرة أن الراشدين المرحين كانوا أحسن الناس أداء في حياتهم، وعليه فإنه ينبغي للأطفال أن يعاملوا على نحو يشجع هذه النتيجة.

أخيرا، بحلول العشرينيات، ظهر التزام تام بسعادة الأطفال، من حيث المبدأ على أقل تقدير، وفي الولايات المتحدة على أقل تقدير. أخذت الكراسات الموضوعة في تنشئة الأطفال تُتبّل بأقوال مثل: «السعادة ضرورية كضرورة الغذاء إذا أريد

للطفــل أن يصبح رجلا أو امرأة طبيعية» و«ينبغــي أن يكون القصد من التربية في كل أطوارها هو جعل الطفل سعيدا بقدر الإمكان»، واشتملت عناوين الكتب على: «كيف يكون أطفالكم مرحين» (1927) أو «تمرين الأطفال: الطريق إلى الســعادة» (1948). ينبغي إعادة النظــر حتى في التأديب: إن غض النظر عن ارتكاب الأطفال للمخالفات الصغيرة هو خير من إفســاد سرورهم بالتأديب. كانت المسألة الوحيدة، في هــذا المد الأمريكي المتعاظم، هي هل الأطفال ســعداء بالطبيعة، ولذلك فكل ما ينبغي للراشــدين أن يقلقوا بسببه هو عدم إفساد الأمور، أم إن في طبيعة الأطفال تحديــات توجب على الراشــدين محاربتهــا، وفي هذه الحال فــإن الالتزام الجديد يقتــضي من الوالدين وغيرهم شــيئا من العمل الإضافي. مثــال ذلك أن قدرا لا بأس بــه من النصح صار يوجه الآن نحو حضّ الأمهــات والآباء على العمل بجد ليظهروا بمظهر الســعداء أمام صغارهم، ليقدموا مثالا وسياقا إيجابيين ـ سواء عليهم أشعروا بالســعادة فعلا أم لا. بل إن السياســة الحكومية كان لها أن تحوّل وجهتها: بحلول الخمسينيات، تحولت مؤتمرات البيت الأبيض حول الأطفال من قضايا الصحة البدنية إلى انشــغالات بالسعادة أوسع نطاقا. ولقد عملت منظمات جديدة للأحداث، مثل «كشافة الصبيان» و«بنات المعسكر»، على دمج السعادة في مبادئها الأصولية: مثال ذلك أن جماعة المعسكر جعلت الحض الصريح «كنّ سعيدات» خاتمة لتوجيهاتها.

لقد انصب في حركة الســعادة الجديــدة في أماكن مثل الولايات المتحدة ما هو أكثر من مجرد الخطاب. كان حَمْلُ الأطفال الصغار جدا على التبسم عند تصويرهم هو تنفيذ للحملة الجديدة مثير للاهتمام. إن كثيرا من الممارسات الاستهلاكية، شراء اللُعب وأدوات الترفيه للصغار، قد ســعت سعيا جليا إلى الوفاء بواجبات السعادة. اتخذت شركة ديزني، وقد تأسســت في العشرينيات، شــعار «اجعلوا الناس سعداء»، وباعت الكثير من بطاقات الأفلام للأسر التي تتوقع لنسلها هذه النتيجة بعينها. وفي الثلاثينيات التي ابتليت بالكســاد، أطلق على شــيرلي تيمبل، وهي نجمة سينمائية طفلة، اســم «فتاة شــعاع الشــمس». لقد حض علماء النفس على أهمية السعادة الطفولية، وحث كثير من الراشــدين على تعليل مشــاكلهم بالرجوع إلى ما لقوه في سنيهم الباكرة من تعاسة، وهذا ينطوي ضمنيا على أن هذا الأمر كان يمكن وينبغي اجتنابه. لعل أكثر الدلالات كشفا، فيما يخص الوصفة الجديدة، أن أغنية «عيد ميلاد

سـعيد» (happy birthday) (التي تَستعمل لحنا وضِع في تسعينيات القرن التاسع عشر) قد ظهرت في وسط العشرينيات؛ لقد استُعملت في أول الأمر في العروض وفي البرقيات الرنانة، وفي العقدين اللذين أتيا بعد ذلك أصبح هذا البيت من الشعر رمزا معياريا لما يستحقه الأطفال في عيد اكتسب خصوصيته في عهد قريب.

إن الفكرة القائلة إنه ينبغي للأطفال أن يكونوا سعداء هي، إذن، من ابتكارات التاريخ القريب، ابتدأت في المجتمعـات الغربية وكانت الزعامة فيها، على الأرجح، للولايـات المتحدة. لقد صارت هـذه الفكرة العامة الآن ضاربة الجذور عميقا حتى إنه لربمـا دهش البعض بهذه الحقيقة، بسـبب تسـليمهم أن المفهوم بأكمله هو طبيعي على نحو ما. إن مبايَنة هذا الأمر للأفكار والممارسـات الأكثر تقليدية تجعل من الواضح أنه يشتمل على ابتكار حقيقي.

مـا الذي أحدث التغيير؟ لقد تعاونت في ذلك عوامل عدة، لكن في حقيقة الأمر ليس من السهل تعيين أهم المحفزات. لقد رأينا أن الشروط المسبقة تشتمل على معدل للوفيـات أدنى من قبل وهجمات على عمالـة الأطفال (ولقد اتخذ كثير منها، بحلول القرن العشرين، من السـعادة وسـيلة لعمل مبايَنة مع أعباء العمل غير المرغوبة). لقد لعبت النزعة الاستهلاكية دورا عظيما، لما أدركت الشركات من مختلف الأصناف كم من الأشـياء يمكن بيعهـا للوالدين بوصفها جزءا من الوفاء بواجبات السـعادة. كما أرخت القناعات الجديدة حول الرشـد بظلالها، في المجتمعات التي سلّمت على نحـو متزايد بأن المرح علامة على الصحة العقلية وشرط مسـبق للنجاح الاقتصادي. لعل التعويض عن الكد في التعليم المدرسي قد برز أيضا لما سـعى الوالدون، الواعون لأهمية النجـاح المدرسي، إلى دفع الصغار أو مكافأتهم بملذات خارج المدرسـة، ولما حاولت المدارس نفسها على نحو متزايد أن تجعل التعلّم «مبهجا».

هل تضاف هذه العوامل إلى إحساس بأن الانعطاف نحو السعادة هو جزء ذاتي من التعريف الحديـث للطفولة ـ أم أنه كان نتاجا لطائفة مخصوصة من الظروف الغربية؟ إنه سؤال ذو مغزى، أما الجواب فأكثر إثارة للتحدي بكثير.

الواضـح هو أن عددا من المجتمعات الأخـرى، في العقود الأخيرة، قد تبنت، أو طـورت بصورة أكثر عفوية، الكثير من الأفكار العامة الغربية، فجعلت من سـعادة الأطفـال موضوعا عالمي النطاق على نحـو متزايد. ليس من العجيب أن التغيير قد

اشتمل على نحو مخصوص على مزيد من الزمر الغنية أو المدينية، ولا سيما في المجتمعات التي استمر فيها تعثّر معايير المعيشة الإجمالية؛ ومع ذلك فإن للموضوع مغزى، مع استمرار تحقيق الأفكار والسلوكيات لمزيد من النجاح.

على هذا النحو فإنه في السنوات العشرين المنصرمة أو نحوها تحولت الطبقات الوسطى السريعة النمو في الهند تحولا صريحا نحو اهتمام أعظم قدرا بسعادة الأطفال. على هذا النحو يوصي الموقع www.indiaparenting.com بإقامة «حفلات لعيد الميلاد في المنزل» مع موضوعات خاصة، ويضيف قائلا إن دعوة أحد المهرجين أو السحرة قد تكون عونا على ضمان إحداث السعادة. على نحو أكثر عمومية، يزعم أكثر من 20 في المائة من الوالدين في أحد استطلاعات الرأي الهندية أنه يمكن للأطفال تعلّم أن يكونوا سعداء وينبغي أن يكونوا كذلك. إن الابتعاد عن الرأي القديم في الطفولة (بعد مرحلة المولود) بوصفها وقتا للتمرين الأخلاقي والديني الصارم هو ابتعاد لا بأس به.

تبرز في الشرق الأوسط أنساق مماثلة لما ذُكر، إذا ما استثنينا الزمر الإسلامية الأكثر التزاما. تتميز دبي، في الإمارات العربية المتحدة، بمركز تسوق يتخذ من شعار «الأشياء التي تفضلها الأم وطفلها» دعاية لنفسه بوصفه موقعا من الدرجة الأولى لحفلات عيد الميلاد: يعلن الموقع، بما فيه من مهرجين وآلات غزل البنات وحديقة للحيوانات المدللة وسوى ذلك من مراكز الترفيه، يعلن عن نفسه بوصفه «الاختيار الأول للوالدين الذين يتطلعون إلى تلك اللمسة الشخصية والتنظيم الممتاز واليوم الذي سوف يبقى في ذاكرة أطفالهم على نحو حقيقي». ليس عجبا أن يدخل في احتفالات عيد الميلاد عند الطبقة العليا عنصر ذو صبغة تنافسية قوية. في مصر أيضا، يحتفى بأطفال الأغنياء بحفلات مسرفة فيها زينة وغناء ورقص.

لقد اعتنقت الأسر الأمريكية اللاتينية فكرة سعادة الأطفال اعتناقا واسعا، والتبني الشامل لحفلات عيد الميلاد المسرفة هو هنا أيضا إحدى الإشارات على ذلك. إن في التأكيد الخاص على عيد الميلاد الخامس عشر، «الكوينسينيرا»، تمسكا بتقليد ثقافي أقدم عهدا، بيد أن الفكرة الكبرى عن أهمية الأسرة السعيدة تمضي بعيدا فتتجاوز ذلك. عند بعض الزمر، العلامات على أن الأطفال سعداء هي عونٌ على البرهان على أن الوالدين يقومون بواجباتهم حتى تحت ظروف الفقر.

يبـدو التغيير صارخا على نحـو خاص في الصين، وفيها جرت العادة على التقليل من شـأن عيد الميـلاد (ما عدا عيـد الميلاد الخامس والسـتين، الـذي يحتفى فيه عـلى نحو جليّ بالكـبَر مقابل الطفولـة)، أو حتى على جعل ذلـك فرصة للأطفال حتـى يأتوا لوالديهم بهدايـا متواضعة عرفانا لهم بالجميـل. مثال ذلك أن محلات ماكدونالـدز تؤجّر «غرفا للحفلات» مواكبة التركيز الجديد على الأطفال أنفسـهم، بزينة شـديدة الشبه بالتي في الولايات المتحدة. عدا الاحتفال، يشكو الوالدون على نحـو متزايد من أن تأديب الأطفال قد أصبح جانبا مرهقا من جوانب التربية (بإزاء ما كان قبل خمس عشرة سـنة فقط)، والسـبب هو الرغبة في المشاركة في السعادة بدلا من التأديب.

يفـضي هـذا كله إلى السـؤال التالي: كم من هـذا هو مجرد محـاكاة انتقائية للغـرب، محاكاة ربمـا يتبين أنها مؤقتة، وكم فيه من اسـتجابة للتغيرات الأخرى في ظروف الطفولة؟

هاهنا عنصر «تغريب» قوي لا ينكر. أكثر الوالدين الصينيين احتمالا أن يتكلموا عن سـعادة الأطفال هم الذين حضروا ورشـات عمل ومؤتمرات ذات أساس غربي. تأتي الالتزامات الشرق أوسطية بحفلات عيد الميلاد من الشرائح الاجتماعية الشديدة التأثر بثقافة الاستهلاك الغربية في جوانب أخرى. من جهة أخرى، لعل التغريب ليس هو كامـل القصة. لقد أنتج الانخفاض الكبير في معدلات الولادات في الصين والدين ذوي اهتمام متزايد بحسـن حال طفلهم، لسـببين: لكون الطفـل (أو الطفلة) هو ولدهم الوحيد، ولقلقهم الناشـئ عن أن الأطفال المعاصرين يفتقرون إلى التجارب الاجتماعية المُرْضية التي يذكرها الوالدون أنفسـهم من نشـوئهم في أسر كبيرة. قد يظهر هنا أن السعادة تعوض عن الوحدة المتزايدة. في اليابان وكوريا، وكذلك الصين، كان التأكيد الشديد على أهمية النجاح المدرسي عونا للوالدين على قبول المسؤولية عـن توفير السـعادة بوصفها حاجة شرعية خارج المدرسـة، من أجـل المكافأة، بل أيضا التعويض. بعبارة أخرى، قد تأتي النماذج الغربية بشـعارات وممارسـات تفي بالحاجـات الجديـدة والحقيقيـة التي هي جـزء من الطفولـة الحديثة على نحو أكـثر عموميـة. وتبقى الكلمة للزمن عـن مدة بقاء الأفكار والممارسـات الجديدة ونطاق انتشارها.

النقطة الواضحة هنا هي التلازم المعياري للتأثيرات الثقافية المتبادلة: إن تكن التجربة الغربية تعلي من شأن الاهتمام الجديد بسعادة الأطفال في المجتمعات الأخرى، فإن هذا الاهتمام يُخلط مع العناصر المحلية أيضا. يتخذ انتشار سعادة الطفولة أبعادا مقارنة متنوعة، حتى حين يشتمل الأمر على موضوع مشترك هو التغيير.

على هذا النحو، يندمج موضوع السعادة في الهند مع تقليد أقدم عهدا، تقليد التدليل الشامل للمواليد، التعبير عن الحب والعناية بسبل يراها كثير من الغربيين متساهلة تساهلا مفرطا. الجديد هو مدّ الانشغالات بالسعادة إلى ما وراء هذه المرحلة المبكرة، ومع ذلك فللاندماج عناصر مميزة. إن الاهتمام بسعادة الأطفال، في الشرق الأوسط وإلى حد ما في الصين، ينطبق على الصبيان انطباقا أكثر سهولة منه على البنات، وفي هذا تنعكس، مرة أخرى، أنساق أقدم عهدا. لما كان حافز السعادة في الصين هو أكثر جدة، وأجنبيا جزئيا، فإن النقاشات في مخاطر الإفراط في التدليل هي أكثر شمولا مما هي في الغرب المعاصر، ويظل الوالدون أكثر احتمالا لأن ينتقدوا أطفالهم علانية، لا سيما حين يتعلق الأمر بالأداء المدرسي. بعبارة أخرى، سعادة الطفولة هي تغيير حقيقي، بيد أنها لا تلغي الصيغ المحلية، وفي هذا تنعكس نسخة خاصة من معيار التوتر بين المحلي والعالمي في تجربة العولمة على نحو أكثر عمومية.

تشتمل المسألة الأخيرة، وتطبق، حيثما طرأ تسارع على الاهتمام بالسعادة، على ما للتأكيد الجديد من معنى، من جهة الراشدين المسؤولين والأطفال أنفسهم. لا ريب في أن التغيير قد ولد طائفة من العواقب. كانت أجلى العواقب، عند كثير من الراشدين، هي أن الضغط من أجل توفير اللعب وسواها من العناصر الاستهلاكية للأطفال قد تصاعد بثبات، فدعمَ الصناعات الضخمة وأعاد تحديد ما يعنيه كون المرء والدا ناجحا، جزئيا على أقل تقدير. قد تنتج مسرات مشتركة، لكن ينتج أيضا الإحساس بالواجب بل بالذنب ـ حين يظهر أن سعادة الأطفال ليست بالقدر المطلوب ـ وهذا مما قد يعقّد من تقدير شأن الوالدية. يضيف التلاعب الصريح مزيدا من التعقيد، إذ تعمد كثير من الشركات، ومنها ديزني، إلى التدريب الصريح لموظفي المبيعات فيها على إقناع المستهلكين الراشدين والأطفال معا بأنهم يقضون وقتا سعيدا، سواء كان ذلك حقيقيا أم لا؛ ينتاب بعض المراقبين

القلق من أن سطحية السعادة الاستهلاكية قد تبلّد القدرة على التعرّف على السعادة الحقيقية.

القضية الكبرى، بالطبع، هي هل الأطفال هم أكثر سعادة الآن بعد أن صار يتوقع لهم أن يكونوا كذلك، يلحظ بعض المراقبين أن بعض الأوضاع السلبية للطفولة تبقى ثابتة ـ الافتقار إلى السلطة، وإجهادات النمو بدنيا وعقليًا ـ حتى إنه لا يكون لكل ما يمكن تخيله من خطاب السعادة تأثير كبير في واقع الأمر. قد يضيف غيرهم فيقول إن السمات الحديثة حداثة خاصة، مثل التوترات المدرسية أو غياب الوقت العفوي للعب، قد تجعل تحصيل السعادة أكثر عسرا على نحو حقيقي. حقيقة الأمر هي أن قياس السعادة بين مراحل الزمان التاريخي أمر مستحيل فعليا، ولعل الأحكام التي تطلق على الطفولة تثير التحدي على نحو خاص.

تشتمل المسألة في أضيق حدودها على تأثير الجهد المبذول نفسه في سبيل السعادة. من جهة، يعمل كثير من الراشدين جاهدين لإدخال السرور على الأطفال، ولاجتناب ما يزعجهم أكثر مما كان يفعل نظراؤهم في الماضي، ولربما يكون لذلك بعض الأثر قطعا. من جهة أخرى، تولّد ثقافة السعادة نفسها عيوبا. إنها تجعل الأطفال أكثر اعتمادا على الترفيه، وأكثر استعدادا لإعلان الشكوى من الملل. إنها تشجع الوالدين، في بعض المجتمعات على أقل تقدير، على النظر إلى العلاقات مع نسلهم بصورة استهلاكية على نحو مفرط، فيشترون الكثير من المنتجات بيد أنهم يحجمون عن الاتصال العاطفي المباشر الأكثر عمقا. فوق كل هذا، مما لا ريب فيه أن توقعات السعادة الجديدة، عند الأطفال أنفسهم، تجعل التعبير عن الحزن أو الخيبة أو الإقرار بهما أكثر عسرا، ومما لا تعوزه الحجة أن بعض ذلك هو شيء طبيعي للطفولة في كل مكان، وفي كل أوان. الطفل الحزين يجعل الآن الراشدين يحسون بالذنب، وهذا قد يشجع بدوره الطفل على الكتمان، مما قد يفضي بدوره إلى الاكتئاب الذي لربما كان اجتنابه ممكنا. مما لا ريب فيه أن اكتئاب الطفولة في ارتفاع. يتعلق ذلك بوضوح بمستويات جديدة من التشخيص ـ مصطلح الاكتئاب بأكمله دخل الدليل التشخيصي للمعالجين النفسيين منذ نحو نصف قرن أو يزيد. بيد أن بعض ذلك قد يكون حقيقيا تماما، أثارته الضغوط الحديثة على الأطفال، ومعها أيضا القيود المتناقضة التي ولدتها أهداف السعادة نفسها.

إن ظهور اعتناقات السعادة بوصفها جانبا مترددا غير محسوم من عولمة الطفولة هو موضوع معقد. يجب أن يحيط تحليل هذا الظهور بسلبيات الاهتمام الصريح بالسعادة وكذلك مزاياه الظاهرة. يجب أن يعترف بصعوبة عقد مقارنة بين الحاضر والماضي، تتجاوز الخطاب السطحي. من الجلي أنه ينبغي أن يضم بعض القضايا الدقيقة للمقارنة الإقليمية.

ويجب على كل تحليل أن يقر بما بين الطفولات في التاريخ المعاصر من فجوات عظيمة، ومتزايدة على نحو ما. لا ينطبق خطاب السعادة، أو ينطبق قليلا فقط، على ملايين الأطفال الذين علقوا في الحرب أو الصراع الأهلي، أو المعرضين لمستويات جديدة من المرض أو الاستغلال في العمل . حتى في المجتمعات الغنية مثل الولايات المتحدة، حيث يرى الأطفال الفقراء لمحات من النسخة الاستهلاكية لسعادة الأطفال في العروض التلفزيونية والإعلانات، فإن الفجوات المتنامية في الدخل بل في الكفاية الغذائية تتحدى الأفكار العامة، الأوسع انتشارا على أقل تقدير عن السعادة.

إن النظر في الأفكار الجديدة من السعادة هو موضوع مشروع، لكنه يستدعي العناية بالانقسامات الشديدة في طرق تعريف الطفولة والمرور بها.

إن الظهور المثير للمقاربة الجديدة التي تتناول الطفولة، وللسعادة فيها موضع الجبهة والقلب، هو تطور مهم في التاريخ القريب للأطفال وللذين يرعونهم. إنه يأخذ التباينات بين السياقات الحديثة والتقليدية ويضعها في صورة بارزة صارخة، ويستدعي مزيدا من التحليل لأسباب التغيير. إنه يركّز العناية، أيضا، على القضايا المقارنة – على قوة المثال الغربي، وعلى العوامل الحديثة الأخرى التي تشجع العناية بالسعادة؛ وكذلك على متنوع ردود الأفعال والتوليفات الثقافية الحادثة في أثناء اندماج السعادة مع ما للطفولة من مقاربات موجودة. من المؤكد أن المسألة الكبرى، حيثما ظهرت الأفكار الجديدة ظهورا متناسقا بشأن كيف تغيّر السعادة من التجربة الفعلية للوالدين والأطفال، هي مسألة معقدة، تستلزم عمليات سبر تحت سطح الخطاب المتغلغل. والعملية برمتها ليست قريبة العهد فقط، بل مستمرة: ليس في وسعنا أن نعلم - حتى الآن – إلى أي مدى ستتوحد المجتمعات الآسيوية أو الأمريكية اللاتينية مع مقاربة السعادة، ومن المؤكد أن في الغرب نقادا ثقافيين يحضون على إعادة النظر، لا سيما ضد التأويلات الاستهلاكية الصرفة لأهداف الأطفال الحديثة.

لمزيد من القراءة

- **Carl Nightingale, On the Edge: A History of Poor Black Children and their American Dreams** (New York: Basic Books, 1993).

- Douglas A. Riley, **Depressed Child: A Parent's Guide for Rescuing Kids** (Lanham, MD: Taylor Trade Publishing, 2001).

- Jeffrey A. Miller, **The Childhood Depression Sourcebook** (Lincolnwood, IL: NTC/Contemporary Publishing Group, 1999).

- **Nicholas White, A Brief History of Happiness**(*) (Malden, MA: Blackwell Publishing, 2006).

- Darrin M. McMahon, **Happiness: A History** (New York: Atlantic Monthly Press, 2006).

- Daniel Nettle, **Happiness: The Science behind Your Smile** (Oxford, UK: Oxford University Press, 2005).

- Gary Cross, **Kids' Stuff: Toys and the Changing** World of **American Childhood** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997).

- Peter N. Stearns, "Defining Happy Childhoods: Assessing a Recent Change," in **Journal of the History of Childhood and Youth**, 3(2): 2010: 165–86.

- Christina Kotchemidova, "From Good Cheer to 'Drive by Smiling': A Social History of Cheerfulness," **Journal of Social History** 39: 2005, 5–38.

(*) العدد 405 من سلسلة عالم المعرفة، «السعادة: موجز تاريخي». ترجمة سعيد توفيق.

14

الخاتمة:
الطفولات من الماضي نحو المستقبل

لدينا هنا مناظرة مهمة ومحيرة، تُطبق على الطفولة نوع النقاش الذي استثارته نماذج الحداثة في الجوانب الأخرى من الحياة المعاصرة. إن التجارب الأكثر أهمية لكثير من الأطفال الذين لايزالون في قوة العمل، بدلا من الانكباب على التعليم المدرسي على نحو أساس، فيها شَبَه مما لقيه الأطفال في أوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان قبل قرن أو قرن ونصف القرن. فالاقتصادات الأسرية التقليدية في تآكل، بسبب التحول المديني السريع وعجز الأسر الريفية عن تقديم ما يلزم. في هذا السياق يصبح شيء يسير من عمل الأطفال أمرا جديدا، وإن لم تكن عمالة الأطفال جديدة؛ ويتضمن هذا أحيانا استغلالا زائدا ونقاط ضعف جديدة. في يومنا هذا تعمل كثير من الفتيات في الهند

«إن المجتمع الذي تحرر بنجاح من القدرية التقليدية فيما يخص بقاء الأطفال على قيد الحياة قد حقق بالتأكيد مكاسب يصعب إنكارها»

أو أفريقيا كخادمات منزليات في المدن، على مثال ما كان في باريس أو نيويورك في خمسينيات القرن التاسع عشر؛ ويُستغل بعضهن أيضا استغلالا جنسيا في موقع العمل، على مثال ما كان في الغرب قبلا. تجذب كثيرا من الأطفال أعمالُ الشوارع والتسول والجرائم الصغيرة على مثال ما كان في لندن كما تصورها أعمال تشارلز ديكنز. لقد تغيرت الظروف، بالطبع، في الغرب واليابان بعد ذلك، بعد هذه النقلة الطويلة التي كثيرا ما كانت مؤلمة؛ بسط النموذج الحديث هيمنته بسطا واسعا حتى اشتمل على أكثر الأطفال في الطبقات الدنيا، وإن أتى معه بمشكلاته. هل سيعمل المزيد من التنمية الاقتصادية والتشريعات الوقائية، ومنها ضغوط المعايير العالمية، على نقل أطفال الهند أو أفريقيا الشرقية الأكثر فقرا، أو أولادهم، إلى نموذج ذي صبغة أكثر نموذجية في العقود الآتية (كما توحي نزعات تقليص عمالة الأطفال الحديثة جدا)؟ أم أن التقاليد المحلية أو مظاهر اللامساواة الاقتصادية الدائمة، التي كثيرا ما تسوء بسبب الآثار الجديدة للمرض والحرب، سوف تطيل أمد الانقسام القديم العهد في الطفولة في أرجاء الكوكب، ليس الانقسام وفق الطبقة الاجتماعية فقط، بل أيضا بحسب الإقليم؟

ليس الجمع بين جداثل التاريخ العالمي للطفولة بالأمر الهين. يؤكد هذا الكتاب ثلاث نسخ كبرى من الطفولة: طفولة الصيد والالتقاط، والطفولة الزراعية، والحديثة. تتوقف الطفولة، في هذا الحجاج، في أول أمرها وآخره على المنظومات الاقتصادية - ولايزال هذا الأمر صحيحا في يومنا هذا، في وسط من التعليم المدرسي والنزعة الاستهلاكية (الأطفال المدربون حتى يكونوا مستهلكين هم أمر ضروري لتعزيز هذه المنظومة). بيد أن للثقافات والبنى الأسرية دخلا في الأمر، وهذا هو السبب في أنه ليس مِن طفولة زراعية تقليدية واحدة، وبالإضافة إلى التفاوتات الاقتصادية، ليس مِن طفولة حديثة واحدة. مع ذلك، تنبثق مسألتان أساسيتان من تاريخ الطفولة العالمي، ولا سيما التاريخ الحديث، ونحن ننظر أين عسى تكون وجهة الطفولة في المستقبل.

هل يرسم ما دعوناه نموذج الطفولة الحديث، الذي تزخرفهُ النزعة الاستهلاكية المتنامية، صورة مستقبل الطفولة القريب في أرجاء العالم، مع اقتراب عدد متزايد من المجتمعات إلى النموذج، وتمديد مجتمعات أخرى لمضامينه؟ (بعبارة أخرى: هل

ينبغـي لنا أن نتوقع أن تصبح أطر الطفولة أكثر تشـابها بين إقليم وآخر في العقود القليلة الآتية؟).

السؤال الثاني: هل ينبغي لنا أن نريد حدوث هذا؟

إن التاريخ القريب، بمضامينه المتنوعة بشـأن الطفولـة، يعقّد كل جهد تنبئي قطعا. لقد رأينا أعدادا متنامية من الأطفال الأكبر سـنا يباعون على نحو يبلغ درجة الرق الجنسي، وذلك وفق المكان والطبقة الاجتماعية. من أفريقيا، تشتمل أكثر صور الأطفال شيوعا - على ما يظهر - على وجودهم في معسكرات اللاجئين، وفرارهم من الـصراع الإثني أو الديني، وإصابتهم في هذه العملية بعاهات دائمة أحيانا، وانتفاخ بطونهم وغؤور عيونهم بسبب المجاعة؛ أو انطراحهم على الأسرّة، في جنوبي أفريقيا، ضحايا للإيدز، المرض الذي التقطوه من والديهم منذ مولدهم. ضع بإزاء هذا العدد المفرط من المراهقين في ضواحي مدن الولايات المتحدة أو أوروبا الغربية مِن الذين يأخذون دروسـا خصوصية استعدادا للامتحانات التي سوف تحدد دخولهم الكلية، بعد يوم فقط من مفارقتهم المدرسة - حيث كانوا منشغلين بأنشطة كثيرة – لتنقضي سـنوات، من سني أوائل الرشد، قبل أن يستردوا إحساسهم بالعفوية. أو ضع بإزائه «بنات الوادي» الكاليفورنيات الثريات المهتـمات بالموضة، أو اليابانيات المراهقات الـلاتي يحاولن معرفة أحدث ما يجب اقتناؤه. أو، في مكان آخر، ضع بإزائه الأطفال الأكبر سنا الذين يتطوعون ليكونوا انتحاريين، بتشجيع ليس من الميليشيات المحلية فقـط، بـل من الوالدين الفخوريـن أيضا في كثير من الأحوال. مـن المحال، على ما يظهر، تعيين نسق واحد من الطفولة.

وهناك الواقع المعاصر للجنود الأطفال، ليس فقط في أفريقيا بل في بعض أرجاء جنوبي شرقي آسـيا، وقد حملوا أسلحة أشد فتكا مما قد حازه الأطفال في الماضي. في هذه الحال، تعقّد الواقعَ حقيقةٌ أن الجنود الأطفال، وفق ما رأينا، قد شـكلوا أجزاء مهمة من كثير من الجيوش. إن يكن الغضب العالمي النطاق من اسـتخدام الجنود الأطفـال في محله، لا سـيما في ضوء البنادق المسـتعملة، فإنـه يعكس أيضا بعض المعايير الجديدة.

منـذ عهد قريـب جدا، بدأ الخـبراء يقلقون من تهديد الفجـوات الضخمة في النماذج الاقتصادية وعدم الاسـتقرار السياسي لواحد من أثمن أوجه نموذج الطفولة

الحديث، أعني تراجُع معدلات الوفيات. في التسـعينيات، ازدادت معدلات الوفيات سـوءا أو تعـثرت في أكثر من ثلث دول أفريقيا جنـوب الصحراء، بينما أصبح 10 في المائـة من أطفال العراق الـذي مزقته الحرب يموتون قبل الخامسـة (وهو ضعف معدل العام 1990). وعلى نحو أكثر عمومية، كان سـوء التغذية والإيدز هما أسـوأ الأشرار المتسببة في تباطؤ المكاسب من جهة المعدلات العالمية.

تنقسـم الطفولات الراهنة انقسـاما عميقا بالقيم، بالغنـى أو الفقر، بالفوضى السياسـية أو الاستقرار النسـبي. منذ عهد قريب، التقط أحد الأنثروبولوجيين جانبا مـن التنـوع من خلال صورة المدرسـة المسـورة، وهي على ما يظهر رمز مشـترك للطفولة الحديثة في كل مكان. إن الغرض من السـور في أفريقيا هو على نحو كبير إبعاد الأطفال الذين يريدون التعليم المدرسي، ويرون فيه مفتاحا لمسـتقبلهم، لكن ببسـاطة ليس لهم فيه مكان بالنظر إلى قلة الموارد المتاحة. أما في الولايات المتحدة، من جهة أخرى، فالقصد من السـور هو إبقاء الطلاب داخل المدرسـة التي يرونها شَرَكا ممـلا، ومكانـا للتنمّر والتوتر الاجتماعي الذي لا يبدو ذا صلة بمسـتقبل ذي معنى من أي نوع.

يقدم مِشْكال(*) الطفولات في العالم المعاصر تنوعا لا يكاد ينتهي، بتشكيلات من الفـرص والمآسي مختلفة اختلافا مثيرا. لكن، من دون إنكار لهذا الجانب من الواقع، هناك أيضا واقع مكـون من بعض النزعات المهيمنة. قد تبدو النزعات مألوفة، بيد أنها تشكل تغييرا حقيقيا عند كثير من المجتمعات المعنية، وهي تشير على نحو كبير إلى قابلية النموذج الحديث للتطبيق.

لم يوجـد بلدٌ، حتى أكثر البلـدان فقرا وابتلاء بالأمراض، لم يسـتمر فيه تراجعُ معـدل وفيات المواليد وصغـار الأطفال في الثلث الأخير مـن القرن العشرين، على الرغم من التعثر القريب العهد والمخاوف الجديدة المشروعة. شـهدت سـيراليون، التي كان فيها أسـوأ معدل في العالم في سنة 1998، إذ كان يموت 316 طفلا من كل 1000 قبل الخامسـة، انخفاضا قدره 20 في المائة منذ سـنة 1960، وتضاعفت معه نسـبة الإناث العارفات بالقراءة والكتابة وازدادت نسـبة الذكور العارفين بذلك 50

(*) Kaleidoscope هـو أداة تحتـوي على قطـع متحركة من الزجاج الملون لا تكاد تتغـير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان. [المترجم].

في المائة بين سنتي 1980 و1995. إن أفقر بلدان العالم مجتمعة، وكان يموت فيها 282 طفلا من كل 1000 قبل الخامسة في سنة 1960، قد شهدت هبوطا إلى 172، بينما هبط العالم ككل من 193 إلى 86 - وهذا معدل مدهش للتغيير بكل المعايير التاريخية. لقد أظهر الارتفاع في معدلات المعرفة بالقراءة والكتابة، وإن كان أقل إثارة، اتجاها مماثلا، يعكس الحضور المتزايد للتعليم المدرسي في الطفولات العالمية. وكان من الملائم قطعا أن تُلحظ الفجوات الضخمة بين البلدان الغنية والفقيرة، وما عكسته هذه الفجوات من اختلافات في تجربة الطفولة ضخمة بالمقدار نفسه؛ بيد أن اتجاهات التغيير قد كانت مشتركة على نحو واسع في أوائل القرن الحادي والعشرين على أقل تقدير.

الجدول (1-14) معدل وفيات المواليد بحسب أقاليم العالم، 1950 - 2000

معدل وفيات المواليد (الوفيات قبل السنة الأولى لكل 1000 ولادة)			
الإقليم	1950 - 1955 *	1980 - 1985 *	2000
العالم	156	78	54
أفريقيا	192	112	87
آسيا	181	82	51
أوروبا	62	15	11
أوقيانيا	67	31	24
أمريكا الشمالية	29	11	7
أمريكا اللاتينية والكاريبي	125	63	32

(*) احتمال الوفاة قبل السنة الأولى.

المصدر:

Mortality1988, table A.2; US Census Bureau International Data Base 2000, www.census.gov/ipc/www/idb.

يواجه كل تاريخ عالمي ذي تركيز حديث شديد التوتر المحتوم الناشئ عن الموازنة بين الخصائص الإقليمية والعالمية، وهذا يصدق على الطفولة صدقا جليا.

تتعايش الأنماط الإجمالية المشـتركة مع الاختلافات الحادة. إن أعدادا متنامية من النـاس والحكومـات تتفق اليوم على أنه ينبغي للتعليـم المدرسي دون العمل أن يكـون هو البؤرة الأساسـية للطفولة - والإحصاءات العالميـة النطاق في العقدين الأخيرين تُظهر هذا بوضوح. مهما يكن أمر جيوب المرض والجوع والنزاع العميقة عمقا مزعجا، فمن المعقول، على ما يظهر، التنبؤ بأن كفة التعليم في ميزان المدرسة - العمل سـوف تستمر في الميل نحو الرجحان - لكن المعقولية ليست هي اليقين، وهذا هو أحد الأسباب في أن العلماء كثيرا ما يعترضون على تقديم نماذج الحداثة. ليـس الأمر فقط هو أن كثيرا مـن المجتمعات لاتزال فقيرة على نحو لا يمكنها من الوصـول الواسـع إلى التعليم، بل إن زمرا ذات شـأن لم تقتنع بعـدُ بأن للتعليم المدرسي معنى.

يروي كايلاش ساتيارتي، وهو ناشط متحمس كرس حياته لمحاربة عمالة الأطفال في الهند ومحشّـد ناجـح للرأي العالمي، حكاية عن طفولته تُصوّر المشـكلة بصورة مؤثـرة. لقد كان يذهب بانتظام إلى المدرسـة في بلدة فيديشـا (ومن ثم تخرج في الجامعـة)، بيد أنـه كان يرى دائما حـذّاء يجلس مع ابنه خارج المدرسـة، ينظف الأحذية ويصلحها. لم يفهم لماذا لم يُلحق الرجل ولده في الصف معه، ولما اسـتجمع شـجاعته أخيرا وطرح السـؤال، كان الجواب صريحا: «كان أبي، أيها الشـاب، حذّاء، وكذلك جدي قبله، ولم يسـألني قبلك أحد هذا السـؤال. لقد وُلدنا للعمل، وكذلك ابنـي». من الجلي أن الجواب لم يرضِ سـاتيارتي، الذي تولى لما بلغ الرشـد رئاسـة «المسـيرة العالمية ضد عمالة الأطفال»، و«التحالف جنوب الآسـيوي بشأن استرقاق الأطفـال»، و«الحملة العالمية للتعليم»، وفاز بتأييد هندي ودولي في مسـيرته تلك وأنقذ نحو 66 ألف طفل من العمل في التصنيع والخدمة المنزلية والسـيرك. بيد أنه لا يجوز تجاهل صدام القيم، ولا حقيقة أن عمالة الأطفال قد اسـتمرت - إلى عهد قريب - في ازدياد في عقر دار ساتيارتي، على الرغم من جهود الإصلاح.

تتعلـق القضايا بالطبقة الاجتماعية تعلقها بالجغرافيا، فالجدل بشـأن الانتقال إلى نموذج للطفولة أكثر حداثة قد عقّد منه كثيرا التفاوتات في وجهة النظر والموارد داخـل المجتمعات فرادى. في سـنة 2004، وبّخ الفنان بيل كـوزبي، علنيا الكثير من الوالديـن والأطفال من الأمريـكان الأفارقة لعدم أخذهم المدرسـة بجدية من بين

أمــور أخرى، ومــا تُقدّمه من تمرين عــلى اللغة والعادات الحميــدة - لقد واظبوا على المدرســة لكنهــم لم يؤمنوا بالنموذج إيمانا حقيقيا. إن مــا يعنيه أكثر الوالدين مــن الطبقة العاملة البريطانية بالتزامهم بتعليــم أطفالهم يختلف اختلافا ملحوظا عما هو عند نظرائهم من الطبقة الوســطى من تكريــس أكثر تعصبا، وهذه صورة أخرى من الانقســام داخل المجتمعــات الحديثة حداثة ظاهــرة. ومع أن الزمرتين معا تحتفظان بمعدلات للولادات أدنى بكثير من المســتويات التقليدية، فإن متوسط حجــم الأسرة فيهما لايزال يتفاوت بســبل توحي باتجاهــات مختلفة نحو الأطفال والمســؤوليات الوالدية. من الضروري أن نلحظ النزعات الســطحية المشتركة، ومن ذلــك الانخفاضات في معدل الولادات والتنقــلات نحو التعليم المدرسي، وبينما تمضي تحت السطح أيضا.

أضف إلى ذلك أن نموذج الطفولة الحديث - إذا ما نحينا جانبا التفاوت في المعاني والاختلافات الكبيرة في مراحل التغيير وفق أرجاء العالم - إنما هو جزء من القصة. إنه لا يذكر شيئا، حتى تحت عنوان التعليم المدرسي، بشأن ما إن كان الأطفال يشجَّعون عــلى النظر إلى أنفســهم كأفراد، أم يحضّون على العثور عــلى هويتهم في الأسرة أو الدين. إنه لا يذكر شــيئا عن أســاليب التعلّم وتأثيرها، بين الدروس التي تُســتظهر صما (وهو أســلوب ناجح جدا في مقاصد بعينها) أو اعتناق التعبير الذاتي وتأكيدات احترام الذات بصورة كثيرا ما تكون فوضوية. حتى التعرض للجوانب المشتركة للنزعة الاســتهلاكية العالمية النطاق أو لخطاب الســعادة لا يكاد يكفــل تجربة أو مظهرا أساسيين متماثلين.

في العام 1994، ارتكب مراهق أمريكي كان يســكن مع أسرته في سنغافورة فعلا من أفعال التخريب المتعمد، فرشّ بالدهان السيارات المركونة في موقفها. لقد أُوقف وحكــم عليه بالجلد بالعصا، 30 جلــدة تُضرب بها مؤخرته. أثــارت الحادثة غضبا شــديدا في الولايات المتحدة وأنحاء أخرى من الغرب: بــدت العقوبة بربرية، وبدا الجرم شــيئا تافهــا. لقد وقعت الحادثــة في حين كان بضعة زعماء في شرقي آســيا يؤكدون التزامهم بقيم الجماعة والتأديب، بإزاء الفردية الغربية المفرطة والتساهل اللين. ولقد بدا، بالطبع، أن الحجج التي أُدلي بها في شأن هذا المجرم الأمريكي تصوِّر هذه الانقســامات بعينها تصويــرا مسرحيا. لقد كان لدينا هنــا مجتمعان ناجحان

حديثــان حداثة واضحة وُضــع أحدهما في وجه الآخر حين تعلق الأمر بتحديد أهم معايير الطفولة. ببساطة، لا سبيل إلى الفرار من الحاجة المشوشة إلى الاعتراف بمزيج الأنساق المشــتركة التي تبعد الطفولة عن الأسس التقليدية، وبتنوعاتها الشاملة في مــا يتعلق بمعاني الطفولة الأكثر عمقا. لقد جُلــد الصبي، ولم يُصب بأذى كبير وفق تقديرات ذلك الحين، لكنه غادر المدينة - الدولة سريعا عائدا إلى ميشيغان.

يشتمل تحديد مكانة الطفولة في التاريخ العالمي على أكثر من خصيصة التعقيد المحــلي- العالمي: إنه يتطلب أيضا شــيئا مــن التقويم النوعي للتجربــة الحديثة، مــن أجل الغرضــين التاريخي والمقــارن كليهما. بالإقرار بأنه تمكــن معالجة ما هو حديث بطرق متنوعة - بين الطبقة العاملة والطبقة الوســطى، أو بين شرقي آســيا والغرب - فمن المؤكد أن هذه التنوعات تبدو شــاحبة إزاء تحقيق الحداثة نفسها. لنذكــر مؤرخــي الطفولة الرواد المبتدئين قبل جيل مــضى، الذين لم يمكنهم تجاهل التحســينات التي أتت مع الحداثة بالنســبة إلى تقييــدات الطفولة في الماضي. من المؤكد أن الإغواء نفســه ينطبق على المقارنات الراهنة: كيف نفشل في الاتفاق على أن الطفولات في المجتمعات التي انتقلت إلى الحداثة على نحو أتم هي أحســن من الطفولات في المجتمعات حيث لاتزال أكثر تعرضا لقسوة الفقر والمرض؟ لا سبيل إلى الفرار من مواجهة ما مع الأحكام القيمية على هذا الموضوع التاريخي.

من عســاه يريد، إذا أخذنا أجلى المكاسب الظاهرة، أن يرجع إلى ظروف يموت فيهــا 30 في المائــة أو ما يزيد من كل الأطفال في أول ســنتين بعد مولدهم، وحيث لا تنجــو أي أسرة من تجربة فقدان طفل واحد عــلى أضعف تقدير؟ يمكننا الإقرار ببعــض القضايا الطبية - الأخلاقية المثيرة للاهتــمام التي تتعلق بالتفاني الغربي (ولا ســيما الأمريكي منــه) للإبقاء على بعــض الأطفال أحياء بتكلفــة باهظة ومن دون توقعات مســتقبلية لحياة راشــدة صحيــة، ولكن المجتمع الذي تحــرر بنجاح من القدريــة التقليدية فيــما يخص بقاء الأطفال عــلى قيد الحياة قد حقــق بالتأكيد مكاسب يصعب إنكارها.

لكن ليســت هــذه هي الرزمة الحديثــة كاملةً، بالطبع، ومــن الواضح أن بعضــا من المكونات الأخرى هي أكــثر عرضة للجدل - ليس في أمر الرجوع إلى المــاضي، وهــو مطلب صعب التحقق، بل في أمر الاعتراف بأن شــيئا ما ســوى

التقــدم المحض هو الــذي يصور علاقة الحاضر بالمــاضي، أو علاقة المجتمعات الأكــثر حداثة بالتي لاتزال في مرحلة الانتقال. من الضروري تذكّر بعض مظاهر القوة والوضوح في الطفولة الزراعية الأكثر تقليدية بحسب ما عُرض في الفصول الأولى من هذا الكتاب.

والحــق أن كثــيرا مــن الوالديــن الأمريكيين، إذا مــا حكمنا عليهــم من نتائج الاســتطلاعات، ســيفضلون من البداية بدائل أكثر تعقيدا على الأرجح، لو أتيح لهم تبيان نموذجهــم التاريخي. قد لا يريدون الرجوع إلى روما القديمة، وإن كان المزيد مــن الطاعة يبدو لطيفا، لكن من المحتوم أنهم لن يقرنوا النزعات الحديثة بالتقدم المطلق العنان. سوف يقرون بتحسّن الحداثة مقارنة بتقاليد زراعية معينة، بما فيها مــن معدلات أدنى للولادات وأسر مزدحمة أقل، وبالتعليم المدرسي بدلا من مظاهر القســوة البدنية ومهانات العمل التقليدي. بيد أنهم قد يميلون إلى الحجاج بأنه ما كادت تتحقــق الحداثــة – لنُقل: في أوائل القرن العشريــن - حتى أخذت الطفولة الأمريكية الفعلية في الانحدار. لقد أصبحت، مع حداثتها، بعيدة جدا عن الانضباط، ومتركزة جدا حول نفسها، وبعيدة جدا عن الاحترام وعن الواجب الأسري - حتى لو نحينا جانبا الجدل بشــأن الانغماس في النزعة الاستهلاكية الآخذ في البروز. لعل هذا هو الســببُ في أن كل اســتطلاع لرأي الأمريكيين منذ الثلاثينيات وجد أن الوالدين الذين بلا أولاد هم أكثر سعادة من الذين لهم أولاد، والسببُ في أن الوالدين الذين يعرّفون أنفســهم بأنهم حديثون - وهم زمرة متنامية بثبات - يشــيرون إلى انشغال بالأطفال وبمسؤوليتهم هم أكثر من انشــغال التقليديين الذين يستمدون هوياتهم من ذواتهم. وإلا فلماذا ينزع الوالدون «الحديثون» إلى الحجاج بأن «الأيام الخوالي الجميلة» قد كانت أحســن للأطفال (من الراجح أنهم يعنون بذلك القرن التاســع عشر بما أســبغ عليه من صورة مثالية، وليس الأيام الجميلة قبل الحديثة) بينما هم يعــبّرون عن حنين إلى «معايير للحياة والمســؤولية الأسرية أكــثر تقليدية». من غير أن نأخــذ مقاربــة والدية أخذا حصريا، ومع ملاحظــة أن 90 في المائة من الوالدين الأمريكان يقولون، مع كثرة شــكاواهم، إنه لو أتيح لهم الاختيار من جديد لاختاروا أن ينجبوا أطفالا، فإن للحداثة سلبيات تستحق التعليق، إذا ما وضِعت بإزاء الرؤية التاريخية المتفائلة.

هنـــاك نوعان مـــن الحقائق غير المريحة، لا واحد منهـــما مفاجئ. الأول هو أن التحول إلى نســـخة من نســـخ الطفولة الحديثة لا يزيل كل المشـــاكل التي رافقت الأنساق الأكثر تقليدية. لنأخذ مثالا واحدا: سوء المعاملة لم ينقطع. لعله صار معرفا ومهاجـــما على نحـــو أكثر وضوحا، بتـــولي الحكومات دورا أكـــثر فاعلية؛ لكن هناك حجـــة معقولة تقـــول إن الرصد الحكومي لا يضاهي أنواع الســـيطرة والرقابة التي تقدمها القرى أو الأحياء التقليدية المتماسكة. يلحظ أحد مؤرخي أمريكا في الحقبة الاستعمارية، وهو ضالع في موضوع الطفولة، ندرة الأمثلة على سوء معاملة الأطفال في نيـــو إنجلند، بالمقارنة مع الأزمنة الأكثر حداثـــة. يقر المؤرخ بأن بعض العقوبات التي كانت مقبولة يومئذ قد تعدّ اليوم من سوء المعاملة، وهو قطعا يعترف باحتمال ورود أخطاء في الســـجلات. بيد أنه يحاجج قائلا إن كتمان ســـوء المعاملة في القرى التقليدية قد كان بالفعل أكثر صعوبة منه اليوم، وهذا مما يجعل غياب قضايا سوء المعاملة التي ظهرت في المراحل الأكثر حداثة أمرا أكثر إثارة للإعجاب. بعبارة أخرى، لعل سوء المعاملة قد ازداد سوءا؛ ومن المؤكد أنه لم ينتهِ. لعل التغيرات في تعريفات سوء المعاملة لم تواكب المشكلة في سرعتها.

تشـــتمل الطائفة الأخرى من الحقائق على قضايا يظهـــر أنها مرتبطة بالحداثة ارتباطـــا مميزا. إن لتراجع معدلات الولادات ســـلبيات، عدا عـــن المراحل الانتقالية حـــين يَحار الوالدان في أمـــر الأهداف الصحيحة، وكذلك حـــين يضطرون إلى تعديل أحوالهـــم بما يناســـب تراجع الرعاية الأخويـــة. في الهند والصـــين المعاصرتين، أفضى تحديد النســـل ومعـــه تفضيل الصبيان عرفيا إلى ممارســـات خلقت فائضا كبيرا من الشـــبان الذين يبلغون النضج الجنسي - الشبان أكثر من الشابات ببضعة ملايين، في كل من الأمتين العملاقتين. نتيجة لذلك يجد كثير من الرجال صعوبة في العثور على منافذ وإشـــباعات اعتيادية، وقد يُنتج الموقف أيضا توترات اجتماعية أوســـع نطاقا. إن هذا مثال مثير على نحو خاص، ومن الأســـهل على المرء دائما تعيين المشـــاكل في مجتمعات غير مجتمعه.

إن الجوانب السلبية للطفولة الحديثة تتجاوز التطبيقات المميزة في أرجاء العالم البعيدة. الأقرب من ذلك، أن تراجع العلاقات الأخوية الوثيقة يســـهّل على الأطفال الشعور بالوحدة. تحدث الفجوات الحديثة بين الرشد والطفولة عوائق جديدة أمام

الفهم. إن يكن راشـدون كثيرون في المجتمعات التقليدية مثل روما الكلاسـيكية قد ندبوا ذات يوم تراجع الشباب - متبصرين بشأن كبرهم أكثر من النظر إلى الشباب الفعـلي - فإنه لا مثيل للهموم والانقسـامات التي تحيـط بالمراهقة الحديثة. من المؤكـد تقريبا أن الاكتئـاب النفسي عند الأطفال قد ازداد، مـع الإقرار بأن المقارنة مع الماضي أمر عسـير، وبأننا أصبحنا أكثر تفهما للمشـكلة، وبالتالي أكثر احتمالا أن ندركهـا. إن «اضطـرابَ نقص الانتباه» هو علة أخرى جديـدة ومتنامية، وإن يكن التعـرف عليها تعرفا واسـعا يتم عـلى نحو خاص في الولايـات المتحدة، حيث ربما نفد الصـبر على الأطفال «ذوي النشـاط المفرط». ولليابان فئاتهـا. في أوائل القرن الحـادي والعشرين، عانى بضعة آلاف من أطفال المـدارس اليابانيين من علة تُدعى «هيكيكومـوري»، العجز عن مغادرة المنزل والتصرف على نحو اعتيادي بسـهولة. في الغرب واليابان على حد سـواء، ارتفع معدل انتحار الذين في سـن الشـباب: 22 في المائـة في سـنة 2003 فقط، في اليابان. تُحدث التغـيرات في الحياة الأسرية، ومن ذلك عدم الاسـتقرار الأسري، والضغوط الملازمة للتعليم المدرسي والبحث عن هوية ومعنى، تحدث سـياقا لازدياد المشـاكل في هذه الفئـات، في المجتمعات الصناعية المتقدمة جميعا. لقد رأينا أن الدفع نفسـه نحو السعادة قد يأتي لكثير من الأطفال بآثار نفسـية مضادة على نحو مباشر. كذلك من المقلق، في هذه المجتمعات الغنية نفسها، أفعالُ العنف الشنيعة التي يرتكبها الأطفال دون الثانية عشرة، وهي أفعال ليسـت متكررة، بيـد أنها خطيرة ومن الظاهر أنها في ارتفاع. لقد ازدادت مشـاكل الأكل بشـكل واضح، وتراوحت من شـدة القهم العصبي إلى التصاعد في السـمنة الطفولية الأكثر شـيوعا، وإن كانت أقل خطـرا. بالنظر إلى التغيرات في توافر الغذاء وفي العمـل وفي أنماط وقت الفراغ عند الأحداث، فـإن المجتمعات الحديثة لم تجد الوسائل المناسبة لتنظيم عادات الأكل عند الأطفال، والنتائج تزداد سوءا.

ليـس المراد من هذا كله ادعاء تدهور مثير طرأ عـلى الطفولة منذ الماضي، بل ملاحظة أن التغيير قد أتى بأضرار كما أتى بمنافع، إلى جانب بعض الاستمرارية، حيث لم تتغير الأنساق في هذه الجهة ولا تلك. وهذه الرزمة المعقدة جديرة بالفهم، ليس من أجل الدقة التاريخية فقط، بل من حيث ما هي وسـيلة لمسـاعدة المجتمعات الحديثة، والآخذة بالانتقال نحو النموذج الحديث، على تحديد النواحي التي تحتاج

إلى العنايـــة تحديدا أكثر وضوحا، بدلا مـــن الاكتفاء بالاحتفاء بالانتصارات التقدمية وحدها. لعلنا نرجو أن المزيد من المجتمعات سوف تحقق الانعطاف نحو معدلات منخفضة من الـــولادات والوفيات ونحو التعليم المدرسي بدلا من طلب العمل؛ بيد أن علينا العمل لتحقيق المزيد لتلطيف بعض المشـــاكل الشائعة التي تلازم الطفولة الحديثـــة. من المناســـب جدا أن نأخذ مثـــالا صار الآن مألوفـــا، ألا وهو أن منظمة الصحـــة العالمية قد انتقلت في الســـنوات الأخيرة إلى اتباع وســـائل جديدة لمحاربة زيادة الوزن عند الأطفال، إلى جانب رســـالتها التاريخية الراسخة في مواجهة الجوع ووفيـــات المواليـــد. إن في معالجة قضايا الطفولة العالمية المعـــاصرة ما هو أكثر من مجرد الدفع بالأجندة الحديثة وحدها.

يلتزم كثير من الناس بمســـاعدة الأطفال التزاما عميقا؛ كايلاش ســـاتيارتي هو مثـــال عليهم، وكذلك الكثـــير من عمال الإغاثـــة المتفرغين الذيـــن يتعاملون مع الأطفـــال في مخيمات اللاجئين في أرجـــاء العالم. لكن من المـــشروع إثارة قضيتين بشـــأن العناية المتاحة للأطفـــال اليوم، من دون زعم بأننا نواجه، على المســـتوى العالمي النطاق، أزمة غير مســـبوقة. تشـــتمل أول قضية عـــلى ميل أكثر الحركات العالمية إلى التســـليم بصلاحيـــة المعايير الحديثة للطفولـــة وإلى حضّ بقية العالم على الأخذ بها. تقلل هذه المقاربة من شـــأن سلبيات النموذج الحديث نفسه إلى أدنى حد، مع تشـــجيعها على نبرة متعالية تجـــاه المجتمعات الأكثر تقليدية، التي ربما لن تنتج اســـتجابة بناءة. لا يمكن إنكار أن المقاربة إنســـانية في مقصدها، بيد أن الإحســـان لا يعزّز دائما الفهم المتبادل. وفي الوقت نفســـه، هناك خطورة من ألا تلقـــى بعـــض المشـــاكل في المجتمعات الأكـــثر حداثة الاهتمام الـــكافي. ينبثق الانشـــغال الآخر، وأشـــير إليه في الفصـــل 11، من تراجع أهمية الطفولة نفســـها في المجتمعـــات حيث مضى النمـــوذج الحديث إلى أقصاه - عـــلى وجه التحديد، المجتمعات التي لاتزال تتولى القيادة في إصدار البيانات الرسمية العالمية الحديثة. إن أعـــدادا متزايدة مـــن الأسر هي إما بلا أطفال، وإما أنهـــا قد بلغت من الكبر ما تجـــاوز مرحلة الوالديـــة الفعالة. يصف كتاب مثير لموريـــل جوليڤت اليابان، بـــشيء مـــن المبالغة، بأنها أول مجتمـــع «بلا أطفال». في دراســـة بريطانية ليونغ وويلمـــوت حول الزواج الحديـــث المعاصر، وعنوانها «الأسرة المتســـاوقة»، تُصوّر

الصيغــة المُرضية للعلاقــات المعاصرة بزوجين يعملان ويســتمتعان معا بمكافآت النزعة الاســتهلاكية - من غير الإتيان على ذكــر الأطفال البتة. بعبارة أخرى، عند أعــداد متزايــدة من الناس في المجتمعــات ذات النفوذ، فإن أكثر الأطفال ســواء أكانوا في الوطن أم في الخارج هم «أطفال الآخرين» - مســؤولية أحد ما آخر، لا يشاهدون ولا يُفكَّر فيهم كثيرا. إنهم إما فقراء من سكان الأحياء الداخلية الفقيرة والكثيفة في المدن، وإما ريفيون بعيدون، أو مهاجرون، أو أجانب؛ إنهم لا يُجرون لقاءات يومية فعالة في المجتمعات التي تغدو - بثبات - أقل تركزا حول الأطفال. إن عوامــل من هــذا القبيل تتطلب اهتماما، ذلــك أن قضايا الأطفال المعاصرين حقيقية جــدا وأكثر تعقيدا بكثير مما قد تفلح في التعبير عنه البيانات الرســمية الحسنة النية التي تتحدث عن الحقوق.

في الوقت نفســه، فإن التغيير مســتمر. إن تأثيرَ الأمراض الجديدة، مثل الإيدز، في الأطفال؛ وأنماط العنف الجديدة بين الأطفال، ســواء أكانوا شــبانا انتحاريين، أم أطفــالا في بريطانيا أو الولايات المتحدة يرفعون المسدســات بعضهم في وجه بعض، تحــدد قضايا جديــدة في تاريخ الطفولــة في أواخر القرن العشريــن وأوائل القرن الحادي والعشرين.

إن للمزيــد من تطبيق النموذج الحديث مضامين تؤدي إلى التغيير أيضا. يلحظ كثير من المراقبين نزعة عالمية في اتجاه تمديد نطاق الطفولة أو ما قبل الرشد، سواءٌ بســبب الزعازع الاقتصادية التي تطيل أمد اعتماد الشباب على الغير، أو مدِّ نطاق إلزامية التعليم، أو كليهما. كذلك تُعلل معدلات الولادات المنخفضة كيف يســتطيع الوالــدون، مهما ترددوا، أن يقبلــوا بهذا التمديد أيضا. تتخــذ الصين التزاما جديدا بــأن ترســل إلى الجامعة 15 في المائة من عدد ســكانها الضخم ممــن هم في الفئة العمرية المناسبة، وهو قرار سوف يُقصي الملايين عن قوة العمالة لمدة أطول. تلحظ الأسر الأمريكية عدد المتخرجين في الجامعات الذين يرجعون إلى منزل الأسرة لقضاء مرحلة من الشــباب ما بعد المراهقة، وهم يجربون مهنة ما أو ربما يأخذون المزيد مــن التحصيل العلمي. يحاجج أحد موظفــي القبول في جامعة هارفارد بأن مرحلة من الشــباب ما بعد الكلية أصبحت ضرورية أيضا من الناحية النفســية، بالنظر إلى سرعة مرور الطفولة الناجحة نفســها. قد تتنوع أســباب مدّ الطفولة، والظاهرة لم

تتوطد بعدُ على نحو راسخ بوصفها نزعة دائمة، لكن من الظاهر أنها تبرز على نحو غير متوقع في بضعة أوساط مختلفة في أرجاء العالم.

تتراجـع الاختلافـات بين الجنسـين عند الأطفـال، وإن لم يزل هـذا الأمر مثار مناظـرات عنيفة في بعض المجتمعات. إن تراجـع معدلات الولادات يعني أن عددا متناميـا مـن الأسر ليس لها إلا ابن أو ابنان، أو ابنـة أو ابنتان - وأن التي لها بنات فقط تولي، حتما، قدرا من العناية للفتيات أكبر مما كانت تفعل نظيراتها التقليدية، حتى في أماكن مثل الصين. يسـتمر التعليم في التحول نحو المسـاواة: من إيران إلى الولايات المتحدة، 55 - 60 في المائة من كل الطلاب الجامعيين هم نساء. بل يحاجج بعض المراقبين بأن الشـابات، مع تعاظم اهتمامهن بالتعليم ومقدرتهن على اغتنام فرص الوظائف في الاقتصاد العالمي الذي يهمش أحيانا الشـبان الذكور، أنهن أخذن يحصدن من الطفولة الحديثة منافـع مميزة، بالمقارنة مع نظرائهن من الذكور. إن لم يكن هذا بالكافي بعدُ لتعديل كفة اللامسـاواة بين الجنسـين الإجمالية التقليدية، فإنه كاف لأن يراقَب.

ليـس التغيير المتكرر دوريا في الطفولة أمرا محتكرا حديثا. لقد تغيرت الطفولة تغـيرا عظيما بالتحول من الصيد والالتقـاط إلى الزراعة. أتت الانتقالات المتأخرة في التنظيـم الاجتماعي والعقائد الدينية بتبدلات أكثر تواضعا بيد أنها ذات مغزى. إن قدوم الأفكار والظروف الحديثة الخاصة بالطفولة، التي نُشرت بالمحاكاة، وبالضغط الـدولي، وبمطلق المتطلبات لمحاولة تشـييد اقتصادات صناعيـة ودول حديثة، قد عـزز سرعة التغيير من جديد - حصل ذلك دائما في وسـط مـن التنوع العظيم. إن الانتقالات أساسية ولاتزال قريبة العهد جدا، بالمعايير التاريخية، حتى في المجتمعات التـي كانت رائدة في أولى نسـخ الطفولة الحديثة. لا عجب أن تسـتمر التعديلات الصعبة، وأن الراشـدين والأطفال مسـتمرون في التناظر في ما ينبغي أن تسـتلزمه الطفولـة، صراحة أو ضمنا؛ وأن المزيد مـن التغيير أمر لا مفر منه. إن جمال تاريخ الطفولة، مع كل تعقيداته ومناظراته، هو في إتيانه بخارطة طريق تبيّن من أين تأتي هذه التجربة الإنسانية، وهي تتدحرج في الحاضر في سبيلها من الماضي إلى المستقبل.

للمزيد من القراءة

- Michael Young and Peter Willmott, **The Symmetrical Family** (New York: Pantheon, 1973).

- Mitsukuri Shuhei, "On Education," in William Braisted, transl., **Meiroku Zasshi: Journal of the Japanese Enlightenment** (Tokyo: University of Tokyo Press, 1976), 106.

- Muriel Jolivet, **Japan, A Childless Society?** (New York: Routledge, 1997).

- Paula Fass, ed., **Encyclopedia of the History of Childhood, 3 vols** (New York: Macmillan, 2004).

- Philippe Ariès, **Centuries of Childhood: A Social History of Family Life** (New York: McGraw-Hill, 1962).

- Steven Mintz, **Huck's Raft: A History Of American Childhood** (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004).

المؤلف في سطور

بيتر ن. ستيرنز

- عمل بيتر ن. ستيرنز أستاذا في جامعة جورج ميسن وتولى رئاستها (في سنة 2000) بما له من خبرة في التدريس والإدارة طوال أربعين عاما.
- تولى كرسي قسم التاريخ في جامعة كارنيغي ميلن، وعمل أيضا عميدا لكلية ديتريش للعلوم الإنسانية والاجتماعية.
- أسس مجلة التاريخ الاجتماعي وتولى تحريرها.
- يضاف إلى عمله الطويل مؤرخا نشاطه الفعال في المجموعات التاريخية، من مثل الجمعية التاريخية الأمريكية، ومجمع تاريخ علم الاجتماع، والجمعية الدولية للبحث في العاطفة.
- نال الدكتوراه من جامعة هارفارد.
- غزير الإنتاج تأليفا وتحريرا، فألف أو حرر 100 كتاب ونيفا.

المترجم في سطور

وفيق فائق كريشات

- من مواليد 1963.
- إجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة تشرين 1985.
- له مجموعة ترجمات منشورة منها: «بذور الكلام: أصل اللغة وتطورها»، و«الفلسفة الشرقية»، و«رحلة الرجل: ملحمة وراثية».

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة والمترجمة ـ من نسختين مطبوعتين.

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص.ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص.ب 372	+202 25782700- 25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص.ب 13683 - زنقه سجلماسه - بلفدير - ص.ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص.ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	-----	+973 17 617733	-----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص.ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص.ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	-----	+964 700776512 +964 780662019	-----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	-----	+218 217297779	-----

هذا الكتاب...

الطفولة في كل المجتمعات، لكن التفاوت عظيم في طريقة إنشائها اجتماعيا خلال الزمان والمكان، إن دراسة الطفولة في التاريخ تأتي بزيادة عظيمة لفهمنا الطفولة وما تعنى به، واتخاذ العالم بؤرة للنظر يسمح بطرح بعض المسائل الأكثر اتساعا.

في كتاب «الطفولة في التاريخ العالمي»، يُركز بيتر ن. ستيرنز على الطفولة بطرق مختلفة، فيعرض للموضوع من خلال التغيير، متناولا ما طرأ على الطفولة بسبب الانتقال من مجتمع الصيد والالتقاط إلى المجتمع الزراعي، وماذا كان تأثير الحضارة، وكذلك ظهور الأديان الكبرى، ثم يتوقف عند المناظرات الجديدة والقديمة التي عُقدت في أمر السمات المميزة للطفولة الغربية، ومن ذلك عمالة الأطفال. ويستعرض المؤلف ظهور نموذج حديث صناعي للطفولة في الغرب واليابان والمجتمعات الشيوعية، ومن ذلك التركيز على التعليم والتبعية الاقتصادية. وأخيرا، يتناول العولمة وانتشار النزعة الاستهلاكية المتركزة حول الطفل، وكذلك فكرة سعادة الأطفال التي برزت في العقود الأخيرة.

تُبرز هذه الرؤية التاريخية الشاملة مكاسب الأطفال خلال آلاف السنين، وكذلك خسائرهم والانقسامات.

لعل من الخير لمن يطلب فاتحة لميدان الدراسة هذا أن يبدأ هنا، أما من جهة القراء الطالبين لفهم متين للموضوع، فهذا مصدر جذاب جيد الصياغة عميق الفكر.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 462 - 1
رقم الإيداع (2015/619)